

الشّيخُ الدُّكْتُور

جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ المُهَلْهَلِ الْيَاسِين



حتى لا نغبن

الطبعة الثانية

١٤٣٣هـ-٢٠١٢م

تطلب منشوراتنا

فى الكويت من : شركة السماحة ـ الكويت.

الرمز البريدي: ٤٣٧٥٦ ص.ب: ٦٦٥٢٠ بيان.

ت/٩٩٥٥٧٤٧١

فى مصر من : مؤسسة شروق للنشر والتوزيع

المنصورة-شارع جيهان-أمام مستشفى الطوارئ-ت: ٠٥٠/٢٢٥٢٨٦٠

سلسلة من وحى التجربة

رقم السلسلة (٢٥) **الرقم الفني (٦)**

حتى لا نغبن

تأليف
الشيخ الدكتور
جاسمُ بن محمد بن مهلهل الياسين

مؤسسة السماحة
للطباعة والنشر والتوزيع

مركز بدور العلمي
للثقافة والترجمة

الطبعة الثانية

١٤٣٣هـ

٢٠١٢م

طبعة مزيدة ومنقحة

الموضـوع: سلسلة من وحي التجربة

اسم الكتاب: حتى لا نُغْبَن

التأليف: جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

عدد الصفحات: ٣٤٦ صفحة = ٢٢ ملزمة.

قياس الصفحة: ١٧×٢٤ سم.

رقم الإيداع: ٢٠١٠/٢٣١٣٠

شركة السماحة

للطباعة والنشر والتوزيع

الكويت

الإهْدَاءُ نَثْراً

إلَى وَالِدَتِي مُنِيرَةَ، الَّتِي لَهَا من اسْمِهَا نَصِيبٌ، فَقَدْ أنَارَتْ لِي طَرِيقَ حَيَاتِي، فَعَرَفْتُ رَبِّي، وَسَلَكْتُ مَنْهجَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ.

إلَى وَالِدَتِي الَّتِي أرْضَعَتْنِي مَعَانِي الخَيْرِ كُلَّهَا، فَكَانَتْ مَدْرَسَةً فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَهِيَ الَّتِي عَلَّمَتْنِي كَيْفَ يَكُونُ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَعَلَّمَتْنِي الإحْسَانَ إلَى الآخَرِينَ وإنْ أسَاؤُوا، وأَرْضَعَتْنِي مَعَانِي الصَّبْرِ الَّتِي قَرَأْنَا فِي الْمُجَلَّدَاتِ وكَتَبْنَاهَا. لَقَدْ عَلَّمَتْنِي مَعْنَى الإنْفَاقِ مِمَّا كَانَ فِي يَدِهَا لِتُدْخِلَ بِهِ السُّرُورَ عَلَى الآخَرِينَ.

إلَى وَالِدَتِي الَّتِي لَمْ تَعْرِفِ الشَّكْوَى فِي حَيَاتِهَا، وَلَمْ تَئِنّ مَعَ كَثْرَةِ أمْرَاضِهَا.

إلَى وَالِدَتِي الَّتِي كُنَّا قَبْلَ وَفَاتِهَا - رَحِمَهَا اللهُ - بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ، وإنِّي لأذْكُرُ قَوْلَ أحَدِ الأصْدِقَاءِ عَنْ أمِّهِ بَعْدَ وَفَاتِهَا: لَقَدْ ذَهَبَتْ مَنْ كُنَّا بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ. وإنِّي لأقُولُ: لَئِنْ تَنَعَّمْتُ بِدُعَاءِ أُمِّي فِي حَيَاتِهَا، فَإنِّي أتَنَعَّمُ بِالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَكُلَّمَا ازْدَدْتُ لَهَا دُعَاءً، ازْدَادَتْ نَفْسِي إحْسَاساً بِالنَّعِيمِ، فَقَدْ كُنْتُ أَتَنَعَّمُ بِدُعَائِهَا فِي حَيَاتِهَا وأَتَنَعَّمُ بِالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَفِي الحَالَتَيْنِ، فَإنِّي أتَنَعَّمُ بِخَيْرِهَا فِي الحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ.

وَلَسْتُ أعْرِفُ لإنْسَانٍ فَضْلاً عَلَيَّ - فِيمَا أنْعَمُ بِهِ مِنْ فَضْلٍ - خَيْراً يُعَادِلُ أوْ يُقَارِبُ فَضْلَ وَالِدَتِي - رَحِمَهَا اللهُ تَعَالَى. وَأَسْأَلُ اللهَ - سُبْحَانَهُ - أنْ يَسْتَجِيبَ دُعَاءَهَا لِي، وَيَسْتَجِيبَ دُعَائِي لَهَا.

لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْهَا الصَّبْرَ وَالتَّجَلُّدَ؛ فَقَدْ شَطَبَتْ مِنْ حَيَاتِهَا مَا يُسَمَّى بِالإيذَاءِ، فَكَانَتْ لَا تُؤْذِي أحَداً وَلَا شَيْئاً حَتَّى الأرْضَ الَّتِي كَانَتْ تَمْشِي عَلَيْهَا، عَلَّمَتْنِي مَعَانِيَ

كَثِيرَةً، قَدَّمَتْهَا وَهِيَ تُضَحِّي بِصِحَّتِهَا وَوَقْتِهَا وَسَعَادَتِهَا.

إِلَى وَالِدَتِي الَّتِي أَعْرِفُ مِنْ مَدْرَسَتِهَا الْكَثِيرَ، وَلَا يَسَعُنِي ذِكْرُهُ فِي هَـٰذَا الإِهْدَاءِ، وَسَأُفْرِدُ لَهُ رِسَالَةً خَاصَّةً، إِنْ شَاءَ اللهُ.

إِلَى وَالِدَتِي أُهْدِي ثَوَابَ هَـٰذِهِ الرَّسَائِلِ، لَعَلِّي أُؤَدِّي زَفْرَةً مِنْ زَفَرَاتِهَا فِي وِلَادَتِي.

وَأُهْدِي هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ وَالِدِي ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ.

وَأُهْدِي هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ رَفِيقَةِ الدَّرْبِ أُمِّ مُعَاذٍ، الَّتِي كَانَتْ لِي عَوْناً فِي صَبْرِهَا عَلَىٰ سَهَرِي وَسَفَرِي.

وَأُهْدِي هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ أَوْلَادِي جَمِيعاً، ذُكُوراً وَإِنَاثاً.

وَأُهْدِي هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ كُلِّ مَنْ أَسْهَمَ فِي إِخْرَاجِهَا، وَجَعَلَهَا بَيْنَ يَدَيِ النَّاسِ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.

وَإِنَّنِي إِذْ أَكْتُبُ هَـٰذَا الإِهْدَاءَ، أَرْجُو مِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ يَكُونُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ هَـٰذَا الْكِتَابُ أَلَّا يَنْسُونَا جَمِيعاً مِنْ صَالِحِ دُعَائِهِمْ.

الشَّيْخُ الدّكْتُور

جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُهَلْهِل الْيَاسِين

الإهْدَاءُ شِعراً

أُمَّـــــاهُ كُنْت مُنيــرةً ومَنَــارَةً عُلْيَــا وَصَــرْحــاً ثَابتَ الأَرْكَــان
قَـدْ كُنْت مَـدْرَسَـةً تُعـدُّ نُفُـوسَـنَـا لِصَنَائعِ المَعْــرُوفِ وَالإِحْـــسَـــان
قَـــدْ كُنْت للأَيْتــام أُمّــاً بَــرَّةً وَالجَــارِ وَالمِسْكين أَرْأَفَ حَــــان
أَرْضَـعْـتِنَا الأَخْـلاقَ شَـهْـداً سَلْسَلاً تَدْنُو ثِمَــارُ قُطُـوفِــهَـا لِلْجَــانِي
عَلَّمْـتِنَا الصَّبْـرَ الجَـمِـيلَ خَلِيـقَـةً وَالقَـــوْلَ للحُـــسْنَى وَكَفَّ لِسَـان

❊ ❊ ❊

أَبَتَـاهُ قَـدْ رَبَّيْــــتَـنـي وَأَحَطْتَني بِرِعَـايَةٍ فِـي غِـــبْطَـةٍ وَأَمَـان
وَفَّـرْتَ أَسْـبَــابَ السَّـعَـادَةِ وَالهَنَا فَـجَـعَلْتَني أَسْـمُـو عَلَى الأَقْـرَانِ
فَـجَـزَاكَ رَبُّ العَـرْشِ خَـيْـرَ جَـزَائِه وَأُسْكِنَتْ فِي رَوْحٍ وَفِي رَيْحَـــان
نَـوَّرْتَ يَا بَدْرَ الدُّجَـا سُــبُلَ العُــلا بِالفَـــضْـــلِ لاَ فَـظٍّ وَلاَ مَنَّــان
كَمْ ذَا تُقَــابِلُ بِالسُّـــرُورِ تَدَلُّلِي بِمَـــحَـــبَّـةٍ وَبِرَأْفَـةٍ وَحَنَــان
أَحْــبَــبْـتَـنِـي قَــرَّبْتَنِي رَبَّيْـتَنِي بِالعِـزِّ فِي ثِقَـةٍ وَفِـي اطْمِــئْنَان

❊ ❊ ❊

أَرَفِـيـقَـتِي كُنْتِ الشُّـعَـاعَ إِذَا دَجَـا لَيْلُ الحَـــيَــاةِ بِمُظْلِمِ الحَـدَثَانِ
قَـدْ كُنْت خَـيْـرَ شَـرِيكَـةٍ وَمُعِـينَةٍ فِي البِــرِّ عِنْدَ تَقَــاعُسِ الأَعْــوَانِ
الصَّـبْـرُ فِـيكِ مَعَ الوَفَـاءِ سَـجِـيَّـةٌ بِتَــعَـــاقُبِ الأَفْــرَاحِ وَالأَحْـزَانِ

❊ ❊ ❊

يَا حَبَّذَا أَفْلاذُ أَكْبَادٍ بِهَا — كَمُلَ الْمُرَادُ وَقَرَّتِ العَيْنَانِ

فَاحْفَظْ مُعَاذاً وَاحْفَظَنَّ مُهَلْهِلاً — أَمَدَ الزَّمَانِ وَعَابِدَ الرَّحْمَنِ

لاَ زَالَ عَبْدُ اللهِ فِي حِفْظٍ وَلاَ — زَالُوا جَمِيعاً غُرَّةَ الفِتْيَانِ

وَلْتَحْظَ عَائِشَةٌ وَفَاطِمَةٌ بِمَا — قَدْ شَاءَتَا مِنْ بُغْيَةٍ وَأَمَانِ

وَاحْفَظْ هَيَا وَمُنِيرَةً يَا رَبَّنَا — مِنْ مُبْطِنِ البَغْضَاءِ وَالشَّنَآنِ

* * *

يَا رَبِّ لاَ زَالَ الجَمِيعُ بِنِعْمَةٍ — وَقِهِمْ شُرُورَ الحَاسِدِ الْمِعْيَانِ

صَلَّى الإِلهُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ — وَالآلِ وَالأَصْحَابِ كُلَّ أَوَانِ

* * *

الشَّيْخُ الدكتُور

جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُهَلْهِل الْيَاسِين

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه والتابعين.

وبعد:

فهٰذا سفر ضم بين دفتيه مقالات متعددة، يجمع بينها خيط منهجي دقيق، يقوم علىٰ محاولة تلو الأخرىٰ لرأب ذلك الصدع القائم في مسيرة فكر أمتنا وسلوكها، والذي يدنو بها طوراً نحو الاستقامة وأطواراً نحو الغبن.

وهٰذا أمرٌ كائن في عالم انفتحت سماواته بالاتصالات، وضاقت أرضه تحت تأثير الفضائيات، وتلاشت حرماته تحت زعم الحريات، وقامت روابضه تتحين الفرص للوثوب علىٰ ما بقي لأمتنا من عُرىٰ الإسلام التي جاء عنها أنها ستنتقض عُروة عُروة.

ولله ما أشد حالنا حين تنتقض تلك العرىٰ من بين أيدينا ومن حولنا من كل ناعق وزاعق باسم الفكر الحداثي، أو النهضوي، أو غير ذلك من المسميات المشبوهة والإطلاقات الممسوخة.. وكلها تؤول بنا إلىٰ الغبن وما أدراك ما الغبن؟!

ومن هنا يحق للقارئ أن يتساءل عن معنىٰ ومرمىٰ هٰذا العنوان «حتىٰ لا نُغْبَن»، وما دلالته وما مناسبته؟

فأقول:

لقد اضطررت اضطراراً لاختيار هٰذا العنوان الذي يبدو كآبياً ونابياً إلىٰ حد ما. غير أني يممت حولي فلم أجد شبيهًا لحال الأمة من هٰذا العنوان: «حتىٰ لا نُغْبَن»؛ إذ يتقاصر قلمي ويلجم لساني عن البوح بغير هٰذا العنوان، في زمان قصارىٰ ما نريد فيه لأمتنا الحفاظ علىٰ البقية الباقية من كرامتنا وعزتنا من التلاشي والغبن، ولن أطيل عليك، أخي القارئ، في الإعراب والإفصاح عن معنىٰ الغبن، فالغبن إجمالاً

يدور حول معنى «النقص» إذا أطلق على المادي والمعنوي، فيقال: غُبِنَ في بيعه، أي: خُدع، فهو مغبون أي: مخدوع. ويقال: غُبِنَ في الرأي أي انتقص رأيه، وهو غَبِنٌ (صفة مشبهة) أو غَبِنٌ (صيغة مبالغة): أي ضعيف الرأي. ويقال كذلك فيه غبانة؛ أي: فيه سفه وضعف رأي.

وهٰكذا يصب جماع المعنى الجذري لمادة (غ ـ ب ـ ن) في النقص والانتقاص، وهو محيق بأمتنا إحاقة الملازم بلازمته، والتابع بمتبوعه.

ولله أياماً خلت! ما كان لكاتب أن يملي لِسِفْرِه مثل هٰذا العنوان، وذلك زمان مضى، عزت فيه الأمة واندفعت عنها كل ملمة، وهتف هاتفها بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

وصدح شاعرها بقوله:

لنا الصدر دون العالمين أو القبر
سلام على ذلك الزمان
سلام على تلك الأيام. ! !
سلام سلام.... ! !

إذن لم يبق لنا إلا أن نستظل بمثل هٰذا العنوان: «حتى لا نُغْبَن»، والله المستعان أن نبلغ بأحوالنا العزة، وأن يلوح فجر لأمتنا جديد ينبثق عن عزة، تأذن لأقلامنا أن تخط عناوين من مثل: «حتى لا يأفل نجمنا»، أو «حتى يبقى ركبنا نحو الأمام قدمًا». . . ولكن ثم لكن. . . «سبق السيف العذل»، وتقدَّم لسان الحال على لسان العاطفة، وأسلط سيف الواقع على سهام التمني، فكان هٰذا العنوان «حتى لا نُغْبَن».

ولله ما نحن فيه من غبن، بل إن شئت، أخي القارئ، فقل معي: «حتى لا نتلاشى»؛ لأنه إذا طال الغبن يؤدي بصاحبه مباشرة إلى فقدان المنهج، وفقدان

(١) آل عمران: ١٣٩.

الهوية وبالتالي فقدان الذات، ومن ثم الذوبان فالتلاشي. وهنا يلوح قول النبي ﷺ: «**يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها.....**» (١)!

• حتى لا نغبن:

هي صيحة أبثها في هٰذا الكتاب لأنتهض أحبائي وإخواني من بني الإسلام أن يهبوا لدفع الغبن عن أمتهم، وإيقاف تيارات الانتقاص والانتقاض لعرىٰ الإسلام التي تتهاوىٰ تحت ضربات بني جلدته من ساسة وأصحاب أقلام وأفكار مغبونة....!!

• حتى لا نغبن:

صرخة في عصر انقلبت أيامه:

- فأدلج صباحه ولم يبلج!
- وانفض عقده ولم ينظم!
- وأدبرت نجومه....!
- وكسفت شموسه....!
- وعسعس نهاره...!
- وتنفس ليله...!
- واستنسر بغاثه..!
- واستأسدت حملانه...!

ولله ما أشد قتامة تلك الصورة التي ترسمها الكلمات؛ لتعبر بها عن حقائق واقعة مشاهدة ملموسة...!

غير أنه ليست بذات مدعاة لليأس أو الانزواء والانطواء، فما هٰذا هو نهج المسلمين، وإنما الأمل باق، وفجر الإسلام إلىٰ انطلاق، وشمس عزة أمتنا واصلة

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٩٧)، وأحمد (٥/ ٢٧٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٣/ ١٦) برقم (٩٨٨٧).

بإذن الله للآفاق، وصدق الله ـ تعالىٰ: ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[١].

ومن ثم جاءت هٰذه الكلمات لتصف أطرافاً من الواقع الإسلامي بآماله وآلامه، وتسجل خطوطاً عراضًا عنه، ثم تحاول في أناة أن تدفع ببعض الدواء والبلاسم في سبيل معالجة قروح الغبن التي طوقت معالم سلوك وقيم المسلم في تلك المجاهل المحيطة به. وعليه فقد جاءت فصول الكتاب علىٰ النحو التالي:

الفصل الأول: لا بد من تحقيق الأمن الاجتماعي.

الفصل الثاني: لا بد من فهم واقعنا الإقليمي.

الفصل الثالث: لا بد من استيعاب قضايانا المصيرية.

الفصل الرابع: لا بد من فهم آليات الإصلاح.

الفصل الخامس: لا بد من الحفاظ علىٰ أصالتنا الحركية.

الفصل السادس: لا بد من فهم أبعاد المخططات الغربية.

والله تعالىٰ أسأل أن ينفع بهٰذا السفر، وأن يدفع به بعضاً من مغابن الأمة ومحازنها، وأن يتقبله ـ سبحانه ـ بقبول حسن، إنه نعم المولىٰ ونعم النصير. والحمد لله رب العالمين.



المؤلف

(١) يوسف: ٨٧.

لا بد من تحقيق الأمن الاجتماعي (الكويت نموذجًا)

(١) إحياء العمل الاجتماعي

(٢) رُبَّ جرح وقع في مقتل

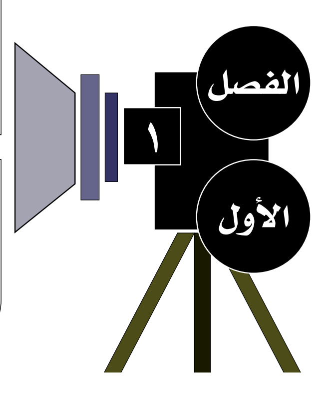
(٣) التوتر سيد الموقف

(٤) نعم.. خائف على وطني

(٥) انضم لقافلة البناء

(٦) كما تدين تُدان

(٧) أبغض الحلال في زمن الانحلال



(١)
إحياء العمل الاجتماعي

بعد سقوط الخلافة الإسلامية وتشرذم أراضي الخلافة بين دول الاستعمار، تجسدت غربة الإسلام بشكل واضح بين أبنائه، وفي سبيل الاستقلال اندفعت فعاليات المجتمع للبحث عن شُعاع أمل للنهوض من جديد، فظهرت تيارات عديدة يشترك معظمها في تبني الأفكار التغريبية وتقليد الغرب والإعجاب به وبحضارته، ومحاولة جلبها بحلوها ومرها، ورأينا هٰذا الإعجاب بادياً مع الطهطاوي في سفره إلىٰ باريس، وفي الرموز الثقافية في تلك المرحلة مثل طه حسين وأحمد لطفي السيد وقائمة طويلة من الرموز التي ملأت الساحة الثقافية وحاولت تعويض فترة الجمود التي عاشها العالم الإسلامي في نهاية الخلافة العثمانية، ومواجهة الاستعمار والتقسيم الذي حدث بعد سقوط الخلافة. وكان في مقابل هٰذه التيارات، تيارٌ أصيل ظل متمسكاً بالأصالة، مثل مصطفىٰ صادق الرافعي والشيخ محمد رشيد رضا.

وانحسر دور الدين عن الحياة، وصار أسير الزوايا والتكايا، وعاد من المستغرَب وجود شاب ملتحٍ أو فتاة محجبة، وصار اسم الدين مرتبطاً بالدروشة والصوفية وبعض البدع هنا وهناك، ووفدت علىٰ الأمة في تلك الفترة تيارات تغريبية كاسحة، زادت من قوتها حالة الجمود في المؤسسات الدينية. ولم يكن الوضع في بقية المناطق الإسلامية أفضل حالاً، فكانت عبادة القبور منتشرة، والدين عبارة عن كتب فقه معقدة، تتراوح بين شرح الشروح واختصار المطولات، حتىٰ قيض الله للأمة الإسلامية رجلين تركا أثراً كبيراً في الناس، وأعادا المسيرة الإسلامية إلىٰ وهجها.

الأول هو الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ الذي حارب

البدع وانتصر للكتاب والسنة والتوحيد والشريعة، والثاني هو الإمام المجدد حسن البنا ـ رحمه الله ـ الذي أزال من الأذهان ارتباط الإسلام بكبار السن والزوايا والتكايا، وأعاده إلىٰ الناس في الشارع والمدارس والجامعات والبيوت والمنتديات والحواري، وقدم الإسلام علىٰ شموليته وحضارته وقدرته المتفاعلة الحية، وبناء علىٰ هٰذه الدعوات المتجددة بدأ يتعود الناس علىٰ رؤية المهندس الملتحي الذي يقول: (قال الله وقال رسوله) ورؤية الطبيبة المحجبة التي لا تجد تناقضاً بين شهادتها العلمية ورسالتها الدعوية.

قد يكون هٰذا الأمر طبيعياً الآن بعد مرور كل هٰذه العقود علىٰ هٰذه الدعوات الإسلامية التجديدية، ولكنها في وقتها كانت أشبه بالسباحة عكس التيار، حتىٰ إن مراسلين أجانب كانوا يأتون إلىٰ مصر ويرصدون هٰذه الظاهرة الجديدة، وهي عودة الشباب العربي مجدداً إلىٰ الدين، وكان استغرابهم أكثر عندما يرون شباباً يتحدثون في الهندسة والطب والإدارة والتاريخ والسياسة، بنفس القوة التي يتحدثون بها في قضايا الفقه والدين.

وتطور العمل الإسلامي ودخل ميادين جديدة وأطواراً جديدة، وتحول من العمل الفردي إلىٰ العمل المؤسسي، الذي يسعىٰ إلىٰ تقديم مختلف الخدمات الاجتماعية والتربوية والثقافية والخيرية والتنموية للمجتمع، دافعهم في ذلك احتساب الأجر عند الله، وإخلاص النية لخدمة الدعوة إلىٰ دين الله، وحمل الرسالة الإصلاحية ومحاولة تنقية المجتمع المسلم من الشوائب التي تغلغلت إليه في غفلة من الزمن، فحرفته عن مساره الطبيعي وأضعفت العديد من القيم والمبادئ التي جبلت عليها تلك المجتمعات.

كما تطورت فكرة نشر الدعوة الإسلامية والفكرة الإسلامية من خلال البحث عن منابر أوسع تأثيراً وأفضل ثماراً؛ فولجت إلىٰ باب العمل السياسي لتعبر عن فكرتها وتطرح برنامجها، وتطور إمكاناتها، وتقدم التجربة العملية علىٰ قدرة الفكرة الإسلامية علىٰ تقديم نموذج أفضل للحياة والمجتمع، وقرنت ذلك بإنشاء

المؤسسات الاقتصادية القائمة على التحرر من فكرة التعامل الربويّ، وقد أدَّىٰ ازدواج العمل السياسي والاقتصادي إلىٰ طفرة واضحة في العمل الإسلامي، حقق نتائج طيبة لمسار الدعوة الإسلامية، وإن كان دخول المعترك السياسي قد شابه شيء مما يصيب من يدخل عالم السياسة من طلب للمناورات وتبادل للمصالح والقدرة علىٰ تحقيق المكاسب، وهي أمور في جملتها قد لا تتناسب مع وضوح الداعية ومبدئية مواقفه، مثلما نالت المؤسسات الاقتصادية الإسلامية ـ وفي فترات متفرقة وخصوصاً الفترة التي بدأت مؤشرات النجاح تظهر علىٰ تلك التجارب ـ هجوماً شرساً من المنافسين، وهو أمر مفهوم باعتبار العمل الاقتصادي وفي النهاية هو عمل دنيوي يعبر عن مصالح أفراد ومؤسسات.

• لحظة مراجعة وتأمل:

والآن وبعد هٰذه المسيرة الطويلة للدعوة، وما حققته من نجاحات وإنجازات، وما فشلت في تحقيقه وتحول إلىٰ إخفاقات ودروس للمستقبل، وبعد أن طرقت المنابر التقليدية من مساجد ونواد واتحادات طلبة ومدارس وجامعات، وبعد أن ولجت إلىٰ منابر قد تكون غير تقليدية في بداية أمرها، مثل إقامة المؤسسات الاقتصادية وولوج اللعبة السياسية ـ قد تحتاج الحركة إلىٰ وقفة مراجعة وتأمل في مساراتها الدعوية ووسائلها، وما الذي تبدل في غاياتها المرحلية، وهل انسجمت المنابر والفرص المتاحة للحركة الإسلامية لتحقيق نفس الأهداف، أم حصل من التناقض والتضارب بين هٰذه الوسائل والمنابر ما جعل بعضها يطغىٰ علىٰ بعض؟

إنني كثيراً ما أسمع أن الحركة الإسلامية قد تراجعت تراجعاً ملحوظاً في ميدان العمل الاجتماعي، وأن ذلك جاء بسبب دخولها المعترك السياسي الذي أفقدها صفاءها ووضوحها، وجعل الطعن فيها سهلاً، باعتبار أن العمل السياسي ممكن أن يجير لتحقيق مصالح شخصية، وأن خدمة الدعوة ما هو إلا ستار يدّعيه رافعو الراية الإسلامية للوصول إلىٰ المناصب والكراسي، وإن حرص الحركة الإسلامية علىٰ تحقيق الفوز في العملية الانتخابية جعلها تفرز أفضل طاقاتها للعمل السياسي،

وتستنفد العديد من أوقات لجانها وطواقمها في دعم العمل السياسي، وأن كل ذلك جاء على حساب العمل الشعبي والاجتماعي وعلى حساب نشر الدعوة الذي كان يتم في بدايات الدعوة بكل أريحية وصدق.

وهناك من يتهم العاملين في الدعوة بأن هدف الكسب الدعوي تحول من إيجاد المناصرين للفكرة الإسلامية إلى إيجاد المناصرين لصناديق الانتخابات، ولذلك أصبح من السهل الطعن في غايات العمل الاجتماعي وحتَّى الخيري وأنها في النهاية كلها أدوات لتحقيق الهدف الأساسي، وهو إيصال أكبر عدد ممكن من الأصوات لمقاعد البرلمان، حتى المؤسسات الاجتماعية العامة والمتخصصة للشباب والنساء والطفولة لم تعد تلقى هـٰذا القبول باعتبارها مؤسسات وتجمعات يسهل تصنيفها سياسياً، ورموز هـٰذه المؤسسات ربما ساعدوا في هـٰذا اللبس بسبب انعزالهم داخل هـٰذه المؤسسات، وعدم مشاركتهم في الشأن الإسلامي العام.

وربما تحولت هـٰذه المؤسسات إلى ما يشبه الجزر المنعزلة داخل الجسم الإسلامي، حتى يكاد «النفس الدعوي الفردي» ينقرض لدى الداعية، وكأن الدعوة لديه لم تعد مطلوبة أن يؤديها إلا من خلال هـٰذه المؤسسة الاجتماعية التي يعمل من خلالها، وبهـٰذا لم يعد الهم الدعوي إلا نوعاً من أنواع الوظيفة المنحصرة داخل جدران المؤسسة أو الجمعية أو اللجنة الاجتماعية التي ينتمي إليها، وكأن الدعوة أصبحت أشبه بالثوب الذي يلبسه الداعية عندما يدخل لجنته الاجتماعية ثم يخلعه عند مغادرة اللجنة ولا يعود له علاقة بالهم الدعوي.

ما ذكرناه ليس صحيحاً على إطلاقه، وقد يكون التخصص نوعاً من العمل المطلوب حتى نصل به إلى حالة من الإتقان، وقد يكون الداعية معذوراً لانغماسه في لجنته الاجتماعية أو مؤسسته الشبابية، لكثرة الأعباء وقلة الطاقات، سيراً على القاعدة الدعوية «الواجبات أكثر من الأوقات» لكن هـٰذا لا يكفي لتبرير ما نشعر به من بعض الجمود في العمل الاجتماعي وحالة من الركود والتقليدية وأحياناً الشعور بأن بعض الأعمال تتم لملء صفحات التقرير الأدبي السنوي، أو لرفع العتب تجاه هـٰذه القضية أو تلك القضية.

إننا لا نشعر بين ثنايا الأعمال أحياناً ـ على الرغم من جودتها وحسن أدائها ـ بالقلب المحترق والنفس المهمومة، والتي تحمل هَمّ الدعوة وتفكر فيه ليل نهار، بحيث ملأ عليها كيانها، وتحول إلى كرات دعوية تنافس كرات الدم الحمراء والبيضاء في الجسم.

إن القلوب ربما تصدأ وتكل وتمل عندما تدخل المعترك السياسي، وإن كثرة المناورات التي تتطلبها السياسة وحالات التوتر والشد والجذب، وتبادل المواقف والمصالح، وبريق المنصب والكرسي، وجاذبية الشهرة والإعلام، وكثرة الاحتكاك بفعاليات المجتمع، وحالات الاحتكاك السياسي الساخن والمتجدد، ولعبة المساومات والأخذ والعطاء ـ ربما جففت كل موارد الرقائق في قلب الداعية السياسي، وسلبت منه حالة النفس المطمئنة التي كان يعايشها قبل دخوله المعترك السياسي، وربما احتاج أن يضاعف من جرعات الزاد الإيماني كتلاوة القرآن والقيام والصيام والذكر والخلوة بالله، وكثرة الاعتمار لبيته المكرم حتى يظل بنفس البريق الإيماني والتوهج الروحي؛ فلا تؤثر عليه مؤثرات السياسة وتخرجه من حالته النفسية المطمئنة والراضية.

ولو تحولنا إلى العمل الوعظي المجرد من إلقاء الدروس والمحاضرات والخواطر والمشاركة بالندوات، فهو خير عظيم وزاد متجدد للقلب ينهل من تلك الرقائق التي تزيدها الدروس توكيداً وتعميقاً، لكنها في النهاية تبقى حالة نظرية تشبه التقلب بين كتب الفقه والرقائق، وعلى الرغم من الخير العميم والعظيم لهذه المراجع العظيمة، وعلى الرغم من الأثر الطيب لمثل تلك الصحبة، إلا أنها تبقى جامدة؛ لأنها تمثل حالة نظرية بعيدة عن واقع الناس وأمثالهم، واستخراج العبر من واقعهم وحياتهم.

العمل الاجتماعي وحده هو الأقرب لتحقيق معادلة الدعوة إلى الله مع الحفاظ على قلب الداعية سليماً رقيقاً، وهو الذي تتحول معه الرقائق ودروس الوعظ إلى أمثلة واقعية تزيد الإيمانيات وترفع المعنويات.

العمل الاجتماعي وحده هو الذي يُشْعِر الداعية بنبض الشارع ومستجدات الحياة ومتغيراتها، فتثرىٰ تجربته ويزداد ذوبانه والتحامه بالناس، ويصل بالدعوة إلىٰ نفوسهم فتزداد إشراقاً وراحة.

العمل الاجتماعي وحده هو الذي يحقق احتكاكاً صريحاً بالمدعوين، فتارة تحل مشكلة، وتارة تقضي حاجة، وأخرىٰ تجد الأيدي مرفوعة له بالدعاء، وتارة تلقىٰ اللوم والعتب، وتارة تلقىٰ الشكر والتقدير، وتارة تلقىٰ الراحة والسهولة، وتارة تلقىٰ التعب والصعوبات، فهو العمل الاجتماعي الذي يجعلك تستعذب تقلبات الدعوة والمدعوّين، وتصبح كل ممارسة تجربة، وكل موقف درساً، وكل عطاء زاداً.

ولن يتحمل مواصلة مسيرة الدعوة، ويتجرَّد لها بقلبه ونفسه إلا من كان شديد المعرفة بالله، شديد الصلة به، شديد الثقة فيه. وأما من كان يعمل في ميدان الدعوة لينال ثناءً أو مصلحة أو رضا أشخاص أو رموز فإن كل ذلك إلى زوال، ولن يتحول الثناء أو المصلحة أو الرمز إلى زاد دائم للداعية، فكلها محفزات مؤقتة تنتهي بزوال المحفز نفسه. أما من ربط نيته وعمله ونفسه لله ولدعوة الله وفي سبيل الله، فهو وحده القادر على مواصلة العطاء. ورسولنا الكريم صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم خير قدوة، فقد كان أعلمنا بالله، وأعرفنا به، ولذلك كان أكثرنا صبراً وتضحية وعطاءً، لم يغُره مدح مادح، ولم يرده كيد قادح.

● ما يحتاجه العمل الاجتماعي:

إن ما يحتاجه العمل الاجتماعي في مستقبل الحركة الإسلامية أن يتحول العمل من التخطيط القائم علىٰ الاجتهاد إلىٰ التخطيط القائم علىٰ المزاوجة بين علوم الشريعة وعلوم الاجتماع. وهـٰذا يعني: أن تُوفر الحركةُ الإسلامية للمستقبل طاقات تتخصص في الدراسات الإنسانية، ويكفيها ما لديها من طاقات في الدراسات العلمية، فهناك رموز إسلامية مشرقة في الطب والهندسة والحاسب الآلي، وكانت في فترة سابقة مطلوبة لإثبات أن الدين ليس علىٰ عداء مع العلم، ولإثبات أن الحركة الإسلامية ليست حركة (دروشة). أما الآن وقد انتفت الحاجة إلىٰ ذلك فيجب الاهتمام

بالدراسات الإنسانية أيّما اهتمام، فهي المغير الحقيقي للمجتمع، فنريد أن يتزاوج ثلاثة علوم حتى تخرج الحركة الإسلامية ببرنامج عمل يقوم على حقائق العلم لا على الرجم بالغيب في التعامل مع التغيرات الشديدة التي تصيب المجتمعات الإسلامية.

العلم الأول: هو علم الإدارة: حتى لا تستنفذ الحركة الإسلامية جل وقتها في الترتيب الداخلي لبيت الحركة، ولا تعطي إلا فضول الأوقات لأولوياتها.

العلم الثاني: هو علم الاجتماع: الذي يتعامل مع المكونات الاجتماعية على علم وبصيرة ودراسات علمية موثقة.

العلم الثالث: الذي يؤهل ويزاوج بين الجميع، ويصبح كالمستشار والحكيم والمرجعية لها: **هو علم الشريعة** الذي يعرف ما يجوز من الوسائل وما لا يجوز، وأين تقع الأولويات والمهمات؟ ويعطي وصفته الشرعية ليكون العمل على بركة الله وحفظه ورعايته وضمن منهجه الذي ارتضاه للبشرية.

تحتاج الحركة الإسلامية إلى طاقات متخصصة في الدراسات السكانية، والسلوك الاجتماعي والتغيرات الاجتماعية، كما تحتاج إلى طاقات متخصصة في علم الاجتماع التربوي الذي يهتم بفهم الطريقة التي تنقل بها المؤسسات التربوية الاتجاهات الثقافية والتغيرات الاجتماعية. وعلم النفس الاجتماعي هو الذي يهتم بدراسة السلوك الاجتماعي للفرد وعلاقته بالآخرين في المجتمع.

إن الاجتماع الإنساني كما قال «ابن خلدون» في مقدمة مقدمته: «قضية ضرورية»، وإن وجود المؤسسات الاجتماعية في المجتمع إنما هو تعبير عن حيوية المجتمع الذي لا بد أن يكون للداعية موقعه القيادي منها: «**إن قيادتنا للحياة هي القيادة، وليست هي مراكز المسؤولية التي تضعنا فيها التوزيعات الدعوية ويمنحنا إياها أمير الدعوة، إن صانع الحياة يدوس الألقاب برجله ويحطمها، ويمضي يصنع الحياة من موطن التخصص والفن والإبداع... وهو مليء النفس ولا يحتاج أحداً لملئها.**

الذي يطالب بالمسؤوليات والألقاب الدعوية والنقابة والإمارة على المؤمنين إنما هو العاجز الذي لا يحسن علماً ولا تخصصاً ولا فناً، فيطلب

التعويض بإنعام الألقاب عليه، ويعارك، ويختلف، ويناضل دون مكتسباته السابقة، ويملأ الكواليس همساً وسعياً، وأما المقتدر فيتقدم تقدم الواثق، فإن علمت الدعوة فضله ودوره فكلفته، قَبل الأمانة، وأداها، وشكر من دله على الخير، وإن لم يلتفت أحد إلى فضله لم يلتفت هو بدوره، ولم يكن منه تلميح وتعريض أو تصريح، ومضى يصنع الحياة، يحدوه منهجه الإلهي، أبيّ، بمشيئة الله يباهي...»(١).

«كذلك يبرز رجال من الدعاة يقودون فقراء المسلمين وعامتهم بالأخلاق التي يحملونها، ويجدد أحدهم صورة الفارس النبيل العفيف الشجاع الذي لا يكذب ولا يعتدي علىٰ عرض، ودأبه نصر المظلوم، وإجابة المستغيث اللهفان، وفي المسلمين اليوم إحباط وتراجع وانسحابية وانهزامية لا يعالجها إلا وجود مثل هـٰذه القدرات، أولئك الذين يتركون الخنادق والمعتزلات وينزلون إلىٰ مخالطة الناس».

• الدعوة وهموم الناس:

فيجب أن تحمل الدعوة هموم الناس وقضاياهم وتبحث لها عن الحلول والبدائل، وأما اعتزال الناس خلف أسوار المؤسسة الدعوية، فليس هدف الدعوة ومبتغاها، ولا بد من فك حالة العزلة التي أوجدها الدعاة بينهم وبين الناس، ويجب أن تتحول المؤسسات الدعوية إلىٰ أبواب مفتوحة لعوام الناس، وليس إلىٰ محاضن محتكرة لأبناء الدعوة ومَنْ يدور في فلكهم، ولنا في الأنبياء والصحابة والصالحين قدوة في حمل هموم الناس، يخلطون ذلك بابتسامة في وجوههم وإفشاء للسلام وتعارف وتآلف وصلة رحم وأحاديث صادقة خارجة من قلب صادق إلىٰ قلب محتاج لكلمة طيبة ونصيحة مخلصة وتوجيه صادق.

فها هو سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ يهتم لضائقة الناس الاقتصادية ولديه الحل، وهو الحفيظ العليم فيتقدم، ويقول لملك مصر: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾(٢)، وها هما موسىٰ وهارون ـ عليهما السلام ـ لا يقبلان الذل لبني إسرائيل،

---

(١) انظر: بداية مقدمة ابن خلدون.

(٢) يوسف: ٥٥.

فيقولان لفرعون: ﴿إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾(١).

وكان رسول الله ﷺ يحمل هموم الناس وقضاياهم، فكان أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: إن كانت الأَمَةُ من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت.

وتجد رسول الله ﷺ يعرف طبيعة الناس ويرفق بهم وبهمومهم، ويقدرها، ويقدر ثقلها على النفس البشرية فيقول عليه السلام: «**من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا**»(٢).

وكان الرسول ﷺ مدرسة وقدوة لصحابته، وأولهم أبو بكر الصديق # ، فعندما دعاهم ذات مرة إلى الصدقة، تصدق أبو بكر بماله كله، وأطلق عبارته الشهيرة عندما سأله النبي ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك؟**»، فقال: «أبقيت لهم الله ورسوله»(٣)، وقريب من هٰذا حساسية عمر رضي الله عنه وشعوره بالمسؤولية تجاه الناس عندما قال: «لو مات جَدْيٌ بطفّ الفرات، لخشيت أن يحاسب الله به عمر»، أما عثمان رضي الله عنه فقد تصدق وتصدق وتصدق؛ مشاركة منه بحمل هموم الأمة والمجتمع المسلم، حتى قال فيه رسول الله ﷺ: «**ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم**»(٤).

وهٰذا الإمام عليّ ـ كرم الله وجهه ـ عندما جاء مؤذنه وأمينه وأخبره بامتلاء بيت المال، فقام من توه وفرقه على أشياخ الكوفة وفقرائها، وهو يقول: «يا صفراء! يا بيضاء! (يعني المال والذهب) غُري غيري» حتى ما بقي فيه دينار ولا درهم، ثم جاء ابنه من بعده الحسن بن علي رضي الله عنهما فأصلح بين فئتين عظيمتين من المسلمين.

---

(١) طه: ٤٧.

(٢) الترمذي في الزهد (٢٣٤٦) وقال: «حديث حسن غريب، لا نعرفه إلَّا من حديث مروان بن معاوية». وابن ماجه في الزهد (٤١٤١).

(٣) أبو داود في الزكاة (١٦٧٨)، والترمذي في المناقب (٣٦٧٥) وقال: «حديث حسن صحيح».

(٤) الترمذي في المناقب (٣٧٠١) وقال: «حديث حسن غريب من هٰذا الوجه»، والحاكم في المستدرك (٣/ ١١٠).

وقد سار الدعاة والمصلحون على مر العصور على هـٰذا المبدأ من حمل هموم الناس وتبني قضاياهم، ومن ذلك ما رُوي عن الإمام حسن البنا ـ رحمه الله ـ من مواقف تعكس حسه الدعوي واحتسابه في سبيل الله، فقد تطوع أحد الشباب للجهاد في فلسطين، فظن والده أن الإمام الشهيد هو الذي أصرّ عليه ليلتحق بالمجاهدين، فجاء إلى المركز العام ثائراً، وكلم الإمام بحدة بالغة، فقدر الإمام مشاعر الأبوة، وتلطف بالرجل، فلما همّ الرجل بالانصراف، وكان ضعيف البصر، وقد ترك حذاءه خارج الغرفة، وإذا به يفاجأ حيث الشهيد يحمل حذاءه إليه ويضعه تحت قدميه!! فانظروا إلى الكبار كيف يصنعون وهم يبحثون عن كسب جديد للدعوة.

فعودوا أيها الدعاة من جديد إلى إحياء العمل الاجتماعي، عودوا إلى أصالة الاحتراق من أجل الدعوة، وإلى نبع الاحتساب عند الله، ولا تغرنكم الدنيا بزينتها وبهرجها، ولا يغرنكم كثرة الواجهات والمؤسسات الدعوية، فالأمر كله بين يدي الله يقلبه كيف يشاء، فقدموا لأنفسكم، وحاذروا الدنيا وأعدوا عدة الدعوة من جديد، وانطلقوا بنفس حماسة انطلاق البداية حتى تحسوا بحلاوة البناء.

لقد ذكر الإمام البنا في رسالته «نحو النور» ثلاثين وسيلة للإصلاح في الناحية الاجتماعية والعلمية ما بين محاربة الفساد والمعاصي والدعوة إلى الإصلاح وتشجيع الحلال، وتهذيب وسائل الإعلام، ومقاومة العادات الضارة، وتشجيع حلقات القرآن، والعناية باللغة العربية وغيرها من الوسائل التي لن يعجز الدعاة عن الابتكار والإبداع والتجديد فيها.

يقول الإمام في رسالته إلى الشباب: «إنما تنجح الفكرة إذا قوي الإيمان بها، وتوفر الإخلاص في سبيلها، وازدادت الحماسة لها، ووجدت الاستعداد الذي يحمل على التضحية والعمل لتحقيقها، وتكاد تكون هـٰذه الأركان الأربعة: الإيمان، والإخلاص، والحماسة، والعمل من خصائص الشباب؛ لأن أساس

الإيمان القلب الذكي، وأساس الإخلاص الفؤاد النقي، وأساس الحماسة الشعور القوي، وأساس العمل العزم الفتي، وهـٰذه كلها لا تكون إلا للشباب».

ومن هنا كان الشباب - قديماً وحديثاً - في كل أمة عماد نهضتها، وفي كل نهضة سر قوتها، وفي كل فكرة حامل رايتها ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [1].



(١) الكهف: ١٣.

(٢)
رُبَّ جرح وقع في مقتل

نعلم أن كلماتنا قد لا تروق لبعض الناس، باعتبارها كلمات وعظ ورقائق ونصح وتذكير، أملاها علينا الظرف المعاش، ونحن نعتقد أنه يستحق الخوض فيه والتذكير بمعالمه الأساسية التي ربما اندست ونسيت في قلوب وعقول الكثيرين وسط هٰذا القصف الإعلامي الرهيب على كل قيمة محترمة في حياتنا. وقد ينظر الآخرون إلىٰ كلامنا اليوم أنه يخلو من الفائدة؛ لأنه يتعلق بنقد ملامح التفلت الأخلاقي والوقوع في براثن الذنوب والخطايا، وهو موضوع كثر فيه الحديث من جهة، وليست له أهمية في نظرهم مقارنة بممارسات أخرىٰ ينبغي التصدي لها؛ كحرمة المال العام، والدفاع عن الحريات، وتنشيط الاقتصاد، وانتزاع لقمة المواطن من فم الحكومة، وهنا يحدث الانفصال والانفصام بين التيار الإسلامي والتيارات المخالفة.

فبينما يرىٰ التيار الإسلامي أنَّ مقارفة الذنوب والمعاصي - بل وترويجها عبر مؤسسات وحفلات - لا تقل خطورة عن الأمن الوطني والاقتصادي، باعتبار أن الذنوب تهلك الدول وتدمرها، يرىٰ الآخرون - وخاصة التيار العلماني - أن التيار الإسلامي غارق حتىٰ أذنيه في التصدي لقضايا جزئية هامشية تتعلق بالحريات الشخصية، تلك التي لا يمكن أن يتم السيطرة عليها وفق منظومة قوانين تكبت الحريات، وتمنع الإبداع، وتهدد وجود المجتمع المدني المنفتح.

ونحن نكتب هٰذه الكلمات؛ معذرة إلىٰ الله - سبحانه وتعالىٰ - وأداءً لواجب النصيحة لأهل وطني، فالرسول ﷺ قال: «**الدين النصيحة**»[1]، وكان - عليه

---

(١) مسلم في الإيمان (٥٥)، وأبو داود في الأدب (٤٩٤٤)، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٦)، وأحمد (١/ ٣٥١).

الصلاة والسلام ـ يشترط على من يبايعه من أصحابه «النصح لكل مسلم» مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وإن واجب الدعاة اليوم محتم في الدفاع عن قيم دينهم؛ لأن فقهاء المسلمين لم يفردوا أبواباً خاصة بالقيم الإسلامية؛ لأن القيم هي الدين ذاته، وهي الأركان التي يقوم عليه المجتمع المسلم.

ولذلك فإن أي محاولة لخلخلة منظومة القيم الإسلامية الثابتة تعد محاربة صريحة للدين الإسلامي، ويجب التصدي لها. وذلك واجب شرعي وفرض عين على الدعاة إلى الله ـ سبحانه وتعالى. ومن الضروري الإعذار إلى الله أمام هذه المحاولات المستميتة لهدم جدار القيم الإسلامية، وقد بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه الكريم أهمية النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حتى يتم إعذار الدعاة أمام الله ـ سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾(١)، وقال سبحانه: ﴿**وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾(٢)، فإذا كان الدعاة يعذرون إلى الله لقوم كتب الله عذابهم وهلاكهم، فكيف بأهلنا وأحبائنا وقومنا وأبناء وطننا ومن نرجو لهم السلامة والأمن؟

ومن واجبنا أن نذكر أولئك الذين يصرون على تعميم الفاحشة على المجتمع بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**﴾ (٣)، وحديث رسولنا ﷺ: «**كل أمتي معافىً إلا المجاهرين**»(٤)، ومن الخطورة بمكان اعتقاد البعض أنه يسعه الخروج على هدي النبي ﷺ، فمن نواقض الإيمان: الإعراض عن دين الله، أو كراهية شيء مما جاء به الرسول ﷺ.

والمؤمن يحتاج دائماً إلى الوعظ الذي يرقق القلوب ويقودها إلى الله سبحانه

(١) آل عمران: ١٠٤.
(٢) الأعراف: ١٦٤.
(٣) النور: ١٩
(٤) البخاري في الأدب (٦٠٦٩)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٠).

وتعالىٰ، وقد وصف الخالق ـ سبحانه ـ كتابه العزيز بأنه موعظة، فقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١)، كما أمر سبحانه وتعالىٰ رسوله ﷺ بأن يعظ الناس، فقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ﴾ (٢).

ولهـٰذا كان الرسول ﷺ يعظ أصحابه رضي الله عنهم كما في حديث العرباض ابن سارية رضي الله عنه: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب(٣).

فالموعظة إحياء للقلب، وكبح لجموح النفس وإسرافها وتماديها، خصوصاً إذا خالطها الأمل فتأكل الأيام من الشباب، لكن طول الأمل يخدع ويغري، فالأمل كما يقولون: سلطان الشيطان علىٰ قلوب الغافلين، وعندما يطول الأمل تقسو القلوب.

• جراحات الذنوب:

الذنوب جراحات، ورب جرح وقع في مقتل، ولرب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً. وتروي لنا كتب السيرة أنه عندما فتحت قبرص مر السبي علىٰ أبي الدرداء فبكىٰ، فلما سئل عن سبب بكائه في اليوم الذي أعز فيه الإسلام وأهله، قال: «هـٰذه أمة كانت قاهرة ظاهرة، فلما عصت الله لقوا ما لقوا، وما أهون العباد علىٰ الله إذا هم عصوه».

وكان السلف الصالح يحذر علىٰ دينه من الذنوب، كما يحذر أحدنا اليوم علىٰ ماله من النار، وكانوا يقولون: «عجبنا لمن يحتمي من الطعام مخافة المرض، ولا يحتمي من الذنوب مخافة النار».

---

(١) يونس: ٥٧.

(٢) النساء: ٦٣.

(٣) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وقال: «صحيح». وابن ماجه (٤٢)، والدارمي (٩٥).

قال الشاعر:

هـــاك الـــدلـــيـــل لمـــن أرا	د غنى يدوم بغـــيـــر مـــال
وأراد عـــــــزا لـم تـوطـ	ـده العــشـــائر بالقـــتـــال
ومـــهـــابة من غـــيـــر سلـ	ـطان وجـــاها في الرجـــال
فليــعـــتــصم بدخــوله	في عـــز طاعـــة ذي الجـــلال
وخـــــروجـــــه من ذلـة الـ	ـمعـــاصي له في كل حـــال

ومن الخطأ أن ينظر العبد إلىٰ صغر الخطيئة، بل يجب أن ينظر إلىٰ عظمة من عصىٰ. فلن ينجو عبد حتىٰ يؤثر دينه علىٰ شهوته، ولن يهلك عبد حتىٰ يؤثر شهوته علىٰ دينه، وبقدر ما يصغر الذنب عند العبد يعظم عند الله، وبقدر ما يعظم الذنب عند العبد يصغر عند الله، فأسرع المطايا إلىٰ الجنة الزهد في الدنيا، كما أن أسرع المطايا إلىٰ النار حب الشهوات.

وللعبد الذي يرتفع بالصبر عن المعاصي الدرجات العالية ويعلو بها علىٰ البريات، فعاقبة الصابرين علىٰ المعاصي إلىٰ فلاح وسعيهم إلىٰ نجاح، وبكورهم ورواحهم إلىٰ رباح، وما عُبِدَ اللهُ بشيء قط أحب إليه من ترك المعاصي.

وما أجمل عبارة الصحابي سلمان الفارسي رضي الله عنه: «ثلاث أعجبتني حتىٰ أضحكتني: مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل ليس يغفل عنه، وضاحك ملء فيه ولا يدري أساخط رب العالمين عليه أو راضٍ».

قال الشاعر:

تعـصي الإله وأنت تظهـر حـبـه	هـذا لعـمـري في القـيـاس بديع
لو كـان حـبك صـادقـاً لأطعـتـه	إن المحـب لمـن يـحـب مـطـيـع
في كل يوم يبـتـديك بنعـمـة	منه وأنت لشكـر ذاك مـضـيـع

• التشبه الأعمى:

ومن المخاطر التي تحيق بأبنائنا وبناتنا - وخاصة من هم في فترات المراهقة الخطرة

والتي تزيد النار اشتعالاً ـ حالة الفراغ القاتلة، والبحث عن القدوة في شاشات التلفاز وعلىٰ صفحات المجلات الفنية، حالة التقمص والتشبه التي يعيشونها وتجعلهم يلهثون خلف كل ناعق وزاعق، فالتشبه الأعمىٰ داء خطير، وخصوصاً إذا اقترب هٰذا التشبه من هيئة الكفار، فحينما يتشبه أبناء الأمة الإسلامية وشبابها بما يفعله رموز الكفار وخاصة في عالم الفن والغناء والتمثيل فكأنه إعلان صريح علىٰ تفضيل هٰذه الهيئات المنكرة علىٰ الهدي الإسلامي النظيف، كما يعكس هٰذا التشبه ضعفاً نفسياً داخلياً وهزيمة نفسية بالغة.

وتتعدَّىٰ خطورة التشبه في المظهر الخارجي إلىٰ الميل والمحبة في المظهر الباطن، كما أن التشبه والولاء أمران متلازمان، وهنا تكمن الخطورة؛ لأن الرسول ﷺ يقول: «**أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله عز وجل**»[1].

• الحياء والعفة لبناتنا:

خير خُلق للمرأة هو الحياء، فبه تصون نفسها وتحفظ سمعة أهلها، وبحياء الفتاة تسقط كل مخططات الترويج للفاحشة والانحلال والميوعة. فالحياء هدف حيوي مهم لتجار الرذيلة، وهم يحاولون بكل ما أوتوا من جبروت إعلامي ودعم شيطاني للقضاء علىٰ حياء الفتاة المسلمة، و«**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت**»[2]، وقد قال شاعر الفضيلة:

إذا لم تخش عاقبة الليالي	**ولم تستحِ فاصنع ما تشاء**
فلا والله، ما في العيش خير	**ولا الدنيا إذا ذهب الحياء**
يعيش المرء ما استحيا بخير	**ويبقى العُود ما بقي اللحاء**

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٢١٥) برقم (١١٥٣٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٧٠) برقم (٩٥١٣). وقال الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٩٨): «الحديث بمجموع طرقه يرتقي إلىٰ درجة الأحسن علىٰ الأقل».

(٢) البخاري في الأنبياء (٦١٢٠)، وأبو داود (٤٧٩٧)، وابن ماجه (٤١٨٣).

والعفة هي الثمرة الطبيعية للحياء، فالعفة كف عن محارم الله، والاستعفاف من أسمى الأخلاق، لأولئك الذين استحضروا عظمة الله وخافوا سخطه وعذابه، وطلبوا رضاه وثوابه فاستعفوا فكانت لهم الوقاية، ففاز المتعففون بالثواب العظيم في الآخرة وبالشرف الرفيع في الدنيا، وفرج الله عليهم صبرهم عن الحرام، ويسر لهم سبل الحلال.

• المروءة والغيرة لشبابنا:

وإذا قلنا: إن ثنائية الحياء والعفة نريدها لفتياتنا، فإننا نطالب الشباب في المقابل بثنائية «المروءة والغيرة» فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**كرم الرجل دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه**»[1].

فالواجب عقلاً وشرعاً أن يقيم الشاب المروءة بما قدر عليه من الخصال المحمودة، وترك الخلال المذمومة، وإن من المروءة التباعد عن الخلق الدنيء، واعتزال الريبة، وحفظ الجوارح وترك ما يعاب منه واجتناب ما يكره الله والمسلمون من الفعال، واستعمال ما يحب الله والمسلمون من الخصال، والكريم هو الذي يبذل الغالي والنفيس للدفاع عن شرفه وعرضه، ولو اعتبر شبابنا كل فتاة يراها في السوق أو الشارع أخته، ومنعته المروءة والغيرة من مضايقتها، لهانت الكثير من المشاكل الاجتماعية التي نحياها.

• ميزان الخوف والرجاء:

فطوبى لمن سار على درب الفضيلة حاملاً معه ميزان الخوف والرجاء، قال أبو الدرداء: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل». وقال لقمان لابنه: «يا بني! ارج الله رجاء لا تأمن فيه مكره، وخف الله مخافة لا تيأسن فيها من رحمته، فقال: كيف أستطيع ذلك، وإنما لي قلب واحد؟ فقال: يا بني! إن المؤمن كذي قلبين، قلب يخاف به، وقلب يرجو به».

---

(١) أحمد (٢/ ٣٦٥)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٢٣)، وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرّجاه».

وكتب بعض العلماء إلىٰ إخوانه: أما بعد، فإنه من خاف الله أخاف الله منه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء.

وقال الشاعر:

خف الله وارجوه لكل عظيمة ... ولا تطع النفس اللجوج فتندما

وكن بين هاتين من الخوف والرجا ... وأبشر بعفو الله إن كنت مسلما

وطوبىٰ لمن آثر الثبات علىٰ دين الله، وقيمه الرفيعة، ونحن ننصح أبناءنا بتقوية دينهم وصلتهم بربهم، فيجب عليهم أن يتدبروا القرآن الكريم، ويعملوا بتعاليمه ويلتزموا شرع الله، ويحافظوا علىٰ أعمالهم الصالحة، ويستعينوا علىٰ كل ذلك بحسن الصلة بالله، ثم بالصحبة الصالحة والأخوة الصادقة، فخشية الله والخوف منه تثمر ترك المعاصي والشهوات، ورجاء رحمة الله تثمر الأعمال الصالحة والأخلاق الرفيعة مصحوبة بمحاسبة النفس ومراقبتها، فتكون ثمرة الشاب الذي نشأ في عبادة الله أن يظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وأهل الصلاح يتذكرون دائماً قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾[1].

ونختم كلامنا هنا بحديث عظيم نذكّر فيه الغافل، ومن ألهته الحياة الدنيا بزخرفها الكاذب، لنعيد له نصب الموازين الصحيحة، ففي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم، قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا بن آدم! هل رأيت خيراً قط؟ هل مرّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب!! ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ في الجنة صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم! هل رأيت بؤساً قط؟ هل مرّ بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب! ما مرّ بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط**»[2].

---

(١) فاطر: ٤٥.

(٢) مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم (٢٨٠٧)، وأحمد (٣/ ٢٠٣).

(٣)
التوتر سيد الموقف

كنت أعتقد أن هٰذا التوتر الذي يظهر في الشارع الكويتي عند طرح كل قضية عامة إنما هو ظاهرة عادية، تظهر كالموجات، تصل كل موجة إلىٰ قمتها ثم تنهار وتختفي عندما تنتهي القضية المطروحة، وهو وضع طبيعي في كل مجتمع، وكل يوم، إلَّا أن اعتقادي هٰذا بدأ يهتز عندما بدأت أتمعن في ممارساتنا اليومية، وتفاصيل حياتنا في كافة المجالات، لا يكاد يهدأ ويتحول هٰذا التوتر إلىٰ ضيق بالرأي العام، وتشنج في طرح الأفكار، وضيق صدر ونفس بكل مخالف، وتحول القلق العادي إلىٰ حالات عالية من التوتر، فأصبح التوتر هو الشيء الوحيد الذي يجمع عليه الجميع، وتكاد مظاهره وسبل التعبير عنه أكثر من أن تُعَدَّ أو تُحْصَىٰ، ومن الصعوبة إنكار وجودها وتأثيراتها السلبية علىٰ المجتمع الكويتي.

كنا في السابق نعتقد أن العالم الغربي هو الذي يعاني من أمراض العصر كالقلق والتوتر والكآبة والإحباط، بينما نصنف أنفسنا في واحات من الراحة النفسية والشعور بالسعادة والحبور، وكنا نقرأ كتباً شهيرة تقليدية مثل: «دع القلق وابدأ الحياة» لمؤلفه «ديل كارنيجي» من باب التثاقف وربما الاستمتاع بالقصص الكثيرة الواردة في ثنايا الكتاب، حتىٰ تجاوزت ربما طبعات الكتاب العشرين طبعة.

وصدرت نسخة عربية أفضل منها هي كتاب الشيخ المرحوم «محمد الغزالي» تحت عنوان «جدد حياتك» وتجاوزت طبعات الكتاب العشر طبعات.

وكل ذلك من شأنه أن يعكس اهتمام الناس بمحاربة القلق والتوتر، ومحاولة البحث عن أبواب السعادة بعيداً عن التوتر والتشنج، ولذلك تجد فصول الكتاب تتراوح بين «عش في حدود يومك» و«كيف نزيل أسباب القلق» و«لا تبك علىٰ فائت» و«حياتك من صنع أفكارك» وغيرها من الأبواب والفصول التي تندرح

تحت هـٰذا المنحنىٰ الذي يلقىٰ إقبالاً لدىٰ الناس، ولا أدل علىٰ ذلك من كتاب الدكتور عائض القرني «لا تحزن» والذي يقال: إنه تم بيع مليون نسخة منه في العالم العربي.

وهـٰذا كله بلا شك يدل علىٰ وجود مشكلة في حياة الناس، وحالات مستمرة ومستوطنة من التوتر والقلق والخوف، وهي منعكسة علىٰ سلوك الناس في البيت والشارع والمطاعم والمجمعات التجارية بالصوت العالي وكثرة الصراخ والاختلاف والحوادث المرورية والجرائم الغريبة العجيبة التي لم نكن نسمع بها في السابق.

• وضع مقلق:

حالات التوتر التي تصيب مجتمعنا ليست ظاهرة ينفرد بها المجتمع الكويتي، بل هي ظاهرة عالمية تسربت إلىٰ المجتمع الكويتي، والمعطيات الحالية تعطي مؤشرات علىٰ أن هـٰذه الظاهرة آخذة في التزايد والانتشار، حتىٰ تصبح طبيعة يومية في شخصية الفرد الكويتي.

فالعالم اليوم هو عالم القلق والاضطراب، والقلق هو مرض العصر الذي يشترك فيه الجميع، وكل المؤشرات والأرقام تدل علىٰ حضارة قلقة، موازينها مختلفة، والحياة فيها تتطلب من الفرد أن ينال نصيبه من القلق، وكيف لا يقلق الإنسان في عالم هـٰذه بعض معطياته:

- يعيش ٣٧٪ من سكان العالم الإسلامي تحت خط الفقر.
- يصل دخل بعض الراقصات ـ متوسطات المستوىٰ ـ إلىٰ ٣٦ ألف دولار شهرياً!!
- في عقد التسعينيات ضبطت أجهزة الأمن العربية أكثر من ٢٨٨ ألف قضية مخدرات تورط فيها أكثر من ٦٠٠ ألف شخص.
- دول الخليج استوردت أكثر من ٦٥ مليار سيجارة قيمتها أكثر من ٣ مليارات دولار أمريكي، وتحتل الكويت المركز ١٩ في سلم الترتيب العالمي للدول

الأكثر استهلاكاً للسجائر، وهناك ٤ ملايين مدخن خليجي يزيدون ١٥٠ ألفًا كل عام.

- ٤٣ ٪ من اللاعبين الصغار للألعاب الإلكترونية من أطفال الكويت يركزون في اللعب إلىٰ درجة هيجان الأعصاب والتوتر، و٣٥ ٪ يؤخرهم اللعب عن الصلاة، و٣١ ٪ لا يردون علىٰ أمهاتهم بسببها.
- ١,٥ مليار دولار تنفقها المرأة الخليجية علىٰ مستحضرات التجميل سنوياً.
- يبلغ حجم ثروات الأثرياء العرب ٨٠٠ مليار دولار، يمتلك الخليجيون منها حوالي ٧٠٠ مليار دولار.
- يوجد حوالي مليون سائح خليجي كل عام ينفقون في الخارج أكثر من خمسة مليارات دولار.
- بلغ حجم إنفاق منطقة الشرق الأوسط علىٰ التسليح خلال السنوات العشر الأخيرة حوالي ١٥٠ مليار دولار تشكل ٣٢ ٪ من إجمالي مبيعات السلاح في العالم، وقد اشترىٰ العراق في عام واحد من الثمانينيات أسلحة بمبلغ تجاوز ٣٣ ملياراً.
- ٧٠ مليون فرد في الدول العربية لا يعرفون القراءة والكتابة.
- في نهاية القرن الماضي كان هناك حوالي ٣٦٠ شخصاً في العالم يحملون لقب ملياردير يملكون أصولاً توازي ٤٥ ٪ من ما يملكه سكان العالم.
- وأرقام أخرىٰ كثيرة ومرعبة بالإضافة إلىٰ شح المياه، والتفكك الأسري، وضرب الزوجات، واللاجئين في العالم، وعمالة الأطفال، والسياحة الجنسية القذرة، والحروب والكوارث والزلازل وغيرها وغيرها.

• نعيش عصر الاختزال:

وأرىٰ أن أفضل تقييم لما يعيش فيه العالم هو مصطلح: «عصر الاختزال» الذي تحدث عنه الدكتور عماد الدين خليل في كتابه «رؤية إسلامية في قضايا معاصرة»؛ حيث يقول: «الاختزال في كل مكان، وعبر كل ممارسة، وكأن الحياة البشرية قد

تحولت إلىٰ ورشة كبيرة، أو حقل للتجارب العلمية، من أجل الوصول إلىٰ أقصىٰ درجات الإنتاجية المتوخاة من الإنسان، في مقابل أقل قدر ممكن من الاستهلاك في الزمن، والطاقة، والرغبات، والدوافع، والميول، والأشواق.

اختزال في الجسم؛ إذ يكفي أن يعيش الإنسان، بأقل وزن ممكن.. تكفيه الكيلوات الأربعون أو الخمسون، بل إنها تضمن له قدرة أكبر علىٰ الفاعلية بالإنجاز.

اختزال في الرغبة الجنسية، تكفي معها نظرية كأس الماء، التي نادىٰ بها المنظرون الماركسيون يوماً، والتي تتمثل في إفراغ سريع للشهوة، من أقرب طريق، أسوة بما يحدث إزاء إلحاح العطش، للانصراف بعد تفريغ الشحنة المقلقة إلىٰ العمل والإنتاج.

اختزال في الأحاسيس والمطالب الحيوية؛ إذ تكفي ثلاثة أقراص في اليوم، للتعويض عن الطعام، ويكفي فيلم تليفزيوني للتعويض عن رحلة في الهواء الطلق، وتكفي زجاجة عطر للتعويض عن النزهات الدورية في الحدائق والمتنزهات.

اختزال في العلاقات والممارسات الاجتماعية؛ إذ تكفي حديقة واحدة لكل مجموعة سكنية، وتكفي تحية سريعة عابرة بين الجار والجار، وتكفي ساعة واحدة مع الزوجة والأطفال في نهاية يوم من الكدح الصعب، وتكفي سنوات ما قبل الرشد لكي يظل الأولاد ملتصقين بالأب والأم، أما بعدها فإن عليهم أن يرحلوا.

اختزال في الروح؛ حيث لا وقت لصلاة أو صيام، وحيث تحجّم هـٰذه فتغدو ممارسة روتينية، محددة بساعة ما، في يوم من أيام الأسبوع.

اختزال في الراحة والاسترخاء، حيث تضيّق زحمة المطالب خناقها علىٰ الإنسان، وحيث يكفي قرص من «الأتيفان» أو «الفاليوم» لاستدعاء النوم في الوقت المطلوب، واستعادة التوازن، والقدرة علىٰ العمل من جديد.

اختزال في المنظور الرؤيوي للعالم، حيث لا مبرر لتجاوز العالم إلىٰ ما وراء، والمنظور إلىٰ المخفي، والظاهر إلىٰ الباطن، والملموس إلىٰ الغيب، والقريب إلىٰ

البعيد، والأرضي إلىٰ السماء، والدنيا إلىٰ الآخرة، إن هـٰذا كله نوع من الترف الزائد، وأحرىٰ بالإنسان أن يحيا في عالمه المباشر.

اختزال في التفكير؛ لأن الحاسب الآلي أغنىٰ الإنسان عن التكفير . . . وفي التأمل الذاتي؛ لأن عجلة الحياة لا تسمح بالإيغال فيه . . واختزال في الإبداع؛ لأن ألعاب «الفلبرز» امتصت حاجة الإنسان إلىٰ الإبداع.

اختزال في كل شيء . . . في كل ممارسة . . . في كل نشاط . . . في كل ما يهم الإنسان في ذاته . . . في تكوينه البشري . . . في ملذاته . . . في مطالبه الحيوية وأحاسيسه . . . في آماله وأحلامه . . . في أشواقه، ومطامحه الروحية . . . في علاقاته الاجتماعية . . . في رؤيته للكون، والعالم، والحياة.

• التوتر الكويتي:

وعندما نأتي إلىٰ الحالة الكويتية فإننا نجد تشنجاً في كل شيء، وفي كل قضية مطروحة، وفي كل شأن عام متداول، ويخرج كل طرف أسلحته الخفيفة والثقيلة من مقالات ودراسات واستبيانات ودراسات ميدانية وهجوم بالمانشيتات الساخنة وتبادل للتهم وتسفيه للآراء، وتوتير للأوضاع، حتىٰ أصبحنا نتعامل بتشنج مع كل قضايانا السياسية والاجتماعية والتربوية والثقافية والدينية، وكأن البلد أصبح علىٰ برميل بارود ينتظر فقط الشرارة الفاعلة لينطلق طوفان من العداء والكراهية بين الجميع، وكأننا لم نعد أبناء ذلك الرعيل الرائع، أولئك الذين تحمل بعضهم بعضاً في بحور ومحيطات الدنيا لعدة شهور، وكأننا لم نعش في بيئة قاسية طاردة، فتحملناها وتغلبنا عليها بقيم المودة والتراحم والسماحة والتعاون والتكاتف.

انظروا إلىٰ شؤوننا السياسية؛ تجدوا إثارة إعلامية، وحروباً كلامية، ما إن تنتهي حتىٰ تبدأ من جديد، فهناك حرب «الحفلات» و«الضوابط» و«ستار أكاديمي»، وهناك «موقعة مكتبات حولي»، وغزوة الوسطية والتطرف، ومعركة حقوق المرأة السياسية، فهي كلها عبارة عن حروب صغيرة أسلحتها الكلام العنيف والتوتر الدائم، والقلق الذي امتد لكل نواحي الحياة، حتىٰ أصبحت قضية صغيرة مثل إزالة

الأكشاك الخيرية معركة تنقل أخبارها للصفحات الأولىٰ، وكأنها معركة إزالة بقايا أسلحة الغزو التي لم يتحمس لها البعض كما تحمس وصفق لإزالة الأكشاك الخيرية.

وكأن هـٰذه الأكشاك كانت مقامة علىٰ أملاكه الخاصة، أو أنها توزع الأسلحة ومنشورات التكفير، حتىٰ كتبت الصحف المحلية علىٰ الصفحة الأولىٰ ـ وكأنها اعتبرته سبقًا صحفياً ـ بأن فريق إزالة الأكشاك تلقىٰ تهديداً بالقتل، ولم تشر الصحيفة إلىٰ من أطلق التهديد ولا إجراءات الأمن للتحقيق في القضية، وكأن القضية استفزاز وتحريض وتوتير لا أكثر ولا أقل.

وصحيفة أخرىٰ محلية نشرت كاريكاتيراً وصفت الذين يرفضون حقوق المرأة بأنهم مثل أهل الكهف، فوضعت كلمة الكهف علىٰ لوحة وشطبتها ووضعت فوقها كلمة الرفض، وكأن هـٰذا الوصف عار لمعارضي حقوق المرأة بينما هو في حقيقته مديح وثناء؛ لأن الله ـ تعالىٰ ـ قال في أهل الكهف: ﴿**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**﴾ (١)، ولكنه العقل الباطن لراسم الكاريكاتير الذي صور له أهل الكهف ـ للأسف والعياذ بالله ـ محلاً للسخرية ومثالاً للرجعية والتخلف!!

والعجيب أن نفس الصحيفة نشرت صورة لإحدىٰ لوحات النائب «ضيف الله أبو رمية» حول رأيه في حقوق المرأة، وقد تعرضت للتشويه علىٰ يد شاب وفتاة، وكتبت الصحيفة تعليقاً: «هكذا عبر الشباب عن سخطهم من تصريحات «أبو رمية»» ولو فعلها شباب ملتزم مع نائب ليبرالي لفتحت نفس الصحيفة قاموس الردح والإرهاب، وتناولت هـٰؤلاء الشباب بالغمز واللمز مثلما فعلت مع التجمع السلمي علىٰ أرض المعارض عندما اجتمعوا معارضين لحفل «ستار أكاديمي» وتفرقوا بكل هدوء دون أن يتعرضوا لأحد بأذىٰ، بينما كانت ستصف الصحيفة من يقوم بتشويه لوحة نائب ليبرالي أو علماني بأَنَّهُ إرهاب فكري، وتغذية لفكر التطرف الذي يقوم به رموز التطرف في البلد، وضيق بالرأي الآخر ومحاولة احتكار الحقيقة و . . . و . . .

---

(١) الكهف: ١٣.

وانظر إلىٰ مقال نشر في الأسبوع الأول من مارس علىٰ الصفحة الأخيرة يصف أكشاك الخير بأكشاك «الطرارة»، وكأن العامل الذي يقوم بجمع الصدقات والزكوات لأعمال الخير إنسان محتقر لا يستحق أكثر من كلمة طرار، ولاحظ استعمال الكاتب عبارة خطيرة عندما يقول: «أصحاب الجمعيات يستغلون النصوص الدينية لترويج مطالبهم، حتىٰ وإن تصادف ظهور هـٰذه النصوص في ظروف سالفة، وأزمنة غابرة». هكذا إذن نصوص القرآن والحديث لم تعد تناسب العصر، والعصر الذي نزل فيه الوحي كان زمناً غابراً مغبراً. . . هداك الله.

هـٰذه كلها من التوتر وعدم القدرة علىٰ ضبط النفس والقلق المستمر.

وهناك التفجيرات والأعمال الإرهابية التي حولنا في دول المنطقة دليل قلق وتوتر. . . وهـٰذا الذي يعيش من أجل التحريض فقط علىٰ الطرف المقابل دليل قلق وتوتر. . . حتىٰ حياتنا العادية والعائلية والاجتماعية أصابها التوتر.

فكثرة حالات الطلاق والانفصال دليل علىٰ التوتر، وزيادة معدلات العنف المنزلي دليل علىٰ التوتر، حتىٰ إن البعض لم يعد يطيق حركة الأطفال وأصبح الضرب هو لغة الحوار الوحيدة.

حتىٰ هـٰذا الذي يختلس ويرتشي في عمله دليل علىٰ الخوف والتوتر من المستقبل.

وحركة المرور في الشارع، وكثرة استعمال منبهات السيارات، والصراخ وتبادل الشتائم، والحوادث المرورية، دليل علىٰ التوتر.

وجرائم القتل والطعن والانتحار، دليل علىٰ التوتر.

لم نعد نتحمل بعضنا البعض، وأصبح نفسنا قصيراً في الحوار وتبادل الأفكار، حتىٰ أصبح التيار الواحد يضيق بالحوار بين أفراده.

وتجد أحدهم عندما تعارضه ينهي الحوار ويقول لك: «أنت صح. . توكل علىٰ الله» وهو موقن أنك علىٰ خطأ! ولكنه متوتر ولا يريد أن يعطيك حتىٰ فرصة لكي

تبيّن وجهة نظرك.

الأم متوترة لم تعد تستطيع تحمل الأطفال، فتجدها تصرخ فيهم ليل نهار وتطالبهم بالصمت وتهرب منهم بإلقائهم في ساحات الألعاب أو مسرحيات الأطفال حتىٰ تهرب منهم إلىٰ أي مكان.

لقد أصابتنا سرعة الحياة وضجيجها وحالات ضغط الوقت ومتطلبات المعيشة بالتوتر، وأصبح الإنسان مطالباً بأعمال كثيرة في أوقات قصيرة، فتكون النتيجة المزيد من التوتر، حتىٰ ما يسمىٰ بالفيديو كليب إنما هو تعبير صارخ عن حالة التوتر التي نعيشها وعدم الاستقرار، وبعد أن كنا نعتبر هٰذا الفن المنحط إنما هو نتاج حضارة متوترة انتقل إلينا وأصاب شبابنا وفتياتنا بالمزيد من الضياع والتوتر.

توتر في المأكل... وتوتر في الملبس... وتوتر في الصباح... وتوتر في المساء... وتوتر في العلاقات... وتوتر في اللقاءات.. توتر والمزيد من التوتر... حتىٰ علاجنا لهٰذه الظاهرة زاد من توترنا.

فقد تحول علاج مرض التوتر إلىٰ تجارة مربحة، ملأت المكتبة العربية بعشرات المؤلفات والكتب... كيف تصبح سعيداً؟ استمتع بحياتك... تخلص من همومك... كيف تقضي علىٰ القلق؟ كن سعيداً... الحياة في ظل السكينة.

وعشرات الكتب الأخرىٰ التي تريد أن تجعلك قوياً منتجاً وقيادياً ورائداً، فإذا بها تحولك إلىٰ آلة صماء تتعلم سرعة الإنتاج ورفع الأداء المهني والإداري لتجني المزيد من القلق والتوتر والفوضىٰ والعدم والضياع.

بالله عليكم... هل هٰذا الذي سرق واختلس شعر بعدها بالسعادة؟ وهل هٰذه التي انفصلت عن زوجها وضيعت أبناءها شعرت بالسعادة؟ وهل هٰذا الذي ظل ينتقل من مكان إلىٰ مكان كالمجنون وغيّر وبدّل وجرّب هل شعر بالسعادة؟ وهٰذه التي لا تريد أن تذهب إلىٰ الجامعة إلا بالسيارة الفلانية أو الجيب الفلاني، هل شعرت بالسعادة والرضا وذهب عنها التوتر بعد أن ركبت السيارة أو الجيب؟ وهٰذه

الحبوب والمهدئات والأدوية التي يتناولها الناس صباحاً ومساءً إلا دليل تعاسة وبعد عن الله، وهٰذه المقاهي التي تعدم فيها الصحة والوقت والمال أليست دليلاً على الشقاء وضياع الأهداف؟

ألسنا نتعايش مع نفوس قلقة تعسة متعبة منهارة: تتجمل النساء بأدوات المكياج والصالونات وأدوات التجميل، ويتجمل الرجال بالسيارات والنقالات والملابس المعطرة والتدخين والشيشة، لتخفي وراء كل ذلك رجالاً ونساءً «أكواماً» من الشقاء والتعاسة وانعدام الطمأنينة والسكينة وراحة البال.

• الخروج من المعيشة الضنك:

إن ما نحتاجه اليوم لكي نخرج من حالة التوتر أو المعيشة الضنك ـ كما سماها القرآن ـ هو أن نعود إلى الله لنبحث عن السكينة والطمأنينة وراحة النفس وسعادتها الحقيقية.

ما نحتاجه اليوم ليس كمية من حبوب المهدئات، ولا الانغماس في ليالي المجمعات التجارية والمطاعم، وليس السفر والترويح في الداخل والخارج، إن ما نحتاجه اليوم هو حالة من السلام الداخلي مع النفس أولاً قبل أن يكون مع المجتمع، ولن يتحقق هٰذا الهدف إلا في ظل شريعة الله ومنهجه الذي ارتضاه للبشرية، وإلا فإذا كان التوتر هو العنصر المشترك بيننا وبين غيرنا ممن هم ليسوا على ملتنا، فأين الأثر الإيجابي لشريعتنا الغالبة على مسار حياتنا؟ وأين قيمة الاطمئنان والأمان التي يشعرها كل ملتزم بأمر الله ودينه؟

إن الالتزام الحق بالإسلام يجعلنا ننظر للأمور بشكل مختلف، لا كما ينظر إليها الآخرون، فلا تعود الحياة مجرد رقم في الرصيد، وليست صراعاً من أجل الوجود، وليست معركة وحوش على فريسة، وساعتها وفي ظل الالتزام الحق ومحاولة الموازنة بين متطلبات الروح والمادة، سنعرف قيمة النظر إلى نجوم السماء ليلاً، وإلى التأمل في الحدائق والبساتين نهاراً، والخوض في ماء البحر، وإحياء فريضة التأمل

والتفكير وصولاً إلىٰ الحياة الطيبة التي وضعها القرآن في مقابل معيشة الضنك لمن أعرضوا عن ذكر الله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [(١)].

قال ابن عباس ٪: المراد بالمعيشة الضنك: الحياة في المعصية وإن كان في رخاء ونعمة. وقال الإمام الرازي: «المراد بها: العيشة مع الحرص الشديد على الدنيا وأسبابها».

وقال الإمام الرازي في تفسير «الحياة الطيبة» في قوله تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[(٢)]: «المراد بالحياة الطيبة: الحياة في القناعة، وقيل: في الرزق الحلال، وقيل: التوفيق للطاعات، وقيل: في حلاوة الطاعات، وقيل: في الرضا بالقضاء».

وتعليقاً علىٰ البركة في الحياة يقول سيد قطب في الظلال: «حين تسير الحياة متناسقة بين الدوافع والكوابح، عاملة في الأرض، متطلعة إلىٰ السماء، متحررة من الهوىٰ والطغيان البشري، عابدة خاشعة لله، تسير سيرة صالحة منتجة تستحق مدد الله بعد رضاه، فلا جَرَمَ تحفها البركة ويعمها الخير، ويظلها الفلاح... إن البركات الحاصلة مع الإيمان والتقوىٰ، بركات في الأشياء، وبركات في النفوس، وبركات في المشاعر، وبركات في طيبات الحياة... بركات تنمي الحياة وترفعها في آن، وليست مجرد وفرة مع الشقوة والتردي والانحلال».

فنقول لكل باحث عن السعادة والسكينة والطمأنينة، ولكل من أضناه القلق والتوتر أن يلتزم ثلاثية العلاج المؤكدة والتي وصفها لنا رسول الله ﷺ وهي:

أولا: الصلاة:

فهي علاج روحي، يوفر للمؤمن سكينة النفس وطمأنينتها، وقد كان النبي ﷺ إذا حَزَبَهُ أمر قام إلىٰ الصلاة، وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول: «**أرحنا بها**

---

(١) طه: ١٢٤.

(٢) النحل: ٩٧.

يا بلال»[١]، و«**جعلت قرة عيني في الصلاة**»[٢].

ثانياً: ذكر الله:

فهو يبعث في النفس إحساساً بالاتصال بالله، والانتماء إليه، والتوكل عليه، فهو الذي يقي الإنسان شعور الوحدة والضياع والقلق والعزلة، قال سبحانه: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[٣].

ثالثاً: تلاوة القرآن:

فقد كان مشركو مكة يتنصتون على رسول الله ﷺ حتى يسمعوا القرآن لما له من جاذبية شديدة تؤثر في القلوب، والله يقول: ﴿**قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ**﴾[٤]، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ إذا اشتدت عليه الأمور قرأ آيات السكينة، وهي التي أنزلها الله على رسوله وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب كيوم الهجرة، ويوم الحديبية ويوم حنين.. فعليكم عباد الله بالصلاة والذكر وتلاوة القرآن.



---

(١) أبو داود في الأدب (٤٩٨٥)، والطبراني في الكبير (٦/ ٢٧٧) برقم (٦٢٣٠).
(٢) النسائي في عِشْرَةِ النساء (٣٩٣٩)، وأحمد (٣/ ١٢٨)، وقال الألباني: «صحيح».
(٣) الرعد: ٢٨.
(٤) فصلت: ٤٤.

(٤)
نعم ... خائف على وطني

عنوان غريب يعلو كلمات تكتب بعد أيام من مرور الذكرىٰ الثانية لسقوط النظام المستبد في العراق، الذي كان يسبب قلقاً دائماً للمنطقة، وبسببه تجمدت كل مشاريع التنمية والإعمار، وهيمنت حالة عدم استقرار علىٰ المنطقة، حتىٰ تم الخلاص من هـٰذا النظام، وارتاح الشعب العراقي من دفع تكاليف مغامراته العدوانية.

فلا مبرر إذن من الخوف علىٰ الوطن، فالاستقرار بدأ يعم المنطقة والاقتصاد يشهد نمواً متسارعاً، ومشاريع الإعمار تشهد طفرة جيدة، والكويت أصبحت كورشة كبيرة لإعادة الإعمار وتجديد البنية التحتية علىٰ قدم وساق، والوضع الاقتصادي مطمئن، وكل المؤشرات إيجابية، فلماذا شعور الخوف إذن؟

الخوف شعور طبيعي في الإنسان، وهو كما جاء في (التعريفات ص ١٣٧): «توقع حلول مكروه أو فوات محبوب، وهو شعور لا يعيب الإنسان إذا لم يتحول إلىٰ فزع أو يأس وقنوط، وهي حالة تمر بالإنسان إذا فقد عنصر الأمن، ولذا شرعت صلاة الخوف، وكان المتنبي يقول:

وما الخوف إلا ما تخوفه الفتى ... ولا الأمن إلا ما رآه الفتى أمنًا

والخوف في القرآن الكريم قد يأتي بمعنىٰ الظن كقوله تعالىٰ: ﴿**إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ**﴾[١]، أو يأتي بمعنىٰ القتال كقوله تعالىٰ: ﴿**فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ**﴾[٢]، وقد يأتي بمعنىٰ النكبة التي تصيب المؤمن من قتل أو هزيمة كقوله تعالىٰ: ﴿**وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ**﴾[٣]،

---

(١) البقرة: ٢٢٩.
(٢) الأحزاب: ١٩.
(٣) النساء: ٨٣.

وقد يأتي بمعنى الخوف ذلك الشعور الطبيعي كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1] .

وللأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ تعليق لطيف على الآية حيث يقول: «إن الشيطان هو الذي يضخم من شأن أوليائه، ويلبسهم لباس القوة والقدرة، ويوقع في القلوب أنهم ذوو حول وطول، وأنهم يملكون النفع والضر.. ذلك ليقضي به لباناته وأغراضه، وليحقق به الشر في الأرض والفساد، وليخضع لهم الرقاب ويطوع لهم القلوب، فلا يرتفع في وجوههم صوت بالإنكار، ولا يفكر أحد في الانتقاض عليهم، ودفعهم عن الشر والفساد.

والشيطان صاحب مصلحة في أن ينتعش الباطل، وأن يتضخم الشر وأن يتبدى قوياً قادراً قاهراً بطاشاً جباراً، لا تقف في وجهه معارضة، ولا يصمد له مدافع، ولا يغلبه من المعارضين غالب.. الشيطان صاحب مصلحة في أن يبدو الأمر هكذا، فتحت شعار الخوف والرهبة، وفي ظل الإرهاب والبطش، يفعل أولياؤه في الأرض ما يقر عينه يقلبون المعروف منكراً والمنكر معروفاً، وينشرون الفساد والباطل والضلال، ويخفتون صوت الحق والرشد والعدل، ويقيمون أنفسهم آلهة في الأرض تحيي الشر وتقتل الخير.. دون أن يجرؤ أحد على مناهضتهم والوقوف في وجههم، ومطاردتهم وطردهم من مقام القيادة.. بل دون أن يجرؤ أحد على تزييف الباطل الذي يروجون له، وجلاء الحق الذي يطمسونه.

والشيطان ماكر خادع غادر، يختفي وراء أوليائه، وينشر الخوف بهم في صدور الذين لا يحتاطون لوسوسته... ومن هنا يكشفه الله، ويوقفه عارياً لا يستره ثوبٌ من كيده وفكره، ويعرف المؤمنين الحقيقة: حقيقة مكره ووسوسته؛ ليكونوا منها على حذر، فلا يرهبوا أولياء الشيطان ولا يخافوهم، وهو أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربه، ويستند إلى قوته.

---

(١) آل عمران: ١٧٥.

إن القوة الوحيدة التي تخشىٰ وتخاف هي القوة التي تملك النفع والضر، هي قوة الله، وهي القوة التي يخشاها المؤمنون بالله، وهم حين يخشونها وحدها أقوىٰ الأقوياء، فلا تقف لهم قوة في الأرض، لا قوة الشيطان ولا قوة أولياء الشيطان».

إن خوفي اليوم علىٰ وطني، نابع من حرصي علىٰ استتباب الأمن ـ الأمن الداخلي ـ تلك النعمة العظيمة التي تفتقدها دول وشعوب، ونحن ننعم بها ولكننا بممارساتنا المجحفة بحقها لا نقدرها ما تستحقه من شكر وتقدير.

لا يمكن أن يستقر بلد ما بدون أسباب للعيش وأمن يحيط بتلك الأسباب، وقد ذكر الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ من نعمه علىٰ قريش أنه سبحانه: ﴿**أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ**﴾[1]، وهي نعم عظيمة لا أدري لماذا يستهزئ بها بعض أبناء جلدتنا، ويحاولون أن يمحقوها من حياتنا بممارساتهم الرعناء الطائشة.

لقد كان من دعاء أبي الأنبياء إبراهيم ـ عليه السلام ـ لربه ﴿**رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا**﴾[2]، فالأمن من الثوابت التي لا يختلف عليه اثنان من أهل هٰذا البلد، بل هو مقوم أساسي من مقومات المجتمع، فالأمن والطمأنينة والسلام متطلبات أساسية للإنسان، ونحن ـ الكويتيين ـ في غنىٰ عن التذكير بأهمية هٰذا الثابت، وقضية الأمن اليوم أصبحت أساساً من أسس الاستقرار الاجتماعي والسياسي والتربوي، قال تعالىٰ: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾[3].

ومقومات الأمن أوسع من أن تشملها اتفاقيات أمنية مع قوىٰ عظمىٰ، فهناك ما يستدعي عمله لتأمين الأوضاع الداخلية ونزع فتيل الخلافات السياسية والفكرية وغيرها، وهناك أيضاً ما ينبغي عمله لتوفير مقومات الأمن الدائم الذي يرتبط بتراث هٰذه الأمة أكثر من ارتباطه بقوىٰ عظمىٰ معرضة في يوم من الأيام إلىٰ التفكك والانهيار.

---

(١) قريش: ٤.

(٢) إبراهيم: ٣٥.

(٣) الأنعام: ٨٢.

إن حديثنا عن الأمن جزء لا يتجزأ من حديثنا عن الهوية، فالهوية التي دعونا إليها هي بمثابة المظلة التي يستظل بها الأمن الداخلي والخارجي للكويت.

فليس من أسباب الأمن هٰذه المماحكات السياسية المستمرة التي تجاوزت كل الأعراف والتقاليد السياسية، وتحولت إلىٰ خصومات وتصفية حسابات شخصية علىٰ حساب الصالح العام وأمن البلد واستقراره، والدفع بالأمور نحو التأزم المستمر والسير علىٰ حافة الهاوية بشكل متوتر، وإدمان الإثارة المفتعلة، وضياع الأولويات والبرامج الوطنية، والدخول في نفق المزايدات القبلية والطائفيات، ومحاولة فرض المحاصصة السياسية التي لا تقوم علىٰ تقسيمات اللعبة السياسية وإنما علىٰ تقسيمات تفتيتية، الاستدراج لها سيكون في غاية الخطورة، والخروج منها بلا إصابات في أمن الوطن أشبه ما يكون بالمستحيل.

وليس من أسباب الأمن في بلدي أن يحترق جزء كبير من وقت القيادة السياسية العليا ـ للأسف ـ في يوميات العمل التنفيذية، فهٰذا بلا شك سيدخلها في نفق ضياع الأوقات وبعثرة الجهود وتشتت التركيز وغياب النظرات الكلية، والغرق في تفاصيل المشاكل المالية والاجتماعية، والشؤون الداخلية والخارجية.

نعم، ليس من أسباب الأمن في بلدي أن تضيع هيبة القيادات الكبرىٰ في البلد؛ لأن الجرأة السوقية علىٰ قيادات البلد وضياع الحكم سيجعل المواطن قلقاً علىٰ أمنه واستقراره، وهيبة الحكم لا تكون بقدرة الحاكم علىٰ فتح أبواب السجون ولا التلويح بسياسة العصا والجزرة، وإنما بالسياسات القيادية والممارسات الاستراتيجية التي تفرض رؤيتها علىٰ الموجودين، وإلا منذ متىٰ عهدت الكويت، منذ الشيخ صباح الأول، هٰذا التجرؤ علىٰ رموز الحكم من أناس لا زالت جنسيات آبائهم وأجدادهم لا تنتمي إلىٰ الكويت، ولعل في ألسنتهم بقايا عجمة.

نعم، نريد الحوار ونشجع علىٰ إبداء الرأي، لكن أن يتحول الحوار إلىٰ المس بهيبة الحكم، وأن تتفلت لغة الحوار من كل الضوابط القيمية والأخلاقية التي رضعناها من مبادئ ديننا وأعرافنا الكويتية. فهٰذا نذير خطر علىٰ الروح الأسرية

التي تعودناها في العلاقة بين بيت الحكم وبيت الشعب. ومن يجهل هٰذه الأعراف عليه أن يقرأ تاريخ الكويت وعلاقة الحاكم بالمحكوم قبل ٦٠ سنة فقط لا أكثر، ليرىٰ كيف يتعامل الناس ـ حكاماً ومحكومين ـ في حياتهم الاجتماعية والسياسية. . . أقول بمثل هٰذه الممارسات: نعم، إني خائف علىٰ وطني!!

فليس من أسباب الأمن تلك الكتابات التحريضية علىٰ هوية الأمة، وهٰذا الهجوم الصريح المباشر علىٰ الرموز الدينية والهوية الإسلامية والانسلاخ من التراث، والاحتكار لكل موروث والانقضاض علىٰ القيم الاجتماعية ومحاولة تسفيه الأصالة، وإحلال القيم المتغربة، التي أنهكت الشعوب التي صدرتها وبثتها، ومحاولة فرضها علىٰ الشعب الكويتي وتصنيف الناس بناء علىٰ قبولها وردها، وسل سيف القلم علىٰ هٰذه الثوابت الكريمة الأصيلة التي تعاني من تنكر أبنائها بسبب الإصابات المباشرة، التي أصابتهم بالهزيمة النفسية وما استتبعها من محاولات إيجاد تفسير جديد للإسلام يلائم هٰذا الضغط المدفوع؛ لتحقيق مصالح الآخرين في بلاد المسلمين.

وليس من أسباب الأمن هٰذه الخصومات الفكرية التي تحمل لواء التشنج والتسفيه واتهام النوايا، واللعب بالمناطق المحظورة، واستجلاب شواذ الأقلام العربية واستضافتها علىٰ صفحات جرائدنا المحلية، لينفثوا سمومهم، ويخرجوا مكبوت صدورهم تجاه صاحب كل موقف صلب وشجاع يبتغي من ورائه الكرامة والسيادة لأمته ودينه.

وليس من أسباب الأمن هٰذا الصوت العالي في تداول شؤون بلدنا، وهٰذا التوتر المستمر للأعصاب، وهٰذا الرفض الشديد للرأي الآخر مهما كان منطقياً ومعتدلاً في طرح فكرته، وهٰذا الجدل اليومي المستمر حول شؤون البلد، وهٰذه البيانات المتكررة التي تحدد مواقف أو تبين مطالب بشيء من التشنج والحدة في الألفاظ والكلمات، وهٰذا التذمر المستمر، وهٰذه القناعة المفقودة، وهٰذه الشكاوىٰ المستمرة، وهٰذا التهجم الذي يحكم الجميع، وهٰذه السلبية القاتلة في

التعامل مع القضايا الحيوية، وهٰذه المواقف العنترية الصغيرة التي لا تبنىٰ علىٰ موازنات الشأن الإقليمي والدولي، وهٰذه الأطروحات الشاذة التي تستفز الشارع الكويتي، وهٰذه المعارك المستمرة التي لا يسلِّمُ فيها مغلوب بحق، ولا يتواضع فيها غالب بحكمة.

وليس من أسباب الأمن في بلدي هٰذه الجرائم الغريبة علىٰ المجتمع الكويتي، وحالات الانتحار والقتل والسحل، والاغتصاب وقضايا الرشوة والتزوير والنصب والتحايل، والإرهاق المستمر لرجال الأمن والشرطة في ضبط الوضع العام والأخذ علىٰ يد العابثين والمستهترين الصغار والكبار.

وليس من أسباب الأمن في بلدي هٰذه الاستهانة العجيبة بالقانون، وهٰذا الانتهاك المستمر لقوانينه ونظمه ولوائحه، وهٰذا التعدي الخطير علىٰ سلطته، وهٰذه الممارسات الفئوية التي تريد أن تفرغ القانون من مضمونه، وتعود بنا إلىٰ قانون العرف والعلاقات الشخصية وتصنيف الناس والتمييز في تطبيق القانون وأحكامه.

وليس من أسباب الأمن هٰذا التعدي المؤذي المستمر علىٰ المال العام، وصورة البقرة الحلوب التي لا تريد أن تغادر أذهان البعض في تعاملهم مع المال العام في الكويت، وهٰذه السرقات والاختلاسات التي نسمع بها ونقرأ عنها ما بين فترة وأخرىٰ.

وليس من أسباب الأمن في بلدي هٰذا التطرف الأعمىٰ الذي يريد أن يدخل وطني في دوامة العنف الأسود؛ حيث القتل والدماء والدمار واستحلال الأموال والأعراض، وحيث العقول المسلحة بفكرة احتكار الحقيقة المقدسة وتكفير المخالفين وتسفيه الآخرين.

وليس من أسباب الأمن في بلدي مبارزة الله بالمعاصي والموبقات والفواحش والمنكرات، ونشر هٰذه الرذائل علىٰ أجهزة النقال والحاسب الآلي والفضائيات في

الشقق المشبوهة، والأماكن المرذولة، وهٰذا البغاء المستتر، وهٰذه الوجوه غير البريئة المنتشرة بين المقاهي والشواطئ والمطاعم، والتي تبحث عن صيد بين شبابنا الغض الطري الذي يستجيب لنداء الشهوة الآثم من خلال قناة عري أو موقع مشين على شبكة الإنترنت.

وليس من أسباب الأمن ألَّا ندرك أبعاد جميع ما سبق من مخاطر ومستجدات ذات تأثيرات سلبية على وطني وأبناء وطني ومواجهة ذلك بالبرامج الوطنية الجادة التي يتفق عليها الجميع، وعدم ترك تلك المخاطر للزمن حتى تستفحل وتصل إلى نقطة «اللاعودة» كقضايا أخرى أهملناها فأصبحت من الصعوبة أن نتعامل معها الآن، وربما نعالجها بأسلوب المهدئات لا أكثر ولا أقل.

من أجل كل ذلك؛ أنا خائف على بلدي، وكل بلاد المسلمين، لا أريد أن ينتصر الظلام على النور، ولا أن يستوطن الخوف في قلوب الأطفال، ولا أن يخطف الإرهاب زهرة الشباب، ولا أن يكون المستقبل ضحية خلافات الحاضر.

من حقي أن أخاف على بلدي، ويجب أن يشاركني في هٰذا الخوف كل من يراقب الساحة المحلية فيها، وسيجد أن خوفي المشروع هٰذا يصلح بداية حسنة يمكن البناء عليها لمستقبل أفضل.



(٥)
انضم لقافلة البناء

إن الكلام السابق قد يثير شجوناً كثيرة عند القراء والذي كان بعنوان: «نعم . . خائف على وطني» خاصة بعد أن وضعت كل القضايا السلبية والممارسات الشاذة في سلة واحدة، والبعض قد يتمادى في هذا التصور حتى يظن أن لدي معلومات خاصة لم أسطرها، وقد يطالبني بإشراكه في تلك المعلومات.

والحقيقة التي لا بد أن يعلمها الجميع هي أنني العدو الأول لمدرسة التشاؤم، والذين يتعاملون معي عن قرب يدركون هذه الحقيقة، فأنا أعتبر نفسي من رواد مدرسة التفاؤل، ودائماً عندما ألقى زواري الذين يأتون لي من مختلف دول العالم الإسلامي وخارجه ويلقون بهمومهم وأوضاع المسلمين الأليمة ومشاكلهم وقضاياهم العالقة، دائماً كنت أنثر أمامهم المبشرات وأدفعهم للمزيد من الجهد والعطاء.

• ليست عنصرية:

قد يفهم البعض بعد قراءة البحث السابق المعنون له بـ: «نعم . . خائف على وطني» أننا نفاضل بين الناس، جاعلين مقياس هذا التفاضل هي العجمية والعربية أو حسب تصنيف الجنسية.

فأقول وبالله التوفيق: إن كلامي هذا لم يبنَ على عنصر التقييم؛ لأن عنصر التقييم واضح ومعلوم من الدين بالضرورة، وهي القاعدة الأصيلة التي وردت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1]، ومما دلَّت عليه الآيات والأحاديث الكثيرة في ذلك الباب، ولكن هناك تفاضل ليس من باب التفاخر والتكبر ولكنه من باب الانتساب، ومن ينتسب إلى الأمة العربية ينتسب إلى لغة القرآن، وإلى الصف

---

(١) الحجرات: ١٣.

القيادي الأول من وزراء النبي ﷺ الذين قاموا بالدعوة لهـٰذا الدين، الذي نزل كتابه الخالد بلسان عربي مبين علىٰ نبي عربي كريم، حيث قاموا بواجب الدعوة لنشر دين الله، وأسقطوا ممالك الفرس والروم في سنوات معدودة تعادل ربع المدة التي انتشر فيها الإسلام في الجزيرة العربية، فأي دعوة تسلب العرب مكانتهم وأسبقيتهم في الرسالة الخاتمة، هي دعوة شعوبية أصابت الأمة في فترة من الفترات، وتثار بين وقت وآخر ولا نحتاج إلىٰ إطالة الحديث فيها أو إيراد الأدلة علىٰ ذلك.

كما أننا لم نذكر الموقف بصيغة وضع الموازين، وإنما بصيغة الوصف لمن تجرأ وتحدث في هـٰذا الأمر، ولما حدث في مجلس الأمة، فهو مجال وصف وليس مجال وضع ميزان، فالإنسان يصف ما حدث ولا علاقة له بالموازين التي قررنا قاعدتها الأصيلة قبل قليل في مقياس التفاضل بين الناس.

أضف إلىٰ ما سبق، فإن الحديث جاء في سياق الكلام علىٰ خوفي علىٰ وطني، ومن يقرأ التاريخ يعرف أن الممالك إنما تتساقط بالغوغائية التي في الغالب تأتي بتحركات تدفعها أحقاد تاريخية، ولست بحاجة إلىٰ كثير من التفصيل في هـٰذا الموضوع، ويكفي أن نستذكر كيف سقطت دولة الخلافة في بحور الفتن في مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه؟ فالذي تولىٰ كبر الأمر هم غوغائية بقايا الزرادشتية الفرس في بلاد العراق وما وراء النهر، ثم تلقفت هـٰذا الأمر آذان من الأمة انساقت ثم ندمت بعد ذلك علىٰ ما فعلت، ولكن ولات حين ندم، فقد فتح باب الشر، وبداية هـٰذا الأمر كانت في التجرؤ علىٰ رأس الدولة وصمام الأمان فيها.

وقد قال العلماء: لأن تجدب الأرض أربعين سنة أفضل من يوم وليلة دون ولي أمر؛ لأنه لا ينجح في هـٰذه الأجواء التي يغيب فيها ولي الأمر وسلطته إلا أصحاب الفتن والغوغائية، وقد جربنا شيئاً من هـٰذا في أيام الغزو حيث سقطت الأقنعة عن كثير من الوجوه الصفراء والغوغائية، وتحولوا إلىٰ تجارة اللصوصية وسرقة ممتلكات الناس، فالحديث يأتي في هـٰذا السياق وليس له ذيول أو أبعاد أخرىٰ.

• حق النبي ﷺ علينا:

سألني أحد الإخوة وكان قد رأى في التلفاز من يتحدث عن المولد النبوي الشريف ومشروعية الاحتفال به، وعندما رآني في عجلة من أمري، قال: أريد خلاصة المسألة، فقلت له: إن النبي ﷺ لا يحتفل به في يوم من أيام السنة، فحقه على أمته أعظم من هذا، بل يجب أن يحتفل به في كل يوم وكل لحظة، فإذا ما أكلنا ذكرنا اسم الله في أول الطعام وتذكرنا هدي النبي ﷺ في ذلك، وإذا ما انتهينا من الأكل حمدنا الله وتذكرنا هدي نبينا ﷺ في ذلك.

فالاحتفال بالنبي ممارسة يومية، فلسنا بحاجة إلى يوم من أيام السنة نحصره ونحتكره للاحتفال بالنبي ﷺ، وقد قال العلماء: من لوازم الاحترام والتقدير للنبي ﷺ أن يعرف الإنسان ما عليه ﷺ من الصفات الخَلقية والخُلقية حتى تزداد مكانة ورهبة النبي ومحبته ﷺ في قلوب أمته. وأما زعماء الدنيا فهم الذين يحتاجون إلى الاحتفال بيوم ولادتهم، ويوم استلامهم الكرسي، وأيام أخرى حتى تبقى ذكراهم لدى شعوبهم هذا إن بقيت!

أما أولئك الذين يحتفلون بالنبي ﷺ بطرائق محددة، قد يصل بالأمر إلى الشرك والاستغاثة بالنبي ﷺ، فهذه الأمور من تلبيسات الشيطان، والأمة أبداً ليست بحاجة إلى أيام محددة للاحتفال بمولده وإسرائه وهجرته ﷺ، حتى لا يصبح الدين أياماً معدودة على الأصابع للاحتفال، بل الأصل في ذلك أن تعود الأمة بكل سلوكها وتعاملاتها ومنهجها إلى الهدي النبوي، فتلتزم وتقتدي به في كل شأن من شؤون حياتها وفي كل يوم من أيامها، وإلا فما فائدة من يحترم الاحتفال بالمولد النبوي يوماً واحداً، بينما هو يأكل الحرام باقي أيام السنة، ويغتاب الناس، ويستحل الحرمات، ويكذب هنا ويسرق هناك، ويظلم هنا ويفتري هناك.

أقول: ليس هناك وقت أو جيل أكثر حباً للنبي ﷺ من القرون الأولى التي ثبت من الله لها الرضا، فلم نعرف أنهم تذكروه في يوم واحد، فإذا ما أذن بلال تذكروا حبيبهم وبكوا، وإذا ما ذكروا صفة صلاته تذكروا نبيهم وبكوا، فهو عليه الصلاة

والسلام حاضر في قلوب وحياة المسلمين ولا يحتاج إلىٰ هـٰذه البدع التي دخلت في القرون المتأخرة، ومحاولة تحويل الدين الإسلامي من اعتقاد قلبي وولاء يقيني وممارسة يومية بالشعائر التعبدية والسلوك الراقي إلىٰ مجرد حالات احتفالية، تنقض طبيعة هـٰذا الدين ونظرته للكون والحياة وأيام الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ التي ميزها بين الأيام معروفة كشهر رمضان والأيام العشرة الأوائل من ذي الحجة ويوم عرفة وتاسوعاء وعاشوراء وليلة القدر وغيرها، ولو شاء الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ لجعل يوماً من هـٰذه الأيام للاحتفال بالإسراء والمعراج والمولد النبوي وغيرها مما ابتدعته بعض الطوائف والجماعات.

ويكفي شرفاً للنبي ﷺ أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ قرن اسمه باسمه في الأذان خمس مرات في اليوم والليلة، فلا يكاد صوت الأذان ينتهي من مكان إلا ويبدأ في مكان آخر حسب مواقيت كل بلد، حتىٰ غدت الكرة الأرضية لا تنفك من ترديد اسم النبي ﷺ، الذي هدىٰ الله به البشرية لدينه الحق.

إن الاحتفال الحقيقي بالنبي ﷺ ومولده يكون باتباع هديه وسنته والبعد عن البدع، والدفاع عن سنته ومنهجه، ورد كيد الأعداء عنها، وتفضيلها علىٰ غيرها من العادات والأعراف البالية، وحسن الانتماء للأمة الإسلامية والشعور بالولاء لها، والعمل علىٰ رفعة هـٰذا الدين ونصرته نصرة حقيقية.

وأريد أن أؤكد علىٰ نقطة أخرىٰ لا تقل أهمية عن التوضيح السابق، وهي أن الحديث عن الجوانب السلبية في حياتنا وممارساتنا لا يعني خلو مجتمعاتنا من البصمات الإيجابية الطيبة، وتركيزنا علىٰ بعض هـٰذه الممارسات السلبية لا يأتي بنفس تشاؤمي، أو بهدف إحباط الناس، بل بهدف إصلاحي، فوضع اليد علىٰ الجرح والتشخيص الصحيح للمرض أولىٰ مراحل العلاج، وأي مجاملة في غير موضعها من الطبيب المعالج للمريض بحيث تغير من طبيعة المرض أو طبيعة تشخيصه لن تكون في النهاية في صالح المريض.

هـٰذه المجاملة ستكون علىٰ حساب العلاج الصحيح للمريض، وجزء من

قضايانا المزمنة إنما تأخر علاجها إما بسبب التشخيص الخاطئ للمرض ـ وهٰذه حالات نادرة ـ أو بسبب المجاملات التي تحد من توصيف المشكلة بشكل واضح وشفاف، وهٰذا هو الأعم الأغلب.

وهٰذه الحالة لا تخص بلداً دون بلد ولا إقليماً دون إقليم، بل هي حالة عامة، يعاني منها العرب في هٰذا العصر بسبب افتقادنا للنقد الواضح خلطاً بين الحفاظ علىٰ التوازن القائم وبين بتر الورم من الجسد.

ولنأخذ مثالاً حياً من واقعنا العربي المعاش، فقضية القدس التي كانت معرضة لتدنيسها بقطعان المستوطنين قبل أيام، ما هي إلا مثال علىٰ حالات المجاملة في السياسة العربية والتخبط في تشخيص المرض، والتخبط في علاجه.

فمن التخبط في تشخيص المرض هٰذا التوصيف السيئ للاحتلال الصهيوني لفلسطين، ونزع الأبعاد العقدية والتاريخية والحضارية التي تقف خلفه وحصره في المجال السياسي والاقتصادي، فهٰذا التشخيص والتوصيف الخاطئ للمرض أدىٰ إلىٰ استفحاله، فلم نستوعب أبعاد الوجود الصهيوني في المنطقة العربية وأبعاد المعركة العقائدية الحضارية.

ولذا فشلنا في توصيف العلاقة بين دولة العدو الصهيوني وبين الولايات المتحدة، وحصرناها في مجالات سياسية واقتصادية محددة، حالت دون رؤية التحالف التوراتي المسيحي المتصهين، وعدم قدرة الولايات المتحدة علىٰ اتخاذ موقف الحياد كما توهم بعض سياسيينا؛ لأن هٰذا الحياد ينافي العلاقة العقائدية التاريخية التي تربط بين الطرفين، حتىٰ رأينا رموزاً وتصريحات واضحة ما بين فترة وأخرىٰ لدىٰ القيادة الأمريكية، حاولنا الضحك علىٰ أنفسنا من خلال تبريرات ومخارج تبعد هٰذه التصريحات عن جوها العقائدي الديني، مثل تصريح الرئيس الأمريكي السابق «ريغان» مثلاً عن يوم «الهرمجدون» حيث المعركة الكبرىٰ في فلسطين، وتصريح الرئيس الأمريكي الحالي «بوش» عن «الحروب الصليبية».

وجمعنا إلىٰ مصيبة تشخيص المرض مصيبة أخرىٰ في توصيف العلاج، فبعد أن فشلت القومية العربية في قيادة معركة التحرير، وتكسرت كل أوهامها علىٰ صخرة هزيمة ١٩٦٧م، حولنا مسارنا إلىٰ إطلاق نداء السلام والصلح مع عدو اغتصب أرضاً ولن يعيدها بسهولة، فكان أشبه ما يكون بإعلان الهزيمة الرسمية والتسليم بكل شيء للعدو.

ولو كان خلافنا مع عدونا خلافاً سياسياً لهانت المسألة، ولو كانت الأراضي التي سلبها في أطراف الأرض لهانت المصيبة، فقد سبق أن سلبت أراضي كثيرة من المسلمين كان آخرها في إندونيسيا وربما تعود الكَرة في جنوب السودان، ولكن المسألة أعمق من ذلك عند عدونا، وهي أرض مقدسة ووقف إسلامي لا يحق لأحد من المسلمين التنازل عنها.

ويكفي أن اليهود عندما دخلوها كانوا يرددون: «يا لثارات خيبر»، «محمد مات.. وخلف بنات» فكيف ينظر العدو هٰذه النظرة الصحيحة لطبيعة الصراع وهو علىٰ باطل؟ وكيف ننظر ـ نحن العرب ـ نظرة خاطئة للصراع ونحن أصحاب حق؟

• تجارب رائدة:

وحتىٰ لا نُتهم بأننا من أصحاب نظرية نصف الكأس الفارغة، وحتىٰ لا نتمادىٰ كثيراً في تشريح آلام الأمة وقضاياها، دعونا اليوم علىٰ الأقل في لحظات نادرة نستعرض تجارب رائدة تحاول أن تترك بصمات إيجابية، وتحاول أن تصنع شيئاً بدلاً من تكرار البكاء علىٰ اللبن المسكوب، وقد اخترنا تلك التجارب لمؤسستين، الأولىٰ كويتية والثانية خليجية، وهما تشتركان في خدمة نفس الهدف وهو القرآن الكريم، كتاب الله سبحانه وتعالىٰ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

١ ـ التجربة الكويتية:

لدينا في الكويت تجربة بدأت تؤتي ثمارها الطيبة في السنوات الأخيرة، وهي تجربة الصندوق الوقفي للقرآن الكريم وعلومه، والصندوق الوقفي بالإضافة إلىٰ

الصناديق الأخرىٰ، وهي صندوق التنمية العلمية والاجتماعية، وصندوق رعاية المساجد تمثل الهيكل المؤسسي للأمانة العامة للأوقاف التي أنشئت في عام ١٩٩٣م.

ويهدف الصندوق الوقفي إلىٰ خدمة القرآن الكريم وتعزيز تلاوته وحفظه وتجويده، والاهتمام بتدريس العلوم المرتبطة به، وتشجيع الدراسات القرآنية، ولعل أهم برامج الصندوق مسابقته السنوية للقرآن الكريم والتي تنظم برعاية كريمة من سمو أمير البلاد.

وتلبية لتلك الأهداف رأينا مساهمة الصندوق الوقفي للقرآن في إنشاء مراكز حفظ القرآن الكريم، وإعداد المناهج التي تحقق سرعة تلاوة وتجويد القرآن الكريم وغيرها من البرامج التي تلمسنا آثارها علىٰ أبنائنا، وكم سَرَّنَا ما شاهدناه علىٰ تلفاز الكويت عندما عرض بعد الإفطار في شهر رمضان المبارك نماذج لقراءات أبنائنا الحفظة للقرآن الكريم وقدرتهم المتمكنة علىٰ التجويد والترتيل، فكان منظراً يسر الخاطر، ويعيد فوائد الكتاتيب التي افتقدناها في فترة من الفترات ولكن بأسلوب عصري متجدد، يعيد اهتمام ناشئة المسلمين بكتاب الله، ويعينهم علىٰ حفظه في الصدور مثلما توالت عليه العصور بالحفظ والرعاية.

وقد تجاوزت ـ بحمد الله ـ وفضله أعداد المشاركين العشرات والمئات، وأصبح يشارك في المسابقة السنوية آلاف من أبناء الكويت؛ مما يعكس توجهاً عاماً طيباً لدىٰ أهل الكويت بأن يجمع أبناؤهم العلوم العصرية في المدارس النظامية والعلوم الشرعية وعلىٰ رأسها حفظ كتاب الله وهو توجه طيب.

وخصوصاً أن الصندوق الوقفي للقرآن الكريم وعلومه يحتفل العام المقبل بتنظيم المسابقة العاشرة لتحفيظ القرآن الكريم، وهي مناسبة تستحق أن نوجه التحية لكل القائمين علىٰ الصندوق لجهودهم لخدمة كتاب الله، وهي بلا شك جهود إيجابية طيبة وتجارب رائدة تستحق الالتفات لها والإشادة بها ودعمها من أجل أن تستمر وتتطور لتعم الاستفادة كل محب لكتاب الله.

٢ ـ التجربة الخليجية:

التجربة الخليجية التي تقوم بمهمة خدمة كتاب الله هي تجربة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. . هٰذه التجربة التي أصبحت صرحاً شامخاً في المدينة المنورة لخدمة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، استجابة للحاجة المتزايدة في العالم الإسلامي للمصحف الشريف وترجمة معانيه إلىٰ مختلف اللغات التي تتحدث بها الشعوب الإسلامية، والعناية بمختلف علومه، وكذلك خدمة السنة والسيرة النبوية المطهرة.

وقد وضع خادم الحرمين الشريفين حجر الأساس عام ١٩٨٢م، وتم افتتاحه عام ١٩٨٤م، ومن أهداف المجمع طباعة المصحف الشريف بالروايات المشهورة في العالم الإسلامي، وتسهيل تلاوة القرآن الكريم وترجمة معانيه وتفسيره، والعناية بعلوم القرآن الكريم والسنة والسيرة النبوية، ونشر هٰذه الإصدارات علىٰ شبكة الإنترنت ووسائل النشر الإلكتروني.

ويقع هٰذا المجمع العملاق علىٰ مساحة مائتين وخمسين ألف متر مربع، وللمجمع إنجازات جبارة منها نشر ترجمات معاني القرآن الكريم إلىٰ ٤٤ لغة منها ٢٣ لغة آسيوية وعشر لغات أوروبية و١١ لغة إفريقية.

ويخدم المجمع مركزاً للدراسات القرآنية، ومركزاً لخدمة السنة والسيرة النبوية، وقد وصل إنتاج المجمع في نهاية عام ١٤٢٥هـ إلىٰ أكثر من ١٩٠ مليون نسخة موزعة بين مصاحف كاملة وأجزاء، وترجمات وتسجيلات وكتب للسنة، بالإضافة إلىٰ توزيع ما يقارب مليون نسخة من المصاحف علىٰ حجاج بيت الله كل عام.

وتتبع المجمع إدارات عديدة تقوم بهٰذا العمل الجبار من أجل ضبط الجودة والمراجعات اللغوية والطباعة بأحدث الوسائل والمعدات، ويعمل في المجمع حوالي ١٥٠٠ شخص ما بين علماء وأساتذة جامعات وفنيين وإداريين، ويتميز المجمع بنظام غاية في الدّقة للمراقبة متعدد المراحل، فهناك مراقبة النص التي تتم عن طريق

لجنة مختصة في علوم القرآن من تجويد وقراءات ورسم وضبط، وهي الوحيدة المسؤولة عن إعطاء الأمر ببدء الطبع لأي ملزمة بعد التأكد من سلامة النص.

وهناك لجنة المراقبة النوعية المسؤولة عن اكتشاف أية أخطاء محتملة على خطوط الإنتاج المختلفة من طباعة وتجميع وخياطة وتجليد، وهناك لجنة المراقبة النهائية، بالإضافة إلى جهاز كامل للمراقبة النهائية يزيد عدد العاملين فيه على ٦٠٠ مراقب نهائي، وهي بلا شك جهود جبارة لمست آثارها في كل دول العالم الإسلامي، وأصبح المجمع مصدر فخر لأهل الجزيرة جميعاً؛ حيث يقوم على خدمة كتاب الله بشكل صحيح وموثق، وهي جهود مشكورة ومأجورة.

• اترك بصمتك:

إن استعراضنا السابق لهذه التجارب الكويتية والخليجية ليس حصراً ولكنه مثال، وإلَّا فإن هناك العشرات بل المئات من المؤسسات المشابهة، كل يعمل وينتج من أجل مستقبل أفضل، فهذه مؤسسة مهتمة بالنشء المسلم، وتلك مؤسسة مهتمة بفتيات المسلمين، وثالثة لمحاربة الإدمان والتدخين، ورابعة للاهتمام بالبيئة، وخامسة للاهتمام بالإبداع والبحث العلمي، وأخرى للأعمال الخيرية، وتلك جمعية، وهذه مبرة، وأخرى لجنة، وأخرى هيئة، وأخرى مؤسسة، كلها تبذل من أجل البناء والتطوير، فهناك الكثير من التجارب التي يقدمها النخبة من أبناء الجمعيات السابقة وغيرها التي تستحق الإشادة والتقدير.

ما نريد أن نقوله فقط هو التوقف عن ممارسة عادة رؤية الآخرين وهم ينتجون ويعملون والاكتفاء بالمشاهدة أو التصفيق والتشجيع، والتقدم خطوة من هذه التجارب ودعمها والانخراط مع القائمين عليها، والانضمام لقوافل البناء التي تسعى إلى تحقيق عالم أفضل لمجتمعاتنا، فقط كل ما يحتاجه الإنسان أن يتخير مجالاً إيجابياً بناءً يناسب ميوله وهواياته وإمكانياته وقدراته وطاقاته لينخرط فيه فيحقق ذاته، ويتحول من عنصر الحياد إلى عنصر الإيجاب.

إن هناك مـجـالات رحـبـة واسـعـة لكل من يريـد أن يضع لبنة في بنـاء الوطن والمجـتـمع . وإن الـدعـوة مـفـتـوحـة لـيـصـبح أي واحـد من رواد مـدرسـة التـفـاؤل والإيجابية ، فالوطن والمجتمع والأمة بأسرها تحتاج اليوم إلىٰ صناع الخير والأمل والمستقبل ، وليس من المستغرب ولا المستبعد أن تكون واحداً منهم ، فقط فكر وخذ القرار وستجد أن الأمور أفضل حالاً .



(٦)
كما تدين.. تُدان

- ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴾(١) .
- ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾(٢) .
- ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾(٣) .
- «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»(٤) .
- «**اتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»(٥) .
- «مَنْ سَلَّ سَيْفَ الْبَغْي قُتِلَ به» . [الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه] .

هل تكفي هٰذه اللافتات للتعبير عما حدث للنظام العراقي، فنحن هنا لا نفتح باباً للشماتة، فالأمر أكبر من ذلك بكثير، بل نتحدث عن سنن شرعية في عاقبة الظلم والظالمين، ومصير الطغاة والمتجبرين، فكما تدين تدان، وسبحان الرحمن الذي أرانا هٰذه السنة الربانية تتحقق في طاقم الحكم في العراق، فكم شردوا وكم قتلوا وكم اغتصبوا واعتقلوا وعذبوا وسجنوا وأعدموا وهتكوا الأعراض واستولوا على الممتلكات وصادروا الأموال والأراضي والعقارات، ولفقوا التهم الباطلة لأشراف العوائل في العراق، وامتد ظلمهم سنوات طويلة بلغت العقود، شردوا خيرة شباب العراق وعلمائه ومفكريه وأدبائه ومثقفيه في المنافي والبلدان، وبددوا

---

(١) إبراهيم: ٤٢ .
(٢) الشعراء: ٢٢٧ .
(٣) النمل: ٥٢ .
(٤) البخاري في التفسير (٤٦٨٦)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٣) .
(٥) البخاري في المظالم (٢٤٤٨)، والترمذي (٢٠١٤) .

الثروات الوطنية، وأعادوا العراق إلىٰ العصور المظلمة، وشقوا صف الأمة العربية وكانوا سبباً أساسياً في جلب الأجنبي إلىٰ المنطقة العربية، وسلموا العراق ـ بلد الحضارات ـ في حرب لم يصمدوا فيها صمود الرجال، وفروا بعد أن ملؤوا وسائل الإعلام بالتضليل والتزييف والأكاذيب وجيش القدس والأكفان المجهزة للأمريكان، رغم محاولة الحكماء الوصول إلىٰ حل يجنب المنطقة الويلات والدمار، لكنهم أصروا علىٰ جبروتهم وطغيانهم بعد أن وصلت بهم الأمور إلىٰ الاعتقاد بأنهم متمكنون من كرسي الحكم، ولا يمكن لأي قوة علىٰ الأرض أن تزحزحهم، بعد أن خاضوا حرباً مع إيران ولمدة ٨ سنوات أكلت الأخضر واليابس، ثم افتروا علىٰ الكويت ودخلوها في ليل بهيم بعد أن أعلنوا هم أنفسهم الميثاق العربي الذي يحرم اعتداء دولة عربية علىٰ أخرىٰ، حتىٰ وصل الأمر بهم إلىٰ الجبروت المطلق الذي بعده لا يتخيل الحاكم أن تتغير الأيام والأحوال، وتأتيه بما لا يحب، فكان خارج حساباتهم أن الله يقتص من الظالم، ولم يعتبروا بمن سبقهم من الطغاة علىٰ مر التاريخ.

فلم يعتبروا من النمرود وكيف عذبه الله ببعوضة، ولا بمصير فرعون وكيف طواه اليم ونجىٰ الله بدنه ليكون آية لهم ولغيرهم، ولنهاية قارون، ولنهاية الحجاج الذي لم يلبث بعد قتله للرجل الصالح سعيد بن جبير إلا أربعين ليلة، كان في كل ليلة إذا نام جاءه سعيد في المنام ويقول له: يا عدو الله فيم قتلتني؟ فيقول الحجاج: ما لي ولسعيد بن جبير، ما لي ولسعيد بن جبير، وكأن صدام حسين يردد اليوم: ما لي وللكويت، ما لي وللكويت.

ألم تكن في الكويت دعوة إلىٰ الله، ومساجد يعمرها الإيمان، وليالي رمضان ومصاحف وقيام ودعاة إلىٰ الله فروا من مختلف البلدان ووجدوا في الكويت دار أمان؟! ألم تكن في الكويت أكبر جالية فلسطينية، تبعث بما ييسره الله لها من الرزق لدعم أهلها في الأرض المحتلة المباركة؟! ألم تكن في الكويت حركة إسلامية فلسطينية وكوادر إسلامية كانت تعمل لصالح فلسطين والقدس؟! ألم تكن في

الكويت جمعيات خيرية تسعىٰ علىٰ الأرملة والمسكين والضعيف؟! ألم يكن في الكويت كل هـٰذا وأكثر وجاء صدام ليقضي عليه، ويحول الكويت إلىٰ إحدىٰ الخرائب العراقية التي يحكمها؟!

بالفعل لقد أرانا الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ عدالته في القصاص.

فقد جعلوا ملايين العراقيين مهجرين ومشردين داخل وخارج العراق، فجعلهم الله مطاردين مشردين من بيت إلىٰ بيت ومن محافظة إلىٰ أخرىٰ منذ سقوط النظام وإلىٰ أن لقوا نهايتهم المستحقة.

كما أنهم افتروا علىٰ الناس، ولفقوا لهم التهم، ولم يمنحوهم محاكمة عادلة ولا كانت في قلوبهم رحمة، وهاهم حرموا من المحاكمة ولقوا مصرعهم وجزاءهم.

وهم كذلك حاصروا شهداء بيت القرين، ورغم أنهم كانوا قادرين علىٰ إطالة الحصار وإلقاء القبض عليهم، لكنهم استعملوا القوة واستمروا في ضربهم بمختلف الأسلحة حتىٰ مضوا شهداء، وهاهم اليوم يموتون بنفس الطريقة بعد أن حاصرهم الأمريكان وكان بإمكانهم إطالة الحصار وإلقاء القبض عليهم، وكما تدين.. تدان.

وها هو من قبلهم «حسين كامل» كيف أبلغه الله مأمنه بعد هروبه مع أخيه إلىٰ الأردن ثم عاد ليلقىٰ حتفه ومصيره جزاء ما فعله وما اقترفت يداه.

يبقىٰ أن ننصح مَن «أياديهم في الماء» ألا يفتروا علىٰ مَن «أياديهم في النار» ويفتوا غير مأجورين بأن الهالكين «عدي وقصي» شهداء، فالشهيد هو الذي يشهد بأن شريعة الله أغلىٰ من حياته، وحاشا لله أن يكون هـٰذان من الذين لهم علاقة بالشريعة والدين، ومن أطرف ما سمعته من محامية في إحدىٰ دول الشام أنها قالت: إن عدي كان يصوم «الاثنين والخميس»!!

ولو كان هـٰذا الذي أفتىٰ بشهادة الأخوين قد تعرضت ابنته للاغتصاب وهي في طريقها إلىٰ جامعة بغداد، أو قتل ولده في إحدىٰ جولات أم المعارك، أو أعدمت زوجته داخل أحد المعتقلات علىٰ يد زبانية صدام بعد أن نالوا منها ما أرادوا، هل

سيظلان عنده شهيدين!! قبح الله العاطفة والهوىٰ كم أساءت إلىٰ الدين، فما أكثر ما يأتي به الأواخر من العجائب بما لم يأت به الأوائل!!

نقول لهـٰؤلاء الذين تعاطفوا مع مقتل الظالـم، ونسوا أنات وآهات المظلوم: إن كرهكم لأمريكا وما تفعله في المنطقة ودعمها اللامحدود للكيان اليهودي، لا يعطيكم جواز مرور لرفع هـٰؤلاء الظلمة إلىٰ مراتب الشهداء وفي عليين، وإذا أصبح طغاتنا وجبابرتنا شهداء، فمن أين تأتي كل موجات الظلم والجبروت والقهر والديكتاتورية، وإذا كانت كل الأنظمة العربية عبارة عن مجموعة من الملائكة الأطهار والسلف الصالح الأبرار، فمن الذي سرق أراضينا وأضاع دولنا وبدد ثرواتنا وأتلف محاصيلنا، وأهدر حقوقنا، وسجن مفكرينا.

وإذا كان الطغاة يموتون شهداء، فلا تستحق هـٰذه الشعوب إلا الاستبداد، وإذا كان الظالمون في أعلىٰ عليين، فلا نستحق نحن الشعوب إلا أسفل سافلين في السجون، فإذا كانت هـٰذه هي عقلياتنا فلا نستحق عليها إلا الإبادة والخروج من التاريخ والجغرافيا مرة واحدة... وبلا عودة!!

إن هـٰذه الموازين التي نطرحها لا تجعلنا نغفل عن خطورة الوضع في العراق وضرورة معرفة التوجهات الأمريكية التي لا زالت غامضة بالنسبة لمستقبل المنطقة، وقد يفلت الزمام منها تحت شرارة أي حرب طائفية محتملة في العراق متوفرة بقوة مبرراتها ومؤشراتها، فلا نريد أن ننام ونصحو علىٰ خريطة للمنطقة تحقق ما عجز عنه من قبل عبد «الكريم قاسم» و«صدام حسين» ولكن هـٰذه المرة بيد الأمريكان!!

• الطاغية... وحوبة الكويت:

هل لا زال طعم المرارة في حلوق الكويتيين من ذكرىٰ ٢/٨ حتىٰ وهم يرون في التاسع من أبريل سقوط تمثال الطاغية العراقي علىٰ شاشات التلفزة والفضائيات؟

لقد كان هـٰذا الحدث النادر في العالم العربي خصوصاً في العقود الأخيرة التي وصل فيها العجز عن التغيير إلىٰ تحول الجمهوريات إلىٰ ملكيات وراثية غير معلنة،

ولعل التساؤل الثاني الذي لا يقل أهمية عن التساؤل الأول وربما يزيد عليه إثارة هو : كيف يشعر الرئيس العراقي المخلوع في هـٰذه اللحظات ، وهو يستذكر كل أمهات المعارك التي خاضها والثروات التي بددها متخيلاً ذاته تارة بأنه رمز القادسية الجديد ، وتارة أخرىٰ صلاح الدين؟ وفي كل الأحوال سليل الدوحة المحمدية وقد انتهىٰ به المآل إلىٰ تأجير المرتزقة للقيام ببعض أعمال التخريب هنا وهناك .

إن منهج الطغاة في التاريخ واحد ، ودستورهم واحد ، ومصيرهم واحد ، ولكن المشكلة أنهم لا يعتبرون . ويعرّج الأستاذ سيد قطب علىٰ شرح حالة الطاغوتية في معرض تفسيره لقوله تعالىٰ واصفاً غرور فرعون الذي نادىٰ في الجماهير : ﴿ **أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى** ﴾[1] ، فقال : «انطلقت منه الكلمة الوقحة المتطاولة المليئة بالغرور والجهالة : ﴿ **أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى** ﴾ .

قالها الطاغية مخدوعاً بغفلة جماهيره ، وإذعانها وانقيادها ، فما يخدع الطغاة شيء ما تخدعهم غفلة الجماهير وذلتها وطاعتها وانقيادها ، وما الطاغية إلا فرد لا يملك في الحقيقة قوة ولا سلطاناً ، إنما الجماهير الغافلة الذلول :

تمطي له ظهرها فيركب!

وتمد له أعناقها فيجر!

وتحني له رؤوسها فيستعلي!

وتتنازل له عن حقها في العزة والكرامة فيطغىٰ!

والجماهير تفعل هـٰذا مخدوعة من جهة وخائفة من جهة أخرىٰ ، وهـٰذا الخوف لا ينبعث إلا من الوهم ، فالطاغية ـ وهو فرد ـ لا يمكن أن يكون أقوىٰ من الألوف والملايين ، لو أنها شعرت بإنسانيتها وكرامتها وعزتها وحريتها ، وكل فرد فيها هو كفء للطاغية من ناحية القوة ، ولكن الطاغية يخدعها فيوهمها أنه يملك لها شيئاً! وما يمكن أن يطغىٰ فرد في أمة تعرف ربها وتؤمن به وتأبىٰ أن تتعبد لواحد من خلقه لا يملك لها ضراً ولا رشداً!

---

(١) النازعات : ٢٤ .

ويواصل سيد قطب في كتابه «الظلال» عرض حالات الطغيان متمثلة بفرعون وأتباعه في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾[1] قائلاً: «ليس وراء الطغيان إلَّا الفساد، فالطغيان يفسد الطاغية، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء، كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة، ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف، المعمر الباني، إلىٰ خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال.

إنه يجعل الطاغية أسير هواه؛ لأنه لا يفيء إلىٰ ميزان ثابت، ولا يقف عند حد ظاهر، فيفسد هو أول من يفسد، ويتخذ له مكاناً في الأرض غير مكان العبد المستخلف، وكذلك قال فرعون: أنا ربكم الأعلىٰ، عندما أفسده طغيانه، فتجاوز به مكان العبد المخلوق، وتطاول به إلىٰ هٰذا الادعاء المقبوح، وهو فساد أي فساد.

ثم هو يجعل الجماهير أرقاء أذلاء، مع السخط الدفين والحقد الكظيم، فتتعطل فيهم مشاعر الكرامة الإنسانية، وملكات الابتكار المتحررة التي لا تنمو في غير جو الحرية، والنفس التي تستذل تأسن وتتعفن، وتصبح مرتعاً لديدان الشهوات الهابطة والغرائز المريضة، وميداناً للانحرافات مع انطماس البصيرة والإدراك، وفقدان الأريحية والهمة والتطلع والارتفاع، وهو فساد أي فساد.

ثم هو يحطم الموازين والقيم والتصورات المستقيمة؛ لأنها خطر علىٰ الطغاة والطغيان، فلا بد من تزييف للقيم، وتزوير في الموازين، وتحريف للتصورات كي يتقبل صورة البغي البشعة، وتراها مقبولة مستساغة... وهو فساد أي فساد».

• خطورة الحكم الشمولي:

وأخطر ما في الحكم الشمولي هو ربط مصير الجماهير وحاضرها ومستقبلها بنظام حكم قمعي منغلق، شديد التوجس من الآخرين، يملك آلة أمن رهيبة تستهلك الجزء الأكبر من ميزانية الدولة، لتضمن حالة من استنساخ العقول لضمان

(١) الفجر: ١١، ١٢.

الطاعة للرمز الأول لهـٰذا الحكم المستبد، يقول د. تركي الحمد في بحثه القيِّم: «الغزو: الأسباب الموضوعية والمبررات والأيديولوجية» والذي نشر في عالم المعرفة (١٩٥) أن:

«هناك علاقة طردية بين عسكرة المجتمع والمغامرات الخارجية التي تقوم بها السلطة في ذلك المجتمع تحت مختلف التبريرات والأقنعة الأيديولوجية، فكلما كان المجتمع أكثر عسكرة، كان أكثر ميلاً إلىٰ الدخول في حروب ومعارك تهدف إلىٰ إعطاء مبررات «شرعية» لذات المجتمع العسكري من ناحية، وحل أزمات ومشكلات المجتمع المدنية والتي لا تجد لها حلاً داخلياً في ظل هيمنة «العسكرتاريا» من ناحية أخرىٰ.

وحكم الحزب الواحد، ومن ثم الزعيم الأوحد في العراق، وذلك فيما يعرف باسم الحكم الشمولي، أدىٰ إلىٰ عسكرة المجتمع منذ البداية وأخذت هـٰذه العسكرة تتصاعد خلال السنوات اللاحقة لتسلم الحزب للحكم عام ١٩٦٨ م حتىٰ وصلت مداها أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية وقمتها في أعقاب هـٰذه الحرب.

ففي عام ١٩٦٧ م «حرب يونيو» كان الجيش العراقي يشكل حوالي ٩٦ , ٠ ٪ من مجمل سكان العراق البالغ عددهم حينئذ ٥ , ٨ مليون نسمة، وارتفعت هـٰذه النسبة عام ١٩٧٢م إلىٰ ١ ٪ من السكان البالغ عددهم ١٠ ملايين نسمة، وعام ١٩٨٢ م بلغت النسبة ٤ , ٢ ٪ من السكان البالغ عددهم ١٤ مليون نسمة، وعام ١٩٨٤ م كانت النسبة ٥ , ٥ ٪ من عدد السكان البالغ عددهم ١٨ مليوناً من البشر.

هـٰذه النسبة من العسكر يتبعها بالطبع أجهزة ومؤسسات ومدنيون يعملون لحساب المؤسسة العسكرية، ولنا أن نتصور مدىٰ ضخامة ذلك، أما بالنسبة لأجهزة الأمن الأخرىٰ (شرطة، مخابرات، أمن داخلي ونحو ذلك) فقد صدر تقرير عن حقوق الإنسان عام ١٩٩٠ م يقول: إن حوالي ٢٥ ٪ من سكان العراق يعملون لحساب أجهزة الأمن المختلفة، أي ما يقارب ٥ , ٤ مليون من السكان البالغ عددهم ١٨ مليوناً.

كل ذلك يصور لنا مدىٰ العسكرة التي خضع لها المجتمع العراقي في ظل نظام

الحكم الشمولي.

عندما يحدث كل هٰذا، فإن ذلك يخلق نوعاً من الإشكالية لمثل هٰذا النوع من المجتمعات.

فلا السلطة قادرة علىٰ إعالة هٰذا الكم، خاصة في ظل ظروف اقتصادية منهارة، ولا هي راغبة في التخلي عن وظيفتها الشمولية وإعطاء المجتمع المدني فرصة الحركة المستقلة؛ إذ إن في ذلك انهيارها، وحل هٰذه الإشكالية لا يكون إلا بأحد سلوكين: إما أن تتخلىٰ السلطة عن النهج الشمولي، وتسعىٰ إلىٰ تفتيت المجتمع العسكري، وذلك محال؛ إذ إن السلطة في هٰذه الحالة إنما تقضي علىٰ نفسها بنفسها، وإما أن يوجه النظام المجتمع وأجهزته إلىٰ مغامرات خارجية تحل الإشكال دون المساس بشرعية السلطة الشمولية أو بنيتها، هكذا كان سلوك الأنظمة الشمولية العسكرية عبر التاريخ، والعراق ليس استثناء».

ولو رجعنا إلىٰ طبيعة شخصية صدام حسين لرأينا كيف أنها متوافقة تماماً مع مبدأ عسكرة المجتمع والحكم الشمولي، يقول د. تركي الحمد: «وإذا أردنا تحليل شخصية صدام حسين متخذ القرار الأوحد في العراق، يمكن تلخيصها في: الإيمان بالعنف وسيلة لتحقيق الأهداف، الإعجاب بالزعامة المطلقة، التعصب للرأي الذاتي، والحاجز المعرفي مع العالم الخارجي».

فالدارس للسيرة السياسية لصدام حسين سيجد أن العنف كان الصفة الرئيسية المميزة لهٰذه السيرة، سواء تحدثنا عن مرحلة المعارضة أو مرحلة الحكم، سواء تحدثنا عن العلاقة مع الرفاق أو المعارضة أو الجيران.

ففي مرحلة ما قبل الحكم، تجد أن حادثة محاولة اغتيال «عبد الكريم قاسم» في شارع الرشيد عام ١٩٦٠م، والتي كان «صدام» أحد «أبطالها»، ما زالت أحد أهم المعالم في حياة صدام والتي يفتخر بها هو شخصياً.

فبالعنف وأجهزته استطاع «صدام» أن يصل إلىٰ قمة هرم السلطة في العراق، وبالعنف استطاع المحافظة عليها، فهو الذي دشن حكمه عام ١٩٧٩م بإعدام «وجبة» من رفاقه في الحزب تحت مبرر «المؤامرة السورية»، ثم اتجه إلىٰ المعارضة في أعقاب

الثورة الإيرانية وصفاها، وأخيراً اتجه إلىٰ العنف مع جارته إيران لحل كافة مشاكله معها.

بالإضافة إلىٰ ذلك، فإنَّه من المعروف ذلك الإعجاب الذي يكنّه الزعيم العراقي أيضًا للامبراطور البابلي «نبوخذ نصر» أعظم أباطرة بابل، وسعيه لأن يكون زعيمًا من ذلك النمط.

هـٰذا بالإضافة إلىٰ تلك الصور والتماثيل التي تملأ العاصمة العراقية وكافة مدن الجمهورية، والتي يبدو فيها «صدام حسين» ماداً يديه أو شامخاً بأنفه تحيط به رسومات خلفية لدبابات وفرسان وطائرات وصور عسكرية آشورية وبابلية، كل هـٰذه المؤشرات تعبر في جملتها عن تعطش للزعامة وسحرها علىٰ شخصية الساعي إليها، وهو ما مارسه فعلاً «صدام حسين» خاصة في أعقاب «نصره» علىٰ إيران حين أخذ يتصرَّف علىٰ اعتبار أنه الزعيم الأوحد لأمَّة العرب، وهو ما لاحظهُ كل مراقب تقريبًا لأعمال مؤتمر القمة العربية في بغداد عام ١٩٩٠م.

والتعصب للرأي الذاتي مسألة منطقية عند الحديث عن الأنظمة الشمولية التي تلتقي خيوطها في مركز واحد هو الزعيم.

وفي أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية وأثناء انعقاد اجتماع للقيادة العليا لمناقشة إحدىٰ الخطط الهجومية، انتقد أحد الضباط الخطة المقدمة من «صدام»، وعندما انتهىٰ من ذلك كان رد «صدام حسين» هو أن سحب مسدسه وأطلق النار عليه وأرداه قتيلاً في ذات الاجتماع.

أما الحاجز المعرفي مع العالم الخارجي فقد بدا واضحاً كل الوضوح أثناء أزمة الخليج وحرب الخليج الثانية.

فقد فوجئ مرة أثناء مقابلته لزائر غربي أن أبدىٰ دهشة حين علم أن انتقاد الرئيس الأمريكي لا يعد تعدياً علىٰ القانون، كما هو الحال في العرق، يعاقب عليه بالإعدام».

• المواصفات المثالية للطاغية:

وإذا أردنا أن نؤصل لمسألة الطغيان وطريقة تفكير الطاغية، يمكن أن نبرز بعض النقاط التي أوردها أ. د. «إمام عبد الفتاح» في كتابه القيم «الطاغية: دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي» عالم المعرفة (١٨٣)، فيقول: إن أهم السمات العامة للطغيان التي يمكن استخلاصها من التاريخ:

١ ـ الطاغية رجل يصل إلىٰ الحكم بطريق غير مشروع، فيمكن أن يكون قد اغتصب الحكم بالمؤامرات أو الاغتيالات، أو القهر أو الغلبة بطريقة ما، وباختصار هو شخص لم يكن من حقه أن يحكم لو سارت الأمور سيراً طبيعياً، لكنه قفز إلىٰ منصة الحكم عن طريق غير شرعي، وهو لهـٰذا يتحكم في شؤون الناس بإرادته لا بإرادتهم، ويحاكمهم بهواه لا بشريعتهم، ويعلم من نفسه أنه الغاصب والمعتدي، فيضع كعب رجله في أفواه ملايين من الناس لسدها عن النطق بالحق، والتداعي لمطالبته.

٢ ـ لا يعترف بقانون أو دستور في البلاد بل تصبح إرادته هي القانون الذي يحكم، وما يقوله هو أمر واجب التنفيذ، وما علىٰ المواطنين سوىٰ السمع والطاعة.

٣ ـ يسخر كل موارد البلاد لإشباع رغباته أو ملذاته أو متعه التي قد تكون في الأعم الأغلب حسية، أو قد تكون «متعته» في طموحاته إلىٰ توسيع ملكه، وضم المدن المجاورة أو الإغارة علىٰ بعضها لتدعيم ثروته.

٤ ـ ينفرد مثل هـٰذا الحاكم بخاصية أساسية، في جميع العصور، وهي أنه لا يخضع للمساءلة، ولا للمحاسبة، ولا للرقابة من أي نوع.

٥ ـ وهكذا يقترب الطاغية من التأله، فهو يرهب الناس بالتعالي والتعاظم، ويذلهم بالقهر والقوة وسلب المال حتىٰ لا يجدوا ملجأ إلا التزلف له وتملقه! وعوام الناس يختلط في أذهانهم الإلـٰه المعبود والمستبدون من الحكام، وبذلك يصبح هو: الحاكم، القاهر، الواهب، المانع، الجبار، المنتقم، المقتدر، الجليل،

الملك، المهيمن، المهيب، الركن» .

أما حياة الطاغية فيصورها أفلاطون على أنها سلسلة من «أعياد اللذة، والمآدب، والعشيقات، وغيرها من الانحرافات المنحلة «والمقصود بالطبع: أنه ما دامت الرغبات والميول الشهوانية هي المسيطرة، فسوف يعيش مثل هـٰذا الإنسان حياة بهيمية بلا قيم ولا مبادئ، وإشباع هـٰذه الرغبات المنوعة المتجددة كل يوم يحتاج إلى مال وإنفاق، وسرعان ما تنضب موارده فيبدأ في الاقتراض، كما يبدأ في تبديد ميراثه وممتلكاته» .

أما أعوان الطاغية، فإن «مثل هـٰذه الشخصية لن تصادق إلا رفاق السوء، ولهـٰذا ينبغي ألا تندهش عندما تجد أعوان الطاغية يمارسون مجموعة من «الجرائم البسيطة» كالسرقة أو السلب أو «ثقب الجدار» أو اغتصاب أموال المارة وملابسهم، وبيع الأحرار على أنهم عبيد، وإذا كانوا يجيدون الحديث احترفوا الوشاية، وشهادة الزور أو الاتهام الكاذب مقابل رشوة! ونحن نصف هـٰذه الجرائم بأنها «بسيطة» بالنسبة للجرائم الفادحة التي يرتكبها الطاغية، فهـٰذه الآثام كلها، لا تكاد تكون شيئاً مذكوراً، إذا ما قورنت بما يجلبه الطاغية على الدولة من بؤس ودمار وبلاء .

• القوة الحقيقية:

ونحن لا نطلب من الناس أن ينسوا ما حدث وكأن شيئاً لم يكن، ولكننا نطلب منهم أن يعوا الدرس جيداً، وأن يدركوا أن قوتهم في وحدتهم، وأنهم إن تدابروا حققوا لأعدائهم مطلبهم .

إن الذين يبحثون ويثيرون عوامل الفرقة بإحياء الطائفية، وبعث العنصرية، والتعصب للمذهبية، وإثارة القبلية، إنما يعملون على إضعاف شأن الكويت، وتوهين عقدتها أمام الأخطار الخارجية أو الداخلية . إن تركيز الاهتمام بحل مشاكل الكويت وتجميع أبنائها، وإحياء روح التعاون والتآلف بينهم ضرورة لازمة لتفادي كل المعوقات، ولقد وصل النواب إلى المجلس، ولم يمض على وجودهم فيه غير

شهر واحد لتواجههم ذكرىٰ الغزو الأثيم، وكأنها تقول لهم: إن عليكم عبئا عظيما وجهدا كبيرا في سبيل إعلاء الصرح الكويتي عاليًا، ولا يكون ذلك إلا بالتعاون بين السلطتين فيما فيه مصلحة البلاد، والعمل الجاد علىٰ حل مشاكل البلاد الاجتماعية والاقتصادية، والتعالي علىٰ الخلافات الشخصية.

إن المشاكل التي تمر بها الكويت ـ بعد الغزو ـ كثيرة، وكفيلة بملء وقت المجلس لو أنه حاول التصدي لها، من غير إظهار بطولات معينة من هٰذا العضو أو ذاك، ومن غير مظهرية لجذب الأنظار أو الأسماع، وحل هٰذه المشكلات أو بعضها كفيل بالتفاف الناس حول الأعضاء، وتمسكهم بهم، وهٰذا خير لهم من كثرة الكلام وتوجيه الاتهام.

• قضايا حيوية:

وقد آن الأوان بعد مرور ثلاثة عشر عاماً علىٰ جريمة الغزو أن نتخلص من آثار هٰذه المحنة وما تركته في نفوسنا من صور للظلم ولن يكون ذلك إلَّا عبر جملة قضايا حيوية ومهمة:

١ ـ تعميق الإيمان في نفوس أبناء الشعب والرجوع به إلىٰ الله للتخلص مما تركه الغزو الغاشم من آثار نفسية واجتماعية وغيرها.

٢ ـ الانتصار الحقيقي لا يكون إلا بتوحيد الصف الداخلي واستقرار مؤسسات الدولة وتوطيد العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

٣ ـ تفعيل كل ما من شأنه أن يحافظ علىٰ هوية الكويت العربية والإسلامية عبر التحرر من هيمنة القانون الوضعي وإحلال الشريعة الغراء، فهويتنا موسومة في الدستور ومزروعة في التاريخ: أن الإسلام هو منهج الحياة، وتطبيقه هو المكون الذي يمكن أن يحافظ علىٰ هويتنا، وإننا لنأمل من «لجنة استكمال الشريعة» التي أسست بمرسوم أميري في أعقاب التحرير أن يتم تفعيل دورها، وأن يقوىٰ أداؤها علىٰ نحو يدعو إلىٰ تحقيق هٰذه الأهداف، والحملة الشعواء التي يشنها

بعض الكتاب العلمانيين ضد التشريعات الإسلامية تصبّ ضد مصلحة الكويت؛ فالشعب الكويتي مسلم ويتعطش إلى تحكيم شريعة الله، ولا يمكن أن يكون له الفوز والفلاح بغيرها.

إن تجربة الكويت في الممارسة الديمقراطية تجربة متميزة في سياقها التاريخي وفي محيطها الإقليمي، فالأمة هي مصدر السلطات، ودستورها يؤكد المقومات الأساسية التي يقوم عليها المجتمع الكويتي وهي: «العدل والحرية والمساواة» لكن ذلك لا يعني أنه لا توجد عثرات أو سلبيات ليس هنا مجال التعرض لها.



(٧)
أبغض الحلال في زمن الانحلال

ابتداءً لا يوجد زمن منحل وزمن مؤمن، إنما هي موجات بشرية تتأثر بمعطيات بيئية واجتماعية وسياسية وإعلامية لتتصرف وفق ظروف معينة نحو استثقال الالتزام بالسلوك القويم، مدفوعة بتأثير شديد من نماذج معروضة كقدوة تدفع باتجاه الضعف الأخلاقي والسلوكي، وعادة ما تأتي بعد الحروب كما يؤكد علماء النفس موجة من الانحلال الأخلاقي والانغماس في الملذات المحرمة كمحاولة تعويض في مواجهة خطر الفناء الذي تفرضه الحرب وإشكالاتها.

وقد رأينا مثل هٰذه الموجات علىٰ مستوىٰ العالم العربي بعد نكسة وهزيمة ١٩٦٧م؛ حيث انطلق الشباب العربي - كما أذكر - بالقمصان المفتوحة والشعور الطويلة وموجة الهيبيز في ذلك الوقت وما تبعها من شذوذ سلوكي وأخلاقي، وتزداد خطورة هٰذه الموجة إذا وجدت الوسيلة الإعلامية التي تروج لها، وهٰذا ما نعانيه اليوم، سواء في العقد الأخير من القرن الماضي، أو العقد الأول من القرن الحالي، حيث شهدت المنطقة عدة حروب، ناهيك عن القضية الفلسطينية المتأزمة، مع وجود وسائل إعلام قوية متمثلة في الفضائيات للتعبير عن هٰذا التغيير السلوكي، الذي ستنتهي موجته متىٰ استنفدت أغراضه وظهرت نتائجه الاجتماعية المدمرة.

وقد لاحظ الباحثون زيادة واضحة في معدلات الطلاق أثناء الأزمات والحروب، فقد أشارت دراسة متخصصة إلىٰ ارتفاع عدد المطلقات إلىٰ نحو ٨٥ ألف حالة في مختلف الدول العربية خلال شهري مارس وأبريل حيث الحرب الأمريكية البريطانية علىٰ العراق، وهو ما يمثل زيادة قدرها ١٣ ٪ عن نفس معدلات الطلاق في شهري مارس وأبريل من العام الذي قبله، مما يؤكد دور الحروب في

«خراب البيوت» بسبب أجواء التوتر داخل البيت.

● **أرقام مفزعة:**

ففي الكويت ترتفع حالات الطلاق، وخاصة في السنوات الخمس الأولىٰ من الزواج، وحسب آخر إحصائية صادرة عن الكتاب السنوي الإحصائي لوزارة العدل فإن حالات الطلاق ارتفعت بنسبة ٩ , ١ ٪ من عام ٢٠٠٢م إلىٰ عام ٢٠٠٣م؛ مما يعكس استمرار الأزمة وتطورها، ففي عام ٢٠٠٢ بلغت حالات الطلاق ٣٩٢٤ حالة، وارتفعت في عام ٢٠٠٣م إلىٰ ٣٩٩٧، يشكل الكويتيون منها ٨ , ٦٣ ٪ إذا كان الزوج والزوجة من الكويتيين، بينما حالات الطلاق إذا كان الزوجان من جنسيات أخرىٰ فقط نسبة ٥ , ٦ ٪، وبالعموم بلغت معدلات الطلاق عام ٢٠٠٢م حوالي ١٦٦ حالة لكل ١٠٠ ألف شخص و١٦١ حالة لكل ١٠٠ ألف شخص، ولا يوجد ما يشير إلىٰ انخفاض هٰذه النسب في عام ٢٠٠٤م، علىٰ الرغم من الجهود الرسمية والشعبية لمواجهة هٰذه المشكلة الاجتماعية الخطيرة.

والحقيقة أن هٰذه المشكلة لا تنحصر في دولة الكويت فقط، ففي تقرير أعده مركز المودة الاجتماعي الذي يديره ويشرف عليه عدد من القضاة والمحامين والأطباء السعوديين وتناول الأوضاع الزوجية في مدينة جدة الواقعة غرب السعودية، أظهر أن عدد القضايا الأسرية التي تم التعاطي معها عام ٢٠٠٣ بلغت ١٠٧٦٦ حالة، وهي في ازدياد.

وقد أرجعت الدراسة الطلاق إلىٰ أربعة أسباب: منها الجهل بالحقوق الزوجية، وطرق التعامل مع الآخر، ووجود مشكلات عاطفية بسبب الأنانية وانقطاع الحوار، والانحرافات السلوكية بسبب الفضائيات والإنترنت والمخدرات، بالإضافة إلىٰ المشكلات المادية وما يندرج تحتها من عمل الزوجة وإهمالها للبيت والزوج والأولاد، وتعدي الزوج علىٰ مرتب الزوجة، وبخل الزوج واعتماده علىٰ راتب الزوجة، وكثرة طلب الكماليات، والديون. والإحصائيات الصادرة من وزارة العدل السعودية تؤكد هٰذا الاتجاه، حيث تبين وجود ١٦ ألف حالة طلاق مقابل ٧٠

ألف حالة زواج، وهو رقم مزعج جداً، خصوصاً إذا علمنا أن إجمالي حالات الطلاق قد تصل علىٰ مستوىٰ المملكة إلىٰ ٢٨ ألف حالة سنوياً.

وإذا انتقلنا إلىٰ دولة الإمارات العربية المتحدة، فقد زادت حالات الطلاق في السنوات الخمس الأخيرة، حيث تقع حالة طلاق كل ثلاث ساعات، وعلىٰ الرغم أن متوسط نسبة الطلاق في المجتمع الخليجي تبلغ حوالي ٢٦ ٪ إلا أنها تصل في الإمارات إلىٰ حوالي ٤٠ ٪، وهي نسبة مرعبة، فإذا ما أضفنا إليها قلة أعداد المواطنين في الدولة إلىٰ عموم عدد سكان الإمارات، أدركنا أبعاد المشكلة وخطورتها، ففي عام ١٩٩٧ بلغ عدد حالات الطلاق في الإمارات ٧١١٨ حالة تشمل المواطنين والمقيمين، بزيادة سنوية في حالات الطلاق ١٢ ٪.

وفي قطر يظهر تقرير الأمانة العامة لمجلس التخطيط القطري: أن معظم حالات الطلاق كانت بين الشباب المتزوجين حديثاً وخاصة في الفئة العمرية ما بين ٢٠ إلىٰ ٣٤ عاماً، كما أن ٤٤ ٪ من حالات الطلاق تمت بعد مرور سنة أو أقل علىٰ الزواج.

أما في دولة البحرين فقد بلغت نسبة الطلاق ٢٠ ٪ بناءً علىٰ إحصائيات المحاكم الخاصة بالأحوال الشخصية، ولكن هٰذه النسبة ترجع إلىٰ عشر سنوات مضت.

ولو خرجنا إلىٰ خارج منطقة الخليج العربي، فقد حذر تقرير رسمي في مصر من تراجع حالات عقود الزواج في البلاد في نفس الوقت الذي تتزايد فيه معدلات الطلاق، حيث بلغت حالات الطلاق عام ٢٠٠١ حوالي ٧٠ ألف حالة، وتزداد خطورة الوضع إذا ما علمنا أساساً بوجود نسب مرتفعة للعنوسة بين الفتيات.

فقد أفادت دراسة صادرة عن المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية أن عدد الفتيات اللاتي فاتهن قطار الزواج بشكل عام وأصبحن عانسات لا يقل عن ثلاثة ملايين فتاة، تمثل الفتيات الحاصلات علىٰ الدرجات العلمية المرتفعة منهن كالماجستير والدكتوراه ٢٥ ٪ أي حوالي ٧٥٠ ألف عانس يحملن درجة الماجستير والدكتوراه، والأرقام مزعجة جداً علىٰ الرغم من امتلاك هٰؤلاء عقليات علمية ممتازة، وقادرات علىٰ إدارة حياتهن الزوجية بشكل أفضل، ويتمتعن بقدر مقبول من

الجمـال وليست لهن مطالب مـادية قـاسـية في زوج المسـتقبل؛ مما يعكس خطورة الوضع.

وفي الأردن تقول المعطيات: إن ٤ آلاف حالة طلاق تسجل مقابل كل ٢٠ ألف حـالة زواج، مما يعني أن خـمس حـالات الزواج تنتـهي بالطلاق، ويرجع ذلك إلىٰ الزواج المبكر والضغط الاقتصادي.

وهكذا فإن الوطن العربي يشهد تقريباً حوالي نصف مليون حالة طلاق سنوياً علىٰ وجه التقريب، ولا نعلم ما إذا كان هـٰذا الرقم يعكس فشلاً اجتماعياً أم اختراقاً ثقافياً أم الأمرين معاً؟!

• عوامل تدفع للطلاق:

وقبل أن نستعرض أسباب الطلاق وهي بالعشرات بعضها أساسي وبعضها هامشي، نستعرض الظروف والعوامل التي تدفع نحو اتخاذ قرار الطلاق، ويمكن تقسيم تلك العوامل إلىٰ عوامل فردية، وعوامل اجتماعية.

أولاً: العوامل الفردية:

١ ـ ظروف التنشئة الاجتماعية:

وذلك بأن يعيش الفرد في ظروف قاسية، نتيجة طلاق والدته من والده وانفصالهما نهائياً بعد تكرار مرات الطلاق ثلاث مرات، أو شيوع ظاهرة الطلاق بين أفراد عائلته، وكذلك انخفاض مكانة المرأة داخل هـٰذه العائلة والنظرة إليها نظرة متدنية، والتفضيل بين الأبناء علىٰ أساس الجنس، وكذلك العيش في أسرة يسودها التوتر الأسري.

٢ ـ المستوى الاجتماعي والاقتصادي:

يؤثر المستوىٰ الاجتماعي والاقتصادي للأفراد علىٰ اتجاههم نحو الطلاق، فانخفاض المستوىٰ الاجتماعي والاقتصادي للأفراد يؤدي بهم غالباً إلىٰ تكوين اتجاهات موجبة نحو الطلاق، وكذلك ارتفاع المستوىٰ الاقتصادي مع انخفاض

المستوىٰ الاجتماعي خاصة في الدول النامية حيث لا يرتبط المستوىٰ الاجتماعي بالمستوىٰ الاقتصادي، فيصبح الطلاق لعبة، وتغيير النساء كتغيير موديلات الملابس والأزياء، بينما نجد أن أفراد الطبقة الوسطىٰ أو «البرجوازية» الصغيرة، أكثر حرصاً علىٰ استقرار الحياة الأسرية.

٣ ـ المستوى التعليمي والثقافي للأفراد:

يؤثر مدىٰ المستوىٰ التعليمي والثقافي للأفراد علىٰ اتجاههم نحو الطلاق، فالأفراد من ذوي المستوىٰ التعليمي والثقافي المرتفع أكثر إدراكاً لقيمة الحياة الزوجية، وأكثر قدرة علىٰ تحقيق التوافق الزواجي.

٤ ـ النضج العاطفي الوجداني والجنسي:

يؤثر مدىٰ النضج العاطفي الوجداني وكذلك النضج الجنسي في الاتجاه نحو الطلاق، «فالشخص الناضج عاطفياً لديه منظور للحياة، حيث يقوم سلوكه علىٰ التوازن بين العقل والعاطفة، ويعلم كيف يواجه مشكلات الحياة ويعمل علىٰ حلها، ولديه معرفة تامة بالحياة الاجتماعية كالحب والزواج ومطالب العيش في المجتمع، ويتخذ قراره بنفسه ويتقبل السلطة، ويعرف نتيجة سلوكه ويتحملها» فهو يعرف كيف يحب، وكيف يكره، ولماذا يكره؟ وهو صادق في تعبيره عن عواطفه ومشاعره، غير متقلب عاطفياً أو وجدانياً، فتتسم عواطفه بالثبات والاستقرار، ويكون سوياً في تعبيراته الجنسية.

بينما نجد أن الشخص غير الناضج عاطفياً ووجدانياً علىٰ العكس من ذلك تماماً متقلب العواطف والمزاج، لا يجيد التعبير عن مشاعره، غير قادر علىٰ توجيه وإدارة حياته، تابع لغيره، معتمد عليه، أناني، متمركز حول ذاته، لا يجيد التفاعل الاجتماعي، كما أن عدم النضج الجنسي يؤدي بالفرد إلىٰ التعبيرات الطفلية أو الشاذة؛ لهـٰذا تختلف الاتجاهات نحو الطلاق تبعاً للنضج العاطفي والوجداني.

٥ ـ نمط الشخصية:

من حيث السلامة أو المرض النفسي، والقيم والمعتقدات والاتجاهات الشخصية، والتدين، والنظام الخلقي . . . إلخ . فعلىٰ قدر تمتع الشخصية بالنواحي الإيجابية من عدمه يتحدد اتجاه الفرد من الطلاق سلباً أو إيجاباً، كما تؤثر قيمه الخاصة بالحياة الزوجية، والبنوة، والأبوة، والأمومة في الاتجاه نحو الطلاق .

ثانياً: العوامل الاجتماعية:

١ ـ ثقافة المجتمع:

تلك التي تتضح في الموروثات الثقافية من عادات وتقاليد وقيم، وما هي النظرة للحياة الزوجية؟ وما هي النظرة للمرأة؟ وما هي النظرة للزواج والطلاق؟ ونظرة المجتمع للمرأة المطلقة والرجل المطلق . . . إلىٰ آخر العادات والتقاليد المرتبطة بالزواج والطلاق، وكذلك الأعباء والتكاليف المرتبطة بها .

٢ ـ أساليب المعاملة الزوجية:

وذلك وفق الأطر العامة للعلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة، فقد أوضحت الدراسات وجود علاقة موجبة بين الأساليب السوية في المعاملة الزوجية والتوافق الزواجي .

٣ ـ الديانة ومستوى التدين:

يؤثر المعتقَد الديني حسب أحكامه علىٰ الاتجاه نحو الطلاق، كما يؤثر مستوىٰ التدين والتمسك بالتعاليم الدينية .

٤ ـ الطبقة الاجتماعية:

تؤثر الطبقة الاجتماعية علىٰ اتجاهات أبنائها نحو الطلاق، فالطبقة العليا تعتبر الطلاق عيباً وعاراً يلحق بالأسرة، بينما تعتبره الطبقة الدنيا أمراً طبيعياً ومتوقعاً، علىٰ أن هٰذا يختلف باختلاف المجتمعات .

٥ ـ مستوى تحضر المجتمع:

فالمجتمعات التي يغلب عليها التحضر المادي والتخلف الثقافي، يغلب على أفرادها الاتجاه الموجب نحو الطلاق، نتيجة التفكك الأسري، وغلبة الجانب المادي، بخلاف المجتمعات التي يغلب على أفرادها الاتجاه السالب نحو الطلاق، نتيجة للترابط الأسري، والإدراك الواعي لسلامة اختيار القرين، وسلامة نجاح الحياة الزوجية.

ثالثاً: استقلالية الرأي:

استقلالية الرأي أمر محمود إلَّا في بعض الحالات، حين يفرز ذلك الأمر قرارات عشوائية لا ترتكز على المصلحة العامة، والانفراد باتخاذ قرارات مصيرية بهذا الشكل الارتجالي أمر سيئ العاقبة، ومشاورة أهل العلم وأصحاب العقول الراجحة والآراء الصائبة في كثير من النزاعات أمر قد يقلِّص حالات الطلاق، خاصة عند كثير من الناس ممَّن يفتقد القدرة على احتواء مشكلاته بنفسه، ولنا في القرآن خير معين حين يأمر بإرسال حَكَمٍ من أهله وحكم من أهلها للصلح بين الطرفين.

رابعاً: الجهل بالغرض من الزواج:

كثيرون يرون أنَّ الزواج يعني وجهاً جميلاً وبيتاً منظَّماً وعشاء فاخراً، وكثيرات يرين أنَّ الزواج يعني رجلاً غنياً وحرية واسعة وانطلاقاً بلا حدود، لكنَّ ثمَّة غرضاً يجهله بعض الأزواج، وهو أنَّ الهدف من الزواج هو تحقيق السعادة لكلا الطرفين دون ضرر أو ضرار بأي طرف آخر.

وحتى تتحقق هذه المسألة، فعلى الطرفين الاهتمام برعاية حقوق كلّ منهما، واحترام تلك الحقوق في إطار الحرص على عدم تبادل الأدوار بينهما، فالزوج رجل والزوجة امرأة، فحين تمتشق المرأة القوامة. وحين يضحِّي الرجل بغيرته متساهلاً مع زوجته؛ يصهل خيل الطلاق؛ لأنَّ الرجل مهما قدَّم من تنازل سيطالب بتلك

القوامة، وهي حق من حقوقه، والمرأة مهما ناشدت الرجل أن يمنحها حرية أكثر وأن يخفف من غيرته ستطالب بها يوماً؛ لأنَّها ستدرك أنَّها المظلَّة التي تقيها عواصف الحياة، وإذا حدث الرفض من أي من الطرفين لواقع تبادل الأدوار فسيصهل خيل الطلاق، سيصهل الخيل!! ويغدو الطلاق لعبة نار يلهو بها من يشاء.

• أسباب الطلاق:

وأسباب الطلاق كثيرة لا حصر لها، بعضها أساسي وبعضها هامشي. وقبل أن نتطرق لأهم أسباب الطلاق، نذكر أولاً **بعض المبررات الشرعية للطلاق**، منها:

١ ـ وجود عيوب جسمية بأحد الزَّوجين تُنفِّر الآخر منه، وتقضي علىٰ الألفة بينهما.

٢ ـ وجود عيوب خُلُقية بأحد الزَّوجين تُزهِّد الطَّرف الآخر في الاستمرار بالحياة معه.

٣ ـ تأذي أحد الزَّوجين من عدم تَدَيُّن صاحبه، أو مقارفته للمحرَّمات.

٤ ـ اختلاف الطَّبائع وتنافر الميول.

٥ ـ إيذاء الزَّوج زوجته بالقول أو الفعل، أو كيدها للإضرار بها كتعليقها أو إيلائها.

٦ ـ تضرُّر الزَّوجة من بُعدِ زوجها عنها لغيابه أو حبسه.

٧ ـ تضرُّر الزَّوجة من فقر زوجها وعدم استطاعته الإنفاق عليها.

٨ ـ تأذي الزَّوج من أخلاق زوجته وارتيابه في أخلاقها.

أما أسباب الطلاق المنتشرة في مجتمعاتنا العربية فتعود إلىٰ أسباب عديدة ومختلفة بعضها يعتبر أساسياً في مجتمعات دون أخرىٰ، والعكس صحيح، ومن تلك الأسباب:

١ ـ فتور العاطفة بين الزوجين، وخصوصا أن الرجل يحب أن تقدم له زوجته كلمات المدح والافتخار به من حيث الشكل والهندام والرومانسية، وكأنه (قيس) وأن تمزجها بقليل من كلمات الغزل وأن زوجها لا يشبهه مثيل في

الدنيا .

كما تحب الزوجة أن يبادلها الزوج نفس الشعور من ملاطفة وكلمات من الحب والعطف والحنان ، إلا أن هـٰذه الطموحات غالبا ما تتوارىٰ بسبب ضغوط الحياة ، وانشغال ربات البيوت في تربية الأبناء وتدبير شؤون المنزل ، بينما يلهث الرجل في السعي وراء لقمة العيش .

٢ ـ استهتار بعض النساء في المسؤولية الملقاة علىٰ عاتقهن وواجب المحافظة علىٰ سمعة وشرف العائلة ، وهـٰذه مسؤولية كبيرة وعظيمة جداً .

٣ ـ تدخل الأهل في أمور خاصة بعلاقة الزوجين ؛ مما يعقد حل المشكلة وإن كانت بسيطة ، فتدخل أم الزوج أو الزوجة يؤدي إلىٰ مشاحنات قائمة علىٰ قدم وساق .

٤ ـ قلة التفاهم بين الزوجين فيتكلم الاثنان معاً ، بحيث لا يسمع أحدهما ما يقوله الآخر ، فتجد الزوج يشتم ويسب من جهة ، والزوجة كذلك ، فلا يسمع أحدهما الآخر .

٥ ـ قلة الخبرة بالزواج ؛ حيث يفاجئان بواقع ومتطلبات لم تخطر علىٰ بالهما ، فينعكس علىٰ العائلة ككل ، خصوصا في ظل نقص المؤسسات الاجتماعية ومنظمات إرشاد الأزواج في معظم البلدان العربية .

٦ ـ العقم وعدم الإنجاب ، خصوصا إذا كان من جانب المرأة ، حيث يكون من الأسهل علىٰ الرجل أن يتزوج بامرأة أخرىٰ ، مما يؤدي إلىٰ غضب الأولىٰ ، أما إذا كان من جهة الرجل فالموقف مختلف ، وعلىٰ الزوجة أن تتقبل الوضع وتصبر ، والقليل منهن فقط يطلبن الطلاق لعجز الزوج عن الإنجاب .

٧ ـ إصرار الزوجة علىٰ الخروج للعمل واعتقادها أن الحياة تبدلت ، وبعض الرجال لا يعجبهم هـٰذا وإن كانت المرأة تسعىٰ إلىٰ ضمان مستقبلها ، ولكن التفاهم هو سيد الموقف في هـٰذه الحالة .

٨ ـ التوتر والقلق والشعور بعدم الاطمئنان والكآبة ؛ نتيجة لما تزخر به الحياة في وقتنا الحاضر من صراعات ومشاكل .

٩ ـ اندفاع سلوكيات الرجل الذي يلجأ للإهانات وجرح المشاعر والمواقف المحرجة تجاه زوجته ، مما يؤدي إلى تأزم الأمور وفقدان السيطرة على الانفعالات التي غالباً ما تقود إلى الضرب والإهانة في معظم الأحيان ، واستعمال الكلمات النابية بين الزوجين ؛ مما يؤدي إلى فقدان الاحترام بينهما وبالتالي يكره الواحد منهما الآخر .

١٠ ـ ضعف استعداد الفتاة ، وتوقعاتها غير المنطقية ، إذ تحلم الفتاة بحياة رومانسية مفعمة بالحب والحنان والغنى والترف في كل أمور حياتها ، وبعد الزواج تصطدم بالمسؤوليات الكبيرة الملقاة على عاتقها ، لذا يجب أن تتنبه لهـٰذه الأمور ، فالحياة الزوجية تختلف عن حياتها في دار أهلها .

والمقارنة التي تتبعها الفتاة وذلك بأن زوج صديقتها يمطرها بالهدايا ويحيطها بالحنان والرعاية ويعطيها كذا وكذا . . . إلى آخره من المقارنات التي تسمم حياتهما الزوجية وتجعلها جحيماً لا يطاق .

١١ ـ عجز الرجال عن الوفاء بالتزاماتهم المالية المتزايدة في ظل تنامي المشكلات الاقتصادية ، وعدم التعاون واحتمال الزوجة على ذلك ، خصوصاً في ظل الأزمات الخانقة التي تحاصر أغلب المجتمعات العربية .

١٢ ـ إلحاح الزوجة الدائم على التهديد بطلب الطلاق بشكل جدي أو غير جدي ؛ مما يؤدي فعلاً إلى الطلاق .

١٣ ـ الغيرة القاتلة التي تبديها المرأة ومراقبة الرجل في كل حركاته وسكناته وتفتيش ملابسه ومراقبة نظراته سواء كان في الأسواق أو مشاهدة التلفاز أو نحوه ، مما يؤدي إلى فقدان الثقة بينهما ثم إلى الطلاق .

١٤ ـ عدم اهتمام المرأة ببيتها وأطفالها وزوجها ، والاهتمام فقط بالهندام والزينة

بشكل مبالغ فيه .

١٥ ـ انشغال المرأة بصالونات التجميل ومتابعة آخر الموضة بالأسواق، وكثرة الزيارات الخاصة للصديقات في المطاعم وغيرها؛ مما يؤدي إلىٰ إهمال البيت وبالتالي ينفد صبر الرجل .

١٦ ـ الاعتماد علىٰ المربية في شؤون الأسرة في كثير من الحالات، فتجد الرجل لا يقوم بخدمته سوىٰ هٰذه المربية من حيث الأكل والشرب والاهتمام بالملبس وغيره . فالرجل يتمنىٰ ويحب أن تكون زوجته ـ علىٰ الأقل ـ هي من تقدم له بيدها الطعام أو الشراب أو الملابس بعد تجهيزها من قبل الخادمة .



الأسباب الْعَشَرَة في حُسْنِ الْعِشْرَةِ

بعد استعراضنا في المبحث السابق لخطورة ظاهرة الطلاق، والأرقام المرعبة والمقلقة حول حالات الطلاق وقابليتها للتطور وبشكل خطير، وبعد أن استعرضنا العوامل الفردية والاجتماعية التي تدفع أحد الزوجين أو كليهما لاتخاذ هٰذا القرار المؤلم، وعرجنا علىٰ أسباب الطلاق المباشرة، نود هنا أن نلقي الضوء علىٰ الاستراتيجيات العشر للإسلام في حماية وحصانة الأسرة من آفة الطلاق والتي سماها الإسلام ابتداءً «أبغض الحلال»، باعتبار أنه حل أخير لمشكلة قائمة لم تنفع الاستراتيجيات التسع التي قبلها في تثبيت أركان البيت المتهاوي بين الزوجين، والاستراتيجيات العشر التي تحدث عنها الإسلام بعضها وقائي قبل وقوع المشكلة، وبعضها علاجي بعد وقوع المشكلة، ومنها ما هو علاج فردي يعتمد علىٰ الزوجين، ومنها ما هو علاج جماعي يعود إلىٰ الأهل والمجتمع.

• الاستراتيجية الأولى: التحفيز والحث على الزواج:

لقد شرع الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ النكاح وحث عليه، لما يترتب علىٰ ذلك من مصالح عظيمة للفرد والمجتمع واعتبره سفينة للمودة والرحمة بين الزوجين، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[1]، وفي حديث رسول الله ﷺ: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحْصَنُ للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**»[2]، وقال عليه السلام: «**... وأتَزَوَّجُ النساء، فمن رغب عن سنتي فليس منِّي**»[3].

(١) الروم: ٢١.
(٢) البخاري في النكاح (٥٠٦٦)، ومسلم في النكاح (١٤٠٠).
(٣) البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه في حديث (الثلاثة رهط).

وفي الحديث: أن بعض الصحابة قد انقطع إلىٰ رسول الله ﷺ يخدمه ويبيت عنده لحاجة إلىٰ طرقته فقال له ﷺ: «**ألا تتزوج؟**»، فقال: يا رسول الله إني فقير لا شيء لي وأنقطع عن خدمتك، فسكت، ثم عاد ثانياً فأعاد الجواب، ثم تفكر الصحابي وقال: والله، رسول الله ﷺ أعلم بما يصلحني في دنياي وآخرتي وما يقربني إلىٰ الله مني، ولئن قال لي الثالثة لأفعلن: فقال له الثالثة: «**ألا تتزوج؟**»، قال: فقلت: يا رسول الله زوّجني، قال: «**اذهب إلى بني فلان فقل: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تزوجوني فتاتكم**»، قال: فقلت: يا رسول الله لا شيء لي! فقال لأصحابه: «**اجمعوا لأخيكم وزن نواة من ذهب**»، فجمعوا له، فذهبوا به إلىٰ القوم فأنكحوه، فقال لهم: أولم (الوليمة) وجمعوا له من الأصحاب شاة للوليمة(١).

كل هـٰذه النصوص المحفزة للزواج، توضح مدىٰ حرص الإسلام علىٰ دفع الشباب للزواج، وقد يسأل سائل: وما علاقة الحث علىٰ الزواج بمشكلة الطلاق؟ العلاقة واضحة وبسيطة، فالمجتمع الذي يتم فيه تصريف الغرائز والشهوات بالوسائل الشرعية التي تلقىٰ القبول والاحترام لدىٰ الناس، إنما تساعد علىٰ درء الفتن وتسد باب الشهوات، لذلك نجد أن التعدد في المجتمع الإسلامي كان طبيعياً حتىٰ لا تبقىٰ امرأة بلا قيِّم عليها يصونها ويسترها ويلبي عاطفتها ويوفر لها العيش الكريم، وهـٰذا يزيد من تشابك وترابط المجتمع بسلسلة من علاقات المصاهرة والنسب، مما يجعل الناس أكثر تعارفاً وتماسكاً وألفة.

وتروي لنا قصص التاريخ أن أي امرأة يتوفىٰ عنها زوجها أو تموت تجد مباشرة من يطرق بابها طالباً زواجها، وقد يكون دافعه الشهامة والمروءة أكثر من أي دافع آخر، فلا يبقىٰ شاب أو فتاة بلا زواج، حتىٰ لا تشتعل الغرائز في النفوس والعواطف في القلوب ولا تجد لإطفاء لهيبها إلَّا الحرام والعياذ بالله، وتصبح الخيانات الزوجية من الأسباب الأساسية للطلاق.

---

(١) أحمد (٥/ ١٦٣، ١٦٤)، وإسناده ضعيف كما في المسند (٢١٣٤٢).

ومن هٰذا الباب نجد ـ وللأسف الشديد ـ بعض النساء تفضل أن يكون لزوجها ألف عشيقة ولا أن تكون له زوجة أخرىٰ غيرها، لمجرد فقط أن تكون صورته حلوة لدىٰ الناس، وما درت أنها بهٰذه الطريقة قد فتحت أبواب شر كثيرة لعل أبسطها أن ينقل زوجها لها الأمراض التي تصيبه عن طريق عشيقاته، ناهيك عن المصائب الأخرىٰ المتولدة عن مثل تلك العلاقات المشبوهة والمنحرفة.

• الاستراتيجية الثانية: الارتقاء بأهداف مؤسسة الزواج:

فأهداف الزواج لا تنحصر فقط في إشباع الرغبات والشهوات والغرائز، بحيث تستطيع أغنية ساقطة مثل أغنية البرتقالة أن تهدم هٰذه المؤسسة الاجتماعية كما نقلت بعض وكالات الأنباء، بل يرتفع الإسلام بأهداف الزواج، ويعتبره سفينة يركبها الزوجان، حتىٰ يصلا إلىٰ ميناء الآخرة بسلام، ويبلغا سبيل النجاة من الغرق في فتن الدنيا وزخرفها وزينتها الكاذبة وآمانيها الخادعة.

فالزواج تعاون مشترك بين الزوج والزوجة لتحقيق الغاية الكبرىٰ من الزواج، وهي العبودية لله تعالىٰ، فإذا التقىٰ الزوجان علىٰ هٰذا الهدف سهلت حياتهما مهما صعبت، واطمأنت نفوسهما وسعدا بالحياة مهما واجها من مصائب ومحن؛ لأن السير إلىٰ الله يغذي هٰذه النفوس بالطمأنينة والأمن النفسي، فمهما ضاقت عليهما الحياة بمال أو مكان، استشعرا الأجر والثواب والنيات علىٰ الغاية الكبرىٰ، فهان في سبيلها كل شيء، علىٰ عكس من يلتقي مع زوجته علىٰ الانكباب علىٰ الدنيا وملذاتها، فيدخل الجميع في صراع من أجل الدنيا، وفي سبيلها يسقط كل حلال وحرام، وتصبح الحياة الدنيا وملذاتها هي الغاية والرجاء.

فإذا ما أصابهما مصيبة لم يصبرا عليها، وإذا رأىٰ أحدهما فرصة أفضل للحياة استغنىٰ عن صاحبه وترك له السفينة لينتقل إلىٰ سفينة أوسع وأرحب، فبئس هٰذه الحياة القلقة ـ المعرضة للانهيار في أي لحظة ـ بحيث يصبح قرار الاستمرار في الحياة الزوجية معتمداً علىٰ القدرة المالية والجمال المادي وأسباب الحياة المرفهة واستمرار المنصب والجاه، وأسباب الطلاق معلقة بهٰذه الأسباب، فمتىٰ ما ذهبت سقطت مؤسسة الزواج ووقع الطلاق.

إن تحقيق العبودية لله في مؤسسة الزواج، يجعل شبح الطلاق ضعيفاً بعيداً صغيراً، وإن تحقيق هدف تعبيد الأسرة لله وتحقيق منهجه يجعل كل المشكلات الأخرىٰ تصغر أمام الأزواج، ولا تستطيع هـٰذه المشكلات بأي حال من الأحوال أن تهدم حياتهم أو حتىٰ تهدد كيانهم، فيتفرغ الزوجان لتربية النشء علىٰ طاعة الله ويحتسبان الأجر في تكثير سواد المسلمين، ويتحقق الإشباع النفسي والعاطفي بين الزوجين، فيتحصنان من وساوس الشيطان، ويدفعان غوائل الشهوة، فيتحقق غض البصر، وإيناس النفس بالشريك، ويستمتع الجميع بدفء العائلة الصغيرة والكبيرة، وتتحقق المودة والسكينة.

• الاستراتيجية الثالثة: حسن الاختيار:

فكلما أحسن الإنسان ـ رجلاً أو امرأة ـ اختيار شريك الحياة، كان ذلك أدعىٰ لاستمرار العلاقة الزوجية، وكلما كانت أسس الاختيار حكيمة، كان ذلك ضماناً لحياة زوجية سعيدة ومستقرة، والإسلام لم يحث فقط علىٰ حسن الاختيار، بل حث علىٰ أن تكون أسس الاختيار نفسها أيضاً حسنة.

فمن يختار المرأة لجمالها، فإن الجمال زائل، ومن يختار المرأة لمالها فإن المال يفنىٰ، ومن يختار المرأة لدينها وخلقها، فإنه باق بإذن الله ما دامت المرأة تتقي ربها، وتحرص علىٰ دينها وخلقها.

وفي الحديث: «**تُنْكَح المرأة على إحدى خصال: لجمالها ومالها وخلقها ودينها فعليك بذات الدين تربت يمينك**» [1]، وروىٰ ابن ماجه عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «**ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله**» [2].

---

(١) البخاري في النكاح (٥٠٩٠)، ومسلم في النكاح (١٤٤٦)، وأبو داود في النكاح (٢٠٤٧).
(٢) ابن ماجه في النكاح (١٨٥٧).

وفي الحديث المرفوع الذي رواه مسلم، قال رسول الله ﷺ: «**الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة**»[(١)].

وكان عليه الصلاة والسلام يحذر من الاختيار الخاطئ وخاصة أولئك الشباب الذين لا خبرة لهم بالحياة وتخدعهم المظاهر البراقة فيقول لهم: «**إياكم وخضراء الدمن**»، قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال: «**المرأة الحسناء في المنبت السوء**»[(٢)].

ولذلك عندما سئل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ما حق الولد على أبيه، قال: أن ينتقي أمه، ويحسن اسمه، ويعلمه القرآن».

فالزواج في الإسلام ليس وسيلة فقط لإطفاء نار الشهوة، ولا سبيلاً لتحقيق الغنى والثراء، ولا بحثاً عن أسباب الجاه المستعار؛ فهي مآرب لا ينبغي أن توجد في نية الزوجين بأي حال.

فلقد تزوج النبي ﷺ سيدتنا خديجة رضي الله عنها وكانت في الأربعين وهو في الخامسة والعشرين، ولكنه كان زواجاً سعيداً موفقاً ومباركاً، وقد عاش رسول الله ﷺ بعد وفاتها وفياً لذكراها، يحن لعهدها ويكرم كل من كان يعرف من صديقاتها إكراماً وإعزازاً لها.

وفي الأثر: «**من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلاً، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقراً، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة، ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره ويحصن فرجه، أو يصل رحمه، بارك الله له فيها، وبارك لها فيه**»[(٣)].

---

(١) مسلم في النكاح (١٤٦٧).

(٢) الرامهرمزي في أمثال الحديث (١٢٦)، وهذا خبر مشهور لم يرو في شيء من دواوين السُّنة، وقال الشيخ الألباني في الضعيفة (١٤): «ضعيف جداً».

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٤٣٢)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٤٥)، وابن حبان في المجروحين (٢/ ١٥١)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٤٦٧)، وقال: «رواه الطبراني في الأوسط وفيه عبدالسلام بن عبد القدوس بن حبيب وهو ضعيف».

ومن حسن الاختيار أن تُعطىٰ المرأة الحق في اختيار زوجها، فلها حق القبول والرفض، وما علىٰ ولي الأمر إلَّا النصيحة والبيان، قال رسول الله ﷺ: «**لا تزوج الأيم** (الثيب) **حتى تستأمر، ولا البكر حتى تستأذن**»[١].

وكم شاهدنا من مآسي سوء الاختيار، ومشاكل اجتماعية لا حصر لها، فكم من تقي تزوج امرأة لجمالها وكانت من منبت سوء فأفسدت عليه دينه، ونشأ أبناؤه علىٰ الضياع والضلال! وكم من فتاة كانت عنواناً للطهارة والعفة، زوجها وليها لمن لا يتقي الله، فأصبحت امرأة مستهترة بدينها، متهتكة لعقيدتها، فنبذت الفضيلة وطرحت الشرف!

عن خنساء بنت خذام الأنصارية أن أباها زوّجها وهي ثيّب فكرهت ذلك، فأتت رسول الله ﷺ، فرد نكاحها ـ أي أبطله[٢]. فالمسألة قائمة علىٰ قبولها ورضاها، ولكن كثيراً من المسلمين انحرفوا عن هـٰذا المنهج، وخالفوا هـٰذه الوصايا، وبنوا الزواج علىٰ القهر والتسلط والجبر، وقدموا العادات والتقاليد علىٰ أحكام الشرع الحنيف؛ فقاد ذلك الأسرة إلىٰ الشقاء والتعاسة.

• الاستراتيجية الرابعة: التيسير في الزواج:

وهي مشكلة المشاكل، وعقدة العقد، بحيث يصبح مشروع الزواج لدىٰ بعض أولياء الأمور مشروعاً تجارياً ناجحاً، تتحول فيه الفتاة إلىٰ سلعة، والمهر إلىٰ بورصة، يفوز فيها من يدفع أكثر، ناهيك عن طلبات الوجاهة والبذخ في حفلات الزواج، بحيث يتذكر الزوج عند أول إساءة من الزوجة كمية الأموال التي أهدرها علىٰ المهر وحفلة الخطوبة والزواج؛ فيزداد كرهاً وبغضاً للزوجة أو السلعة التي اكتشف أنها لا تستحق ما دفع فيها من ثمن.

وكلنا يعلم أن الرسول ﷺ كان يزوج الصحابي علىٰ الآية من القرآن يحفظها بلا

(١) البخاري (٥١٣٦)، ومسلم (١٤١٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) البخاري (٥١٣٨)، وأبو داود (٢١٠١)، والنسائي (٣٢٦٨).

تعقيدات ولا صعوبات. وقد اختصر الرسول المسافة فقال عليه الصلاة والسلام: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**»[(١)]، واللفظ النبوي صريح ودقيق: «**إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**».

ولا داعي للاستطراد في هـٰذا الفساد الذي نراه؛ بسبب تعنت بعض الآباء في تزويج بناتهم من الشباب الصالح، وتحويل بناتهم إلىٰ سلع للبيع. فالتيسير في المهر من أسباب نجاح الزواج واستمراره وديمومته، قال تعالىٰ: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾[(٢)]، وجاء في الحديث: «**إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤونة**»[(٣)].

ويُروىٰ أن شابًا فقيراً جاء للنبي ﷺ فقال له: إني تزوجت علىٰ مائة وستين درهماً، فاستكثرها النبي ﷺ وقال له: «**كأنكم تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل**»[(٤)]، فالمبالغة في المهر لا تحقق بالضرورة الراحة للفتيات، بل قد تكون سبباً للشقاء، وقد سأل رجل الحسن رضي الله عنه إلىٰ من يزوج ابنته؟ فقال: عليكم بصاحب الدين فإنه إذا أحبها أكرمها، وإذا أبغضها لم يهنها.

فغلاء المهور سبب رئيسي لحرمان كثير من الذكور والإناث من الزواج؛ فكثرت الفواحش وانتهكت الأعراض، وضيعت الحرمات، وزادت معها الأمراض النفسية والعصبية. ولا حول ولا قوة إلَّا بالله.

• الاستراتيجية الخامسة: منع العبث بمؤسسة الزواج وتشريعاته:

فالعلاقة الزوجية علاقة سامية تبنىٰ عليها الأسرة التي هي اللبنة الأساسية لبناء المجتمع، ومن أجل ذلك منع الإسلام وعبر تشريعاته الهزل والعبث في هـٰذه العلاقة، وأبعدها عن كل ما يجعلها عرضة للهو والعبث، ومن ذلك:

---

(١) الترمذي (١٠٨٤)، والبيهقي في الكبرىٰ (١٣٢٥٩)، وحسَّنه الشيخ الألباني.

(٢) الحج: ٧٨.

(٣) شعب الإيمان (٦١٤٦)، وأحمد (٦/ ٨٢)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٥٦).

(٤) مسلم (١٤٢٤).

١ ـ تحريم الظهار: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾(١).

٢ ـ تحريم الإيلاء: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

٣ ـ تحريم تعليق المرأة وتهديدها بالطلاق: ﴿وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾(٣).

٤ ـ وصف ذلك بالعبث؛ لأنه اتخاذ لآيات الله هزواً: ﴿وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾(٤).

٥ ـ إنفاذ طلاق الهازل بحديث أبي هريرة: «**ثلاث جدهن جد وهزلهن جد: النكاح والطلاق والرجعة**»(٥)، وكل هٰذا من أجل الحفاظ علىٰ الأسرة من الضياع والانهيار.

● الاستراتيجية السادسة: بيان الحقوق والواجبات الزوجية:

فكل شراكة إذا اتضحت حدودها وضوابطها وآدابها وحقوقها وواجباتها، فهي عرضة للاستمرار والنجاح، وكتب الفقه تحفل بالتشريعات التي تحدد الحقوق والواجبات الزوجية لكل من الزوج والزوجة، ومن يجهل تلك الحقوق والواجبات ربما تعدىٰ علىٰ حقوق الطرف الثاني أو أهمل في واجباته دون أن يدري أنه قد تعدىٰ أحكام الشرع الحنيف مما يفتح باب الخلاف الذي قد ينتهي بالفراق والطلاق، فتفصيل الحقوق والواجبات الزوجية لكلا الطرفين لا يدع مجالاً لاستشكال أو سوء فهم، ولو قام كل طرف بما عليه من واجبات لنال ما له من حق، وهكذا تسير الحياة

---

(١) المجادلة: ٢.

(٢) البقرة: ٢٢٦.

(٣) البقرة: ٢٣١.

(٤) البقرة: ٢٣١.

(٥) أبو داود في الطلاق (٢١٩٤)، والترمذي في الطلاق واللعان (١١٨٤)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٣٩)، وحسَّنه الألباني.

الزوجية على أسس التبادل المحترم من كل طرف للطرف الآخر.

فحماية الأسرة في الأصل من واجبات الزوج الذي يجب أن يدفع عنها السوء وأن يقيها المهالك والشرور.

وفي حديث البخاري: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالرجل راع في أهل بيته ومسؤول عن رعيته**»[(١)]، فعليه أن يراعي زوجته وأن يحسن قيادة ذريته نحو الخير وخصائص الفطرة السليمة، وأن يحميهم من مفاسد البيئة وأمراضها، وأن يزودهم بخبراته وتجاربه في الحياة، وأن يكون لهم نعم القدوة في السلوك والأخلاق، والبيت المسلم بيت يعرف الله ورسوله ويحبهما، ويحتكم إلى الله ورسوله عند كل خلاف، وعلى قاعدة التربية النبوية تقوم تربية الأسرة، والبيت المسلم عش هادئ شعاره «أن تلقى أخاك بوجه طلق» وهو يستعلي بالصبر والرضا بكل ما قضاه الله وقدره.

فالبيت المسلم منارة للهداية، وهكذا تمضي الحقوق والواجبات، فبين الشرع حق الزوج على زوجته، وحقوق الأطفال وواجباتهم، وأحكام النكاح والطهارة والخطبة والزفاف والولادة والنفاس، والنشوز والخلع والطلاق، ووصلت دقة وتفصيلات الشرع إلى حد أن أمر الزوجة بأن تلبي حاجة زوجها ولو كانت على التنور، وألا تصوم صيام النفل إلا بإذنه، بينما منح المرأة حق اختيار شريك حياتها وحقها في المهر والاحترام والتقدير والحماية والرعاية وبيت الزوجية، وغير ذلك مما لا يتسع المجال لذكره وهو مبسوط في كتب الفقه والرقائق والأخلاق.

• الاستراتيجية السابعة: حُسن العشرة:

فعلى الرجل أن يكرم زوجته ويحسن عشرتها فلا يؤذيها ولا يهينها، ويتجاوز

---

(١) البخاري في الجمعة (٨٩٣)، ومسلم في الإمارة (١٨٢٩)، والترمذي في الجهاد (١٧٠٥)، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيْء (٢٩٢٨)، وأحمد (٢/ ٥، ٥٤).

عن هفواتها ما دامت على حسن التبعل معه، وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله**»[١]، وفي الحديث الآخر: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»[٢].

والوصايا القرآنية واضحة في العشرة، قال تعالى: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾[٣]، وما أجمل التعبير القرآني: ﴿**هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ**﴾[٤].

فاللباس ألصق شيء ببدن الإنسان وهو الستر الذي يستتر به، فكل واحد من الزوجين ستر وصيانة للطرف الآخر، ستر بدني، وستر روحي، وستر نفسي، وللمرأة مكانة عظيمة في الإسلام، لا كما يظن بعض الجهلة الذين يقدمون تقاليدهم البالية على أحكام الشرع الحنيف.

ويكفي أن نذكر أن الصحابية أم هانئ قد أجارت بعض المشركين، فجاء علي بن أبي طالب # يريد قتله، فمنعت علياً من قتله، واحتكمت إلى الرسول ﷺ، فقال الرسول ﷺ: «**قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ**»[٥].

بل إن الرسول ﷺ وهو على فراش الموت يوصي صحابته والمسلمين من بعدهم: «**... واتقوا الله في النساء، فإنَّهنَّ عوان بين أيديكم، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله**»[٦]، وفي موازاة ذلك بيَّن الرسول ﷺ عظم حق الزوج على زوجته. ويكفينا قوله ﷺ: «**لو كنت آمراً أحداً بالسجود لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**»[٧]، فهل تدرك نساء اليوم أي جرم يرتكبنه عندما

---

(١) أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي في الرضاع (١١٦٢) وقال: «حديث حسن صحيح»، وأحمد (٢/ ٤٧٢).

(٢) الترمذي في المناقب (٣٨٩٥) وقال: «حسن غريب صحيح»، وابن ماجه في النكاح (١٩٧٧).

(٣) النساء: ١٩.

(٤) البقرة: ١٨٧.

(٥) البخاري في الصلاة (٣٥٧)، ومسلم في الحيض (٣٣٦)، وأحمد (٦/ ٤٢٥).

(٦) مسلم (١٢١٨)، وأبو داود (١٩٠٧)، والترمذي في الرضاع (١١٦٣)، وابن ماجه (٣٠٧٤).

(٧) الترمذي في الرضاع (١١٥٩)، وابن ماجه في النكاح (١٨٥٢)، وأحمد (٦/ ٧٦).

يطالبن بكماليات سخيفة لا طاقة ولا قدرة للزوج على توفيرها، مما يجعله مهمومًا وعاجزًا وحزينًا.

• الاستراتيجية الثامنة: وضوح آلية حل الخلافات الزوجية:

فلا يخلو بيت من خلافات - صغيرة أو كبيرة - فمتطلبات الحياة كثيرة، وتحتاج إلى صبر وطول بال، وربما لطف بعضهم هذه الخلافات فوصفها بأنها ملح للزواج، فهي بلا شك تقع، واتباع الآلية التي حددها الشرع في حل الخلافات تجنب الأسرة في أحيان كثيرة الوقوع في مطب الطلاق.

فهناك الآلية الفردية بين الرجل وزوجته قال تعالى: ﴿**وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً**﴾(١)، والضرب هنا يأتي كمرحلة أخيرة في آلية العلاج الفردي، ويكون على سبيل إيصال رسالة إلى الزوجة، وليس سبيلا إلى إيذائها كما يفهم بعض الجهال، فهو ضرب غير مبرح، وقد قال عطاء لابن عباس: ما الضرب غير المبرح؟، قال: بالسواك ونحوه.

فإن لم يحصل الوفاق بين الزوجين في الآلية الفردية، تحول الإصلاح إلى الآلية الجماعية قال تعالى: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا**﴾(٢)، كما وضع الشرع آلية لحل نشوز الزوجة، وحتى الطلاق له آلية لا تجعله سهلاً، ولكن المشكلة أن مجتمعاتنا صعَّبت أمر الزواج فأصبح الحرام ميسوراً، وصار الطلاق أمراً سهلاً.

• الاستراتيجية التاسعة: الاقتداء بالنبي ﷺ:

فمن أسرار تعدده ﷺ أن تنقل لنا زوجاته أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن - حالاته في بيوته، وكيف كان يتعامل مع زوجاته حتى يتعلم منه المسلمون الأدب

---

(١) النساء: ٣٤.

(٢) النساء: ٣٥.

النبوي في العلاقات الأسرية والزوجية، وحتى تجد الأحكام الشرعية الخاصة بالبيت المسلم تطبيقاً عملياً قابلاً للرصد والتوثيق، يستطيع العلماء من خلاله استنباط الأحكام الفقهية والأصولية الخاصة بالأسرة المسلمة.

فالصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وهم جمع عظيم نقلوا لنا كل ما يتصل بالرسول ﷺ، وفصلوا كل شيء عن حياته وصفاته وأخلاقه وجهاده وعبادته وسماحته ورحمته وإيثاره وتضحيته ونومه وصحوه وقيامه ومشيه وركضه وغضبه وفرحه وتبسمه وصمته وكلامه وحديثه، فلم يبق شيء إلَّا ونقل لنا، فكانت أمهات المؤمنين هن اللاتي أكملن نقل صفاته وكيف يكون إذا دخل بيته، وكيف يكون في خدمة أهله، فلا يعنف ولا يضرب ويراعي طبيعة المرأة، وضعفها، وقصصه في ذلك أكثر من أن تروى.

ولنا في صبره على زوجاته وما يقع منهن من غيرة وغيرها خير دروس وعبر، ولعلها تكون دروساً لأمته حتى تتعلم كيف تكون العشرة الحسنة، وكيف يجد الزوج حلاً لكثير من مشاكله مع زوجته في البيت النبوي الكريم.

• الاستراتيجية العاشرة: أبغض الحلال:

فالطلاق هنا ينطلق من قولهم: «آخر الدواء الكي» ولكن الاستهتار في استعمال هٰذا الحل جعله أول الدواء وليس آخره، أو أول الحلول وليس آخرها، فالطلاق يجب ألا يتم إلا بعد استنفاد كافة الحلول والأساليب، وهٰذه الحلول يندرج بعضها تحت باب الصبر، وبعضها يعالجه الزمن، وبعضها يتطلب تدخل وسطاء الخير، فإن أجمع الجميع أن الطلاق هو الحل للإشكاليات القائمة، وأن بقاء الوضع على ما هو عليه سيؤدي إلى مشاكل أسوأ وأعمق وأعقد، وقد يدخل الأسرة في متاهات خطيرة كالوقوع في المحرمات أو ارتكاب الجرائم والموبقات، أو تهديد مستقبل الأطفال، ففي هٰذه الحالة يصبح الطلاق مطلوباً وناجحاً في تخليص الأسرة من العيش التعيس بقية عمرها، وحينها يصبح الطلاق دواءً مراً، ولكن لا بد من تجرعه حتى لا

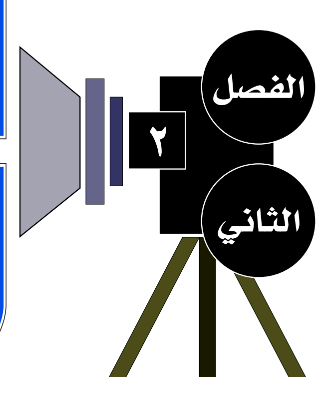
يزداد المرض ويستفحل ولا ينفع فيه العلاج .

ولكن مشكلة مجتمعاتنا العربية في هـٰذه الأيام أنها جعلت من الطلاق أول الحلول وأول الخيارات وأسهلها ، وخاصة ما إذا كان الزواج مبنياً على الرغبة المادية وحدها .

فنجد أن الزوج يبحث في زوجته عن المذيعة الفلانية في القناة الفضائية الفلانية ، أو المغنية أو الممثلة أو المطربة أو حتى الغانية ، فلما قضى منها وطراً وطابت نفسه ألقى عليها كلمة الطلاق ، وكأنها لم تكن يوماً في حياته . وفي المقابل تريد الزوجة في الزوج أن ترى فيه المطرب الفلاني الوسيم ، أو الوجيه الفلاني أو الثري أو الغني .

وهكذا تفشل علاقة الزواج بعد أن خرجت من بيت القناعة . . . ولم تعد لا بالرضا ولا بالصبر . . . فكان فراقاً وكان طلاقاً ولكن أين الْفَطِن الذي يعتبر بغيره؟!





لا بد من فهم واقعنا الإقليمي «العراق نموذجاً»

(١)
العراق بين الفتاوى المتعجلة والعقول المتفجرة

بقدر اهتمامنا بأهمية العودة إلى مدرسة الوسطية والشمولية المنفتحة على الآخرين، بقدر ما نريد أن تعيدنا الأحداث إلى ضرورة مواجهة مدرسة الشذوذ والنتوءات التي تقوم بتشويه الإسلام وهي تزعم خدمته والدفاع عنه ضد خصومه وأعدائه.

نعم، إن الغرب أدرك مبكراً - ومنذ بداية حركة الاستشراق - أن من الأهمية بمكان فهم العالم الإسلامي ودقائق تفاصيله وعادات شعوبه ومعتقداته ومكامن القوة والضعف فيه، وأسباب قدرته على الصمود في وجه كل الهجمات المتتالية على أراضيه وهويته منذ الحروب الصليبية وحتى اليوم، على الرغم من الندوب والآثار الخطيرة التي تركتها تلك الهجمات في الجسد الإسلامي.

واليوم وبشيء من التواضع، لا بد من الاعتراف بأن مؤسسات البحوث والدراسات الاستراتيجية في الغرب وما تملكه من ميزانيات ضخمة وجبارة وعقول تقف خلف تلك المؤسسات، تملك الوقت والإمكانات والأهداف السياسية، وقد استطاعت وضع استراتيجيات في غاية الخطورة تجاه تفكيك وتفتيت المشرق الإسلامي، واللعب بالتناقضات التي يعيشها لتحقيق أهداف سياسية تخدم التفوق الحضاري للغرب، وتضمن تدفق الثروات الطبيعية والبشرية بكل يسر وسهولة.

وقد جعلت تلك المؤسسات عناوين؛ مثل نشر الديمقراطية وحقوق الإنسان والأقليات، وسائل في غاية الفعالية لتحقيق مثل تلك الأهداف، وكلنا ربما اطلع على استراتيجية الاستخبارات العربية والعالمية التي وضعت عشرين نقطة لمحاربة الخط الوسطي في الحركة الإسلامية، باعتبارها أحد مكامن القوة في المشرق الإسلامي التي لا بد من تفكيكها أو تشويهها.

● قبل عشر سنوات في بريطانيا:

في محاضرة لي في بريطانيا ـ قبل عشر سنوات تقريبا ـ أثرت تساؤلاً حول سبب إقدام السلطات هناك على منح فيزا ولجوء سياسي لأبي حمزة المصري في أقل من أسبوع، مع معرفة الأمن البريطاني والاستخبارات البريطانية ماضي الرجل، ومن أين جاء؟ في حين ترفض منح الفيزا، بل وتلاحق أصحاب الفكر الوسطي والشمولي المعتدل من جماعة حزب النهضة التونسي، وهم خلاصة المجتمع التونسي من كفاءات علمية متميزة من أساتذة جامعات وأطباء ومهندسين ومفكرين، كما يمثلون نظرية متطورة في الانفتاح والحوار في وسط الجسد الإسلامي، وهم الذين دفعتهم الظروف السياسية لمغادرة تونس وترك كراسي التدريس في جامعاتها العريقة، وظلوا بلا فيزا أمام مماطلة السلطات في بريطانيا لسنوات عديدة، مما يضع علامة استفهام كبيرة على خيارات منح الفيزا لتيار العنف، وتمنع عن التيار الوسطي المعتدل.

كما أذكر أنني قلت في المحاضرة: إن السلطات البريطانية ستستثمر هذه الشخصيات في تشويه الدين الإسلامي وإظهاره للشعب البريطاني على أنه دين إرهابي ودموي، وقد تأكد هذا الموضوع بعد ذلك أكثر وأكثر عندما رفضت بريطانيا تسليم بعض المطلوبين للسلطات المصرية بدعوى حقوق الإنسان، علما بأنها سلمت بعضهم قبل فترة قليلة للولايات المتحدة ضاربة بحقوق الإنسان التي تزعمها عرض الحائط.

إن مراكز الدراسات التي تقف خلف السلطات الغربية لا تعمل من فراغ، فهناك تخوف كبير من انتشار الإسلام في الوسط الأوروبي، وليس أي وسط، بل بين أبناء النخبة البريطانية وأبناء الطبقة النبيلة، حيث تدل الإحصائيات على إقدام أعداد لا يمكن الاستهانة بها وبما تمثله من توجهات، على اعتناق الإسلام وسط النخبة البريطانية، وأعداد المساجد التي تتزايد في بريطانيا والكنائس التي تغلق لعدم وجود رواد حتى قال البابا في تصريح خطير: إن أوروبا في حاجة لإعادة التبشير بالمسيحية بين شعوبها من جديد.

هـٰذه المعطيات جعلت الغرب يستبدل الخطر الأحمر «**الشيوعية**» بالخطر الأخضر «**الإسلام**»، فوجود التيارات الشاذة عن الفكر الوسطي والمعتدل ما هو إلا سلاح في يد تلك السلطات الغربية تستطيع من خلاله تشويه الإسلام، وتدمير الأمة الإسلامية من داخلها وخلق الصراعات بين شعوبها، ومن خلال هـٰذا التيار يمكن اختراق المجتمعات الإسلامية، وبسبب هـٰذا الصراع غير المتكافئ بين الطرفين سقطت أفغانستان والعراق، وبقية الدول العربية الإسلامية في الطريق ولا تحتاج إلَّا إلىٰ أن تستوي بعض القضايا الإقليمية والاجتماعية حتىٰ تكتمل حجج التدخل المباشر، ومنها ما يحدث اليوم في دارفور في السودان، والتحرك ضد سوريا وإيران.

● نتوءات شاذة:

لقد وجدت أجهزة الاستخبارات الغربية في هـٰذه التيارات التي تنسب زورا لجسد التيار الإسلامي أداة مناسبة لتحقيق مخططات طالما حلمت بأداة لتنفيذها، ووجدت في هـٰذه التيارات الساذجة والشاذة والسادية والمأجورة فرصة لا تعوض؛ لتحقيق بعض مخططاتها في اختراق الأمة وتدميرها من الداخل.

ولقد رأينا في الماضي كيف استطاعت دولة الإسلام أن تنشر الإسلام في ربوع الإمبراطوريتين الفارسية والرومية في زمن بسيط؟ استطاعت فيه أن تنهي ظلم وتسلط تلك الإمبراطوريات علىٰ رقاب العباد، وتركت لهم المجال مفتوحًا ليقرروا عقيدتهم وهويتهم بحرية وكرامة، بعد أن أزالت عنهم المكوس والضرائب ورق العبودية والاستعمار، فلم يستطع الحل العسكري مواجهة أمة الإسلام، لكن الفتن من الداخل نجحت فيما فشلت فيه جيوش الفرس والروم مجتمعة.

فمن الذي قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه وفتح باب الفتنة علىٰ الأمة وأسال الدماء علىٰ المصحف في مدينة رسول الله ﷺ، بعد أن ألبوا ودسوا وكذبوا علىٰ الخليفة، ومنعوا الصحابة - رضوان الله عليهم - وفي مقدمتهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه من الدفاع عنه كما منعوه الماء وكأنه ليس خليفتهم، لكنه الشذوذ

والفقه المنحرف عن كل فهم صحيح .

وانظروا إلىٰ ما قاله الصحابي الجليل عبد الله بن سلام # والذي كان قبل إسلامه كبير أحبار اليهود عندما مرّ قبل أيام من قتل الخوارج لعثمان، فوقف علىٰ باب دار عثمان وخاطب الخوارج المحاصرين له قائلاً كلمة بليغة : «يا قوم لا تقتلوا إمامكم وخليفتكم، ولا تسلوا بقتله سيف الله عليكم، فوالله إن سللتم سيف الله عليكم، لن يغمد بعد ذلك! ويلكم! إن سلطانكم اليوم يقوم بالدرة والعصا، فإن قتلتموه لن يقوم سلطانكم إلا بالسيف، فغضب الخوارج منه وشتموه قائلين : «يا بن اليهودية، وما أنت وهـٰذا؟ وما يدريك من هـٰذا الأمر!» وردهم دليل آخر علىٰ قصر نظرهم فكانوا أداة سهلة طيعة للتآمر علىٰ دين الله .

وهـٰذا ما حدث ويحدث في الوقت المعاصر من استغلال المتآمرين علىٰ هـٰذه الأمة لسذاجة وقصر فقه وفهم بعض أبنائها، والسعي لتدميرها والعبث بمالها ومقدراتها بأيديهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا!!

ولم يكتف الخوارج بذلك بل أشعلوا نار الحرب بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، وكلما كادت النوايا الحسنة أن تنهي هـٰذه الفتنة أسرعوا بإشعالها من جديد .

وهل اكتفوا بذلك؟!! قام عبد الرحمـٰن بن ملجم بقتل علي بن أبي طالب بنفس طريقة قتل أبو لؤلؤة المجوسي للخليفة العادل عمر بن الخطاب، وبهـٰذه الفعلة الشنعاء أنهىٰ هـٰذا الخارجي عهد الخلافة الراشدة ليبدأ عهد الملك العضود، بعد أن كفروا علياً ودعوا إلىٰ التحكيم ورد عليهم بمقولته الرائعة التي تصف حالهم بدقة : «هـٰذه كلمة حق يراد بها باطل» .

وهكذا علىٰ مر التاريخ كانت فكرة تدمير دولة الخلافة من داخلها بتجنيد بعض أبنائها الذين يسوقهم فكرهم القاصر وحماسهم المندفع وخبرتهم المحدودة في متاهات لا طاقة لهم بإدراك أبعادها؛ فتكون النتيجة وبالاً علىٰ كامل الأمة، وها هي الأنظمة الغربية قد استثمرت بعض المتطرفين الذين لجؤوا إليها وهيأت لهم وسائل الإعلام لينشروا فكرهم وانغلاقهم وتطرفهم، حتىٰ يقولوا من جهة للذين شرح الله

صدورهم للإسلام من الأوروبيين: هـٰذا هو الدين الذي تريدون اعتناقه وتتركون من أجله دين آبائكم وأجدادكم، وهـٰؤلاء هم رموز هـٰذا الدين! انظروا إلىٰ تطرفهم وفكرهم الشاذ، وعنفهم مع خصومهم، ألا يذكرونكم بعصر إرهاب الكنيسة! وهم من جهة أخرىٰ يستغلون شواذ الفكر هـٰؤلاء في التخطيط والهجوم علىٰ المسلمين وديارهم ونهب ثرواتهم، فكان هـٰذا الفكر الخارجي ومن يحمله خير وسيلة لتشويه الإسلام وضرب التيار الإسلامي المعتدل، وخاصة تيار الوسطية الذي يمثله حسن البنا بتجربته وتعاليمه القادرة علىٰ التفاعل الوسطي والحضاري في مختلف المجتمعات، مما سمح لهـٰذا التيار بالتمدد والشعبية في بيئات مختلفة وقارات مختلفة ووجد إقبالاً من كافة شرائح المجتمع.

فكان لا بد من تسليط هـٰذا الفكر الخارجي ومساندته بالإعلام، وتوفير ساعات البث المختلفة والمباشرة والأخبار العاجلة؛ لبث هـٰذا التهريج المسمىٰ عمليات إعدام الرهائن وإسالة دمائهم أمام شاشات التلفاز، فكانت هـٰذه أكبر خدمة تقدم لهـٰذا الفكر المنحرف، وأكبر خدمة تقدم لمن يريد تشويه صورة الإسلام، حيث جلس هـٰؤلاء الذين يطمعون بزلة لهـٰذا الدين وهم يبتسمون ابتسامة صفراء وهم يشاهدون ماذا يفعل مدعو الانتساب للإسلام وهم يطيرون رؤوس العباد بلا ذنب جنوه سوىٰ حظهم العاثر الذي أوقعهم في براثن هـٰؤلاء الذين اتخذوا من العراق منطلقاً لتشويه الإسلام؛ لأن العراق الآن واقع تحت سمع وبصر العالم، وإلا من أراد أن يحارب أمريكا فهي موجودة في كل مكان، وإلا فماذا يعني نحر تركي من قفاه أو ذبح فلبيني من الوريد إلىٰ الوريد، أو خطف رهائن من مدرسة أطفال وقتلهم بلا ذنب اقترفوه.

كلنا يذكر قبل سنوات وفي أيام الانتفاضة الأولىٰ أثر الإعلام في إثارة الشعوب عندما تم عرض القوات الإسرائيلية وهي تنفذ سياسة تكسير أيادي أطفال الحجارة الفلسطينيين، وأثر ذلك السلبي في صورة دولة إسرائيل الديمقراطية، وهـٰذا الأثر السلبي تكوّن ضد إسرائيل مع كل التعاطف والتأييد الجارف الذي تحظىٰ به إسرائيل في أوروبا وأمريكا، فكيف بالله عليكم سيكون رد الشعوب التي لا تعلم إلا ما تنقله

لها وسائل الإعلام، وهي ترى ليلاً ونهاراً حفلات الإعدام التلفازية التي يقوم بها حفنة تدعي تمثيل الإسلام وتسعى لشرف الدفاع عنه!

• لا تسبوا الله:

إثر قتل (١٢) عاملاً من النيبال لا ناقة لهم ولا جمل، هكذا بدم بارد وكأنهم من أبرز قيادات الجيش الأمريكي المحتل، قام بعض النيباليين بحرق مسجد وحرق ما به من مصاحف وتمزيقها، فمن قام بهذا الأمر من قتل لهؤلاء الأبرياء إنما هو شريك كامل الشراكة في حرق المسجد والمصاحف، وكأن هؤلاء الذين اتخذوا الدين ستارا للعبث بحرمات الجسد الإنساني والتمثيل بهم قد نسوا قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (١).

قال ابن عباس في هذه الآية: قالوا: يا محمد لتنتهين عن سبّ آلهتنا أو لنهجون ربك، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم، ﴿**فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾. قال قتادة: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار، فيسب الكفار الله عدوا بغير علم، فأنزل الله: ﴿**وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ**﴾.

ومن هذا القبيل، وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها، ما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**ملعون من سب والديه**»، قالوا: يا رسول الله، وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: «**يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه**»(٢) أو كما قال ﷺ، وقوله: ﴿**كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ**﴾؛ أي وكما زينا لهؤلاء القوم حب أصنامهم والمحاماة لها والانتصار ﴿**كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ**﴾ أي من الأمم الخالية على الضلال «**عَمَلَهُمْ**» الذي كانوا فيه، ولله الحجة البالغة والحكمة التامة فيما يشاؤه ويختاره ﴿**ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ**﴾؛ أي معادهم ومصيرهم ﴿**فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾؛

---

(١) الأنعام: ١٠٨.

(٢) البخاري في الأدب (٥٩٧٣)، ومسلم في الإيمان (٩٠)، وأبو داود في الأدب (٥١٤١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٢).

أي يجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ معلقا على الآية : «وهو أدب يليق بالمؤمن المطمئن لدينه، الواثق من الحق الذي هو عليه، الهادئ القلب، الذي لا يدخل فيما لا طائل وراءه من الأمور، فإن سب آلهتهم لا يؤدي بهم إلى الهدى ولا يزيدهم إلا عناداً، فما للمؤمنين وهذا الذي لا جدوى وراءه، وإنما قد يجرهم إلى سماع ما يكرهون، من سب المشركين لربهم الجليل العظيم؟» .

• الفتاوى المثيرة مرة أخرى:

لن نندفع كثيرا وراء هجمة رابطة محبي أمريكا تجاه فتوى الشيخ يوسف القرضاوي ـ حفظه الله ـ الذي أفتى فيها بجواز قتل الأمريكان في العراق سواء قتل العسكريين منهم أو المدنيين، ولكننا ـ أيضا ـ لنا تساؤلات مروعة تجاه تلك الفتوى لما أثارته من مواقف متضاربة ومتناقضة في وسائل الإعلام المختلفة :

أولاً: لا يمكن وضع الأمريكان المدنيين في العراق في سلة واحدة، فمنهم من يعمل في المنظمات الإغاثية، ومنهم من يعمل في المجال الصحفي، ولعل بعضهم ساهم في كشف فضيحة سجن أبو غريب، وما حصل فيه من انتهاكات بشعة بحق العراقيين على أيدي القوات الأمريكية، وبعضهم جاء للعمل في قضايا لا علاقة لها بالاحتلال والتحرير، بل لإصلاح البنية التحتية من ماء وكهرباء، وإعادة تأهيل مؤسسات الدولة، وهؤلاء يعملون بشكل فني بحت، ومنهم معارض للحرب على العراق بشكل كبير، فلماذا يؤخذ هؤلاء بالشبهة ويقتلون بلا ذنب؟

ثانيًا: لماذا حصر الشيخ فتواه في المدنيين الأمريكان دون سواهم؟ علما بأن قوات الاحتلال أمريكية بريطانية مشتركة. وهل لاستثناء الشيخ للمدنيين البريطانيين من الفتوى علاقة ـ كما يزعم المغرضون ـ بقبول استضافة الشيخ ليعقد المؤتمر التأسيسي للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين الذي عقد مؤخراً في بريطانيا ومن قبل ذلك استضافة ابنتي الشيخ للدراسة في بريطانيا؟ علماً بأن ما يجري على الأمريكان كان ـ

عقلاً ـ يجب أن يسري على البريطانيين، وهل معنى جواز قتل المدنيين الأمريكيين في العراق يعني جواز قتل العسكريين الأمريكيين في قطر، وخصوصاً أنهم الذين قادوا معركة دخول العراق وإسقاط النظام؟

ثالثاً: هل أخذت الشيخ حماسة الجماهير التي كانت حاضرة لمهرجان جمعية الصحافيين المصرية فأطلق هـٰذه الفتوى في لحظة حماس دون الرجوع إلى اتحاد علماء المسلمين حتى تخرج الفتوى متوازنة سليمة تقرأ الواقع بعين أكثر من عالم، وكانت الحماسة سببا في خروج الشيخ عن اعتداله المعروف به، وخصوصا وهو من دعاة الحوار والتسامح مع الآخر؟

قد يقول قائل: إن فتوى الشيخ تتناسب مع فتواه الأخرى بجواز قتل المدنيين في إسرائيل، فنجيب بأنَّ الفرق بين الحالتين واضح، وهو أن المدنيين الإسرائيليين أولاً كلهم في جيش الاحتياط الإسرائيلي، وثانياً يدعون أن فلسطين وطنهم وأرضهم، على عكس المدنيين الأمريكيين فلا هم بالضرورة يعملون كاحتياط في الجيش الأمريكي، ولا هم يقولون: إن العراق أرضنا وأرض آبائنا وقد عدنا إليها.

• جهاد لا فوضى:

هـٰذا الطرح السابق الذي طرحناه لا يعني أننا نغلق باب الجهاد على من احتلت أرضه ووطنه، ولكننا نريد لهـٰذه الفوضى التي تستغل فوضى الوضع في العراق واندساس الموساد اليهودي هناك؛ لتقوم بتصفية حساباتها مع أطراف أخرى، فيقوم بعض المنتفعين الذين يتسترون بالإسلام والجهاد بخطف الأبرياء وكل همهم الحصول على مبلغ الفدية، غير مبالين باحتلال أو وطنية، وهـٰؤلاء كثيرون (وأكثر من الهم على القلب)، ولو كانوا صادقين لما قبلوا بالفدية من الأساس، فمثل هـٰذه الأعمال أقرب إلى البلطجة، وقطع الطريق منها إلى شرف الجهاد.

كما أننا لا يجب أن نغفل دور هيئة علماء المسلمين في العراق وضرورة الوقوف على آرائها وفتاويها ومواقفها الشرعية؛ لأنها ـ أولاً ـ من أهل البلد، وثانياً تعرف حقيقة الوضع بكل دقائقه وتفاصيله، وثالثاً عليها واجب اتخاذ الموقف الشرعي

وسبل التعامل مع المحتل، ضمن فقه يأخذ في الاعتبار معطيات الواقع، وعدم الغياب عن معامل القرار التي يتحدد بها مصير العراق كوطن ودولة ودستور ومواطنة وهوية وكيان.

من جهة أخرىٰ لا بد أن نضع في اعتبارنا أن حركة المقاومة ليست جسمًا واحدًا، بل هي أطياف مختلفة ولها دوافع مختلفة، فهناك عصابات إجرام وخطف وسلب ونهب تتستر بستار المقاومة وتقوم بعملياتها الإجرامية من أجل حفنة من الدنانير، وهٰذه وراء الكثير من عمليات الخطف التي تبدأ بإعلان ضرورة انسحاب البلد الذي يتبع لها المخطوف من العراق وتنتهي بإطلاق سراحه بعد الحصول علىٰ رزمة من الدولارات الخضراء.

وهناك حركات مقاومة كل هدفها إشعار أصحاب القرار بثقل وجودها، مثلما فعل مقتدىٰ الصدر في النجف الذي تحول من النقيض إلىٰ النقيض، وبعد أن كان يطالب برحيل القوات الغازية وعدم مهادنتها تحول بين عشيَّةٍ وضحاها إلىٰ حزب سياسي يعد برنامجه السياسي ليشارك في الحياة السياسية في ظل المحتل، وهناك أيضا حركات مقاومة ليس لديها أدنىٰ معرفة بالجهاد وضوابطه، فنجدها تفجر السيارات في عشرات المدنيين العراقيين الأبرياء في سبيل قتل أمريكي واحد، كما تجدها تقتل فلبينياً أو تركياً أو مصرياً وكل من يقع تحت يدها دون أن تنظر في جدوىٰ الأمر وفائدته، وكأنه تيار دم ينبع من بين أصابع أتباعها ولم تعد تملك القدرة علىٰ إيقافه، وكأنها قد تعودت علىٰ القتل حيث لم يعد مهماً إذا كان المقتول بريئاً أو مداناً.

وهكذا يتم الخطف علىٰ الشبهة، فيخطفون من يعتقدون أن شكله ومنظره أمريكي، فيجدونه بعد التحقيق أنه فرنسي، فيتركون قضية الجهاد والاحتلال برمتها ليتفرغوا لحل قضية الحجاب بفرنسا! ثم بعد يومين يطالبون بفدية من الدولارات، وبعدها لا نعلم ما يفعلون، وهٰذا وضع طبيعي بعدما أصبحوا نجوم الفضائيات بلا منازع!!

لقد قلنا في السابق وسنظل نقول: إن السبيل لإنهاء هـٰذا الوضع الشاذ ومحاصرة الفكر المنحرف الذي أصبح بفضل وسائل الإعلام الغبيَّة يتحدث باسم الأمة ويتلاعب بمصيرها، إنما يكمن في فتح الباب لتيار الاعتدال والوسطية بالعمل، فلا يميل هـٰذا التيار لإصدار فتاوىٰ الخياطين التي يتم تفصيلها لتناسب ثوب السلطة وتنال رضاها، ولا يميل إلىٰ الاندفاع المتهور الذي ينال من دماء وأموال العباد.

إن الحركة الإسلامية المعتدلة وحدها القادرة علىٰ إعادة التوازن إلىٰ جسد التيار الإسلامي. وإذا قال البعض: لماذا لا يبرز هـٰذا التيار من خلال وسائل الإعلام بأطروحاته ومواقفه، نقول: إن هـٰذا التيار إن سلم من الاعتقال والمصادرة، وإن سلمت قياداته في المهجر من الملاحقة والاغتيال، فإنه قادر علىٰ إشعال نقطة الضوء وقيادة الطريق نحو النور، ولكن وسائل الإعلام كعادتها لا تهتم بالبدر في ليلة كماله، ولكنها تبحث عن الشاذ والمثير، فإذا ما حصل كسوف للقمر تداعت كلها لنقل الحدث. أما غير ذلك فوسائل الإعلام مشغولة كثيرا بمشاهد الدم والدمار والفعل العنيف.

● أمنية ليتها تتحقق:

وأخيراً لدي أمنية وليتها تتحقق بأن تتحرك كل المؤسسات سواء الرسمية أو الشعبية الإسلامية ابتداءً من رابطة العالم الإسلامي، ومروراً بكل الهيئات العالمية التي تجمع علماء المسلمين، وانتهاء بالتنظيمات الإسلامية والجماهيرية الشعبية لوضع برنامج متكامل علىٰ مدىٰ أسبوع يتم تغطيته عبر كافة الوسائل الإعلامية، وبشكل مكثف من أجل البيان وبشكل واضح لاستنكار كل الأعمال الشاذة والمنحرفة التي تمارس من حين لآخر باسم الإسلام والإسلام منها براء.

فمن سيحقق هذه الأمنية؟!



(٢)
العراق من الجزراوي إلى الزرقاوي

لا عجب أن يسموه بلاد الناي الحزين، حيث ليالي الصبر الطويلة وأقدار الحزن الممتدة عبر تاريخه الذي تحوَّل إلىٰ بوابة لكل القادمين من الشرق والغرب منذ بدأت الحضارة الإنسانية أبجدية الكتابة، فالعراق ذلك البلد المثقل بالأوجاع، كان موطنًا للألم منذ العصر «السومري» ثم «البابلي» حيث «حمورابي» ثم الاستعمار الفارسي الذي بدأه الملك كروش الأول ثم الإسكندر المقدوني، حتىٰ جاء الفتح الإسلامي وتوالت معارك الفتنة علىٰ أرض العراق.

وما أن انتهىٰ العهد الأموي حتىٰ جاء العصر العباسي وتوالىٰ ٣٧ خليفة كان آخرهم المستعصم بالله الذي انقرضت في أيامه الدولة العباسية علىٰ يد هولاكو وبمساعدة خبيثة من ابن العلقمي، حتىٰ دار الزمن دورته في العهد العثماني، ثم الاحتلال الصفوي للعراق أثناء صراعهم المرير مع العثمانيين بين عامي (١٥٠٨) و(١٦٣٨ م). ثم جاء دور الجيش البريطاني لينقل العراق إلىٰ العهود الحديثة التي شهدت هي الأخرىٰ موجات من الانقلابات الثورية انتهىٰ بها الحكم إلىٰ يد صدام حسين الذي بقي خاطفاً للعراق وإرادة الإنسان العراقي وتاريخه وحضارته لأكثر من ثلاثة عقود، ولم يترك سدة الحكم إلا بعد أن سلم البلاد للاحتلال البريطاني من جديد.

هٰذه اللمحة التاريخية تعرض بوضوح مدىٰ التدمير والهلاك والتصدع الذي نال العراق - أرضا وشعبا ومجتمعا -، مما جعل الشخصية العراقية ذات طابع فريد تحدث عنها الجاحظ في البيان والتبيين فقال: «إن العلة في عصيان أهل العراق علىٰ الأمراء أنهم أهل نظر وفطنة ثاقبة، ومع النظر والفطنة يكون التنقيب والبحث والتمييز بين الرؤساء، وإظهار عيوب الأمراء».

هـٰذه الموجات البشرية التي مرت علىٰ العراق - غازية ومحتلة - تركت أطيافاً متشعبة وإثنيات متنوعة، امتزجت داخل الكيان العراقي، وأصبحت علاقاتها متعقدة متشابكة، فتكون الشعب العراقي علىٰ مستوىٰ الأعراق من العرب والصابئة والكلدان والسريان والآشوريين والتركمان والأكراد والفرس والأرمن، ناهيك عن لغات عربية وكردية وتركية وسريانية وآشورية وأرمينية. وعلىٰ مستوىٰ الديانات يكاد يضم العراق كل ديانات العالم من مسلمين سنة وشيعة ومسيحيين من كاثوليك ونساطرة وأرثوذكس وبروتستانت ويهود وصابئة وبهائية وبابية وحتىٰ عبدة شيطان، يضاف إليهم تشكيلة من الأحزاب القومية والشيوعية والبعثية والرأسمالية والعلمانية. . . وعد «وخربط».

هـٰذه الفسيفساء المدهشة والمذهلة والتي تجعل من العراق أُمَمًا متحدة مصغرة، تعيش تنوعاً بيئياً شديد الاختلاف، فهناك الأنهار والجبال والصحارىٰ والأهوار والبحار، وهناك الزراعة والتجارة وصيد الأسماك، ناهيك عن ثروات معدنية وبترولية وعقول قادرة علىٰ الإبداع.

كل هـٰذه المقدمات تجعلنا نستوعب التنوع الرهيب الموجود في الشخصية العراقية والتي تدعهما خبرات حضارية وتاريخية بعضها أصبحت كالدراما المأساوية مثل قتل الحسين رضي الله عنه والإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأصبح العراق وكأنه تطبع بحزن حادثة كربلاء، فتجد الثقافة العراقية لا تبدع إلا من خلال نوافذ الحزن والبكائيات.

ولذا فمن الطبيعي أن يقول شاعر العراق معروف الرصافي قبل مائة عام في قصيدته سوء المنقلب:

بغداد حسبك رقدةٌ وسباتُ ... أَوَ تُرْضِيَنَّكَ هذه النكباتُ

وعلت بك الأحداث حتى أصبحت ... أدواء خطبك ما لهن أساة

قلب الزمان إليك ظهر مجنه ... أفكان عندك للزمان ترات؟

وجاء من بعده الشاعر محمد الجواهري ليكمل معلقة الحزن العراقية، فيقول:

لا تعجبوا أن القوافي حزينة فكل بلادي في ثياب حداد

• صدام والدوري والجزراوي:

والعراق في الخمسين سنة الأخيرة لم يختلف عن العراق في الخمسة آلاف عام الماضية؛ فبعد أن انتهىٰ العذاب علىٰ يد صدام وعزت الدوري وطه الجزراوي، جاء الدور ليأخذ العراقيون نصيبهم من العذاب في العهد الجديد علىٰ يد المحتل الأمريكي وأياديه البيضاء في أبو غريب، والمحتل العربي الزرقاوي وجماعته في الفلوجة، حيث تشكيلة عجيبة أخرجت لنا هٰذا الوضع المأساوي علىٰ مستوىٰ المثلث السني في العراق.

لقد كنا نشاهد سقوط النظام العراقي وهو في الرمق الأخير، وكيف كان طه ياسين رمضان المشهور بالجزراوي يرفع عقيرته ويهدد وكأنه سيبتلع العالم بقدرات سيده السحرية، وكيف كان يخرج في المؤتمرات الصحفية ويلقي بالشتائم والبذاءات التي تليق بمستوىٰ تفكيره وقذارة لسانه. كما رأيناه أيضاً في الصور المرئية ذليلاً خانعاً مستسلماً، كأنه طفل بريء جاء إلىٰ الحياة تواً.

هٰذه الشخصيات المريضة ـ للأسف ـ هي التي كانت تحكم العراق وتتحكم في مصير ومستقبل الملايين؛ حيث أدخلوا الشعب العراقي في حروب عبثية متتالية، لا معنىٰ لها، فقدم ملايين الضحايا غير المقابر الجماعية التي فاق عددها حتىٰ الآن ٢٦٠ مقبرة، كما يقدر عدد ضحاياه بأربعة ملايين مواطن عراقي خلال فترة حكمه المشؤوم، ومثلهم في المهجر والغربة، ومن نجا من الموت والغربة ـ وهما في رأي العراقيين مصير واحد ـ اضطر إلىٰ البقاء تحت نير التقييد والسجن داخل أسوار الوطن، مع منع الكلمة الحرة، ومنع السفر، ومنع البث الفضائي، ومنع الإنترنت، ومنع الهواتف النقالة، فضلاً عن نتائج مدمرة للحروب تسببت في كوارث اجتماعية، تصدع بسببها نظام القيم والأخلاق، فزاد السلب والنهب، وتفاقمت الرشوة والمحسوبية، وارتفعت نسبة الفقر والجوع، وتعمقت جروح العراقيين بداخلهم، وصار العراق جمهورية للخوف، فأصبح الزوج يخاف من زوجته،

والأب يخاف من ابنه والمعلم يخاف من تلميذه، والأم تخاف من طفلها، والموظف يخاف من مديره، حتىٰ أصبح الخوف سلاح «صدام الأساسي» في حكم العراق.

ولذلك فليس من العجب أن يعتمد النظام العراقي السابق ما بين فترة وأخرىٰ علىٰ تسريب بعض أشرطة الفيديو للإعدامات التي تتم، وبث الإشاعات عن فشل المحاولات الانقلابية واعتقال منفذيها، حتىٰ ييأس المواطن العراقي من إمكانية تغيير هٰذا النظام الرهيب، وقد خلق هٰذا الخوف المكبوت داخل النفس العراقية نزعة قوية واضحة نحو منافقة صاحب السلطة أياً كان موقعه للنجاة من البطش.

• نجاحات الزرقاوي:

واليوم بعد انتهاء هٰذا الإرث الدموي، كان قدر العراق أن يبدأ إرثا دمويا جديدا لا تبدو في الوقت الحالي أي بوادر لانتهائه، بل هو معرض للتطور والاتساع، لكن هٰذا العهد الجديد يختلف تماما عن العهد الدموي السابق، وإن كان نسخة مكررة من اختراقات الإسلام من الداخل، بعد أن عجز عنه أعداؤه من الخارج رغم محاولاتهم المتكررة والمستمرة، مصداقًا للحديث النبوي الشريف الذي ورد في البخاري وغيره، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه لما نزل قول الله تعالىٰ: ﴿**قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ**﴾ قال ﷺ: «**أعوذ بوجهك**» ثم قوله تعالىٰ: ﴿**أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ**﴾ قال ﷺ: «**أعوذ بوجهك**» ثم قوله تعالىٰ: ﴿**أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ**﴾[1]، فقال ﷺ: «**هاتان أهون وأيسر**»[2].

وفي تفسير القرطبي (٧/ ٢٢١) قال ابن زيد في تفسير: «**يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا**»: «الذي فيه الناس اليوم من الاختلاف والأهواء وسفك دماء بعضهم بعضا، وفي تفسير البغوي ٢/ ١٠٤ «**يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا**»: «أي يخلطكم فرقًا ويبث فيكم الأهواء المختلفة ﴿**وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ**﴾، يعني: السيوف المختلفة، يقتل بعضكم بعضًا».

---

(١) الأنعام: ٦٥.

(٢) البخاري في التفسير (٤٦٢٨)، والترمذي في التفسير (٣٠٦٥)، والنسائي في الكبرىٰ (١١٧٧٣)، وأحمد (٣/ ٣٠٩).

فأمة الإسلام ومنذ أيام الرسالة الأولىٰ لم تخل من مكر الأعداء وكيدهم، ابتداءً من كفار قريش وحربهم ضد الدعوة حتىٰ أنهم لحقوا بمن فر بدينه من المسلمين الأوائل إلىٰ الحبشة، وأرادوا أن يكيدوا لهم عند ملك الحبشة حتىٰ يعيدهم إلىٰ مكة، ثم كيد المنافقين واليهود في المدينة المنورة، ثم كيد الفرس والروم لهـٰذا الدين، فالإسلام لم يخل من إحدىٰ حالتين:

حالة الضعف حيث يتكالب عليه الأعداء من كل حدب وصوب، **وحالة القوة**، وحينها يتحول الأعداء إلىٰ الدس الباطني والانخراط في صفوف النفاق انتظارا لفرصة سانحة تهيئها الظروف للانقضاض علىٰ هـٰذا الدين وأتباعه. ولا نجد دليلاً أقوىٰ علىٰ صمود هـٰذا الدين من أيام الردة التي تصدىٰ لها أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأيام الفتنة بـ «خلق القرآن» التي تصدىٰ لها الإمام أحمد بن حنبل، ولا يمكن نسيان الهجمة المزدوجة للمغول من الشرق والصليبيين من الغرب في أضعف لحظات الإسلام وهنا، ورغم ذلك لم يتمكن الأعداء من استئصال بيضة الإسلام، وقد أدرك الأعداء أن العمل ضد هـٰذا الدين من داخله ربما يكون أمضىٰ سلاحاً من الهجوم المباشر عليه من الخارج.

• الهجوم على الإسلام من الداخل:

وهـٰذه القاعدة الماكرة قد أدركها أعداء الإسلام منذ عهد الخلافة الراشدة الأولىٰ فعندما أقدم أبو لؤلؤة المجوسي وبدعم من الهرمزان علىٰ قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في صلاة الفجر، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «الحمد لله أنه لم يقتلني رجل سجد لله تعالىٰ سجدة» هـٰذه العبارة كانت من فطنة وذكاء عمر وتفكيره الألمعي رضي الله عنه، فالذي أقدم علىٰ هـٰذه الفعلة النكراء لم يكن من المسلمين، وبالتالي فهم لم يبدلوا ويغيروا ولم يصبحوا شيعًا يقتل بعضهم بعضًا، ولذلك سارت الأمور بأمة الإسلام في العهد الأول من خلافة عثمان سيراً حسنا، ولكن عندما تحركت السبئية وأنصارها من داخل الصف المسلم كانت النتيجة خطيرة جد خطيرة علىٰ وحدة المسلمين وتماسكهم وتآلفهم.

• بين ابن سبأ وابن ملجم:

ومن العجيب أن يحرص بعض المعاصرين على إنكار وجود عبد الله بن سبأ، وكأنه يريد أن يقول: إن البلاء من المسلمين منهم وفيهم وليس بسبب هٰذا الاندساس الخبيث في الصف الداخلي، فعبد الله بن سبأ مثبت في العديد من الروايات التاريخية وليس مجال ذكرها الآن، لكن الرجل باختصار من يهود أهل صنعاء باليمن، فأعلن الإسلام زمان عثمان، ثم تنقل في بلدان المسلمين محاولاً إضلالهم؛ فبدأ بالحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ثم الشام، فلم يقدر على ما يريد من أهل الشام، فأخرجوه، فبدأ مؤامراته بعيدا عن مركز الخلافة.

وقد جاء في حلية الأولياء (٨/ ٢٥٣) أنه قد بلغ عليًا أن ابن سبأ يفضله على أبي بكر وعمر فهمَّ بقتله، فقيل له: أتقتل رجلاً إنما أجلك وفضلك، فقال: لا جرم ولا يساكنني في بلدة أنا فيها، فنفاه إلى المدائن. وقيل: إنه أحل قتله إن رآه عنده بعد ثلاثة أيام. ومن ترهات ابن سبأ ما نسب إليه في كتاب (التعريفات للجرجاني ص ١٥٥) من أنه قال: إن «علياً لم يمت ولم يقتل وإنما قتل ابن ملجم شيطانا تصور بصورة عليّ رضي الله عنه وعليّ في السحاب والرعد صوته والبرق سوطه وأنه ينزل بعد هٰذا إلى الأرض ويملؤها عدلاً، والسبئيون يقولون عند سماع الرعد: عليك السلام يا أمير المؤمنين».

وإذا كان نموذج ابن سبأ نموذج المندس الخبيث بين صفوف المسلمين، فإن هناك من النماذج التي لا تنطوي على سوء نية وتعتقد أنها تخدم الإسلام خدمة عظيمة، بل وتضحي بدمها في سبيل ما تعتقد أنه خدمة في سبيل الإسلام، ثم تكون أعمالها وبالاً على الأمة، والأمثلة في التاريخ القديم لا تعد ولا تحصى.

ولا نجد مثلاً أوضح من عبد الرحمن بن ملجم الذي قتل الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو يحسب أنه يحسن صنعا، فعبد الرحمن بن ملجم لم يكن منافقا وإنما كان يعتقد أنه يخدم الإسلام بهٰذه الفعلة الحمقاء الشنيعة، ولو عدنا للتاريخ لوجدنا أن عبد الرحمن بن ملجم من العابدين وكان قائدا من أشد الفرسان،

أدرك الجاهلية وهاجر في خلافة عمر إلىٰ المدينة المنورة وكان في أول أمره من القراء وأهل الفقه والعبادة. وهكذا هم الخوارج، كما ورد في الأثر، أن الناس يحقرون عبادتهم إلىٰ عبادة الخوارج[1]، فهم أهل صلاة وصيام وطول تهجد وقيام، لكنهم وبال علىٰ الإسلام وأهله، وسنرىٰ ذلك في كل زمن وحين، وبعد ما حصل من تغيرات علىٰ عبد الرحمـٰن بن ملجم وانضمامه إلىٰ الخوارج، اجتمع مع نفر منهم في مكة وذكروا شهداءهم في موقعة النهروان وقال بعضهم (ولاحظ عباراتهم التي تمتلئ بالإيمان والصلاح): ولو أننا شرينا أنفسنا لله فأتينا أئمة الضلالة علىٰ غرة فقتلناهم فأرحنا العباد منهم، وثأرنا لإخواننا الشهداء، فتعاقدوا علىٰ ذلك عند انقضاء الحج، ومن ثم دعوا بالشراة، فتعهد عبد الرحمـٰن بن ملجم بقتل علي بن أبي طالب، وتعهد الحجاج التميمي بقتل معاوية، وتعهد عمرو بن بكر التميمي بقتل عمرو بن العاص. لاحظوا: يؤدون الحج ويتعاهدون علىٰ قتل ثلاثة من كبار الصحابة بينهم الخليفة الراشد علي بن أبي طالب أول الشباب إسلاما وابن عم رسول الله ﷺ وصاحب المشاهد كلها، وهم يعتقدون اعتقاداً راسخاً بأنهم يضحون في سبيل الله، وهو نفس ما يكرر اليوم في المملكة العربية السعودية والعراق من تفجيرات وترويع للآمنين».

وقد نفذ ابن ملجم جريمته بقتل عليّ، بينما أخفق الآخران. وكان مقتل علي رضي الله عنه ليلة إحدىٰ وعشرين من شهر رمضان من السنة الأربعين للهجرة، فقد خرج رضي الله عنه مغلسا يوقظ الناس للصلاة، فدخل ابن ملجم عليه وضربه بسيفه ثم حمل علىٰ الناس بسيفه فأفرجوا له، فتلقاه المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بقطيفة فرمىٰ بها عليه واحتمله فضرب به الأرض.

وكان المغيرة رجلاً قويا فقعد فوق صدره، وقتل ابن ملجم بعدما تقطعت يداه ورجلاه وابن ملجم لا يفتأ عن ذكر الله «قتل زوج فاطمة وابن عم الرسول ﷺ وهو

---

(١) البخاري (٥٠٥٨)، ومسلم (١٠٦٤).

يذكر الله عند الموت!!» وهكذا اعتبر الخوارج ابن ملجم مجاهدا واعتبروا عمله تقربًا إلىٰ الله يضمن له الجنة.

وفيه يقول عبد الرحمن بن أم الحكم الخارجي - جمهرة خطب العرب ٢/ ١٠٧: «لِلَّهِ در ابن ملجم، فقد بلغ الأمل، وأمن الوجل، وأحد الشفرة، وألان المهرة، وأدرك الثأر، ونفىٰ العار، وفاز بالمنزلة العليا ورقي الدرجة القصوىٰ» فرد عليه ابن عباس في خطبه قال في جزء منها: «أما والله لقد كرع كأس حتفه بيده وعجل الله إلىٰ النار بروحه».

وقد اجتمع الخوارج بعد قتل الإمام علي رضي الله عنه، فحمدوا الله علىٰ قتله رضي الله عنه ولا رضي الله عنهم ولا رحمهم حتىٰ قال شاعرهم - لعنه الله ولعن ابن ملجم:

يا ضربة من ولي ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

إني لأذكره يوماً فأحسبه ... أوفى الخليقة عند الله ميزانا

وما أشبه اليوم بالأمس، حيث ذكرت الأخبار في الأسبوع الماضي مقتل أبي أنس الشامي الذي كان يعد الرجل الأقوىٰ في جماعة التوحيد والجهاد التي يتزعمها أبو مصعب الزرقاوي، وكان أبو أنس قد توجه في شهر سبتمبر ٢٠٠٣م إلىٰ العراق وانضم إلىٰ جماعة الزرقاوي، ولم يمض وقت طويل حتىٰ تفاجأ الناس أن أبا أنس قد أصبح المسؤول الشرعي للجماعة والمستشار المؤتمن للزرقاوي.

ورغم أننا نكل نوايا أبي أنس الشامي إلىٰ الله، حيث كان من رواد المساجد في الكويت وحفظ القرآن الكريم كاملاً وهو لم يبلغ بعد الخامسة عشرة، إلا أننا نتعجب أن يتحول بين عشية وضحاها وهو لم يبلغ بعد السابعة والثلاثين من عمره إلىٰ مستشار شرعي يفتي بالذبح وبالدماء، وفي وضع معقد كالعراق الأمر يحتاج إلىٰ نظر، لكنه يعتبر وضعا طبيعيا إذا ما راجعنا سجل الزرقاوي، الذي لا يتوانىٰ عن إمرار السكاكين في قلوب المخطوفين، ويبعث السيارات المفجرة لكي تغتال عشرات المدنيين العراقيين من أجل أن يظفر بقتل أو جرح أمريكي، حتىٰ وصل عدد القتلىٰ من المدنيين العراقيين إلىٰ أكثر من ١٣ ألف ضحية، للزرقاوي فيهم نصيب جيد،

فإذا ما كان هدف الزرقاوي هو إخراج القوات الأمريكية من العراق، فإن هـٰذه القوات قد أعلنت نيتها الخروج حالما تنظم الانتخابات، فلم لا يلحق السيد الزرقاوي «الكذاب لباب الدار»، ولماذا يكون هو سبباً في منح الحجة للقوات الأمريكية للبقاء في العراق؟!

ولو سلمنا جدلاً بأن القوات الأمريكية وتحت الضربات المظفرة للزرقاوي وجماعته قد قررت الخروج والهرب من العراق، فهل لدىٰ الزرقاوي الإمكانات البشرية والمادية والعسكرية للحفاظ علىٰ العراق دون الدخول في متاهات الحرب الأهلية، أو تدخل دول الجوار، وهل يملك السيد الزرقاوي رؤية حضارية واجتماعية وقدرة علىٰ فهم العراق وطبيعته وقيام مجتمع متحضر قادر علىٰ إتمام دائرة الوئام والحياة المدنية الطبيعية، وهو الذي قضىٰ حياته في معسكرات أفغانستان بين الخندق والقنابل.

الوضع في العراق يتجاوز الزرقاوي وأعقد مما يظن البعض، والحركة الإسلامية في العراق مدعوة اليوم إلىٰ ما كان يجب أن تلعبه منذ سقوط النظام ولا تجامل أحداً فيه علىٰ حساب القيم والمبادئ.

المسألة جد معقدة وتحتاج إلى شرح أكثر من ذلك.



(٣)
الخروج من فتنة المثلث السني

إن الحركة الإسلامية ومنذ غزو الكويت عام ١٩٩٠ لا تزال تدور في دائرة مفرغة بسبب عدم الوضوح الكافي في المواقف تارة، والتذبذب في اتخاذ القرار المطلوب تارة أخرىٰ، والموازنات التي تحاول مسك العصا من المنتصف، فلا هي طالت «بلح الشام ولا عنب اليمن».

نحن نتحدث اليوم ويتساءل معنا كل الأحباب عن صاحب إحياء فقه الدعوة الأستاذ المفكر محمد أحمد الراشد أحد أبرز منظري الحركة الإسلامية المعاصرة وصاحب أهم المؤلفات في إحياء فقه الدعوة في النصف الثاني من القرن الماضي، وهو العراقي الجنسية العالمي العطاء والذي امتاز بالغوص في كتب التراث والخروج بقراءات معاصرة لها، تحيي فقه الدعوة وتؤطرها ضمن لوحة جمالية فيها من ذوق الكلمة وأدب الأسلوب ما يجعل القارئ يتأمل فقراتها كلوحات زيتية، هي للتأمل والإعجاب أقرب منها للقراءة وإعمال الفكر.

لقد كتب الشيخ محمد أحمد الراشد كثيراً في فقه الفتن، ولديه من المؤلفات القديمة والجديدة ما يعتبر رصيداً مهما في هٰذا الباب. . ولو حاولنا اختيار بعض منها لذكرنا القارئ بكتابه «العوائق» فصل «دماء علىٰ المصحف» تعليقا علىٰ فتنة قتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه حيث كتب معلقا: «فبربك: أهٰذا خلاف بين مسلمين أم مجزرة شيوعية كمجزرة الموصل؟ هكذا أعداء هٰذا الإسلام دوما، يريدون قطع رأس الجماعة وكسر أضلاع تنظيماتها، والمبرر: (لله) وبصيحة (لله). هكذا ضاعت ألوف من شباب الدعوة بالأمس القريب، وثبطت جموع، وكشفت أسرار، وملئت سجون».

وفي كتابه التربوي القيم «منهجية التربية الدعوية الفصل الثالث: الكتلة

الأخلاقية ص ٥٣» يقول: «ولئن كان العمل الإسلامي يتصف برفع الصوت أحيانا والتحدي والمواجهة، فإن الحكمة، وقوانين فقه الدعوة تلزمنا أن يكون عملنا الدائب صامتا في أحيان أخرىٰ، وأن يكون متحليا بالعزة الإيمانية، برفق، وأن نمهر في إجراء الموازنات المصلحية والمقايضات النسبية، فليس هناك من الوسائل والمواقف والخطط ما هو خير محض ونفع عام، أو شر مغلق وضرر من كل وجوهه، ولكن يشاء الله أن تختلط المصالح بالمفاسد دائماً.

فيكون حرص الداعية الفقيه في أمر دعوته أن يوازن الموازنات الدقيقة، وأن يتحرىٰ طريق الالتفاف إذا صعبت الطرق السالكة، وأن يسير ليلاً إذا أرهقته شمس النهار، مع صبر وتحمل وتجمل، دون جري مع العواطف والحماسة اللاهبة التي تتهم الموقف الحكيم بالخنوع، ومن غير داع أن ندع رجل الشارع يسير بنا إلىٰ حالات الحرج والمصادفة، فإن رجل الشارع تقوده العواطف، ونحن يقودنا التخطيط والنظر البعيد والفكر الموزون. . . » انتهىٰ.

وفي مقدمة موسوعته الفريدة «أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي» والتي تقع في حوالي ١٥٠٠ صفحة تضمها أربعة أجزاء يقول الشيخ ـ حفظه الله: «كانت لنا جولة استقرائية في كتب الشريعة، جمعنا لك عبرها طائفة كبيرة من الأمثلة التطبيقية لهٰذه القواعد والأصول ذكرها الفقهاء، ثم أردفنا ذلك بوصف أحوال دعوية تفصيلية كثيرة ساعدتنا علىٰ اكتشافها وتسميتها ممارسة طويلة داخل الصفوف الدعوية، تقلّبت بنا خلالها المراحل وتنوعت فيها البلدان والمجتمعات، ثم خلطنا كل ذلك في مزيج واحد، مع تعقيب ومعاملات ومفاتيح للنظر، ووضعناها بين يدي من يريد أن يفهم صنعة الاجتهاد في فقه الدعوة، نعينه علىٰ أن يفتي نفسه والدعاة الفتاوىٰ المناسبة لكل قضية جزئية جديدة تطرأ علىٰ الحياة الدعوية، وإذا لم يكن من أهل الاجتهاد فتعينه علىٰ أن يفهم منطق الدعاة المجتهدين، وخلفيات إفتائهم».

نسرد هٰذه المقتطفات من كتابات الشيخ الراشد، ونحن ندرك أن له صولات وجولات داخل العراق، ومقالاته منذ سقوط النظام السابق وحتىٰ اليوم منتشرة في

الصحافة العراقية، ونريد لهـٰذا الصوت بتجربته الميدانية وأفقه الواسع أن يعلو إلىٰ سماء العالم الإسلامي ليسمع صوت الحزب الإسلامي في العراق، وليعلن موقفاً حازما حاسما وواضحا يضع فيه النقاط علىٰ الحروف، وهي مهمة لها الأولوية اليوم ومسؤولية تقع علىٰ عاتق الحركة الإسلامية بشكل عام، وعلىٰ عاتق الحركة الإسلامية العراقية وخاصة الحزب الإسلامي بشكل خاص.

فما يحدث اليوم من زج للحركة الإسلامية في متاهات الفتن والأزمات لا يحمد عقباه، وكل خبير بواقع الحركة الإسلامية المعاصرة وتجاربها يحذر من الحالة الهلامية المائعة في مواقفها التي تنحىٰ ناحية التوافق كبديل عن الوضوح.

إن الفتن التي تجري في العراق واستحلال الدماء البريئة وغير البريئة، لن يوقفها لا الحرس الوطني العراقي ولا المجلس الوطني العراقي ولا قوات الشرطة العراقية ولا حتىٰ الجيش الأمريكي الذي يحارب في العراق «عن بعد»؛ لأن الشق الأمني وحده غير كاف لحوار «العقول» التي تقف خلف سلاح العنف في العراق، ولا بد للحركة الإسلامية العراقية ألا تسقط في هوة إعطاء الشرعية لجهات تفسد أكثر مما تصلح؛ وذلك بسكوتها عما يحدث واتخاذها مواقف هلامية غير محددة الملامح حرصا علىٰ عواطف رجل الشارع العادي الذي سيكتشف بعد حين سراب النتائج التي تأتي بها مثل هـٰذه المغامرات غير المؤصلة شرعيا، وبعدها سينفض عن الحركة الإسلامية وأدبياتها؛ لأنها لم تقف الموقف الواضح البين، وانساقت وراء عواطف رجل الشارع، ففقدت معنىٰ «التوجيه والقيادة» فانتفت حاجة الجماهير إليها.

• سيناريو مزعج:

إن الحزب الإسلامي العراقي وبما لدينه من كوادر تعب كثيراً في تربيتها وحرص عليها من الأذىٰ أيام النظام السابق، وبما له من خبرة قيادية وإدارية وشخصيات تتمتع بالحنكة والإخلاص - ولا نزكي علىٰ الله أحداً - مدعو ببساطة للقيام بتوجيه دفة الأحداث نحو المواقف الأصيلة للحركة الإسلامية، وخصوصا أن هيئة علماء المسلمين التي تمثل السنة في العراق قد تكونت حديثاً ولا سابق خبرة لديها، وربما

يقودها مجموعة من الوعاظ والخطباء الذين تقودهم العاطفة وإغراء الوقوف أمام الجماهير فوق المنابر دون امتلاك الموازنات الفقهية والدعوية، ليطلقوا التصريحات العنترية والحماسية التي سيدفع العراق ثمنها فادحاً.

ولا نجد أدل من ذلك دعوتهم للشرطة العراقية للتمرد علىٰ قيادتهم، وهـٰذا لو حصل سيدخل البلاد دوامة من الفوضىٰ يضيع فيها فقه أقل المفسدتين وأعظم المصلحتين، بل وتتعدىٰ المسألة إلىٰ ما هو أخطر من ذلك وهو إلغاء دور السنة السياسي وتهديد كيانهم بسبب هـٰذه الممارسات الرعناء غير المدروسة، وما تصريح الإدارة الأمريكية بإبعاد المثلث السني عن الانتخابات إلا مؤشر خطير عما ستؤول إليه الأمور إن استمر الوضع الحالي علىٰ مساره المتقلب، ولو طبق هـٰذا القرار فيمكننا تخيل السناريو التالي:

تتم الانتخابات سواء في بداية السنة القادمة أو بعد ذلك، وتأتي حكومة منتخبة ومجلس منتخب يغيب فيه الاتجاه السني الحركي ويغلب علىٰ تشكيلته السياسية الاتجاهان الشيعي والكردي، ويتحقق ما ذكره أحد الرموز الكردية عندما قال بصريح العبارة وهو في زيارة لإيران: «لقد حكم العراق فترة طويلة الاتجاه السني العربي، وآن الأوان للعراق اليوم بأن يحكم الاتجاه الشيعي الكردي».

ولسنا هنا في معرض الاعتراض علىٰ أن ينال كل تيار وعرق واتجاه حقوقه الوطنية في العراق، ولكننا ضد التقسيمة الطائفية والعرقية المسبقة للموضوع، خصوصاً أن الأكراد في النهاية في غالبيتهم من السنة.

وهكذا يتكرر سيناريو الإلغاء المتبادل بين الأطراف العراقية، ويمكننا أن نتخيل كيف سيخرج حفيد ذلك الكردي الذي قتل أبواه في حلبجة، فيتبوأ منصبا في الحكومة، وذلك الشيعي الذي طرد أبواه ظلما خارج العراق أيام الحكم الصدامي، ليتبوأ منصباً في المجلس الوطني، وتبدأ الثأرات السياسية واستهداف المثلث السني بالعراق وربما تهجيرهم خارج العراق باعتبار أن لهم أصولا «من الحجاز والجزيرة العربية» كما فعلها صدام مع الشيعة بزعم أن لهم أصولا من بلاد فارس وطردهم من

العراق بلاد آبائهم وأجدادهم باعتبارهم عملاء وخونة للعدو .

وقد قام بفعلته هـٰذه للأسف وسط صمت مطبق من الدول العربية والخليجية، بينما رحلت عشرات الألوف من الأسر العراقية بين عشيَّة وضحاها ورميت علىٰ الحدود بعد أن استولت الحكومة العراقية علىٰ ممتلكاتهم وصادرتها، ولم يتكلم أحد في الموضوع علىٰ طول الوطن العربي وعرضه باعتبار أنه شأن داخلي، وإكراما لعيون صدام حسين فارس العروبة الذي يحل له ما يشاء؛ حفاظا علىٰ عروبة العراق وقوميته وقدسيته المجيدة، وهكذا سيسكت الجميع ويعم الصمت من أجل وحدة العراق واستقراره والأمن فيه!!

هـٰذه الصورة المرعبة لو تصورتها العقول السنية الناضجة لما مضت في هـٰذا التصعيد، ولسنا هنا ندعو إلىٰ الاعتراف بالمحتل أو تزكية احتلاله ولكننا ندعو إلىٰ نظرة واقعية قبل اتخاذ القرار .

فهـٰذا السيناريو المتصور يمكن أن يقترب من الحقيقة إذا ما انجرت الحركة الإسلامية لهـٰذا النسق التصعيدي الذي يقوده الزرقاوي وينجر له هيئة علماء المسلمين السنة في العراق، وليت المثلث السني تأمل في النقلة الفجائية لمقتدىٰ الصدر من محاربة الامريكان ورفض وجودهم في العراق إلىٰ إعداد البرنامج السياسي لحزبه والمشاركة في التجربة الانتخابية، فنحن في النهاية لا نريد للحركة الإسلامية - وكالعادة - أن تكون جسرا يعبر عليه الآخرون نحو مفاتيح القرار والسلطة، بينما هم بحماستهم البدائية ونواياهم الطيبة في عالم مليء بالذئاب والنوايا الخبيثة سيحصدون الريح وينتهون إلىٰ خارج اللعبة، بينما يطعَّم المجلس القادم ذو الاتجاه الشيعي الكردي بوجوه سنية ذرا للرماد في العيون، لكنها كأصنام التمر ستؤكل عندما يجوع من صنعها، فهي في النهاية لا «تهش ولا تنش» فتكمل المثل، فيكون في العراق من يأكل المش وآخر يعلم الغش، وثالث لا يهش ولا ينش، بينما يبقىٰ المثلث السني سادراً في أحلام اليقظة وأوهام الزرقاوي بإقامة دولة «حكم الشريعة في المثلث السني».

• الحركة الإسلامية بين نموذجين:

إن الحركة الإسلامية في العراق اليوم على مفترق طرق وعليها أن تختار بين نموذجين وتحسم أمرها إلى أي الخيارين ستنحاز؛ لأن هٰذا الانحياز المبكر سيكون مفيداً في الخروج من فتنة الواقع الحالي الذي يضيع معه كل تهديف سياسي لأي عمل حركي وحزبي في واقع العراق اليوم، الذي يضع مستقبله على نار في غاية السخونة والحرارة.

النموذج الأول: النموذج المصري، فكلنا يعرف تجربة الحركة الإسلامية الأصيلة في مصر المعمورة مع شكري مصطفى عندما كفَّر المجتمع المصري، وكفر كل من لم يكفر الكافر، وحكم بلوازم ليست بلوازم، فزعم بكفر جمال عبد الناصر وكفر من لم يكفر جمالاً، وبناء على هٰذه الرؤية لشكري مصطفى أصبح مسلسل قتل الناس وسرقة أموالهم مباحاً باعتبارهم كفاراً، ولتبدأ بعدها سلسلة من الاعتقالات في صفوف الحركة الإسلامية، لكنها رغم ذلك حافظت على بقاء الحركة الإسلامية في مصر واستمرت في نشر الدعوة والحفاظ على بنيانها ومؤسساتها من الانهيار لسبب أساسي وجوهري، وهو أن الحركة الإسلامية هناك اتخذت قراراً هو من أحكم قراراتها في مسيرتها الدعوية، وتجنبت سياسة النعامة ودفن الرؤوس في الرمال، فقامت وبكل وضوح وتحمل للمسؤولية بالتصدي لهٰذا الفكر التكفيري، وتعاملت مع هٰذه الظاهرة بكل حسم ووضوح فحاربت هٰذا الفكر الدخيل وتبرأت منه، وأصدرت إصدارات عديدة تبين خطأ المنهج الاستدلالي لهٰذا الفكر.

وكان أبرز تلك الإصدارات كتاب «دعاة لا قضاة» للمرشد الراحل حسن الهضيبي ـ رحمه الله ـ فوضع النقاط على الحروف، وتبعه الأستاذ المفكر سالم البهنساوي بكتابه القيم «الحكم وقضية تكفير المسلم» وقد عانت الحركة الإسلامية وهي تتخذ هٰذا الموقف الواضح من ثلاث جهات:

الجهة الأولى: شباب الحركة المتحمس والذي يريد خدمة الإسلام والدعوة،

حيث اتهم الحركة بالضعف وعدم الجرأة وفقدان الحركة للمبادرة، وهم يرون تلك المواجهات التي يقوم به الفكر التكفيري مع السلطة، دون إدراك منهم لسنن التدافع والمصلحة، وبهـٰذا واجهت الحركة ضغوطاً من داخل صفوفها، ورغم ذلك لم تتراجع عن ما اعتبرته هو الحق الواجب الثبات عليه.

الجهة الثانية: الحركات الجهادية والتكفيرية التي اعتبرت موقف الحركة موقفاً مهادناً ومتخاذلاً، وأن الحركة أصبحت تصب في جيب الحكومات والأنظمة وأنها فقدت مبرر وجودها كحركة إصلاحية في وجه الطاغوتية والاستبداد، وبالتالي أصبحت أدبيات تلك الحركات الجهادية تصف الحركة الإسلامية وهي حركة الإخوان المسلمين أنها حركة جامدة تقليدية عاجزة عن المبادرة، وانتهت صلاحيتها للبقاء والتغيير.

الجهة الثالثة: السلطات الحاكمة التي رأت في الفكر التكفيري فرصة ذهبية للانقضاض على الجميع، واستعمال هـٰذا الخلاف المستعر في ضرب الجميع والخلاص من كل تلك التيارات.

ورغم كل هـٰذه الضغوط والتداخلات بين تلك الجهات الثلاث، استمرت الحركة على منهجها الواضح، فخسرت على المستوى القريب ـ كما اعتقد البعض ـ في حينها أنها خسارة للحركة الإسلامية وتراجع عن واجبها الديني، وما هي بالخسارة في حقيقة الأمر، كما ربحت على المدى البعيد ولم يصبها من هـٰذا الموضوع إلا الأذى الذي نال أتباعها ودعاتها، وهي ضربة متوقعة لمن يسلك هـٰذا الدرب الذي لا يسلكه إلا الرجال وأي رجال!

وهكذا حافظت الحركة على نهج الإمام حسن البنا في الوضوح وعدم المداهنة في الحق، وهـٰذا ما كان الإمام البنا دائماً يوضحه في رسائله إلى الإخوان، حيث كتب ـ رحمه الله ـ في رسالة «دعوتنا» تحت عنوان «وضوح»: «نحن ندعو الناس إلى «مبدأ» واضح، مسلم به منهم جميعا، هم جميعا يعرفونه ويؤمنون به، ويدينون بأحقيته، ويعلمون أن فيه خلاصهم وإسعادهم وراحتهم... مبدأ أثبتت التجربة

وحكم التاريخ صلاحيته للخلود وأهليته لإصلاح الوجود» .

وانظروا ـ أيضًا ـ خاتمة رسالته إلىٰ الشباب عندما كتب : «أيها الشباب : علىٰ هٰذه القواعد الثابتة وإلىٰ هٰذه التعاليم السامية ندعوكم جميعاً ، فإن آمنتم بفكرتنا ، واتبعتم خطواتنا . . . فهو الخير لكم في الدنيا والآخرة . . . وإن أبيتم إلا التذبذب والاضطراد ، والتردد بين الدعوات الحائرة والمناهج الفاشلة ، فإن كتيبة الله ستسير غير عابئة بقلة ولا بكثرة : ﴿ **وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** ﴾[1] .

فمنهج الوضوح هو الذي حمىٰ الدعوة من الانهيار في مصر ، وهٰؤلاء الذين انتقدوا الحركة الإسلامية ، انتهوا إلىٰ ما بدأت به الحركة ؛ لأنهم لم يفرقوا بين المداراة والمداهنة .

ففي باب المداراة مع الناس قال البخاري ـ رحمه الله : ويذكر عن أبي الدرداء : «إنا لنكشر في وجوه قوم «نبتسم» وإن قلوبنا لتلعنهم»[2] ، وعن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً استأذن علىٰ النبي ﷺ فقال : «**ائذنوا له فبئس أخو العشيرة**» ، فلما دخل ألان له الكلام ، فقلت له : يا رسول الله ، قلت ثم ألنت له القول ، فقال : «**أي عائشة ، إن شر الناس منزلة عند الله من تركه الناس اتقاء فحشه**»[3] .

فالمداراة مندوب لها ، والمداهنة محرمة ، فالمداراة هي الرفق بالجاهل في التعليم والفاسق في النهي عن فعله وترك الأغلاط عليه حيث لا يظهر ما هو فيه من فسق ، والإنكار عليه بلطف القول والفعل ، لاسيما إذا احتيج إلىٰ تألفه ، أما المداهنة فهي معاشرة الفاسق ، وإظهار الرضا بما هو فيه من فسق ، من غير إنكار عليه .

وهكذا استعصت الحركة الإسلامية في مصر علىٰ من أراد بها المكر والتصفية ، وتكرر هٰذا الموقف في حركة جماعة «صالح سرية» عندما حاولت احتلال الكلية

---

(١) آل عمران : ١٢٦ .

(٢) أورد ذلك البخاري في باب الأدب ، باب (٨٢) : «المداراة مع الناس» .

(٣) البخاري (٦١٣١) ، ومسلم (٢٥٩١) .

العسكرية وهي كلية من بين عشرات الكليات المتناثرة فوق أرض مصر ، فكانت حركة غير واعية استلزمت أيضا الوضوح في المواقف من جانب الحركة الإسلامية في مصر .

• نموذج آخر:

أما النموذج الآخر من تجارب الحركة الإسلامية، فهي التجربة المريرة للحركة الإسلامية في سوريا ، حيث قام مروان حديد ـ رحمه الله ـ باندفاعة الشباب وحماستهم بعمليات جهادية هناك ، ولم تستطع الحركة أن تنكر ما قام به أو تفاصله أو تضع الضوابط التي تمنع هـٰذا الإقدام غير المدروس مهما حسنت النوايا وخلصت ، وظلت الحركة الإسلامية في سوريا تراعي مروان حديد علىٰ استحياء ، فلم تقم بإنكار ما قام به ، حتىٰ جرها إلىٰ دوامة العنف ، ودخلت الجماعة في مواجهة غير متكافئة كانت نتيجتها وبالاً علىٰ الجماعة والدعوة بكل المقاييس ، حيث اضطرت وتحت ضغط شباب الدعوة ومطالباتهم الحماسية الاستجابة إلىٰ إغراء المواجهة ، حتىٰ كانت المحصلة النهائية ألوانا من الفتن ، فسالت دماء وهتكت أعراض ودمرت بيوت ، وهجرت عوائل وأسر شريفة عفيفة ، وافترقت السبل بالعوائل ، وفقدت الدعوة هناك كل مكتسباتها ، وتوزعت قواعدها وقيادتها في الدول العربية والأوروبية ، ولا زالت جراح تلك الأحداث حتىٰ بعد مرور أكثر من عشرين عاما لم تندمل ، مع معاناة مستمرة ومأساة لا يعلم مداها إلا الله ، وكل ذلك بسبب عدم الحزم في مسائل تحتاج إلىٰ وضوح لا إلىٰ مداراة ومجاملة ، وإلىٰ تقدير عواقب الأمور والحفاظ علىٰ بيضة الدعوة ومكتسباتها لا إلىٰ إقدام غير مدروس انتهىٰ إلىٰ ما انتهىٰ إليه .

• حتى لا تتكرر المأساة:

نقول للحركة الإسلامية في العراق : إذا أرادت أن تتجنب مصير أختها سوريا ، أن تكون حاسمة وواضحة تجاه بعض من يخلط الأوراق بين الجهاد والخطف والقتل للمدنيين من العراقيين وغيرهم ، ويعطي فرصة للقوات الأمريكية المحتلة أن تقصف

بالطائرات، مبررة هٰذا الفعل بالبحث عن الإرهابيين وضرب المقاومة، ويجب عدم ممارسة العنف المدمر بدعوىٰ مقاومة المحتل، فيكون ضحاياه من الأبرياء وغيرهم، مما يزيد من نفور الناس حولهم، كما أنهم لم يجيزوا هٰذه المقاومة لأهداف سياسية قابلة للتحقيق، وبالتالي تصبح قراءتهم لمجمل الوضع غير سليمة ونتائجها طائشة، بينما الآخرون يقفزون علىٰ السلطة وحكم القرار، وتتحول الحركة الإسلامية من الحفاظ علىٰ كوادرها ـ التي تعبت عليهم طوال ثلاثة عقود وحمتهم من طيش النظام السابق واعتقالاته ـ إلىٰ مجموعة من المهجرين واللاجئين في أراضي الجزيرة العربية والدول العربية والمهجر؛ لأنها ستحمل كل اجتهادات المثلث السني الصالحة والطالحة، وهكذا تكون الحركة الإسلامية في العراق قد نجحت في اختبار الديكتاتوريات وفشلت في اختبار الحريات، وهٰذا بالضبط ما لا نريده لمصير الحركة.

نقول: حتىٰ لا نصل لهٰذا السيناريو، وحتىٰ لا تسيل الدماء علىٰ المصحف من جديد، أناشد أبا عمار الأستاذ محمد أحمد الراشد، أن يكون له موقف معلن أكثر وضوحًا يصل إلىٰ كل أنحاء العالم العربي والإسلامي من خلال بيان، يكون معتمداً علىٰ دراسة المعطيات الحالية وقياس الفرص والمخاطر والتأمل في سيناريوهات المستقبل، لوضع النقاط علىٰ الحروف، وحتىٰ لا تكون الحركة الإسلامية في العراق ضحية فلول البعث وفدائيي صدام وقطاع الطرق الذين يقومون بأعمال العنف وتلويث المثلث السني بدماء الأبرياء، فهٰؤلاء لا ذمة لهم ولا عهد، واليوم إن كانوا يقبضون من جهة ثمنا لهٰذه الأعمال التخريبية فغداً سيقبضون من الجهة الأخرىٰ، وينقلبون علىٰ الحركة الإسلامية عندما يجدون دورا جديدا لهم في الأوضاع المستجدة.

ولهم في سيدهم المسجون خير عبرة وعظة، فهو الذي أراد إعادة شط العرب إلىٰ العراق، وبعد ملايين الضحايا ومليارات الدولارات عاد إلىٰ التسليم بنصف

الشط مجاناً هكذا إلى إيران، وبعد أن أراد أن يكون شوكة في ظهر الخميني عاد وكتب رسالة إلى حكام إيران يبدي ندمه على أن الخميني مات وهو غير راض عنه! وبعد أن كان يقول لجنوده على الجبهة: إن كل رغيف يأكلونه نصفه من الكويت، عاد ودخلها بليل أسود بهيم، وبعد أن كان يعادي الأمريكان ليل نهار، عاد وقبل سقوط حكمه إلى المفاوضات السرية ليسلم لهم كل شيء: النفط وثروات العراق والتطبيع مع إسرائيل ولكن بعد فوات الأوان.

فهٰؤلاء يا «أبا عمار» لا خلاق لهم، وأعرف أنك لست من الذين تقودهم عواطف رجل الشارع، فأنت صاحب الموازنات والمقايسات والأولويات واستقراء الأحداث والاجتهاد السديد.

وإنني هنا أحذر أصحاب العقول والعقيدة الصحيحة من أهل العراق من الفكر التكفيري، فهٰذا الفكر - كما أثبتت الأحداث السابقة - لا يقف عند حد، فهم يكفرون الأمريكان ابتداءً، ثم يكفرون من تعاون مع الأمريكان، ثم يكفرون المواطن العراقي الذي يسعى خلف لقمة عيشه، والمواطن الذي يذهب أولاده إلى مدارس الحكومة، ثم يكفرون هٰؤلاء العمال المساكين الذين ألقى بهم حظهم السيئ إلى العراق، ثم يأتي بعد التكفير استحلال الدم، وهكذا حتى يصلوا إليكم فتنالكم «بركة» تكفيرهم لكم، ثم يبدؤون بتصفية قواعدكم وكوادركم، وساعتها ستدركون خطأ فرضية التسويف وعدم حسم الأمور، ولكن بعد أن ينالكم نصيب من السيارات المفخخة والقنابل الموقوتة، وعندها ستقعون بين فكي الكماشة من فلول البعث الذين يقبضون من بعثي الخارج الذين هربوا بمليارات الدولارات لعدم هدوء الوضع في العراق، بناء على مقولة سيدهم: لن أترك العراق إلا أرضاً محروقة، وانسجاماً مع قول الشاعر:

إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر

كما نحذر من جماعة التكفير التي تحاول تنفيذ برنامجها، مستغلة ثغرات عديدة

في الأوضاع الحالية ومنها :

أولاً: وجود المحتل الأمريكي وضرورة مقاومته .

ثانياً: استكمال تصفية الحساب الذي بدأ في أفغانستان ونشهد جولته الثانية في العراق ، حيث إن حرب أفغانستان لم تنته ، وإنما تغيرت بعض الوجوه وأرض المعركة .

ثالثاً: استغلال الوضع العربي الذي يكنُّ حقداً دفيناً وكرهاً مقيتاً على مستوى الشعوب ضد الولايات المتحدة وازدواج معاييرها واستهدافها ثروات الأمة .

رابعاً: التحريض الرخيص الذي تقوم به الفضائيات ؛ لتغذية دوامة العنف التي تزداد يوماً بعد يوم .

خامساً: استغلال عواطف الشباب المسلم في كل مكان ، ومحاولة استدراجهم عبر الحدود المفتوحة لحرقهم في محرقة العنف هناك ، حيث تقول لهم : ما رأيك بعد ساعة أن تكون في الجنة مع الرسول ﷺ ، هكذا بكل بساطة .

سادساً: استغلال الدعم المالي الذي يقدمه فدائيو صدام وفلول البعث وبعض الدول المجاورة التي تتخذ من العراق وسيلة دفاع متقدمة عن مصالحها ووجودها .

سابعاً: حالة البطالة المرعبة التي يعيش فيها الألوف من الشباب العراقي ومحاولة تجنيد العديد منهم في السيارات المفخخة وأعمال التفجير .

ثامناً: استغلال حالة الصمت التي تبديه المراجع الإسلامية والحركة الإسلامية ، تجاه ممارسات الفكر التكفيري في العراق ، واعتبار هـٰذا الصمت موافقة ضمنية على ما تقوم به في الأراضي العراقية .

● كلمة حق:

آن الأوان للحركة الإسلامية أن تخرج من حفرة المثلث السني وتعيد ترتيب حساباتها ؛ حتى لا تبقى أسيرة العواطف والأمنيات ، وأن تقول كلمة الحق متى ما كانت مهمة ولا تغتر بصلاح البعض ولا بكثرة عبادتهم ولا بإخلاص نواياهم .

كما أن الصلاح والتقىٰ الفردي لا ينبني عليه بالضرورة امتلاك الأدوات اللازمة للعمل الجماعي، وإلا لكانت الصوفية أنجح الناس بالعمل الجماعي، فهـٰذا ميدان آخر يحتاج إلىٰ رؤىٰ وتصورات ودراسات ونظر وتأمل وتفكير يعين عليه القلب النقي والنوايا المخلصة، لكنها بمفردها لن تصل بنا إليه.

وليكن للحركة الإسلامية العبرة في تعامل سيدنا علي رضي الله عنه مع الخوارج، فلم يغتر بكثرة صلاتهم وصيامهم وقيامهم وعبادتهم، وقام بقتالهم، فأمر المسلمين والإسلام وحماية الخلافة ومصالح المسلمين أولىٰ من مداهنة هـٰؤلاء علىٰ الباطل، ولو كانت في وجوههم من أثر السجود كخفاف الإبل.

فاليوم القرار - يا أحبابنا في العراق - أفضل من أن يكون في الغد، وتذكروا الحديث النبوي الشريف: «**سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله**»[1].



(١) الحاكم في المستدرك (٣/ ٢١٥) برقم (٤٨٨٤)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، والسلسلة الصحيحة للألباني (٣٧٤).

(٤)
انتخابات العراق
نهاية افتراق أم بداية اختراق؟

من يتابع على الفضائيات وصفحات الصحف والمجلات، وحتى على شبكة الإنترنت يجد حمى الانتخابات العراقية تطغى على كل شيء، مثلما طغت قبل فترة حمى انتخابات الرئاسة الفلسطينية على وسائل الإعلام، حتى أن نسبة إشغال الفنادق في غزة بلغت ١٠٠ ٪ وتضاعفت أسعار الحجوزات والغرف فيها، إلا أن الوضع في العراق مختلف قليلاً، حيث يخاف الصحفيون في بغداد وبقية المدن العراقية من الاختطاف والاغتيال، وأصبح كل صحفي منهم يتحدث عن الإجراءات الأمنية التي اتخذها حتى لا يثير حوله الشبهات ويلفت له الأنظار، فيصبح ضحية المجموعات المسلحة أو عصابات الخطف والمتاجرة بالرهائن.

من جهة أخرى لن تكون نسبة المشاركة الشعبية في الانتخابات واضحة؛ لأنه في الغالب ستتضارب الأقوال بين مختلف الفرقاء، حيث سيدعي مؤيدو الانتخابات أن نسبة المشاركة تجاوزت ٦٠ ـ ٧٠ ٪ وربما أوصلوها إلى ٨٠ ٪ (وهي في كل الأحوال لن تصل إلى النسبة التي حصل عليها الرئيس العراقي السابق قبل سقوطه بقليل وكانت ١٠٠ ٪!!) بينما سيدعي رافضو العملية الانتخابية أن نسبة المشاركة لن تتعدى في أحسن الأحوال ٢٠ ـ ٣٠ ٪، والحقيقة أن النسبة ستكمن بين هذين الرقمين كالعادة، وربما تنخفض في بعض المحافظات العراقية إلى ٢٠ ٪ بينما ترتفع إلى ٧٠ أو ٨٠ ٪ في محافظات عراقية أخرى، والنسبة الأولى ستكون المثلث السني وما حوله، والنسبة الثانية ستكون في مناطق الجنوب الشيعي والشمال الكردي.

ومما هو جدير بالانتباه وجود عملية ديمقراطية في العراق ربما تسحب بعض البسمات في بلد عاش عقوداً طويلة تحت نير الاستبداد، وشعب تعود على رؤية

صور الزعيم الأوحد التي ربما زادت عددا أو انتشارا على عدد نخيل العراق، مما جسد صورة نمطية عن الشعب العراقي بأنه شعب ويلات وحروب، حتى صدق من سماه أنه بلاد «الناي الحزين» مما انعكس على مراثيه وبكائياته ومواويله، مما يعكس الهم الشعبي الممتد عبر قرون عديدة من الفوضى السياسية المتكررة في بغداد والعراق، وكأن شاعر القرن الرابع الهجري ابن نباتة السعدي يصف العراق وكأنه اليوم حينما قال:

إن العـــــــراق ولا شك ثلة ... قد نام راعيها فأين الذيب

بنيانها نهب الخراب وأهلها ... سوط العذاب عليهم مصبوب

وهٰذا المعنىٰ يؤكده أبو العلاء المعري بقوله:

أما العراق فعمّت أرضه فتن ... مثل القيامة غشتها غواشيها

و«ابن نباتة السعدي، وأبو العلاء المعري» جسدا الوضع في العراق مثلما جسَّده في الوقت المعاصر الشاعران العراقيان الزهاوي والرصافي، فالزهاوي يقول قبل أقل من مائة عام في وصف العراق:

كذب الذين قد ادعوا بجهالة ... أن العراق إلى العصا يرتاح

بل إنه متـــألم في ظهـــره ... مما أتاه الجـــالدون جـــراح

أما الرصافي فيصف حال العراق في قصيدة طويلة منها:

لنا ملك وليس لنا رعـــايا ... وأوطان وليس لها حـــدود

أجناد وليس لهم ســـلاح ... ومملكة وليس لها نقـــود

ويكفـــينا من الدولات أنا ... تعلق في الديار لنا البنود

وأنا بعد ذلك في افتـــقار ... إلى مـــا الأجنبي به يجـــود

وإذا كان الاستعمار الإنجليزي للعراق في النصف الأول من القرن الماضي قد ساق الملكية للشعب العراقي، فإن الاستعمار الأمريكي اليوم يسوق الديمقراطية، ولا نعلم كيف الخروج من إشكالية الحرية/ الديمقراطية وأيهما يجب أن يسبق الأخرىٰ في الشأن العراقي.

في الانتخابات العراقية يخطئ كثيرا من يراهن علىٰ فشل العملية الانتخابية؛ لأنه في كل الأحوال سيعلن في وسائل الإعلام إنجاح لهـٰذه العملية مهما جرىٰ علىٰ هامشها من أعمال عنف وتزوير، وربما عزوف الشعب العراقي عن المشاركة الانتخابية؛ لأسباب عديدة سنأتي علىٰ تفصيلها، ولنا في التجربة الفلسطينية وقبلها الأفغانية خير مثال.

فالتجربة الفلسطينية وإن لم تصاحبها أعمال عنف أثناء الانتخابات، والتزم المعارضون لها جانب المعارضة السلمية، فإن الرئيس الفلسطيني الجديد حصل علىٰ نسبة ٦٥ ٪ من أصوات المشاركين، الذين لم يتجاوزوا في أحسن الأحوال ٥٠ ٪ حسب بعض المصادر المحايدة، مما يعني أن الرئيس الفلسطيني حصل علىٰ ٣٠ ٪ فقط من أصوات الشعب الفلسطيني في المناطق التي سمح بإجراء الانتخابات فيها.

وهـٰذا يعني أن المناطق الفلسطينية التي لم يجر فيها الانتخابات وكذلك في المخيمات الفلسطينية وفلسطينيي الخارج لم يجر استفتاؤهم علىٰ اختيار رئيسهم، وهـٰذا لا شك يجعل النسبة التي حصل عليها الرئيس الفلسطيني نسبة متواضعة، ورغم ذلك فقد تم احترام تلك الممارسة الديمقراطية، وتم التعامل مع الرئيس الفلسطيني علىٰ أنه الرئيس الشرعي الذي يحظىٰ بشرعية دولية.

وهـٰذا الوضع في فلسطين مشابه للوضع في أفغانستان، حيث حصل حامد قرضاي علىٰ شرعية دولية، رغم أعمال العنف التي جرت وتجري في أفغانستان، وهـٰذا ما سيحدث في العراق، فلا يتوهم المقاطعون لانتخابات العراق أن الوضع الدولي سيتأثر بهـٰذه المقاطعة، بل هناك رغبة دولية في إعطاء شرعية لهـٰذه الانتخابات مهما أفرزت من نتائج، ومهما شابها من ممارسات لا تمت إلىٰ الديمقراطية بصلة.

• عشر حجج للمؤيدين:

الفريق المؤيد لإجراء الانتخابات في موعدها يتسلح بحجج كثيرة، ورغم أن بعض رموز هـٰذا الفريق قد دعا في فترة من الفترات، وفي ظل المعطيات الأمنية

الصعبة إلىٰ تأجيل الممارسة الانتخابية لبعض الوقت، إلا أنه عاد وأقر بضرورة إجرائها في الموعد المحدد بعد أن رأىٰ تصلب الإدارة الأمريكية في موضوع موعد الانتخابات وضرورة إجرائها ضمن الظروف المتاحة وفي الوقت المحدد، ويسوق هـٰذا الفريق عشرة أسباب تدعوه إلىٰ إجراء الانتخابات في موعدها:

أولاً: إن إجراء الانتخابات هو إجراء طبيعي ضمن سلسلة طويلة من إعادة تأهيل العراق للانضمام مجدداً إلىٰ المجتمع الدولي بعد فترة طويلة من العزلة والحصار، ومن المناسب أن يعود العراق إلىٰ المجتمع الدولي بوجه ديمقراطي مختلف عما كان في السابق، حيث النظام الاستبدادي القهري الذي لم يسلم جار من شره وعدوانه.

ثانياً: لا يمكن العودة عن هـٰذه الممارسة الديمقراطية الحضارية التي ابتدأت منذ سقوط النظام السابق في أبريل ٢٠٠٣م، ومن بعدها تم تأسيس مجلس الحكم في يوليو ٢٠٠٣م، وتشكيل أول مجلس وزراء في سبتمبر ٢٠٠٣م، كما أُعلنت الحكومة المؤقتة في يونيو ٢٠٠٤، فمن الطبيعي أن تكمل هـٰذه السلسلة بإجراء الانتخابات التي تفضي إلىٰ حكومة انتقالية لإعداد دستور من المقرر أن يقر ويعتمد في أكتوبر ٢٠٠٥م تمهيدا لانتخاب حكومة دستورية في ديسمبر ٢٠٠٥م، وعدم إجراء الانتخابات يعني فراغًا دستوريًا يفضي إلىٰ الفوضىٰ والعدم.

ثالثاً: العراق بلد متعدد الأعراق والطوائف والإثنيات والأديان، وهو كذلك يضم مناخات وبيئات جغرافية مختلفة تنعكس علىٰ حياة السكان وطبيعة معايشهم، فهناك سكان شط العرب والخليج العربي الذين هم أقرب إلىٰ حياة أهل الخليج، وسكان الجنو ب والوسط حيث الزراعة والحياة الريفية، وسكان البادية والرعي، وسكان الشمال والجبال وسكان الوسط والمجتمع المدني، ناهيك عن دول جوار ذات مصالح متناقضة ومتضاربة ولا تنتمي إلىٰ نسيج لغوي أو اجتماعي واحد؛ كإيران وتركيا وسوريا والأردن والسعودية والكويت.

بلد هـٰذه معطياته، لا يمكن أن يقاد إلَّا **بوسيلتين:**

الوسيلة الأولى: هي وسيلة القهر والاستبداد أو الديكتاتورية والتسلّط،

بحيث تلغي هـٰذه الوسيلة كل تنوع إثني وطائفي وديني، وتفرض رؤاها الخاصة، فتصبح المعادلة واحدة فقط: ظالم ومظلوم، قاهر ومقهور، ومعلوم تماما ما هي النتيجة التي أدت إليها هـٰذه الوسيلة من مآسٍ وكوارث وحروب وعدوان وقبور جماعية ومعتقلات وسجون وتبديد للثروات الطبيعية والمادية والبشرية ومسخ للشخصية الحضارية العراقية وانهيار لمنظومة القيم الأخلاقية والبنية التحتية والاجتماعية، انتهت بتدخل أجنبي أدخل البلاد في دوامة الاستعمار والاحتلال، بعد عقود من السيادة الوطنية حتىٰ وإن شابها نوع من الاضطراب السياسي.

أما الوسيلة الثانية: فهي الوسيلة الحضارية والخيار الأول الذي يجب أن يتبناه الشعب العراقي، وهو الخيار الديمقراطي والوسيلة الديمقراطية، حيث يمكن الحفاظ علىٰ حقوق كل الإثنيات والطوائف والأديان بناء علىٰ التركيبة السكانية والانتشار الجغرافي لكل منها، مما يعطي فرصة لكل توجه أن يعبر عن نفسه ويدافع عن مكتسباته وحقوقه دون أن يتعرض للتهميش أو الإلغاء.

رابعًا: ضرورة ترسيخ الديمقراطية ـ كممارسة سياسية ـ بعد عقود من التسلط السياسي، وهـٰذه الممارسات الإنسانية في أي مجتمع مدني يسعىٰ للنهوض والتقدم، حتىٰ تصبح الممارسة الديمقراطية ممارسة شعبية علىٰ المدىٰ البعيد، ويصبح للرأي الآخر اعتبار واحترام بعد عقود من الإلغاء، والتحريم والتجريم، وسلسلة من الانقلابات العسكرية والدموية التي صبغت الشارع السياسي العراقي بلونها العنيف، وهـٰذا يستدعي التصاقًا أكثر وحرصا أكبر علىٰ خيار الديمقراطية كممارسة وحيدة ومقبولة للتعبير عن الذات وتحقيق طموح وآمال تلك الطائفة أو ذلك المذهب أو العرق الذين يشكلون في النهاية الطيف العراقي العام.

خامساً: رغم أن الفترة التي مرت منذ سقوط النظام السابق كانت قصيرة وقليلة سواء قياسا بحياة الشعوب والدول أو الأفراد، إلا أنها أعطت انطباعًا إيجابيًا عن أهمية ترسيخ الممارسة الديمقراطية في العراق، ويكفي أن نلقي نظرة سريعة علىٰ حال العراقيين والبنية التحتية والخدمات ومشاريع وخطط إعادة الإعمار حتىٰ نعرف

الفرص المهدرة التي قضاها الشعب العراقي طوال السنين الماضية تحت طاغوتية الرأي الواحد الأوحد.

فبعيداً عن صورة السيارات المفخخة والقتل والدماء والأشلاء، والملثمين الذين يقطعون الرؤوس، فإن كثيرا من العرب لا يعلمون أن العنف محصور في عشر مدن عراقية أو خمس عشرة مدينة عراقية بينما العراق يتكون من ٤٢٠٠ مدينة كبيرة وصغيرة وقضاء، بعض هـٰذه المدن لا يعرف أن هناك حوادث عنف بالعراق أصلاً.

أمَّا الجانب الآخر من العراق والذي لا تنقله وسائل الإعلام المحرضة علىٰ العنف، فقد تمثل في حرية تشكيل الأحزاب ومنظمات المجتمع المدني وحرية التعبير والتظاهر؛ حيث حرر ما يزيد علىٰ ٣٠٠ صحيفة ومجلة وأكثر من ٣٠ محطة إذاعية وتلفزيونية، وتوسع في استخدام الإنترنت والبث الفضائي مع قدرة جيدة في الوصول إلىٰ المعلومات المتنوعة، كما تشكلت أكثر من ٦٠ رابطة ثقافية وأدبية، وانتشرت مقاهي الإنترنت في المحافظات العراقية ناهيك عن حرية السفر والتنقل.

كما ارتفع الناتج المحلي في عام ٢٠٠٤م بنسبة ٢, ٦٠ ٪ عن العام السابق، وهو بلا شك معدل قياسي، كما بلغت حصة الفرد من الناتج المحلي ٦٩٣ دولاراً مقارنة بحوالي ٤٤٠ دولارا في عام ٢٠٠٣م، كما تضاعف دخل المواطن العراقي ما بين ٢٠ ـ ٣٠ ضعفًا؛ مما رفع من القدرة الشرائية للمواطن العراقي وساهم في تحسين المستوىٰ المعيشي، وارتفع الدينار العراقي حوالي ٣٣ ٪ في عام ٢٠٠٤ مقابل الدولار الأمريكي، كما حصل العراق بسبب خياره الديمقراطي علىٰ تسهيلات في دفع الديون المستحقة للدول الدائنة مع إلغاء نسبة لا يستهان بها.

وإذا انتقلنا إلىٰ مشاريع البنية التحتية فهناك ما يقارب ١٠٠٠ مشروع في مجالات البنية التحتية وفرت عشرات الآلاف من الفرص الوظيفية للشباب العراقي، كما تم بناء وترميم ٣١٠٠ مدرسة وإصلاح ١٢٠٠ كم من الطرق، وبلغت ميزانية وزارة الصحة ٩٥٠ مليون دولار لأول مرة في تاريخها، وأعيد العمل في ٢٤٠ مستشفىٰ وأكثر من ١٣٠٠ مستوصف وعيادة، وشهد العراق انتعاشاً اقتصاديا

وحضوراً دوليا غير مسبوق (ومن أراد التوسع فليرجع إلىٰ دراسة الوجه الآخر للعراق - زهير الدجيلي : القبس ١٥ يناير ٢٠٠٤) هـٰذه بعض ثمار العراق الجديد الذي اتخذ من الديمقراطية والانفتاح خياراً لمستقبله، فما الذي يقدمه العنف في المقابل لشعب عاش نار العنف واكتوىٰ بها طوال ٣٠ سنة وأكثر!!

سادسًا: الممارسة الديمقراطية التي توصل إلىٰ حكومة دستورية في النهاية هي أفضل الطرق لضمان رحيل المحتل عن أرض العراق، خصوصا في ظل اختلال موازين القوىٰ الرهيب بين الطرفين، وإن العنف لن يصل إلىٰ نتيجة كخيار لطرد المحتل، بينما الممارسة الديمقراطية هي التي تضمن وجود عراق ديمقراطي عقلاني مسالم، ينسجم مع دول الجوار والمعطيات الدولية، وهـٰذا هو الضمان لرحيل المحتل دون المزيد من إراقة الدماء وممارسة العنف الأعمىٰ الأسود الذي ذهب ضحيته من العراقيين أضعاف ما ذهب من الأمريكان والأجانب.

سابعًا: إن الديمقراطية اليوم لم تعد خياراً وطنيًا، بل تيارا عالميا يطالب المجتمع الدولي بتطبيقه، وإن السيادة الوطنية ومبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية من مخلفات الماضي التي قضت عليها العولمة وسلطة القوىٰ الكبرىٰ الوحيدة وهي الولايات المتحدة، وأن المنطق والعقل يفرضان مسايرة اتجاه الرياح العالمية، ودعم الخيار الديمقراطي داخل العراق، وخصوصًا أن الخيار البديل هو الذي أتىٰ بالمحتل وسلمه مفاتيح بغداد بكل بساطة وسهولة.

ثامنًا: وجود غطاء دولي للعمليات الانتخابية، ورغبة دولية لإكمال مسيرة الممارسة الديمقراطية، وهي فرصة تاريخية قد لا تتكرر مع تقلبات السياسة الدولية، ومن الأهمية بمكان استغلال هـٰذه الفرصة وهـٰذا الإجماع؛ لإخراج العراق من دوامة العنف والتوتر والانضمام إلىٰ بقية المجتمع الدولي واستنقاذ العراق من مصير التجزئة والتفكك ودخول المصالح الدولية والإقليمية، التي تعطي مؤشراتها علىٰ مخاطر قادمة، فيجب أن يكون العراق في حال استقرار سياسي قبل أن يأتي الاستحقاق الأمريكي علىٰ بعض الدول المرشحة في المنطقة للاجتياح الأمريكي،

وعلىٰ العراقيين فهم هـٰذه المسألة بدقة والتعامل معها علىٰ درجة عالية من المسؤولية بعيداً عن الخطابات العنترية التي لم تحقق شيئًا ملموسًا، وبقيت مجرد شعارات صالحة فقط لسكب المزيد من الدماء.

تاسعًا: إن هناك ما هو أخطر من الاحتلال العسكري، وهو الاحتلال الاقتصادي، وقد علمتنا دروس التاريخ أن الاحتلال العسكري يرحل مهما طال الزمان به، ولكن الاحتلال الاقتصادي يستوطن بصور عديدة وماكرة وغاية في الخبث، وإن مثل هـٰذا النوع من الاحتلال لا يمكن التعامل معه إلا من خلال دولة تعتمد علىٰ تفويض شرعي ديمقراطي، يضمن وحدتها وقوة كلمتها علىٰ ثرواتها الوطنية والبشرية، وإن العنف لن يستطيع بأي حال من الأحوال أن يواجه مثل هـٰذا النوع من الاحتلال الذي قد يغفل عنه الكثيرون.

عاشراً وأخيراً: فإن الشعب العراقي قد تعرض لمختلف أنواع الظلم، ومن حقه كغيره من الشعوب أن ينعم بالأمان والاستقرار، وأن الممارسة الديمقراطية هي التي ستنهي العنف وتتمكن من إنهاء الاحتلال وستكون الوسيلة المثلىٰ لكشف المتاجرين بقضية العراق، والمندسين بين شعبه لتحقيق مصالحهم الخاصة وبرامجهم السياسية والتي لا تتفق بالضرورة مع مصالح الشعب العراقي، ناهيك عن أن البديل للعملية الديمقراطية هو العنف الذي ليس له نهاية والمزيد من العنف والضحايا والدماء والدمار، وهـٰذا الذي كافح العراقيون من أجل أن يلغوه من مستقبل حياتهم.

• عشر حجج للمعارضين:

في المقابل فإن الفريق المعارض للعملية الانتخابية يرىٰ في حجج الفريق المؤيد للانتخابات بعض المنطقية والعقلانية، لكنه يغفل عن قضايا ومعطيات خطيرة، قد تأتي علىٰ العملية الانتخابية بأكملها، ورغم أن هـٰذا الفريق **ينقسم إلى قسمين:**
الأول: يرفض الانتخابات شكلاً ومضمونًا باعتبارها تتم تحت إدارة المحتل ووفق مصالحه، ومنهم فريق من هـٰذا القسم يذهب مذهبًا بعيداً في تكفير الممارسة الديمقراطية واعتبارها نوعا من الممارسات الغربية التي تناقض الإسلام.

بينما الفريق الثاني مؤمن بالعملية الانتخابية لكنه معترض على إجرائها في ظل المعطيات الحالية داخل العراق، والتي لا تضمن أبدا نزاهة وعدالة العملية الانتخابية ويسوق هٰذا الفريق - وبعضهم ساهم في الإعداد للعملية الانتخابية ثم انسحب بعد الهجوم على الفلوجة - أسبابًا كثيرة تبدو منطقية ومقنعة في طلبه ليس إلغاء الانتخابات، بل تأجيلها حتى تتوفر ظروفها المواتية، ومن هٰذه الأسباب:

أولاً: الفوضى التي تعم أرض العراق، ومنها الفساد المنتشر في عدد من الأجهزة الرسمية للدولة واستفحال الرشوة، والصراع الطائفي وانتشار الجريمة بعد إطلاق النظام السابق كل المجرمين من السجون قبل سقوطه، والبنية التحتية المدمرة، وآثار حل الجيش الخطيرة، وسلوكيات جيش الاحتلال المستفزة، ناهيك عن حوادث القتل والخطف وخاصة لعلماء العراق ورموزه العلمية والثقافية وعصابات النهب والسرقة وغيرها من الممارسات الخطيرة التي تهدد استقرار العرق وأمنه فهٰذه كلها من المعطيات التي لا تشجع على سير العملية الانتخابية بالشكل المرضي أو المطلوب أو حتى بشروط الحد الأدنى.

ثانيًا: حجم التزوير الخطير في الوثائق الرسمية، مما يعني أن أعدادا من غير العراقيين قد تسللت إلى داخل العراق وادعت الانتماء للعراق، مما يؤثر بشكل واضح على نتائج المعطيات الانتخابية، وخاصة أن هٰؤلاء قد دخلوا بحماية أطراف عراقية متنفذة، سعت لترتيب أوضاعهم القانونية وإعطائهم صفة المواطنة العراقية، وقد تحدثت بعض الأخبار عن رقم قد يصل إلى المليوني دخيل، مما يعني أن التركيبة السكانية قد تغيرت تماما وأصبحت غير معبرة عن الشرائح العراقية، وهٰذا يفقد نتائج الانتخابات المصداقية وحتى الشرعية.

ثالثًا: الوضع الأمني المختل، وأعمال العنف ليست المستمرة فقط بل والمتزايدة، حتى أصبحت عمليات المقاومة بالعشرات كل يوم وفي مختلف المدن العراقية، ومن الطبيعي ألا يسمح مثل هٰذا الوضع بإجراء الانتخابات بشكل نزيه، وخاصة إذا علمنا أن كل المقرات الانتخابية قد أصبحت هدفًا مثالياً لأعمال العنف،

كما أن الناخبين وحفاظا على حياتهم قد يعزفون عن الذهاب إلى المقرات الانتخابية، بل تعدى الوضع إلى خوف المرشحين أنفسهم من الاغتيال والتضحية، فما الذي ستنتج عنه انتخابات هذه معطياتها الأمنية.

رابعًا: عدم وجود إحصاء سكاني دقيق وجديد لتحديد حقيقة ادعاء كل طرف طائفي أو عرقي عن ما يمثله من نسبة السكان، وهذا يعطي كل طرف فرصة الادعاء بأنهم الأغلبية حتى لو أكدت إحصائية الأمم المتحدة كذب هذا الادعاء، ولا نستطيع بشكل دقيق الحكم على زعم كل فريق إلا عن طريقين: إحصاء سكاني جديد ودقيق، أو انتخابات شرعية نزيهة، وكلا الطريقين مسدود في الظروف الحالية.

خامسًا: وجود فئات رافضة للانتخابات في ظل الاحتلال، وهذه الفئات في الغالب الأعم منها لا ترفض الانتخابات كممارسة، بل كظرف آن، وهي مستعدة للمشاركة متى ما توفرت الأسباب الموضوعية لذلك، وكان من الأجدر بدلاً من اجتياح المدن الرافضة للمشاركة الانتخابية وكسب عداوتها، أو في أحسن الأحوال تجاهلها، **أقول:** كان من الأفضل فتح حوار طويل معها للوصول إلى قوائم مشتركة، وليس من مصلحة أحد أن يغيب الطرف السني مثلاً عن الانتخابات، فهذا بلا شك يفقدها جزءًا أساسيًا من مصداقيتها وشرعيتها، وقد لا تصبح الانتخابات والنتائج المترتبة عليها ملزمة للطائفة السنية، وقد تدخل البلد في هذه الحالة في مواجهة جديدة طرفاها حكومة ذات أغلبية شيعية كردية وأحزاب وجماعات سنية تم تهميشها وتجاهلها لصالح الآخرين، وهذا بالتأكيد لن يجعل العملية الانتخابية ذات مصداقية على مستوى الداخل العراقي مهما حصلت من تأييد إقليمي ودولي.

سادسًا: يرى هذا الفريق كحل جيد أن يتم تهيئة الظروف لانتخابات تتم بشكل أفضل وفي ظروف أفضل، ولكن تحت إشراف أو إدارة دولية لا سلطة للمحتل عليها، لضمان نزاهتها ونزاهة نتائجها، حتى لا تأتي حكومة لتحكم العراق بلسان عراقي وقلب أمريكي.

سابعًا: خطورة المال السياسي مع وجود شائعات عن دعم إقليمي تتلقاه بعض الطوائف التي يتم إمدادها بالمال وحتىٰ بالمواطنين الجدد الذين يتم تلفيق الوثائق الرسمية لهم لإعطائهم صفة المواطنة، وهٰذا بلا شك سيطعن العملية الانتخابية في الصميم، وسيكون الدولار أو الدينار هو المرشح المفضل للعديد من الأصوات العراقية التي تعاني الفقر والبطالة وقلة ذات اليد، وإن إعادة الإعمار وتوفير الفرص الوظيفية، بلا شك سيقلص من أثر المال السياسي اللعين الذي يشتري ضمائر الفقراء والمعدمين.

ثامنًا: الهجرة الداخلية بين المدن العراقية، فهناك آلاف من المواطنين العراقيين الذين غيروا أماكن سكنهم، وهٰؤلاء يحملون بطاقة أحوال مدنية مكتوب عليها المدينة الأصلية التي ولدوا بها، بينما بطاقة التموين مكتوب عليها موطن الإقامة الحالي، فأين سيصوت أمثال هٰؤلاء؟ وهل يمكن أن يصوتوا أكثر من مرة؟

تاسعًا: قصر المدة المخصصة للدعاية الانتخابية وهي مدة غير كافية لشعب تحول بين عشيَّة وضحاها من الديكتاتورية الشاملة إلىٰ الممارسة الديمقراطية المنفتحة، فهو لم يتعرف بعد علىٰ برامج المرشحين وشخصياتهم وإمكاناتهم، وما هو معلن غير كاف علىٰ الإطلاق إذا لم تسانده معرفة شخصية بالمرشح وممارساته السابقة. فكل مرشح يستطيع أن يرمي من الكلام الجميل والمقنع ما يريد، وهٰذا الرأي مدعوم برأي بعض خبراء الأمم المتحدة الذين قدروا مدة عامين لضمان انتخابات نزيهة، وبالتالي فإن الإصرار علىٰ إجراء الانتخابات الآن يخدم صورة الإدارة الأمريكية فقط وصورة بوش بشكل شخصي باعتباره أبًا للديمقراطية فيما تضر كثيرًا بالشعب العراقي والعملية الانتخابية وممارساتها في المستقبل.

عاشرًا: وجود ثغرات واضحة في قانون الانتخابات الحالي، مثل قيامه علىٰ المحاصصة الطائفية والعرقية، ويكفي أن مبدأ المحاصصة الطائفية مبدأ خطير وسيئ، هٰذا بالإضافة إلىٰ قيامه علىٰ نظام القائمة الانتخابية وجعل التصويت علىٰ أي اسم في القائمة تصويتًا علىٰ القائمة بأكملها مما يعطي شعبية لبعض الشخصيات المرفوضة

لمجرد وجودها على قائمة تحظى بشعبيته، كما أن جعل العراق منطقة انتخابية واحدة يجعل الشعب العراقي ينتخب غرباء عنه لا علاقة لهم بالمنطقة الانتخابية التي يعيش فيها وبالتالي تجعله يصوت لأناس لا يعلمهم.

من أجل كل ذلك وأكثر - بالإضافة لأسباب أخرى - قد لا يتسع الوقت لذكرها؛ فإن هٰذا الفريق يجد ضرورة عقلانية ومنطقية وواقعية لتأجيل الانتخابات حتى تتوفر ظروفها الصحيحة.

ولكن ألا يوجد نقاط اتفاق بين الفريقين: الفريق المؤيد والفريق المعارض للانتخابات، بلا شك!!



(٥)
حتى تكتمل لوحة الانتخابات العراقية

المتأمل في لوحة الانتخابات العراقية في الصفحات السابقة سيجد ـ مع مسحة من التفاؤل ـ نقاطًا إيجابية عديدة وسط ركام العنف والاختلاف والصوت العالي الصادر من جميع الفرقاء.

أول هذه الإيجابيات: وجود خيار للناخب العراقي غير خيار الزعيم الواحد والحزب الواحد والمصير الواحد، وهٰذا في حد ذاته تطور لا يمكن إنكاره.

إيجابية أخرى: أن هناك فهمًا مشتركًا حملته معظم القوائم الانتخابية، أكدت فيه علىٰ الحرية والممارسة الديمقراطية وحفظ الأمن وبناء الاقتصاد، وهي لا شك نقاط التقاء يمكن البناء عليها من أجل برنامج وطني يلتقي عليه الجميع.

والشيء الأكثر أهمية مما سبق هو أن أغلبية التجمعات التي حملت لواء المعارضة للانتخابات رغم اختلاف أسباب معارضتها ما بين عدم توفر الحد الأدنىٰ لانتخابات نزيهة أو رفض إجرائها في وجود المحتل، أو اعتراض علىٰ توقيتها أو علىٰ قانون الانتخابات بحد ذاته، **نقول:** إن أغلبية تلك التجمعات عبرت عن معارضتها بشكل سلمي، ورفضت اعتماد لغة العنف في إبداء اختلافها مع الطرف الآخر المؤيد للانتخابات، وهٰذه إيجابية كبيرة إذا استثنينا المجموعة التي ترفض الانتخابات كمبدأ أو هددت باللجوء إلىٰ العنف لإفشال العملية الانتخابية، مما يعطي صورة أن مقاومة الاحتلال تهم الهم الوطني والحرص علىٰ الوحدة الوطنية.

وإن التفجيرات الطائفية في المساجد والحسينيات والكنائس إنما تقف من خلفها أصابع خبيثة مدسوسة لا تريد الخير للعراق، وكل همها خلط الأوراق وإشغال أمريكا بداخل الحدود العراقية، وتحويل ساحة العراق إلىٰ حرب تصفية حسابات بينها وبين الولايات المتحدة الأمريكية.

هـٰذه اللفتة الإيجابية من قبل الأطراف المعارضة للانتخابات قوبلت بلفتة إيجابية من الطرف الآخر تمثلت في دعوته للأطراف التي قاطعت الانتخابات إلىٰ المشاركة في العملية السياسية وإعداد الدستور العراقي الجديد .

تبقىٰ قضية مفاجأة المراقبين بالإقبال الكبير من الشارع العراقي علىٰ المشاركة في الانتخابات ، وهي غير مستغربة علىٰ الإطلاق ؛ لأنها جاءت بعد عقود من الحرمان السياسي ؛ ولأن للانتخابات الأولىٰ نكهتها المختلفة ، يصبح الاعتقاد السائد أنها سوف تكون كالعصا السحرية في معالجة أوضاع العراق .

ما يهمنا الآن ـ انطلاقًا من حرصنا علىٰ العراق وشعبه ـ أن تبقىٰ هناك ثوابت وطنية يجب أن يلتقي عليها الجميع ، وخطوطًا حمراء يتفق الجميع علىٰ عدم تجاوزها والمساس بها ، ورفض أي جهة أو طرف يدعو لخرقها ، وهـٰذه الثوابت الوطنية هي الآن البرنامج الوطني المطلوب تبنيه ، مهما اختلفت وسائل كل التيارات السياسية في تحقيق هـٰذه الثوابت ، حتىٰ يبقىٰ هناك حدٌّ أدنىٰ من الإجماع الوطني الذي يلتقي حوله الجميع .

• رحيل المحتل:

أول هـٰذه الثوابت ضرورة رحيل المحتل ، ولا توجد جهة أو تيار سياسي عراقي لا يذهب إلىٰ هـٰذا المطلب ، قد تختلف وسائل كل تيار لتحقيق هـٰذا الهدف ما بين نضال سياسي ، واستكمال بنية الدولة ، وما بين مقاومة وطنية ورفض العمل تحت إدارة المحتل ، لكن من المهم أن ينتبه جميع الفرقاء إلىٰ قضيتين :

القضية الأولى: خطورة السعي لتحقيق رحيل فوضوي للمحتل يتبعها حرب أهلية وشلالات دم ودخول في دوامات العنف والتقسيم والتدخل الخارجي لكل دول المحيط والجوار بحيث يدخل العراق في سنوات دامية جديدة ، تمتد لعقد أو حتىٰ عقدين ، وربما انتهت بالتقسيم وقضت علىٰ العراق التاريخي .

القضية الثانية: عدم إعطاء الحجة للمحتل لإطالة مدة بقائه ، ومن ذلك عدم استهداف المؤسسات المدنية أو الوزارات العراقية ، أو البنىٰ التحتية أو أي شيء يضر

بمصالح الشعب العراقي .

• نبذ الاستبداد والديكتاتورية:

فالقائد الضرورة والقائد الرمز يجب ألَّا يكون له مكان ليس في العراق وحده بل في المشرق العربي والإسلامي، فنحن الآن في طور البحث عن دولة المؤسسات والمجتمع المدني، وليس البحث عن دولة الجداريات والقائد العسكري، وثقافة «الديكتاتورية» والاستبداد يجب أن تسقط من عقل المواطن العراقي والعربي قبل أن تسقط من واقعه السياسي، وهٰذا يستدعي قيام مؤسسات المجتمع المدني التي تقوم مقام الديكتاتور المتفرد الذي عادة ما يصادر هٰذه المؤسسات لصالحه .

إن اليأس والخوف والضعف هي المواد الخام لصناعة بيئة الاستبداد، وإن الشعوب التي تقتات علىٰ هٰذا الثلاثي صالحة لأن تُقاد نحو هاوية الاستبداد، خاصة إذا اجتمعت مع بطانة فاسدة تتخذ من تزيين الباطل وقصائد التزلف سلمًا للوصول إلىٰ المواقع القريبة من القصر الجمهوري، فهٰذه الرعية الخائفة السيئة مجهزة للانقياد خلف أي قيادة وتقديم الطاعة العمياء لها، وهٰذه البطانة السيئة مستعدة لتقديم خدمات التلميع لتحقيق مصالحها الخاصة .

إن العراقيين لا يحتاجون إلىٰ ديكتاتور آخر يعرف الخائن من عينيه، وينسب أعداءه للصهيونية ونفسه إلىٰ نقابة الأشراف ونسل آل البيت، ويحصر ابتكاراته في فنون التعذيب من قطع الآذان والاستثمار في المقابر الجماعية .

صدام حسين ليس شخصًا، إنه رمز النظام، وثقافة وفكر تعشّش في العراق، ونمىٰ بسبب عقلية الخوف والاستسلام .

كل من صفق لصدام وهو يعدم معارضيه بالحق والباطل ساهم في صناعة الاستبداد، وكل من بح صوته وهو يردح : «بالروح بالدم نفديك يا صدام» ساهم في صناعة الاستبداد .

وكل من صمت علىٰ جريمة قتل الأكراد في «حلبجة» أو وزع الابتسامات في

غزو الكويت ساهم في صناعة الاستبداد.

وكل من رفع صوته في العالم العربي دفاعا عنه وحبا فيه ساهم في صناعة الاستبداد.

أمام العراقيين الآن فرصة مهمة؛ لإنهاء نصف قرن من ألعاب العسكر إلىٰ سدة الحكم، وعدم العودة إلىٰ جمهورية الخوف، وتغيير المسار للحياة السياسية العراقية التي تراوحت بين الدبابة والقنبلة، لتصبح بين البرلمان والصحافة، ولا يمكن أن تتم هٰذه الخطوة بمجرد نزع ديكتاتور إذا لم يساندها تغيير كامل لثقافة الاستبداد والديكتاتورية ونشر ثقافة التسامح والحرية، وهٰذا قد يحتاج إلىٰ بعض الوقت مع تقوية الإيمان بحق المخالف في التعبير عن رأيه، وحق الأقليات في ممارسة اختلافها الثقافي ما دامت ملتزمة بالثوابت الوطنية التي يلتقي حولها المجتمع.

• صيانة حقوق الإنسان:

وحقوق الإنسان هٰذه تحولت إلىٰ قميص عثمان في هٰذا الزمان، فالكل يتحدث عن كرامة الإنسان وحقه في الحياة الكريمة، وتحقيق الانتماء وحرية التعبير وحقوق المواطنة والمساواة أو العدالة والتنمية وحق التعبير والاختلاف دون أن تصيبه تهمة العمالة والتخوين إن كان التيار المسيطر قوميا، أو تهمة الكفر والزندقة إن كان التيار المسيطر دينيا.

بسبب حقوق الإنسان هٰذه شُنت حروب، وأُعدمت جماعات بشرية، وأهدرت ثروات، وكممت أفواه، وصُودرت ممتلكات؛ لأن العالم العربي يقتات علىٰ الشعارات فقط، وعلىٰ صف الكلمات والتنظير في أحلىٰ المعاني، بينما يعيش واقعًا معاكسا كما هو معلن.

كلنا يدرك تماما أن صدام حسين ليس الديكتاتور الأول في عالمنا العربي، ولن يكون الأخير، فهناك مستبدون كثيرون قد تمنع البرتوكولات الدبلوماسية والأوضاع المماثلة أن تشير لهم بالإصبع، وإن كان افتراق المصالح السياسية يسمح ببعض

المناورات وفتح الملفات ما بين فترة وأخرىٰ لأمثال هـٰؤلاء المتسلطين .

إن الديمقراطية لا يمكن أن ترسي قواعدها في العراق، إذا لم يؤمن العراقيون حقيقة وفعلاً لا شعارا وتنظيرا بحق المواطن العراقي بأن يعيش صفته الإنسانية بكل أبعادها، فلا يسجن إلا بحكم قضائي، ولا يمنع من فرصة عمل بسبب طائفته أو قبيلته أو عرقه، ولا يمنع من السفر، ولا يقحم في حروب ونزاعات لا رأي له فيها، ولا يُعتدىٰ علىٰ أملاكه وحرماته، ولا يُحرم من ثروات وطنه، ولا تُحجب عنه المعلومات، ولا تُصادر هويته الثقافية والاجتماعية .

والمطلوب اليوم أن يتعلم الطفل العراقي ثقافة التنوع والانفتاح وأدب الحوار وفقه الاختلاف مع حروف الأبجدية العربية، وأن يتعلم كلمة «قلم» قبل أن يتعلم كلمة «قتل»، وكلمة «حوار» قبل أن يتعلم كلمة «حرب»، وكلمة «وطن» قبل كلمة «منفىٰ»، وكلمة «جوار» قبل كلمة «عدوان»، وكلمة «مدرسة» قبل كلمة «مقبرة»، وكلمة «العراق » قبل كلمة «القائد»، وكلمة «نخلة» قبل كلمة «رصاصة»، وكلمة «دجلة» قبل كلمة «دم»، وكلمة «حرية» قبل كلمة «سجن» .

لا بد من فهم مشترك في العراق لجميع الطوائف والإثنيات والأعراق والمذاهب، فالعيش المشترك وسبيل التقدم والازدهار والتنمية لا يمكن أن يحقق أهدافه وغاياته إن انحصرت برامج الجميع في محاولة إلغاء الآخر وتهميشه وسلبه حقوقه وحريته، وإن من مصلحة الجميع أن يبقىٰ الحوار مفتوحًا لمدة عام دون الوصول إلىٰ نتيجة بدلاً من الحوار ليوم واحد عن طريق السيارات المفخخة والاغتيالات العشوائية، والقنابل الموقوتة .

• عروبة العراق:

والحديث في عروبة العراق من نافلة القول، وإذا تحدثنا بصراحة أكثر فإن الحديث عن التأثير الإيراني في القرار العراقي والهوية العراقية من خلال الطائفة الشيعية العراقية حديثًا أخذ أكبر من حجمه بكثير، حيث ضخمت هـٰذه المخاوف

لأسباب مختلفة منها الصراع الأمريكي الإيراني، ومحاولة الضغط على إيران لكي تمتنع عن التدخل في الشأن العراقي، وهٰذه قضية لها مؤشرات كثيرة، وأيضا بسبب التماثل المذهبي بين شيعة العراق وإيران، وبسبب الجوار الجغرافي وطول الحدود المشتركة، ونفخ وسائل الإعلام العربية في هٰذا الموضوع مدفوعة ربما ببعض النفس الشيعي، والخوف من دولة صفوية طائفية، وخصوصًا مع بعض الدعوات التي صورت - بسبب حمى الانتخابات - لإقامة دولة شيعية في الجنوب تستأثر بحوالي ٢٠٪ من ثروات العراق.

في المقابل هناك مؤشرات تؤكد ولاء الطائفة الشيعية لعروبة العراق، منها أن الطائفة العراقية تفضل خياراً مستقلاً على تبعيته لإيران لأسباب تاريخية ولأخرى تتصل بالتركيبة النفسية للمجتمع العراقي، كما أن الشيعة كانوا جزءا أساسيا من الجنس العراقي الذي واجه إيران طوال ثماني سنوات، والعلاقة الشيعية السنية في العراق لها نسيجها الخاص في المجتمع العراقي، حيث تمتد عبر قرون عديدة استقرت فيها نحو التوثيق والترابط والاستقرار.

ومن المهم جدا من الطرف الآخر، التأكيد على عروبة العراق، بعيدا عن التأثيرات الأمريكية في روح الحياة العراقية، ومحاولة تغريبها وتسويق أسلوب الحياة الأمريكي باعتباره الأفضل والأحسن، ولا أعتقد أن العراقيين من الغفلة بحيث لا يفرقون بين المنجزات الحضارية المادية - وهٰذه يشهد بتفوقها الجميع - وبين قيم الحياة الاجتماعية الأمريكية التي تعاني معاناة ظاهرة يؤكدها التفكك الأسري وتهتك النسيج الاجتماعي وانتشار الجريمة والمخدرات والعبثية والفوضى.

• وحدة العراق:

وعراق موحد أفضل بلا شك للجميع، أفضل لشعب العراق وجيرانه، وأفضل للتوازنات الإقليمية والاستقرار الدولي، وأفضل لمستقبل العراقيين، وأي أصوات شاذة تدعو لشمال كردي أو جنوب شيعي أصوات لن يلتفت لها أولاً، ولن تحظى بقبول إقليمي ثانيًا، ورفض عراقي ثالثًا، وحالة كبيرة رافضة كإيران وتركيا، وفرض

كيان شيعي في الجنوب كذلك لن ينجح؛ لأن أول المتضررين من هٰذا الكيان هم الشيعة أنفسهم.

فوجود عراق موحد يتكامل جنوبه ووسطه وشماله في الثروات والطاقات والإمكانات هو في مصلحة الجميع، لكن مع مراعاة التنوع في النسيج العراقي، وترك الهويات الثقافية والدينية تشكل تنوعها الخاص وتصنع لوحة عراقية مليئة بالحيوية والتنوع.

إن الحديث عن تقسيم العراق حديث غير ذي معنىٰ، ولا يخدم أحدا، وعلىٰ العراقيين أن يدركوا أن الصراعات السياسية في المنطقة دائمًا تبحث عن أرض لتجسد تلك الصراعات وتنقل خلافاتها إليها، وعليهم أن يعتبروا بما جرىٰ في لبنان وكيف تحول إلىٰ بوتقة لتصفية الخلافات العربية العربية فيها، ولا زال يعاني من تدخلات إقليمية ودولية، علىٰ الرغم من صغر مساحة لبنان وتوتر الوضع الإقليمي من حوله بسبب وجود الاحتلال الصهيوني، فكيف بالعراق؟ وتركيبته السكانية أكثر تشابكًا، ومساحته الجغرافية ضعف مساحة لبنان أربعين مرة، وله حدود دولية مع سبع دول وبه ثروات نفطية ومعدنية وزراعية ما يجعله محط أطماع ورغبة فيه.

ولا يوجد دليل علىٰ ما نقول أوضح من استوطان تنظيم القاعدة في العراق، وجعل العراق منطقة مواجهة مع الولايات المتحدة الأمريكية، مما يعني المزيد من الضحايا والأبرياء الذين يحصدهم العنف الأعمىٰ، الذي يقتل العراقيين والمدنيين ويسيء إلىٰ المقاومة التي تبرأت من هٰذه الأعمال الحمقاء، وأعاقت عمليات الإعمار وإعادة البناء وإطلاق عجلة التنمية والازدهار.

مثلما لا نريد للعراق أن يصبح أرضا مفتوحة لأعمال الإرهاب والعنف، فنحن بالتأكيد لا نريد للعراق أن يقع فريسة للخطط الصهيونية وأطماعها في بلاد بابل، ومن يرصد الحركة الصهيونية الإسرائيلية في العراق، لا يحتاج إلىٰ عناء كبير في تتبع الأصابع الإسرائيلية في موضوع سرقة الآثار، وتصفية علماء الذرة العراقيين، وشراء بعض الأراضي والممتلكات بأسعار خيالية، واتخاذ أرض العراق سوقًا للسلع

الصهيونية وترويج ثقافة الانحلال الأخلاقي والسلوكي.

ومن جهة أخرىٰ، فإن وجود المنظمات العالمية للإغاثة في أرض العراق أمر مطلوب وجهد مشكور، لكن هٰذا لا يعطيهم الحق في توزيع نسخ من الإنجيل مع كيس الطحين، فهناك نشاط تبشيري محموم في بعض المناطق العراقية وخاصة في الشمال، وتوزيع الأناجيل باللغة الكردية، ومحاولة تنظيم المحاضرات التنصيرية.

وهٰذا يعكس طبيعة الحركة العسكرية الغربية عبر التاريخ، والتي تجرّ وراءها جيوش المنصرين والرهبان، وإذا كان الإنسان حراً في معتقداته وأفكاره، فإن من الظلم والغبن أن يتم استغلال لحظات الضعف والتخلف والحاجة لدىٰ الشعوب ويتم مساومتها بلقمة العيش من أجل تغيير ما تعتقد، وهٰذه الممارسة للمنظمات التنصيرية تكررت كثيراً في إفريقيا وآسيا وآخرها كان إثر فاجعة «تسونامي» مما جعل الحكومة الإندونيسية تكون علىٰ حذر ومنعت مغادرة الأطفال الذين تقل أعمارهم عن سن معينة خارج إندونيسيا، كما منعت التبني مخافة وقوع هٰؤلاء الأطفال في تجارة الرقيق أو التنصير والعدوان علىٰ الهوية الإسلامية.

• الاستقرار والتنمية:

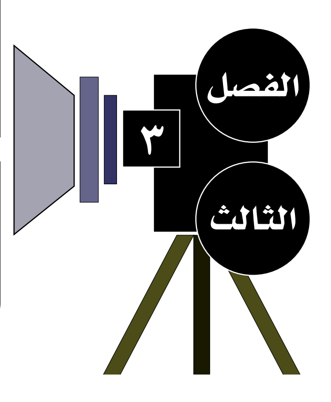
لا يمكن أن يختلف العراقيون علىٰ هٰذه المهمة، فلا تنمية بلا استقرار ولا استقرار بلا تنمية، ولا يذهب البعض إلىٰ حصر التنمية في المجال الاقتصادي، وهو بلا شك مطلوب وخاصة إعادة إعمار البنية التحتية وتطوير الناتج القومي، وتنشيط الاستثمار وجذب رؤوس الأموال، وتوفير فرص العمل وتقليص نسب البطالة، ورفع معدلات الإنتاج، وتكامل الثروات المادية من نفط ومعادن وزراعة مع الثروات البشرية والإمكانات والطاقات الجغرافية، بل وتجاوز مفهوم التنمية الاقتصادية إلىٰ مفهوم التنمية الثقافية والاجتماعية والتربوية والسياسية والنفسية.

إن تحقّق كل هٰذه الأنواع من التنمية سيجعل العراقيين أكثر حرصاً علىٰ استقرار العراق والحفاظ علىٰ مصالحه ونبذ الحروب وانتهاج المنهج السلمي وإقامة علاقة

حسن الجوار، والتوافق مع المجتمع الدولي، وحتىٰ يعود العراق مرة أخرىٰ إلىٰ الساحة الدولية قويًا ويتبوأ المكانة التي يستحقها. والقوة هنا ليست قوة السلاح وإنَّمَا قوة الإرادة وقوة الاقتصاد وقوة المجتمع المدني وقوة الممارسة الديمقراطية وقوة الوحدة الوطنية، وقوة التنوع الثقافي والديني والعرقي، ويصبح نموذجًا عربيًا.

كل ما نطلبه أن تجري بقية الأوضاع العربية إلىٰ حالات مماثلة، فهـٰذا ما نرجوه ونتمناه للعراق ـ شعبًا وأرضًا ومستقبلاً.





لا بد من استيعاب قضايانا المصيرية
«فلسطين نموذجًا»

(١) اتفاقيات كامب ديفيد... ربع قرن بلا سلام

(٢) الجـدار الإسـرائيلي العـازل... والعـودة إلى الجيتو

(٣) وترجل الفارس من فوق الكرسي

(٤) المقاومة الفلسطينية... التضحية أو التصفية

(٥) مقُدساتنا المسلوبة... وأوضاعنا المقلوبة

(١)
اتفاقيات كامب ديفيد.. ربع قرن بلا سلام

في ٢٦ مارس ٢٠٠٤م ذكرىٰ مرور ربع قرن علىٰ توقيع الوثيقة الثانية لاتفاقيات كامب ديفيد التي وضعت إطاراً لما سمي بالسلام بين مصر وإسرائيل، وكان ذلك في واشنطن بحضور الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر والرئيس المصري الراحل أنور السادات ورئيس وزراء الكيان اليهودي الهالك مناحيم بيجن، وكان الطرفان قد اجتمعا في كامب ديفيد في الفترة ما بين ٥ ـ ١٧ سبتمبر ١٩٧٨م ووقَّعا علىٰ الوثيقة الأولىٰ في المعاهدة، ودعوا أيضاً بقية الأطراف المعنية بالصراع إلىٰ الانضمام للمعاهدة.

وبعد مرور ربع قرن علىٰ توقيع المعاهدة يظهر الطرف العربي ضعيفًا مفككًا زيادة عما كان عليه قبل ربع قرن، ويدفع استحقاقات الخروج المصري من الصراع المسلح، حتىٰ جاءت كارثة غزو صدام حسين للكويت فانفرطت حبات العقد العربي علىٰ طاولة المفاوضات؛ فهناك اتفاقية وادي عربة واتفاقية أوسلو (١) وكادت كامب ديفيد الثانية أن تقضي تمامًا علىٰ القضية الفلسطينية وتتم تصفيتها إلَّا أنها لم تتم، وبقيت سوريا وحيدة من دول المواجهة هي ولبنان بلا اتفاقيات مع الجانب اليهودي، وإن كانت الضغوط شديدة علىٰ سوريا للتخلص من تبعة السياسات السابقة ومن كافة حركات المقاومة التي تتخذ من دمشق مقرا لها، وبعد كل هٰذه السنين لا بد من الإجابة علىٰ سؤال يطرح نفسه بمناسبة هٰذه الذكرىٰ:

ماذا جنىٰ العرب بعد ٢٥ عاماً من مفاوضات التنازل مع اليهود؟

وهل قدم اليهود خلال تلك الفترة ما يدل علىٰ رغبتهم الصادقة في السلام؟

وهل يعتبر وصول شارون إلىٰ سدة الرئاسة في الدولة العبرية حصاداً طبيعياً للمجتمع اليهودي «المسالم»؟

وهل حافظ اليهود على الطبيعة الجغرافية للقدس وباقي المدن الفلسطينية حتى يتم التوصل إلى تسوية نهائية، أم تم استغلال تلك المعاهدات في تغيير جغرافية المدينة المقدسة ليفرض اليهود سياسة الأمر الواقع في المستقبل؟

وهل نجا الشعب الفلسطيني من المذابح والمجازر والعدوان والحصار بعد اتفاقيات السلام مثلما تعرض لها في السابق قبل توقيع الاتفاقيات؟

• القصة من البداية:

قبل ستين عامًا لم يكن هناك على أرض الواقع شيء يدعى «دولة إسرائيل» واليهود بطبيعتهم الخبيثة لا يكلون ولا يملون من محاولة تحقيق أهدافهم وغاياتهم بغض النظر عن دناءة الوسائل التي يتبعونها، وهذا مشهود عنهم في التاريخ وكان سببًا للعنهم وطردهم من بين كثير من الأمم التي عاشوا بينها، ولعلنا نقرر هنا أن أول صيغة للمفاوضات بين اليهود حول فلسطين في الوقت المعاصر تعود إلى عهد السلطان العثماني الخليفة عبد الحميد الثاني الذي رفض التنازل عن فلسطين مقابل تسديد ديون الخلافة وتقديم الذهب للخليفة شخصيا، وكان موقف السلطان عبدالحميد موقفًا لافتا للانتباه في وقت كانت دولة الخلافة تحتضر، وهو الموقف الذي نفتقده كثيرا اليوم لأسباب لا تخفى على أحد، ولا داعي للخوض في مرارتها.

وقد استمر اليهود في لعبة التفاوض وممارسة الحيل والضغوط حتى فتحوا ثغرات في جدار الخلافة، واستطاعوا تهجير آلاف اليهود إلى فلسطين، وفي نفس الوقت استطاعوا الحصول على وعد بلفور الشهير، وهو الوعد الذي اشتهر لدى العرب بأنه «وعد من لا يملك.. لمن لا يستحق» واستطاع اليهود بالحيل والتدليس ودعم الدول الكبرى الوصول إلى قرار التقسيم وإقامة دولة مغتصبة على أرض مقدسة، وسط تخلف عربي شديد الوطأة ودول مفككة تعاني من الاستعمار وسلب حرية الإرادة واتخاذ القرار، مع وجود قيادات تدور حولها شبهات التخاذل، بل والتنسيق مع اليهود في وقت مبكر، ومن ذلك اليوم ومبادرات السلام تصب صبًا على المنطقة وهدفها الوحيد والمعلن والمؤكد هو تثبيت ذلك الكيان الغريب في المنطقة

حتىٰ يتقبله الجسد المنهك ويتأقلم معه .

وقد جرت مفاوضات مباشرة بين العرب واليهود بشكل مبكر عام ١٩٤٩م لترتيب اتفاقيات الهدنة ، وبعدها شهدت المنطقة سيلاً من المفاوضات غير المباشرة ثم المباشرة ، وقد طرحت عدة مشاريع سلام دولية وإسرائيلية منذ صدور قرار التقسيم وحتىٰ حرب حزيران ١٩٦٧ ، غير أن هـٰذه المشاريع لم تنجح في جمع الدول العربية وإسرائيل علىٰ طاولة المفاوضات المباشرة ولا حتىٰ المفاوضات غير المباشرة ، باستثناء مفاوضات الهدنة في عام ١٩٤٩م .

ورفضت الدول العربية معظم هـٰذه المشاريع ؛ لأنها كانت تنطلق من الواقع الذي خلقته المسلكية الإسرائيلية السياسية والعسكرية ، وقد ركزت في معظمها علىٰ قضية اللاجئين ، ورسم الحدود بين الدول العربية وإسرائيل ، أكثر من تركيزها علىٰ تفاصيل تحقيق السلام بين الأطراف المتنازعة ، وإعادة الحقوق العربية المغتصبة ، ومن أشهر تلك المبادرات :

١ ـ المشروع النرويجي:

تقدم المندوب النرويجي بمشروع إلىٰ الأمم المتحدة في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٥٢ من أجل إيجاد تسوية للخلافات العربية الإسرائيلية .

٢ ـ مشروع جاما الأمريكي:

وطرح الأميركيون مشروعا عرف باسم مشروع «جاما» في أيلول من عام ١٩٥٥ .

٣ ـ مشروع جونستون:

وفي الفترة من ١٩٥٣ ـ ١٩٥٥ طرح المبعوث الأمريكي الخاص إلىٰ المنطقة إريك جونستون مشروعا عرف باسمه يستهدف معالجة قضية اللاجئين الفلسطينيين ، وإيجاد حل لقضية فلسطين ، عن طريق تعاون الدول العربية وإسرائيل في استثمار مياه نهر الأردن استثماراً مشتركًا .

٤ ـ مشروع إسرائيلي ١٩٥٦م:

في ٢١/ ١١/ ١٩٥٦ نقل «موسىٰ شاريت» مقترحات حكومته إلىٰ واشنطن، وكان من أهم ما تضمنته:

- الموافقة علىٰ إجراء تعديلات علىٰ خطوط الهدنة.
- رفض التفاوض علىٰ أساس قرار التقسيم لعام ١٩٤٧م.
- منح الدول العربية حقوق الترانزيت عبر إسرائيل في مقابل منح إسرائيل هٰذه الحقوق في الدول العربية نفسها.
- الدعوة لجمع المال لتعويض اللاجئين الفلسطينيين.

٥ ـ مشروع تونس ١٩٦٥م:

في ٢١/ ٤/ ١٩٦٥ أعلن «الحبيب بو رقيبة» رئيس الجمهورية التونسية مشروع تسوية النزاع العربي الإسرائيلي علىٰ أساس قرار التقسيم.

٦ ـ مشروع آلون ١٩٦٧م:

طرح وزير الخارجية الإسرائيلي إيغال آلون مشروع سلام في ١٩٦٧، دعا فيه إلىٰ ضم مساحات شاسعة من أراضي الضفة الغربية إلىٰ إسرائيل، وأن يكون نهر الأردن هو خط الحدود بين الأردن وإسرائيل، ويعد هٰذا المشروع أهم المشاريع الإسرائيلية لحل المشكلة الفلسطينية كما يعد قاعدة أساسية لبرنامجي حزب العمل والليكود الإسرائيليين حتىٰ الانتخابات الإسرائيلية عام ١٩٩٦م.

٧ ـ قرار مجلس الأمن الدولي رقم (٢٤٢) ١٩٦٧م:

والذي كان ـ وما يزال ـ القاعدة الأساسية لجميع مشاريع ومفاوضات السلام في الشرق الأوسط اللاحقة، وصدر المشروع الذي يؤكد انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي التي احتلتها وإنهاء جميع ادعاءات الحرب أو حالاته، واحترام سيادة ووحدة أراضي كل دولة في المنطقة، وضمان حرية الملاحة في الممرات الدولية في المنطقة، وتحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين.

وقد عين الوسيط الدولي السويدي غونار يارينغ لهٰذه المهمة، دون التوصل إلىٰ تقدم يساعد علىٰ تنفيذ القرار، وذلك بسبب الموقف اليهودي المتشدد، خصوصا عندما أبلغه الإسرائيليون بأن «التوراة تعطينا حقوقًا واضحة في غزة وسيناء والضفة الغربية والجولان، فضلاً عن النصر العسكري. . . ».

٨. مشروع إسرائيلي ٨ أيلول ١٩٦٨م:

- أن تستبدل حدود وقف إطلاق النار عام ١٩٦٧ بحدود آمنة ومعترف بها بين إسرائيل وكل دولة عربية من جيرانها.
- المحافظة علىٰ حرية التحرك الآمن علىٰ الحدود وخاصة في القطاعات الإسرائيلية الأردنية.
- ضمان حرية الملاحة.

٩. مشروع روجرز ١٩٧٠م:

طرح وزير الخارجية الأمريكي وليم روجرز مشروعه الأول في آيار ١٩٧٠، وقد تضمن تسوية للصراع علىٰ محورين، مصري-إسرائيلي، وأردني-إسرائيلي.

١٠. مشروع أردني طرحه الملك حسين بتاريخ ١٩٦٩/٤/١٠م.

١١- وفي ١٩٧١/١/٢٥م تقدم الأردن بمشروع سلام:

كان من أهم ما تضمنه:

- انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي العربية المحتلة كافة.
- حق دول المنطقة في العيش بسلام في حدود آمنة ومعترف بها.
- إنهاء حالة العداء.
- ضمان حرية الملاحة المائية.
- تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين.

١٢- وفي ١٩٧١/٢/١٤م طرح الرئيس أنور السادات فكرة التسوية الجزئية لتكون خطوة نحو السلام:

ومن أهم ما تضمنته :

ـ انسحاب إسرائيل من سيناء مقابل فتح مصر قناة السويس أمام الملاحة الدولية .

ـ تمديد وقف إطلاق النار .

١٣ـ وفي ١٨/١/١٩٧٢م سلمت مصر يارنغ مشروع سلام مشابهًا للمشروع الأردني:

وأهم ما تضمنه :

- انسحاب القوات الإسرائيلية .
- نبذ إسرائيل لفكرة التوسع الإقليمي .
- إنهاء حالة العداء .

١٤ ـ على إثر حرب عام ١٩٧٣م (حرب رمضان):

صدر قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٢٣٨ في ٢٢/ ١٠/ ١٩٧٣م والذي يطلب وقف إطلاق النار والدعوة إلى تنفيذ القرار رقم (٢٤٢) بجميع أجزائه .

١٥ ـ مشروع كارتر ١٩٧٧م:

ومن المشاريع المهمة التي طُرحت أيضًا بعد حرب ١٩٧٣م، مشروع الرئيس الأمريكي جيمي كارتر، الصادر في ١٨/ ٣/ ١٩٧٧م، الذي دعا فيه :

- إلى اعتراف الدول العربية بإسرائيل وحقها في الوجود .
- إقامة حدود دائمة لإسرائيل هي الحدود التي كانت موجودة قبل حرب ١٩٦٧ .
- إنهاء حالة الحرب بين الدول العربية وإسرائيل .
- إنشاء مناطق منزوعة السلاح .

١٦ـ البيان الأمريكي ـ السوفييتي ١٩٧٧م:

كما طرح مشروع السلام السوفييتي ـ الأمريكي في الأول من أكتوبر من عام

١٩٧٧، وتضمن المشروع:

- ضرورة التوصل إلىٰ تسوية عادلة ودائمة وشاملة للصراع في الشرق الأوسط.
- حل جميع المشاكل الخاصة بالشرق الأوسط.
- ضمان آمن للحدود بين إسرائيل والدول العربية.
- البدء في مفاوضات في إطار مؤتمر جنيف للسلام.

١٧ ـ اتفاقيات كامب ديفيد (١٩٧٨ ـ ١٩٧٩م):

نتيجة لزيارة الرئيس المصري أنور السادات المفاجئة في ١٩/ ١١/ ١٩٧٧م لإسرائيل وإلقائه خطابًا في الكنيست الإسرائيلي، فقد بدأت لأول مرة مفاوضات عربية مباشرة وعلنية مع إسرائيل، تمخض عنها التوقيع علىٰ اتفاقات كامب ديفيد في ١٧/ ٩/ ١٩٧٨م علىٰ إثر المبادرة الأمريكية لجمع الجانبين علىٰ طاولة المفاوضات في منتجع كامب ديفيد في الولايات المتحدة وبرعاية الرئيس الأمريكي كارتر، وتوقيع المعاهدة المصرية ـ الإسرائيلية في ٢٦/ ٣/ ١٩٧٩م، حيث استرجعت مصر بموجبها الأراضي المصرية التي احتلتها إسرائيل في حرب ١٩٦٧م بوجود قوات متعددة الجنسيات ومحطات الإنذار المبكر، مقابل اعتراف مصر الدبلوماسي الكامل بإسرائيل وتطبيع العلاقات معها.

ولقيت المعاهدة استنكاراً عربيًا واسعًا أدىٰ إلىٰ مقاطعة مصر دبلوماسيًا واقتصاديًا في مؤتمر القمة في بغداد عام ١٩٧٩م، وهو إجراء يعد الأول من نوعه ضد دولة عربية، وقد تسبب في انعكاسات سلبية علىٰ العلاقات العربية الداخلية رسميًا وشعبيًا، ودفع إلىٰ استفراد أمريكا وإسرائيل بمصر في ظل عزلتها العربية النسبية.

١٨ ـ مبادرة ريغان (٢/ ٩/ ١٩٨٢م):

أطلق الرئيس الأمريكي رونالد ريجان مبادرة سلام في ٢/ ٩/ ١٩٨٢م خلال خطاب له يحصل من خلالها السكان الفلسطينيون للضفة الغربية وغزة علىٰ حكم

ذاتي كامل بالنسبة لإدارة شؤونهم، ويجب أن يعطىٰ الاعتبار اللازم لمبدأ الحكم الذاتي لسكان تلك المناطق وللمخاوف الأمنية المشروعة للفرقاء المعنيين.

١٩ ـ مشروع قمة فاس العربي (٧/ ٩/ ١٩٨٢م):

طرح علىٰ إثر انعقاد مؤتمر القمة العربية الثاني عشر في المغرب في ٧ سبتمبر ١٩٨٢، بعد خروج المقاومة الفلسطينية من لبنان، وقد تضمن المشروع:

- انسحاب إسرائيل من جميع الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ بما فيها القدس.
- إزالة المستعمرات التي أقامتها إسرائيل في الأراضي العربية.
- ضمان حرية العبادة وممارسة الشعائر الدينية لجميع الأديان في الأماكن المقدسة.
- حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره.
- إخضاع الضفة الغربية وقطاع غزة لفترة انتقالية.
- قيام الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس.

٢٠ ـ مشروع بريجينيف للسلام (١٥/٩/١٩٨٢م):

في خطاب له يوم ١٥/ ٩/ ١٩٨٢م في مأدبة علىٰ شرف رئيس جمهورية اليمن الديمقراطية علي ناصر محمد حدد ليونيد بريجينيف رئيس مجلس السوفيات الأعلىٰ في الاتحاد السوفييتي «مبادئ السلام العادل والراسخ في الشرق الأوسط» وذلك خلال العدوان الإسرائيلي علىٰ لبنان وبعد أسبوعين من مبادرة الرئيس الأمريكي رونالد ريغان.

٢١ـ مبادرة السلام الفلسطينية (١٩٨٨م):

في ظل اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الكبرىٰ عام ١٩٨٧م، وعودة القضية الفلسطينية إلىٰ صدارة الاهتمام الدولي، وبعد مرور قرابة العام علىٰ اندلاعها، وفي ظل نتائج الضربة العسكرية التي تلقتها منظمة التحرير في لبنان عام ١٩٨٢م، انعقد المجلس الوطني الفلسطيني التاسع عشر في الجزائر خلال الفترة من ١٠ ـ ١٥/ ١١/

١٩٨٨م، واتخذ قرارات مهمة تتعلق بالتهديف السياسي للانتفاضة على محوري قبول قرارات الشرعية الدولية، وإعلان الدولة الفلسطينية المستقلة بعاصمتها القدس فيما سمي فيما بعد بمبادرة السلام الفلسطينية.

٢٢ ـ مشروع شامير للحكم الذاتي/ مبادرة ١٤ مايو ١٩٨٩م الإسرائيلية:

أقرت الحكومة الإسرائيلية برئاسة إسحاق شامير مشروعًا تقدم به لإقامة حكم ذاتي فلسطيني في الضفة والقطاع في ١٤ مايو ١٩٨٩م.

٢٣ ـ مؤتمر مدريد للسلام في الشرق الأوسط ١٩٩١م:

كان مؤتمر «مدريد» للسلام الذي عُقِدَ عام ١٩٩١م هو آخر الصيغ التي طرحت لحل الصراع، وذلك بمبادرة من الرئيس الأمريكي «جورج بوش» في ٦ مارس ١٩٩١م في خطاب له أمام الكونجرس دعا فيه إلى عقد مؤتمر لأطراف النزاع، وقد استجابت الأطراف جميعها لأول مرة لهٰذا المشروع، حيث شاركت في جلسات المؤتمر في «مدريد» بإسبانيا أيام ٣٠/ ١٠ و١ ـ ٢/ ١١ عام ١٩٩١م، وقد انبثق عن المؤتمر مساران للتفاوض: أحدهما ثنائي، والآخر متعدد الأطراف، حيث جرت في هٰذا المؤتمر مفاوضات مباشرة بين كل الأطراف العربية المعنية بالصراع مع إسرائيل.

ويمكن استنباط عوامل وظروف مهمة ساعدت على انطلاق عملية السلام على قواعد هٰذا المشروع، من أبرزها:

١ ـ التراجع الاستراتيجي العربي:

أدّىٰ خروج مصر ـ أقوىٰ الدول العربية ـ من ساحة الصراع مع إسرائيل عام ١٩٧٩م، وخروج المقاومة الفلسطينية من لبنان عام ١٩٨٢م إلىٰ حدوث تراجع في الخطاب السياسي العربي.

٢ ـ حرب الخليج الثانية:

أدت حرب الخليج الثانية (١٩٩٠ ـ ١٩٩١م) إلىٰ انهيار التضامن العربي الرسمي، وحدوث انقسامات هائلة في أوساط الشعوب العربية والإسلامية، مما

كان له أكبر الأثر في إضعاف القضية الفلسطينية التي كانت بأمس الحاجة للالتفاف العربي .

٣ ـ الظروف الدولية:

أدىٰ انهيار الاتحاد السوفياتي إلىٰ فقدان الدول العربية لحليف أساسي كانت تعتمد عليه في المحافل الدولية ، وخلق هٰذا الأمر نوعا من عدم التوازن في التحالفات الدولية مع دول الشرق الأوسط لصالح إسرائيل .

٤ ـ الضغوط الأمريكية:

أدت حرب الخليج الثانية إلىٰ تزعم الولايات المتحدة للتحرك الدولي لإيجاد حل سلمي للصراع العربي ـ الإسرائيلي ، ومارست ضغوطًا علىٰ إسرائيل والدول العربية من أجل البدء بمسيرة السلام .

٥ ـ التوجه نحو توفير الاستقرار في المنطقة:

وهو الهدف الذي تعتقد الولايات المتحدة ـ وفق تعريفها له ـ بأنه يخدم مصالحها ، مما شجعها علىٰ الإلقاء بثقلها نحو تخفيف عوامل الصراع بما يسمح ببناء الشرق الأوسط الجديد الذي تتحقق فيه المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة وحلفائها الدوليين وإسرائيل من خلال عملية السلام واتفاقاتها .

● اليهود وعقدة القدس:

تقع القدس في مركز دائرة الصراع الإسرائيلي ، لما لها من أهمية سياسية ودينية وحضارية وتاريخية لأطراف الصراع ، ولقد عبر ديفيد بن جوريون أول رئيس وزراء لإسرائيل عن النوايا الإسرائيلية ، حيث إنه كان مصمما علىٰ اختراق القدس واحتلالها رغم قرار التقسيم ١٨١ (نوفمبر ١٩٤٧م) والذي وضع القدس كلها تحت الوصاية الدولية .

وقد وضع بن جوريون الأساس الاستراتيجي لضم القدس بكاملها ، ففي حزيران ١٩٦٧م أجرت الصحيفة اليابانية «أساهي شيمبون» مقابلة مع ديفيد بن

جوريون فقال: «سنحتفظ بالقدس إلىٰ الأبد، علىٰ الرغم من جميع القرارات التي ستتخذها الأمم المتحدة، فالقدس كانت عاصمة لإسرائيل علىٰ امتداد ثلاثة آلاف سنة وستبقىٰ كذلك في المستقبل».

وفي الفترة اللاحقة لسقوط القدس الشرقية في أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧م وظف رؤساء وزراء إسرائيل القدس في تصريحاتهم لإلهاب المشاعر الدينية لليهود.

ويمكن القول: إن القدس كانت ـ وما زالت ـ قاسمًا مشتركًا بين كل الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة من حيث التأكيد علىٰ الإبقاء علىٰ القدس عاصمة موحدة تحت سيادة إسرائيل.

وقد جاء في مقدمة برنامج سياسة الحكومة التي طرحها «أرئيل شارون» أمام الكنيست الإسرائيلي في ٣/ ٣/ ٢٠٠٣م ضمان مكانة مدينة القدس كعاصمة لدولة إسرائيل، وأن حكومته الجديدة لا توافق علىٰ المطلبين الفلسطينيين لتحقيق السلام وهما حق العودة واعتبار القدس الشرقية عاصمة لدولة فلسطينية.

أما على مستوى رئيس الدولة ورغم أن منصبه فخري، وينتخب من قبل الكنيست الإسرائيلي، فيظل لهٰذا المنصب أهميته، وتظل تصريحاته تحمل دوراً يعكس الاتجاه العام في إسرائيل، وعليه لا يجب تجاهل الدور الذي لعبه رؤساء دولة إسرائيل منذ زلمان شيزار (١٩٦٣ ـ ١٩٧٣م) والذي سقطت القدس الشرقية في عهده، وحتىٰ عيزرا وايزمان (١٩٩٣ ـ ١٩٩٩م)، فقد تم التأكيد علىٰ نفس الخط الذي سارت عليه السلطة التنفيذية الإسرائيلية منذ سقوط القدس الشرقية عام ١٩٦٧م وحتىٰ اليوم من أن القدس هي عاصمة دولة إسرائيل الأبدية والموحدة تحت السيادة الإسرائيلية.

وقد ترجم هٰذا الدور بقرار الكنيست عام ١٩٨٠م بأن تكون القدس مقر رئيس الدولة، وذلك بهدف أن يجبر سفراء الدول علىٰ تقديم أوراق اعتمادهم في القدس، وكأنه فرض الأمر الواقع والاعتراف الدولي بهٰذا الوضع، هٰذا علىٰ مستوىٰ

السلطة التنفيذية بفرعيها مجلس الوزراء ورئاسة الدولة.

أما عن السلطة القضائية، ورغم محدودية هـٰذا الدور وطبيعته القضائية إلا أنها في الواقع لعبت دورا لتوجيه ضربات قاصمة لعروبة القدس، ومن الأمثلة علىٰ ذلك: تبرئة الأسترالي الذي اتهم بحرق المسجد الأقصىٰ في عهد جولدا مائير وطلب رابين من وزير العدل الإسرائيلي في أغسطس ١٩٨٠ بدراسة ما يمكن لاتخاذ التدابير اللازمة بشأن تجاوزات بيت الشرق بهدف التحرش به، باعتباره رمزًا من رموز الوجود الفلسطيني في المدينة، والسماح لجماعة مسماة «بأمناء الهيكل» في عهد «نتانياهو» بالصلاة في المسجد الأقصىٰ، بالإضافة إلىٰ سن القوانين، والتي أكدت المحكمة العليا الإسرائيلية في مناسبات عديدة علىٰ قانونية الإجراءات الإسرائيلية في القدس الشرقية، وهكذا يبدو لنا أنه حتىٰ السلطة القضائية لم تبتعد عن لعب دور في طمس هوية القدس العربية والإسلامية.

هـٰذه التصريحات الإسرائيلية علىٰ مستوىٰ الخطاب السياسي الرسمي، مهَّدت لمسألة ضم القدس، وهنا يأتي دور السلطة التشريعية أو الكنيست الإسرائيلي بإصدار القرارات الهادفة لبسط الهيمنة الإسرائيلية علىٰ القدس: فخلال ثلاثة أيام وفي الفترة من ٢٧ ـ ٢٩/ ٦/ ١٩٦٧م أصدر الكنيست الإسرائيلي أربعة قرارات استهدفت تهويد السيادة والإدارة والبلدية العربية في المدينة، وبذلك تكون القدس العربية، قد أصبحت ـ من وجهة نظر القوانين الإسرائيلية ـ جزءاً من إسرائيل تابعًا للقدس الكبرىٰ الموحدة.

ونستطيع أن نخلص إلىٰ القول من تحليل مفردات هـٰذا الخطاب السياسي الإسرائيلي لكافة القوىٰ السياسية الرسمية وغير الرسمية إلىٰ الاستنتاجات التالية:

- تشكل القدس أحد ثوابت هـٰذا الفكر ولا فرق بين حمائم أو صقور أو حركات سلام وحركات صهيونية، ولا فرق بين حزب العمل أو الليكود، أو بين أصوليين وعلمانيين أو ليبراليين ومحافظين.
- تكشف قضية القدس التناقضات في داخل النظام السياسي الإسرائيلي،

وذلك فيما يتعلق بالتسوية السلمية؛ ففي الوقت الذي يعلن فيه هٰذا النظام سواء كان في حكم العمل أو الليكود التزامه بالسلام، يعلن تمسكه بالقدس كعاصمة أبدية ودائمة وخارج نطاق التفاوض.

• ولم يبق هٰذا الخطاب في حيز التفكير اللفظي بل ترجم في عدد من السياسات الإسرائيلية منه السياسة السكانية بزيادة عدد اليهود والمستوطنين في المدينة وتقليص عدد العرب فيها، وسياسات الضم والمصادرة والتهويد للمدينة وتوسيع حدودها.

وعندما نعود لنشاهد ماذا فعل اليهود بمدينة القدس المباركة بعد توقيعهم معاهدة السلام مع مصر، ندرك أن اليهود يتخذون معاهدات السلام وسائل جديدة لتحقيق أحلامهم في التوسع والاستيطان، وأن مبدأ وفكرة السلام بعيدة كل البعد عن تخيلهم وتفكيرهم، ولا بد من الإشارة إلىٰ تخطيط اليهود لتهويد مدينة القدس من خلال مشروعين: الأول تحت الأرض فيما يعرف بمؤامرة الحفريات. والآخر فوق الأرض حيث قرارات التهويد، ويمكن حصر بعض الخطوات اليهودية في مؤامرة الحفريات، بعد توقيع اتفاقيات «كامب ديفيد» بالتالي:

• مؤامرة الحفريات:

١ ـ بدأت حفريات جديدة عام ١٩٧٩م تحت الجدار الغربي قرب حائط البراق، وتم شق نفق واسع طويل، وتقرر الاستمرار فيه حتىٰ يخترق المسجد الشريف من غربه إلىٰ شرقه.

٢ ـ عام ١٩٨٦م وفيها استشرت الحفريات من كل جانب، وسكن شارون في أرض منها تأكيدا علىٰ تهويد القدس.

٣ ـ وقد بدأت بشراسة، فازداد التوغل تحت أرضية الساحة وحولها، وتركزت الحفريات علىٰ الطبقات التحتية لتفريغها من التربة.

وقد حاول عمال الحفر اليهود (في شهر أغسطس/ آب ١٩٨٨م) الشروع في

حفريات وسط الطريق المنحدر إلىٰ حي (الوادي) الملاصق للمسجد، ولكن حرَّاس المسجد منعوهم، وهـٰذه المرحلة من مراحل الحفريات كانت تمثل أخطر مرحلة؛ لأنَّ هدفها تفريغ الأتربة والصخور من تحت المسجد الأقصىٰ ومسجد قبة الصخرة.

وقد سمحت الحكومة الإسرائيلية خلال عامي ١٩٩٥، ١٩٩٦م لمؤسستين إسرائيليتين بإجراء المزيد من الحفريات، مما يدل علىٰ وجود نية مبيتة في اللجوء إلىٰ محاولة الهدم عن طريق إحداث الاهتزازات الصناعية.

أما المؤامرات «الإسرائيلية» علىٰ الأقصىٰ فوق الأرض وبعد توقيعهم معاهدات كامب ديفيد الأولىٰ فيمكن الإشارة إلىٰ جزء يسير من هـٰذه الاعتداءات ومنها:

١ ـ في ١٩ أبريل (نيسان) ١٩٨٠م عقد الحاخامات الإسرائيليون مؤتمرًا عامًا للترتيب للسيطرة علىٰ المسجد الأقصىٰ.

٢ ـ في الأول من مايو (آيار) ١٩٨٠م، جرت محاولة لنسف المسجد الأقصىٰ عندما اكتشف بالقرب من المسجد أكثر من طن من مادة (تي. إن. تي) شديدة الانفجار، فوق سطح أحد المعابد اليهودية.

٣ ـ في أغسطس (آب) ١٩٨١م، تجمهر عدد كبير من اليهود قرب المسجد الأقصىٰ وكسروا قفل (باب الحديد)، وأدوا الصلوات اليهودية بشكل استفزازي للمسلمين.

٤ ـ في ٢٨ أغسطس (آب) ١٩٨١م، أعلنت الهيئات اليهودية الدينية عن اكتشاف نفق يبدأ بحائط البراق، ويؤدي إلىٰ فناء المسجد الأقصىٰ، وأعلنوا أن لذلك علاقة بالهيكل الثاني، وبدؤوا عمليات حفر هددت جدران المسجد بالانهيار، ولكن جموع من المسلمين تصدت للعمال اليهود، وردموا النفق بالقوة.

٥ ـ في ٨ أبريل (نيسان) ١٩٨٢م، عثر الأهالي المسلمون علىٰ طرد مشبوه خلف أحد الأبواب الرئيسية للمسجد الأقصىٰ، ووجدت الشرطة في الطرد بعد فتحه أسلاكًا كهربائية وجهازًا توقيتيًا، ورسالة موجهة إلىٰ مجلس الأوقاف الإسلامي، وفيها (انتظروا مزيداً من عملياتنا ضدكم).

٦ ـ في شهر يناير (كانون الثاني) ١٩٨٤م، جرت محاولة آثمة لنسف الأقصىٰ ومسجد عمر، ولكن تصدىٰ لها الحراس المسلمون، وأفشلوها بعون الله.

٧ ـ في بداية أغسطس (آب) من عام ١٩٨٤، اكتشف حراس الأقصىٰ المسلمون عددا من الإرهابيين اليهود في الساحات المحيطة بالمسجد وهم يعدون لعملية نسف تامة للمسجد، وقال وقتها الشيخ سعد الدين العلمي مفتي القدس ـ رحمه الله ـ: «لولا عناية الله ـ تعالىٰ ـ لما بقي حجر علىٰ حجر من المبنىٰ الشريف».

٨ ـ في ١٧ مارس (آذار) ١٩٨٩م، اكتشف حراس المسجد الأقصىٰ كميات كبيرة من المتفجرات بداخله، وكانت إحدىٰ الجماعات اليهودية قد وضعتها لأغراض تخريبية.

٩ ـ في ١٧ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٨٩م، قامت جماعة (أمناء الهيكل) اليهودية بوضع حجر الأساس للهيكل الثالث قرب مدخل المسجد الأقصىٰ، بزنة ٥,٣ طن.

١٠ ـ في ٧ يوليو (تموز) ١٩٩٦م، الإعلان عن حفريات خطيرة أدت إلىٰ خلخلة في الحائط الجنوبي الغربي للمسجد الأقصىٰ.

- ومن الإجراءات اليهودية الأخرىٰ في هـٰذا المجال:

١ ـ سن التشريعات والقوانين التعجيزية الخاصة بأهالي القدس.

٢ ـ مصادرة الأراضي والعقارات واستملاكها.

٣ ـ سياسة مصادرة هويات الإقامة.

٤ ـ فرض الضرائب الباهظة.

٥ ـ منع البناء والتوسع السكاني.

٦ ـ سياسة الحصار وإقامة الحواجز ومنع التنقل.

• سجل «السلام» الإسرائيلي:

إن احترام المعاهدات والاتفاقيات ليس من طبيعة اليهود، ورأينا كيف ماطلوا لمدة عشر سنوات حتىٰ اقتنعوا بتسليم سيناء، ولكن بعد أخذ ورد ومماطلة وتحويل

القضية لمحكمة العدل الدولية بلاهاي، وكانت قصة تسليمهم لسيناء وكيف تعاملوا مع المستوطنات الموجودة فيها قصة من أغرب القصص خاصة من جهة تكالبهم على التعويضات وسرقة المستوطنات وماذا فعل بعض المستوطنين من حيل وألاعيب في موضوع التعويضات.

لكن ما يهمنا في الموضوع أن اليهود لم يرتدعوا عن ارتكاب المجازر تجاه الشعب الفلسطيني حتى بعد توقيعهم لمعاهدة السلام، حتى إن بعض المجازر التي ارتكبها اليهود بعد عام ١٩٧٩م كانت أكثر وحشية من مجازرهم القديمة مثل مذبحة دير ياسين عام ١٩٤٨م ومذبحة كفر قاسم عام ١٩٥٦م، ويكفي للتدليل على ذلك استحضار مذبحة صبرا وشاتيلا التي جرت بعد ٣ سنوات من معاهدة كامب ديفيد.

فصبرا وشاتيلا مخيمان فلسطينيان قرب بيروت، كان عدد سكانهما قبل المجزرة ٩٠ ألفا، تعرضا لمجزرة رهيبة يوم الخميس ١٦/ ٩/ ١٩٨٢م على يد القوات الإسرائيلية وعملائها، وكانت بتخطيط من وزير الدفاع الإسرائيلي ـ آنذاك ـ أرييل شارون وقد قتل قرابة الثلاثة آلاف شخص أغلبهم من النساء والأطفال والشيوخ.

ومن المجازر التي لا زالت في ذاكرة التاريخ والعالم الذي شهد على بشاعة اليهود وكفرهم بالسلام وحق الإنسان في العيش في وطنه آمنًا مطمئنا:

• مذبحة الأقصى الأولى ٨/١٠/١٩٩٠م:

ففي صبيحة يوم الاثنين ٨/ ١٠/ ١٩٩٠م حاول متطرفون يهود وضع حجر الأساس للهيكل الثالث في ساحة المسجد الأقصى، فهب أهل القدس ـ كعادتهم ـ لمنع المتطرفين اليهود من ذلك، فتدخل على الفور جنود الاحتلال الإسرائيلي الموجودون في ساحات المسجد وأمطروا المصلين بزخَّات من الرصاص؛ مما أدى إلى استشهاد ٢١ وإصابة ١٥٠ بجروح مختلفة واعتقال ٢٧٠ شخصاً.

• مذبحة المسجد الإبراهيمي ١٩٩٤م:

ففي صلاة الفجر من يوم الجمعة ١٥ رمضان ١٤١٤هـ انطلق الرصاص كالمطر

ودوت أصوات انفجار القنابل اليدوية في المسجد الإبراهيمي بينما المصلون ساجدون، وحصد هٰذا الاعتداء اللئيم ٢٥٠ شخصا بين شهيد وجريح.

• مذبحة الأقصى الثانية (انتفاضة النفق) ١٩٩٦م:

فبعد إعلان سلطات الاحتلال فتح النفق المجاور للجدار الغربي للمسجد الأقصىٰ يوم الاثنين ٢٣/ ٩/ ١٩٩٦م وقعت اشتباكات عنيفة، أسفرت هٰذه المواجهات عن استشهاد ٤٠ فلسطينيا وإصابة المئات بعضهم كانت جراحه خطيرة واستمرت هٰذه المواجهات ثلاثة أيام.

• مذبحة الأقصى الثالثة عام ٢٠٠٠م:

حاول المجرم «شارون» تدنيس المسجد الأقصىٰ يوم الخميس ٢٨/ ٩/ ٢٠٠٠م، فتصدىٰ له الشباب المسلم وأفشلوا جريمته رغم أنه كان بحماية ٣٠٠٠ جندي إسرائيلي.

وفي اليوم التالي (الجمعة) ٢٩/ ٩/ ٢٠٠٠م، قام جنود الاحتلال بفتح النيران علىٰ رؤوس المصلين قبل التسليم من صلاة الجمعة وجرت مواجهات في ساحات الأقصىٰ بين المصلين وجنود الاحتلال أسفرت عن سبعة شهداء و٢٥٠ جريحا، ثم امتدت الاشتباكات إلىٰ كل أرجاء فلسطين.

• مذبحة مخيم جنين ٢٠٠٢م:

في شهر أبريل (نيسان) ٢٠٠٢م قام اليهود الحاقدون بأبشع جريمة في مخيم جنين (مساحته كيلو متر مربع ويسكنه ١٥ ألف فلسطيني) إذ حاصروه لمدة عشرة أيام وقاموا بمهاجمته بالطائرات والدبابات وهدموا البيوت فوق ساكنيها بالجرافات العملاقة، فدفنوا الناس أحياء تحت الأنقاض، كما قاموا بإعدام المدنيين بدم بارد في أزقة المخيم، وقدر عدد الشهداء بحوالي ١٠٠ شهيد إضافة إلىٰ عشرات الجرحىٰ والمعوقين والمفقودين.

ناهيك عن محاولات اليهود تفريغ حقدهم علىٰ الإسلام كتمزيق المصحف علىٰ أيدي الجنود اليهود واستعماله لمسح البول والغائط، أو طبع المصحف علىٰ ورق

(التواليت) مع حذف آيات الجهاد وتحريفه، أو طباعة أوراق رسموا فيها صورة خنزير وكتبوا عليه اسم النبي محمد ﷺ - حاشاه الله - وانتهاك حرية المقابر الإسلامية، والاستيلاء على الأملاك الوقفية، ولا ننسى الجدار العنصري الذي تحدثنا عنه سابقًا.

• تجبر مفهوم:

كل هذا الصلف والتجبر اليهودي الصهيوني بات مفهوما ومنطقيا في ظل تراجع وضعف الدول العربية والإسلامية، حتى غدت الفترات الزمنية الطويلة للمفاوضات هي طوق النجاة للأنظمة حتى تستطيع تقديم جرعات الذل والتنازل لشعوبها العربية على مراحل عديدة وليست دفعة واحدة تصدم تلك الجماهير بحقيقة المأساة الموجودة لدى السلطات الحاكمة وحقيقة عجزها عن مواجهة استحقاقات احتلال القدس وفريضة تحريرها من المحتل الغاصب، ويكفي أن نشير إلى أن العملية السلمية استمرت كل تلك السنوات ومن بعد تحرير دولة الكويت، وحتى هذا الوقت دون طرح القضايا الخطيرة والمعقدة على طاولة المفاوضات مثل مصير القدس، وحق العودة والحدود والمياه وتفكيك المستوطنات.

ومن المفارقات أن القدس ظلت تحت الحكم الإسلامي أربعة عشر قرنا كان نصيبها من مفاوضات كامب ديفيد الثانية والتي باءت بالفشل فقط أربعة عشر يوما، وهي حصاد طبيعي لقضية إسلامية تهم أكثر من مليار مسلم، ويحزن لها قلب كل موحد إلى قضية عربية قومية، ثم تصنيفها إلى قضية فلسطينية داخلية ثم إلى فتحاوية حزبية ثم إلى عرفاتية شخصية، والعجيب أن يأتي «عرفات» بعد ذلك ويتمسك بيديه وأسنانه «بالشرعية الدولية» بعد أن أدار ظهره للأمة الإسلامية بحجة عدم التدخل في الشأن الداخلي للقرار الفلسطيني، وهو أيضا حصاد طبيعي لسلسلة التراجعات العربية والإسلامية وملف القدس والقضية، فكلنا يذكر كيف أكدت القمة الإسلامية في «مؤتمرها الأول المنعقد عام ١٩٦٩م» أن حكومات الدول الإسلامية وشعوبها يرفضون أي حل للقضية الفلسطينية لا يكفل لمدينة القدس وضعها السابق قبل الاحتلال في يونيو ١٩٦٧م.

والقمة الثانية في لاهور في فبراير ١٩٧٤م والتي نصت في قراراتها على أن «القدس رمز فريد من نوعه لالتقاء الإسلام بالديانات السماوية، ولقد تولى المسلمون لأكثر من ١٣٠٠سنة شؤون القدس كأمانة لكل من يعتزون بها، وبهٰذا كان انسحاب إسرائيل من القدس شرطًا لا يقبل التغيير، لتحقيق سلام دائم في الشرق الأوسط».

لقد ساهم المؤتمر الثالث للقمة الإسلامية في دغدغة مشاعر الجماهير الإسلامية عندما أعلنت في يناير ١٩٨١م الجهاد المقدس لتحرير القدس!! وفقا لمواد القانون الدولي التي تكفل الدفاع المشروع عن النفس في المادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة، كما لم تنس القمة كالعادة الدعوة إلى مقاطعة (إسرائيل)، وبعد كل هٰذه القرارات العنترية تصبح الجماهير العربية على مفاوضات «تقرأ الأحداث السياسية بشكل واقعي وتلتزم منهج الواقعية والمعطيات المادية لكل أطراف الصراع وتتبنى سياسة خذ وطالب حتى يغير الله الحال»!!

• أسطورة الوسيط المحايد:

ولا يمكننا قبل أن نغلق باب (الاتفاقيات) في هٰذه القضية الشائكة من أن نمر على أكذوبة الوسيط المحايد ونقصد به بالطبع السمسار الكبير الولايات المتحدة الأمريكية، فإن كانت بريطانيا قد أطلقت وعد بلفور لإقامة دولة إسرائيل، فإن الولايات المتحدة أطلقت وعد العم «سام» للتمكين لتلك الدولة ودمجها مع دول المنطقة وضمان تفوقها المادي والعسكري على الدول المحيطة.

فمنذ إنشائها في عام ١٩٤٨ بدعم غربي مادي ومعنوي كبيرين، حظيت إسرائيل برعاية أمريكية استثنائية مادية وسياسية، سواء على صعيد العلاقة الثنائية، أو على صعيد الموقف الأمريكي في أروقة الأمم المتحدة ومنظماتها المنبثقة عنها، فكانت الولايات المتحدة تسقط، عبر حق الفيتو، أي محاولة استصدار أي قرار يلزم إسرائيل بتطبيق قرارات الشرعية الدولية ذات الصلة بالقضية الفلسطينية، بيد أن

العلاقة الأمريكية الإسرائيلية بدأت تأخذ منحىٰ حاسما بعد حرب ١٩٦٧م، حيث باتت إسرائيل تلعب دوراً أساسيا في إطار المصالح الأمريكية الشرق أوسطية.

ويلحظ المتابع للعلاقات الأمريكية الإسرائيلية أن إدارة بوش الابن تؤسس لخطاب سياسي لتبني نفس المواقف السابقة من إسرائيل والقضية الفلسطينية، حيث أسقطت الإدارة عبر الفيتو استصدار أي قرار يدين العدوان الإسرائيلي المستمر منذ عام ٢٠٠١م علىٰ الشعب الفلسطيني.

إن موقف الولايات المتحدة من القدس يختلف، ربما عن موقف أية دولة أخرىٰ في العالم، عن موقفها من القضية الفلسطينية ككل، فقد تراجعت المواقف الأمريكية حيال القدس من تأييد لتدويل شامل للمدينة، إلىٰ تأييد تدويل الأمكنة المقدسة فقط، وبعد حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧م تمسك الموقف الأمريكي بوحدة المدينة، تلبية لسياسة الأمر الواقع الذي فرضته إسرائيل باحتلالها للقسم الشرقي من المدينة.

ومع ارتقاء «رونالد ريجان» سدة الحكم في الولايات المتحدة (١٩٨٠ ـ ١٩٨٨م) انكشف موقف الإدارة الأمريكية تجاه التصورات الإسرائيلية إزاء قضية القدس، فقد أدلىٰ ريجان وأصدر عدة بيانات في مناسبات عديدة اعتبر من خلالها القدس عاصمة دولة إسرائيل، وأنه يجب أن تبقىٰ دائمًا تحت السيادة الإسرائيلية، وذهبت إدارة ريجان إلىٰ أبعد من ذلك، حيث سعت إلىٰ تدعيم علاقتها مع حليفتها إسرائيل.

وقد جاء توقيع اتفاق التعاون الاستراتيجي بين الولايات المتحدة وإسرائيل ليصب في عصب الاستراتيجية إزاء الصراع العربي ـ الإسرائيلي، فكان الغزو الإسرائيلي للبنان، وضرب الوجود العسكري للمقاومة الفلسطينية هناك، ثم جاء مشروع «ريجان» يوم خروج الدفعة الأولىٰ من مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت مستهدفًا جني ثمار العدوان، وشق المخرج لمشروع الحكم الذاتي في الضفة الغربية والقطاع، وإحياء اتفاقات كامب ديفيد علىٰ الصعيد العربي، وقد استصدر

مجلس الشيوخ الأمريكي في ٢٢/ ٣/ ١٩٩٠م قراراً نص على بقاء القدس عاصمة موحدة لإسرائيل مع حفظ «الآخرين» وفي ٢٤/ ٣/ ١٩٩٠م أصدر الكونغرس الأمريكي قراراً مماثلاً للقرار المذكور.

وتوج انحياز بوش الابن وإدارته إلى جانب إسرائيل بتوقيعه على قرار الكونجرس الأمريكي، باعتبار القدس الموحدة بشقيها المحتل عام ١٩٤٨ والمحتل عام ١٩٦٧م العاصمة الأبدية لدولة إسرائيل وذلك يوم الاثنين في ٣٠/ ٩/ ٢٠٠٢م.

وقد كان دور اللوبي اليهودي (٨, ٥ مليون يهودي في الولايات المتحدة)، وهم رأس مال اليهود المنظم في الولايات المتحدة الأمريكية، بالغ الأثر في الضغط على الإدارات الأمريكية المتعاقبة خلال الفترة (١٩٤٨ ـ ٢٠٠٢م) لاتخاذ مواقف إلى جانب السياسات الإسرائيلية المتبعة في الأراضي الفلسطينية لفرض الأمر الواقع الاستيطاني، هذا في وقت لم تظهر فيه ملامح لوبي عربي وإسلامي بمقدوره الضغط على الإدارات الأمريكية ومؤسسات صياغة واتخاذ القرارات في الولايات المتحدة وخاصة الكونجرس بشقيه الشيوخ والنواب.

• مستقبل عملية السلام:

إن القواعد والأسس التي قامت عليها عملية السلام تحمل في طياتها بذور التفجير للصراع، وتشيع عدم الاستقرار، وعلى الأخص على الصعيد الداخلي للأقطار المعنية، وبالطبع فإن تفاعل عوامل التفجير وعدم الاستقرار سوف ينعكس على العملية السلمية ونتائجها ومستقبلها.

حيث يتبدى للدارس المحايد أن عمر هذه العملية قصير، وأنها لن تعمر طويلاً وفق القواعد والأسس التي تحكمها، خصوصا في ظل انحيازها شبه الكامل إلى جانب المغتصب ضد صاحب الحق، وفي ظل التشدد الإسرائيلي والتقلب في مزاج الشارع الإسرائيلي وقياداته السياسية، ولعل الظروف المحلية وعوامل التحول في

عملية السلام على الصعيدين الإسرائيلي والفلسطيني، والتحولات الإقليمية المختلفة لقوى النفوذ السياسي من جهة وللأطراف التي وقعت الاتفاقات مع إسرائيل من جهة أخرى، والتحولات على الصعيد الدولي التي تتجه لمشاركة دول ومجموعات جديدة للولايات المتحدة في قيادة العالم، لعل كل هذه التحولات تشير وبشكل ناصع إلى الصعوبات التي تعترض نجاح العملية في ظل أسسها الأمريكية ـ الإسرائيلية الحالية القائمة على ظروف ومعطيات جديدة ومؤقتة.

إن أبرز ما يمكن أن يتسبب في تفجير العملية وإعادة المنطقة إلى الحرب على الصعيد المباشر أو على صعيد الاستنزاف يكمن في عدم توفير حل عادل وشامل لقضية الشعب الفلسطيني، القائمة على العودة وتقرير المصير وإقامة الدولة المستقلة، وبقاء قضية اللاجئين والنازحين الفلسطينيين عامل توتر في المنطقة يهدد الاستقرار فيها باستمرار.

كما يشار هنا إلى التباين والتناقض الكامل بين الفلسفة الصهيونية التي تقوم على التوسع والسيطرة والعدوان واغتصاب حقوق الآخرين واحتقارهم من جهة، وبين الفلسفة والبرنامج الفلسطيني الذي يسعى إلى الاستقلال والتحرر والسيادة على أرضه من جهة ثانية.

كما تسهم في المخاطر المحدقة بعملية السلام التغيرات والتفاعلات المتواصلة في المنطقة باتجاه عدم الثقة المتصاعدة في هذه الاتفاقيات، بسبب سوء التزام الجانب الإسرائيلي والأمريكي بالوعود والأسس التي قامت عليها برغم هشاشتها، إضافة إلى تغير التركيبة السياسية في المنطقة والتحول الممكن في ظل ذلك نحو التخفف من عبء هذه الاتفاقيات وإتاحة المجال لخيارات أخرى؛ لتأخذ دورها في دفع الإسرائيليين إلى التسليم بالحقوق العربية كاملة.

وإذا كان مشروع السلام المنطلق على أصداء مؤتمر مدريد يحمل بعض عوامل الصمود والقدرة على مواجهة العقبات في ظل المعادلات القائمة، فإنه لا يتمتع

بمصداقية مستقبلية قياساً لعوامل التغير المحتملة على المدى المتوسط والبعيد، سواء على الصعيد الإقليمي أو الدولي بل وربما المحلي.

• يألمون كما تألمون:

دلت البيانات اليهودية على هٰذا الرعب بدقة الأرقام، فنشرت جريدة يديعوت أحرونوت: أن معدلات الخوف بين المستوطنين كانت ٥٧ ٪ في مطلع شهر أكتوبر ٢٠٠١م، ثم بلغت ٦٨ ٪ في منتصف الشهر، ثم بلغت ٧٨ ٪ في مطلع الشهر التالي!!

وقد تحولت المستشفيات اليهودية إلى معامل بحثية لدراسة هٰذه الظواهر الغريبة التي لا تكاد توجد لدى الطرف الآخر الأضعف ماديًا، ومنها ما ذكره الخبير كرفيلد من الموت أو المرض بالعرب وحده!!

وذكرت البيانات أن الإقبال على العيادات الطبية ارتفع بشكل كبير مع أنهم لا يعانون في الحقيقة من أي مرض عضوي، وإنما يعانون من التوتر والضغوط النفسية، وأشارت إلى ارتفاع نسبة ٥٠ ٪ في استهلاك المهدئات والمسكنات، وهٰذا ما دفع وزارة الصحة اليهودية إلى اتخاذ خدمة عامة قد تكون فريدة في العالم وهي فتح مراكز استشارات هاتفية للمواطنين للمشورة النفسية!!

يقول الكاتب «إيتان هابر» واصفًا الحياة السياسية في إسرائيل بعد المشكلات الأخيرة بأنها حياة قذرة وجاعلاً ذلك عنوان مقالته: «دولة إسرائيل تواجه ساعاتها الصعبة، إننا نعيش حياة قذرة».

وبعد اشتعال الانتفاضة انتشر الرعب في المستوطنات، وبدأت الهجرة إلى داخل ما يسمى الخط الأخضر، وأطلقت الصحافة اليهودية لقب «مستوطنات الأشباح»، أي أن إسرائيل تحتفظ باحتلال الضفة والقطاع وتتكلف الخسائر الباهظة ماديًا وبشريًا ومعنويا من أجل ١٢٠ ألف يهودي فقط هم سكان المستوطنات!!

جاء في تقرير حديث لوكالة الأنباء الإسرائيلية وعلقت عليه الجرائد أن الحياة في إسرائيل تعطلت أو تدهورت إلا شيئًا واحداً فقط وهو السفر للخارج، فقد بلغ عدد المسافرين سنة ٢٠٠٢ ثلاثة ملايين و٦٠٠ ألف (طبيعي أن يعود أكثرهم لكن من سيبقون كثير)، والأرقام الرسمية تعترف بـ٦٠٠ ألف فقط!! لكن بعض الجرائد اليهودية مثل معاريف ترجح المليون.

إن كثيراً من الإسرائيليين يحملون جنسيات مزدوجة، فالأستاذ بجامعة بن جوريون «آلون غال» يقول: «إن إسرائيل مزبلة ليهود أمريكا، وهناك أكثر من ٦٠٠ ألف ممن يحمل الجنسية الإسرائيلية يعيشون في أمريكا مع أنهم معدودون ضمن المواطنين الإسرائيليين منهم ٢٠٠ ألف في نيويورك وحدها».

مما يضاعف المشكلة أن المهاجرين هم الطبقة المثقفة والغنية، وعلىٰ ذلك تعلق «هاأرتس» قائلة: «إن هجرة مليون يهودي غني أمر متوقع»، وتشير إلىٰ أنه «إذا غادر هٰؤلاء بأموالهم وذهب كذلك أصحاب الخبرات والمهن الراقية فلن يبقىٰ في البلاد إلا العمال والفقراء والمجندون وتتحول إسرائيل إلىٰ دولة من العالم الثالث».

ومما يؤيد ذلك أن المسؤولين أنفسهم ومنهم الوزراء وقادة الجيش يبعثون أبناءهم وعائلاتهم ليعيشوا خارج البلاد ولا سيما في أمريكا، ويذكر الإعلام اليهودي نماذج لهٰؤلاء فمنهم مثلاً: يوفال بن إسحاق رابين، وأوريت حفيدة مناحيم بيجن، وتالي بنت بنيامين إليعازر، وميكال بنت إيهود باراك، وأرييل ابن الوزير روبي ميلو، إيجال ابن موشيه أرينز، وأخيراً حفيدة العالم المشهور آينشتاين التي هاجرت، وقالت في مقابلة مع جريدة جور زاليم بوست: «إن واقع هٰذه البلاد يختلف تماماً عما كانت تعتقد، ولهٰذا لا بد من أن تهاجر»!!

وهناك سبب كبير للتدهور هو الإنفاق العسكري، فمجرد وجود الدبابات في المدن الفلسطينية يكلف الجيش الصهيوني ٧٠ مليون دولار شهرياً.

وفضلاً عما خسره الجيش الصهيوني من عتاده و أفراده، حدثت خسائر لم تكن في الحسبان، فمثلاً: تدمير الدبابة «ميركافا ٣» أدىٰ إلىٰ إلغاء عقود شراء كبيرة لها، من دول عدة منها الهند و الأرجنتين وتركيا و الصين.

وإجمالاً؛ فالوضع العام هو كما قال أحد الخبراء: تنطبق عليه نظرية (الدومنة) أي أنه إذا انهار جزء سرىٰ الانهيار إلىٰ الأجزاء الأخرىٰ، ولا ريب أن أجزاء كثيرة انهارت معًا.



(٢)
الجدار الإسرائيلي العازل... و العودة إلى الجيتو

من الأخطاء الاستراتيجية التي يقع فيها بعض الساسة العرب في تعاملهم مع اليهود هي في محاولاتهم التعامل مع الطرف اليهودي من خلال تطبيق النظريات السياسية المعروفة في عالم السياسة لتحقيق مكاسب سياسية لصالح القضية الفلسطينية، مع إغفال عوامل أخرىٰ مهمة كامنة في التكوين النفسي اليهودي، ولا بد من التمعن فيها ومعرفة خفاياها للحصول علىٰ بعض مفاتيح التعامل مع المجتمع اليهودي وساسته الخبثاء، وأنا أعتقد أن القرآن الكريم مصدر أساسي ومهم في معرفة الشخصية اليهودية وكيفية التعامل معها، وكأنها كتاب مفتوح تقرؤه بسهولة ويمكن كشف وفضح ألاعيبها وخدعها وحيلها والتفافها حول الاتفاقيات والقرارات الدولية.

ومن يتمعن في القصص القرآني بشكل أكثر دقة وتخصصا يلاحظ أن القرآن قد أفرد مساحات كبيرة للحوار حول اليهود وطبيعتهم سواء كانت مواقفهم مع سيدنا موسىٰ أو مواقفهم مع الرسول ﷺ في السيرة النبوية، كما نجد أن القرآن عندما يورد سيرة اليهود يفصل ما بين آية وأخرىٰ بآية تقرر حقيقة مؤكدة في طبيعة الشخصية اليهودية، ونجد مثلاً القرآن الكريم في سورة «الحشر» يشير إلىٰ طبيعة اليهود في القتال، فقال سبحانه وتعالىٰ يشرح إحدىٰ طبائع اليهود: ﴿**لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ**﴾[1].

ويعلق الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ تعليقًا لطيفًا علىٰ الآية فيقول: «وما تزال الأيام تكشف حقيقة الإعجاز في «تشخيص» حالة المنافقين وأهل الكتاب حينما يلتقي المؤمنون بهم في أي زمان وفي أي مكان، بشكل واضح للعيان، ولقد شهدت

---

(١) الحشر: ١٤

الاشتباكات الأخيرة في الأرض المقدسة بين المؤمنين الفدائيين وبين اليهود مصداق هـٰذا الخبر بصورة عجيبة، فما كانوا يقاتلونهم إلا في المستعمرات المحصنة في أرض فلسطين، فإذا انكشفوا لحظة واحدة ولوا الأدبار كالجرذان، حتىٰ لكأن هـٰذه الآية نزلت فيهم ابتداء، وسبحان الله العليم الخبير!

وتبقىٰ الملامح النفسية الأخرىٰ ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾.. ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ علىٰ خلاف المؤمنين الذين تتضامن أجيالهم، وتجمعهم آصرة الإيمان من وراء فواصل الزمان والمكان، والجنس والوطن والعشيرة... ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾ ولذلك حرص يهود المدينة المنورة علىٰ إقامة الجدران حول قراهم لتصبح قلاعًا حصينة، مما يجعل اليهود شعبًا يحب العزلة بطبيعته، مما أثر علىٰ الشخصية اليهودية.

ويتحدث الدكتور رشاد الشامي حول العزلة اليهودية فيقول: «ترجع التوراة، وهي السجل السياسي لتاريخ اليهود، تاريخ هـٰذه العزلة الاختيارية إلىٰ فترة إقامة بني إسرائيل في مصر حيث رسم لهم يوسف خطة الهجرة من أرض كنعان... وقد أخذ الوجود اليهودي داخل المجتمعات القديمة وفي العصور الوسطىٰ أشكالاً متعددة في مثل «حارة اليهود» في مصر و«قاعة اليهود» أو المسبتة «نسبة إلىٰ يوم السبت» في اليمن و«الملاح» في المغرب، أما في شرق أوروبا فإن مناطق الانعزال اليهودي اتخذت تسميات متعددة مثل:

أ- الشتتل: وتعني المدينة الصغيرة، وهو عبارة عن تجمع سكاني من اليهود يتراوح بين ألف وعشرين ألفًا، وكانت الحياة تدور فيه حول المعبد اليهودي، والمنزل اليهودي ثم السوق الذي يلتقي فيه اليهود بالأغيار «غير اليهود».

ب- القاهال: وهي كلمة عبرية تعني: الجمهور أو الطائفة اليهودية في إحدىٰ مدن الشتات اليهودي، ويعني بها الخلية الأساسية لتنظيم حياة اليهود في مناطق إقامتهم، وكانت مهام القاهال مشابهة لمهام الدولة تجاه مواطنيها، وتعتبر تجسيدا للحكم الذاتي من قبل الحكومة.

جـ. الجيتو: يعتبر الجيتو أشهر الأشكال الانعزالية اليهودية في العالم، بحيث أصبح يطلق على سبيل التعميم على كل شكل من أشكال الحياة اليهودية الانعزالية وسط الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيها، أما بالنسبة لأصل كلمة جيتو، فإنه من المحتمل أن تكون الكلمة قد استخدمت للمرة الأولى لوصف حي من أحياء البندقية، والذي يقع بالقرب من مسبك لصهر المعادن يسمى «جيتو أوجتو» كان محاطا بأسوار وبوابات في عام ١٥١٦م وخصص كمكان لإقامة الطائفة اليهودية.

وكان هٰذا الحي مخصصا لإقامة مائة شخص من اليهود، وكان اليهود حتى ذلك الحين مشتتين في المدينة ويتعرضون للاستفزازات، وقد منحوا بناء على طلبهم حق البقاء في المدينة بشرط أن يتجمعوا في حي خاص «الجيتو الجديد» في جزيرة منعزلة بين قنوات المدينة.

وكان الحي محاطًا بسور وبوابات وجسور تطوى خلال الليل، وبعد مرور خمس وعشرين سنة أضيفت إليه منطقة جديدة «الجيتو القديم» وتجمَّع فيه ـ بصفة خاصة ـ اليهود القادمون من الشرق، ومنذ ذلك الحين أطلقوا على هذين الحيين المغلقين اسما موحدا هو «الجيتو».

وقد ظلت هٰذه العزلة الاختيارية من قبل اليهود قائمة إلى أن أصدر البابا بولس الرابع (١٥٥٠ ـ ١٥٥٩م) نشرة بابوية في عام ١٥٥٥م توصي لأول مرة بعزل اليهود إجباريا، واعتبارا من عام ١٥٦٢م أطلق على هٰذه المؤسسة الجديدة بشكل رسمي الاسم الذي عرف به حي اليهود في البندقية «الجيتو».

وعلى أي الحالات، فإنه مع صدور قرار البابا بولس الرابع الخاص بإنشاء أحياء اليهود المنفصلة «الجيتو» تحول النظام الاجتماعي والاقتصادي والديني للحياة اليهودية القائم على العزلة إلى نظام إجباري.

وقد كان لهٰذا التأكيد على العزلة بعض النتائج بالنسبة للواقع اليهودي الجيتوي نذكر منها:

أولاً: قلل من اختلاط اليهود بالمسيحيين يوما بعد يوم، وبالتالي زادت الشبهات تجاه اليهود.

ثانيًا: نظرًا لقيود التوسع في مساحة الأحياء اليهودية والاضطرار إلىٰ التوسع الرأسي بإضافة طوابق جديدة علىٰ المباني، التي كان معظمها آيلاً للسقوط، ازدادت نسبة الكثافة السكانية؛ مما أدىٰ إلىٰ انحطاط وتدهور المستوىٰ الاجتماعي للحياة، وتفشي الأمراض، وتراكم القاذورات، مما أثر أثرًا عميقًا علىٰ وجود القاطنين - بالجيتو - وعمَّق من انفصالهم عن العالم الخارجي، وانحصارهم داخل عالم يتصورون أن كل ما فيه يهودي خالص.

ثالثًا: انعدام الإحساس بالأمن لدىٰ اليهود خارج أسوار الجيتو، التي كان يقف عليها حراس من المسيحيين يلزمون بدفع أجورهم.

رابعًا: تعمق الإحساس لدىٰ اليهودي بأن الجيتو هو درع الأمان للحفاظ علىٰ الجماعة اليهودية وشريعتها، وأن هٰذه الإقامة الانعزالية هي الشرنقة التي تحافظ علىٰ حياته الروحية إلىٰ أن يحين الوقت الذي يشاء فيه الرب إعادتهم إلىٰ ما يسمىٰ «أرض الميعاد» مع حلول الخلاص المسيحاني.

كما لا يمكن فهم الطابع الانعزالي للحياة اليهودية دون إلقاء الضوء علىٰ دور الدين اليهودي داخل هٰذا النسق من الحياة، إن القوانين الدينية اليهودية المختلفة الخاصة بقوانين الطعام «الكاشير»، وتحريم الزواج المختلط، والختان، وصلاة الجماعة «لا يقل عن عشرة من المصلين ويسمىٰ بالعبرية «المنيان»، وعادات الدفن الخاصة والعديد من المحظورات المقدسة التي تحرم متاع الدنيا وتوصف بعدم النظافة: لحم الحمل مع لبن أمه غير نظيف، والمرأة الحائض غير نظيفة، والسمك بدون زعانف غير نظيف، والجسد العاري غير نظيف... إلخ.

كل هٰذه القواعد والقوانين والمحظورات التي لاقت استهزاء الآخرين، والتي فرضها حاخامات اليهود بتشدد لا يسمح بأي قدر من التجاوز هي التي عمقت من طابع العزلة اليهودية، وكانت تهدف إلىٰ تذكير اليهودي بانفصاله وتميزه وتفرده».

ونتيجة لكل ذلك فقد اتصفت الشخصية اليهودية الانعزالية بعدة صفات سلبية مثل: الانطوائية، والكآبة، والتشكك، والتشاؤم، والشعور بالدونية، والعدوانية، واللامبالاة، والإحساس بالفشل، والحساسية المفرطة للنقد، والحاجة للمديح والإطراء.

ولذلك فإن الجدار العنصري العازل الذي تقوم إسرائيل ببنائه يتناسب مع طبيعة الشخصية اليهودية، فبناء الجدار العازل تحول إلىٰ مطلب شعبي يهودي استجاب له ساسة اليهود لدوافع انتخابية، فقد أكد استطلاع لصحيفة معاريف نشر في ٢١/ ٦/ ٢٠٠٢م أن ٦٩ ٪ من الإسرائيليين يؤيدون إنشاء الجدار، وهٰذه نسبة تكفي شارون لكي يتخذ قرار تنفيذ الجدار. وللحقيقة فإن العالم شهد سابقًا كثيراً من الجدران مثل جدار برلين الذي تم بناؤه في ١٣/ ٨/ ١٩٦٧م ليعزل الجزء الغربي الرأسمالي عن الجزء الشرقي الشيوعي، واستمر قائما طيلة ٢١ عاماً وثلاثة أشهر قبل أن يتم تحطيمه في ٩/ ١١/ ١٩٨٩م بعدما تهاوت أنظمة أوروبا الشرقية، وقد شق الجدار العمارات وفصل بين المنزل وحديقته وبين الصديق وصديقه وبين الأب وابنه، وكان يحرسه علىٰ مدار الساعة ١٤ ألف جندي معهم حوالي ٦٠٠ كلب بوليسي، وتم إطلاق ١٦٩٣ طلقة نارية ناحية المتسللين، ورغم ذلك نجح أكثر من ٥ آلاف شخص في التسلل إلىٰ ألمانيا الغربية من بينهم ٥٧٤ عسكريًا.

كما يوجد كذلك جدار بلفاست الذي أقامته القوات البريطانية ليفصل بين حيين في بلفاست بإيرلندا الشمالية حيث حي فالس يوجد الكاثوليك، وحي الشانكيل حيث يوجد البروتستانت، وكلنا نذكر قبل سنوات كيف أصبح نهر «نيرتفا» يمثل حاجزاً طبيعياً فاصلاً بين مسلمي البوسنة والكروات، ولكن هٰذه الجدران كانت لحل مشاكل قائمة وليس لها دوافع نفسية كامنة.

• فكرة الجدار اليهودي:

إذن فكرة الجدار والانعزالية موجودة في العقل الباطن للشخصية اليهودية، وهي تخرج إلىٰ السطح في كل مشروع قومي يهودي أو عند مواجهة أي محنة أو

أزمة، فعقلية الجيتو الصهيونية التي جسدها شعار «سوروبرج» في مراحل الاستيطان الأولى لا تزال تتحكم بعقلية السياسي الصهيوني، كما يعبر الجدار بوضوح عن النزعة الاستعلائية العنصرية السادية التي تتلذذ بمعاناة الشعب الفلسطيني.

فقد كتب تيودور هرتزل في كتابه «دولة اليهود» أن «دولتهم ستشكل جزءًا من السور الأوروبي أمام آسيا، وهي نقطة انطلاق للحضارة ضد البربرية»، وفي عام ١٩٣٧م تم تكليف تشارلز بتهارت الخبير البريطاني لشؤون الإرهاب بوضع خطة لإقامة جدار على طول محاور الطرق الرئيسية من الحدود اللبنانية في الشمال وحتى بئر السبع، وكان الجدار مكونًا من ٤ طبقات وبارتفاع مترين على طول ٨٠ كم، وتكلف المشروع في ذلك الوقت ٦٠ مليون دولار، وقد تم هدم هذا الجدار من قبل سكان القرى الفلسطينيين على جانبي الجدار، فعملية «الفصل» أو «العزل» استمرت في العقل الصهيوني ووردت على لسان بن جوريون الذي كان أول رئيس وزراء لإسرائيل، وقد شارك هو بنفسه في بناء الجدار حول المستعمرات اليهودية في ذلك الوقت كنوع من الأعمال التطوعية.

وجميعنا يذكر «خط بارليف» الذي أقامه الكيان الصهيوني بعد نكسة ١٩٦٧م ودكه الجيش المصري في حرب رمضان ١٩٧٣م، كما حاول اليهود في العشرين عامًا الماضية إقامة جدران عازلة ولكن من دون بناء مكلف، عندما طلبت السلطات اليهودية بعد الانتفاضة الأولى إصدار تصاريح خاصة لكل فلسطيني يريد الدخول لأراضي ٤٨، ثم تطور الأمر إلى نظام منع التجوال، ثم إلى إقامة سياج أمني حول قطاع غزة وهو المعروف بالخط الأخضر، وفكرة الجدار العازل ليس لها علاقة بالأحزاب اليمينية أو اليسارية ولا تخص حزب العمل أو حزب الليكود، بل هي فكرة صهيونية متغلغلة في الشخصية اليهودية، فغداة نكسة ١٩٦٧م طرح وزير المالية آنذاك «بنجامين سافير» فكرة الجدار، ويقال: إن شارون منذ عام ١٩٧٣ سعى لتحقيق هذا الهدف، وقد شارك كل من سافير، وباراك، وحاييم رامون، وساحال، وبن إليعاز وكلهم من قادة حزب العمل في تبني فكرة الجدار، إلا أن

حزب الليكود هو من حول الفكرة إلىٰ واقع .

ففي مطلع عام ١٩٩٤م وضع موشيه ساحال خطة لتنفيذ العزل أثناء توليه منصب وزير الشرطة ، حينما قال رئيس الوزراء الأسبق إسحاق رابين : «أخرجوا غزة من تل أبيب» ثم تقدم وزير الحرب السابق الصهيوني بنيامين بن إليعاز بخطة لبناء جدار فاصل بين الضفة الغربية وإسرائيل ، وفي أبريل ٢٠٠٢م طالبت لجنة التوجيه الحكومية الإسرائيلية بسرعة إنشاء الجدار ، وفي ٢٣/ ٦/ ٢٠٠٢م اتخذت الحكومة الإسرائيلية قرارها بإنشاء الجدار الفاصل ، وذلك بعد فشل عملية «السور الواقي» في القضاء علىٰ البنية التحتية للمقاومة ، ومن المقرر أن يبلغ إجمالي طول الجدار ٧٢٨ كم من غور الأردن حتىٰ جنوب جبل الخليل ، منها ١٠٦ كم تشمل المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية .

• مواصفات خاصة:

والجدار الإسرائيلي العازل ليس مجرد جدار مسلح بالأسمنت يفصل بين الضفة الغربية وبين الأراضي الفلسطينية لعام ١٩٤٨م ، ويكفي أن نعلم مدىٰ التكلفة الباهظة لبناء الجدار حتىٰ ندرك التقنية والمخططات التي تقف خلفه ؛ فقد رفض شارون الحديث عن التكاليف الباهظة لبناء الجدار وطالب بالشروع الفوري في العمل بعد أن يتم تدبير المبلغ المطلوب ، حيث يقدر أن كل كيلومتر من الجدار يكلف بناؤه مليون دولار ، وقد كشف نائب رئيس هيئة الأركان العامة في الجيش الإسرائيلي اللواء غابي أشكنازي في لجنة الخارجية والأمن التابعة للكنيست ، أن مجمل تكاليف بناء الجدار ستصل إلىٰ ٨,٥ مليار شيكل ، ورغم ذلك فهناك إصرار إسرائيلي علىٰ بناء الجدار ؛ حيث صرح المدير العام بوزارة الدفاع الإسرائيلية اللواء عاموس يارون في مؤتمر صحفي أن «العالم لن يقرر إذا كنا سنبني الجدار أم لا . . . الجدار سيبنىٰ» .

ومشروع الجدار يمتد علىٰ ٣ مراحل ، ويبلغ عرضه من ٨٠ إلىٰ ١٠٠ متر ، وهي

مكونة من منشآت على جانبي الجدار تحتوي على أسلاك شائكة لولبية وخندق بعرض أربعة أمتار وعمق خمسة أمتار تأتي مباشرة عقب الأسلاك ثم شارع مسفلت بعرض ١٢م لعمليات المراقبة والاستطلاع، ثم شارع مغطى بالتراب والرمل الناعم بعرض ٤م لكشف آثار المتسللين، ثم الجدار نفسه وهو جدار أسمنتي يعلوه سياج معدني إلكتروني بارتفاع أكثر من ٣ أمتار، مركبة عليه أجهزة إنذار إلكترونية وكاميرات وأضواء كاشفة، ثم تثبيت أسلحة رشاشات بالجدار ذات مناظير تحوي كاميرات تلفزيونية صغيرة يمكن التحكم فيها من مواقع للمراقبة عن بعد!

● أهداف خطيرة:

على الرغم من المواقف الدولية الرافضة لبناء الجدار- باستثناء الولايات المتحدة الأمريكية طبعًا- فإن إسرائيل ماضية في إقامة الجدار غير مبالية بأي طرف، حتى أن الأمم المتحدة انتقدت الجدار أكثر من مرة وفي أكثر من تقرير، كما انتقده الصليب الأحمر الدولي والمنظمة الأمريكية للدفاع عن حقوق الإنسان ومنظمة العفو الدولية، كما أدانته مرجعيات مسيحية مثل بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثاني ورئيس أساقفة الكنيسة الإنجليكانية روان ويليامز، كما أن مسؤول البنك الدولي في الضفة الغربية وغزة نيجل روبرتس، انتقد الجدار، معتبرا أنه يزيد من معاناة الشعب الفلسطيني وسيؤثر تأثيراً سلبيًا على التجارة والعمل والخدمات الاجتماعية، وأفاد مسؤول البنك الدولي أن ٧٠ قرية فلسطينية صغيرة وكبيرة ستتم الإحاطة بها وعزلها عند إتمام العمل بالجدار، حيث يصل تعداد سكان هذه القرى إلى ٢١٣ ألف نسمة.

وتهدف إسرائيل من خلال بناء الجدار إلى تحقيق عدة أهداف أمنية وسياسية واقتصادية وجغرافية، فعلى الصعيد الأمني يهدف الجدار إلى منع المتسللين من أفراد المقاومة من الوصول إلى داخل العمق الإسرائيلي والقيام بعمليات استشهادية، كما يقسم الجدار الضفة إلى أربعة كانتونات معزولة تسيطر إسرائيل على محيطها وتترك للفلسطينيين إدارة شؤونهم الداخلية فيها.

وعلى الصعيد السياسي، فإن بناء الجدار سيساهم أولاً في إزاحة الخط الأخضر

الفاصل بين إسرائيل والأراضي الفلسطينية وإلغائه في مناطق كثيرة تمهيداً إلىٰ إلغاء حدود ١٩٦٧ ، كما يقضي الجدار علىٰ أي فرصة لإقامة دولة فلسطينية متصلة جغرافياً وقابلة للحياة ضمن حدود ١٩٦٧م .

أما الأهداف الجغرافية فتشمل ضم أجزاء كبيرة من الأراضي الفلسطينية خالية من سكانها إلىٰ كيانهم الصهيوني بشكل نهائي ، وضم المستوطنات القريبة من الخط الأخضر إلىٰ إسرائيل بدلاً من تفكيكها وإلغائها ، وخلق وقائع مادية ملموسة علىٰ الأرض لاستخدامها في أي مفاوضات قادمة للحل النهائي ، وضمان سيطرة الدولة العبرية التامة علىٰ عبور الأشخاص والبضائع وعزل التجمعات الفلسطينية ، حيث تشير النتائج إلىٰ فصل ٣٠ تجمعًا فلسطينيا عن المراكز الصحية و ٢٢ تجمعًا تم فصلها عن المدارس و ١١ تجمعًا تم فصلها من الخدمة الهاتفية و ٨ تجمعات تم فصلها عن شبكة المياه و ٣ تجمعات تم فصلها عن المحول الرئيسي لشبكة الكهرباء ، بالإضافة إلىٰ تهجير أكثر من ١٤٠٠ أسرة فلسطينية وحصار عشرات القرىٰ والبلدات الفلسطينية بين الجدار والخط الأخضر .

أما بالنسبة للأهداف الاقتصادية فهي في غاية الأهمية للدولة العبرية ، حيث ضمت إسرائيل أكثر من ١٠ ٪ من الأراضي الفلسطينية الأكثر خصوبة وغنىً بالماء في الضفة الغربية كما تسعىٰ إسرائيل للاستيلاء علىٰ أكثر من ٤٥ ٪ من مساحة الضفة ، حيث بلغت الأراضي المصادرة والمجرفة خدمة لهـٰذا الجدار حوالي ١٨٧ ألف دونم معظمها في محافظات جنين التي يسميها اليهود مدينة الانتحاريين وقلقيلية والقدس ، وقد ألحق الجدار أضراراً بثلاثة وخمسين تجمعًا فلسطينياً ودمر ٨٣ ألف شجرة و ٣٧ كم من شبكات الري ، و ١٥ كم من الطرق الزراعية ، كما سيؤدي إلىٰ فقدان أكثر من ٥٠٠٠ شخص فلسطيني لوظائفهم وتدمير صناعة زيت الزيتون والفواكه والخضروات في تلك المناطق .

أما أخطر ما في موضوع الجدار العازل فهو تأثيره المباشر علىٰ القدس ؛ فهو يعزل القدس الشرقية تماماً عن بقية الضفة ويعزل ٢٤٩ ألف مقدسي كذلك عن الضفة

الغربية ويعزل نحو ١٥ ألف مقدسي عن القدس بسبب سكنهم في مخيم قلنديا وكفر عقب شمال القدس، ومن العجيب أن المقبرة الفلسطينية في العيزرية ستنقسم بسبب الجدار إلىٰ جزءين، حيث يمر الجدار مباشرة فوق مقابر الفلسطينيين.

• الجدار سيفشل:

رغم كل الأهداف السياسية والأمنية والجغرافية والاقتصادية المرصودة، وقبل ذلك النفسية الآمنة التي تأمل الدولة العبرية أن يحققها الجدار للشعب اليهودي إلَّا أنه ليس من المتوقع أن ينجح الجدار في تحقيق تلك الأهداف، فعلىٰ الصعيد الأمني فإن بناء الجدار ينطوي علىٰ اعتراف بالهزيمة أمام المقاومة، والعجز عن مواجهتها بالأساليب العسكرية خاصة بعد فشل عملية «السور الواقي» في القضاء علىٰ البنية التحتية للمقاومة، وهو اعتراف من شارون بعدم القدرة علىٰ مواجهة قوىٰ المقاومة القادرة علىٰ الصمود ورد الضربات الموجعة بأوجع منها رغم شراسة الهجوم عليها.

كما أن الأمن لن يتحقق لليهود في فلسطين، حيث إن المقاومة قادرة علىٰ ابتداع العديد من الوسائل للتغلب علىٰ الجدار، حيث ستبقىٰ المستوطنات التي خارج الجدار هدفا جيدا وسهلاً للمقاومة، كما أن تجنيد استشهاديين من القدس والمناطق المكتظة بالسكان تبقىٰ واردة، بالإضافة إلىٰ أن المعطيات الأمنية تدل علىٰ أن ٩٥ ٪ من منفذي عمليات المقاومة قد اجتازوا عبر المعابر وليس عبر الحقول المفتوحة حيث سيتم بناء الجدار، وعلىٰ إسرائيل أن تنتبه إلىٰ أنَّه ليس هناك ما يمنع المقاومة من إطلاق نيران المدفعية علىٰ الجدار، وخصوصاً أن لدىٰ المقاومة أسلحة قادرة علىٰ تنفيذ هـٰذه المهمة كحركة حماس «صواريخ القسام» وغيرها، وهـٰذا مما يرفع الحاجة إلىٰ زيادة حجم القوات المطلوبة لحراسة الجدار، ناهيك عن تفكير المقاومة في تجنيد شبان من أراضي ١٩٤٨م أو حفر الأنفاق أو استخدام وسائل الطيران الخفيفة.

وفي الطرف المقابل هناك العديد من الشخصيات الإسرائيلية التي انتقدت فكرة بناء الجدار، ومدىٰ الفائدة التي تعود علىٰ الدولة العبرية والشعب اليهودي، فقد صرح «آفي إيتام» زعيم حزب المفدال: «إن الجدار انتصار كبير (للإرهاب) وسيكون

رمزًا للهزيمة العسكرية الإسرائيلية أمامه، فهـٰذا ليس جدارًا أمنيًا بل رسم لخط انسحاب في إطاره ستقوم دولة إرهاب».

وأضاف قائلاً: «أي إنجاز يريده الفلسطينيون أكثر مما حققوه بإجبارنا على الانغلاق خلف الجدران الأسمنتية والأسلاك الشائكة». أما «بنحاس فالنتشاين» أحد قادة المستوطنين في الضفة الغربية فقد وصف الجدار بجدار معسكر «أوشفتيز» وهو أحد مراكز الاعتقال التي أقامها النازيون لليهود في بولندا أوائل الأربعينيات، مضيفا أن الفرق المهم هو أن «أوشفتيز» بناه أعداؤنا، أما هـٰذا الجدار فنحن الذي نقيمه لأنفسنا.

كما عبرت بعض العناصر اليمينية المتشددة عن رفضها للجدار لعدة أسباب، منها الخطر الذي يمثله الجدار على القوات التي ستتولى المراقبة والحراسة، حيث اعتبروا وجود السور وسط سكان عرب سيدفع الجنود الإسرائيليين إلى حراسة السور بدلاً من أن يحرسهم هو، كما اعتبر عضو الكنيست إيلي كوهين: «أن النتيجة الفورية لبناء ذلك الجدار هي وقوع عمليات ضد المستوطنين، إنني أسمي هـٰذا الجدار جدار الوهم».

فقد اعتبر الناطق باسم مجلس المستوطنين الجدار عودة إلى حدود ١٩٦٧م، وكذلك اعتبر نائب الليكود في الكنيست «يوبيل شتاينتش» أن الجدار كارثة من ناحية دولة إسرائيل مع انعدام الفائدة الأمنية، وحتى الصحافة الإسرائيلية شاركت في التصدي للجدار.

فقد كتب الكاتب الصهيوني «ب. ميخائيل» في صحيفة «يديعوت أحرنوت» بتاريخ ٣١/ ١٠/ ٢٠٠٣م: «أن الأمن ليس سوى ذريعة واهية لبناء الجدار، وأن حكومة شارون تخفي وراءها دوافع أخرى حقيقية، على رأسها مصادرة الأراضي وزيادة معاناة الشعب الفلسطيني لإخضاعه، ولكنه لن يؤدي مطلقا إلى وقف العمليات (الانتحارية) وتحقيق الأمن لليهود، بل سيشكل دافعًا جديدًا للشعب الفلسطيني لاستمرار المقاومة».

• الجدار دليل ضعف:

لا بد أن نعلن أنَّ إقامة الجدار دليل ضعف للدولة العبرية وليس دليل قوة، فالكيان الصهيوني قد حاصر نفسه فعليا عن محيطه داخل فلسطين وخارجها، بدلاً من حالة التمدد الجغرافي الذي حلم به الصهاينة «من الفرات إلىٰ النيل» وهٰذا يشكل تراجعًا علىٰ الصعيد الأيدبولوجي الصهيوني، سواء علىٰ صعيد ما سمي بأرض الميعاد أم علىٰ صعيد حلم «إسرائيل الكبرىٰ».

كما أن وصول الجدار إلىٰ محكمة لاهاي بحد ذاته إدانة للفكر اليهودي العنصري والانعزالي، ناهيك عن السمعة السيئة التي تكسبها إسرائيل في العالم وخاصة لدىٰ الشعوب، وبالذات الشعوب التي كانت في السابق مصنفة أنها مؤيدة للدولة العبرية مثل شعوب أوروبا التي أظهرت الاستبيانات الأخيرة أن الغالبية من هٰذه الدول تعتبر إسرائيل خطراً علىٰ السلام العالمي.

نقطة أخيرة مهمة وهي: أن تراجع فكرة إسرائيل الكبرىٰ وتقوقعها خلف الجدار انتصار واضح لخيار المقاومة وليس لخيار المفاوضات، فإقامة الجدار يعتبر مرحلة أولىٰ لتراجع اليهود إلىٰ الداخل وسقوط فكر التمدد الجغرافي، وهي نتيجة طبيعية لمسيرة طويلة من التضحيات والدماء والصمود التي قدمها الشعب الفلسطيني، والذي بلا شك يستحق كل دعم ومعونة، وكنا نتمنىٰ أن تعلن جهات التخاذل والاستسلام أن خياراتها لم تكن موفقة، وأن العودة إلىٰ خيار المقاومة الجادة والباسلة وليس علىٰ طريقة الأنظمة العربية التي أحبطت الناس وكرهتهم في المقاومة والجهاد بعد عدد من الحروب العبثية غير الجادة والتي استنزفت طاقات الأمة وجهودها، فلم يكن الخطأ يا سادة في اعتماد المقاومة كاستراتيجية للتحرير، ولكن الخطأ أن هٰذه الاستراتيجية لم تكن تنفذ إلا لتثبيت الكراسي وقمع الجماهير وسرقة مقدراتها، وهنا تكمن المفارقة!!



(٣)
وترجل الفارس من فوق الكرسي

• ﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(١) .

• ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(٢) .

• ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾(٣) .

• ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(٤) .

• قال رسول الله ﷺ: «**إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك اطلاعة، فقال: ما تبغون؟ فقالوا: يا ربنا، وأي شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى. لما يرون من ثواب الشهادة. فيقول الرب جل جلاله: إني**

---

(١) النساء: ٩٥.
(٢) التوبة: ١١١.
(٣) الأحزاب: ٢٣.
(٤) آل عمران: ١٦٩، ١٧٠.

كتبت أنهم إليها لا يرجعون»(١) .

• السر يكمن في الإرادة، وإيمان الإنسان بالمبدأ الذي يسير عليه، فالدنيوي يقول: لو أن الدنيا ذهبت فقد خسرت كل شيء، لكن الإنسان المؤمن الذي يؤمن أنه ذاهب إلىٰ جنة عرضها السموات والأرض يريد أن ينتقل من دنيا فانية إلىٰ الراحة والطمأنينة والاستقرار عند رب العالمين، فهو ينتظر هٰذا اليوم، ويستبسل ويقاتل من أجل الفوز في هٰذا اليوم، ويثبت في الميدان حتىٰ آخر رمق في حياته كالشيخ أحمد ياسين.

فالمؤمن يقف أمام الحقيقة الهائلة.. حقيقة حياة الشهداء في سبيل الله... فالله ربهم الذي قتلوا في سبيله، يظل يتعهدهم بالهداية ـ بعد الاستشهاد ـ ويتعهدهم بإصلاح البال، وتصفية الروح من بقية أو شاب الأرض، أو يزيدها صفاء لتتناسق مع صفاء الملأ الأعلىٰ الذي صعدت إليه، وإشراقه وسناه.

فهي حياة مستمرة في طريقها لم تنقطع إلا فيما يرىٰ أهل الأرض المحجوبون.. وهي حياة يتعهدها الله ربها في الملأ الأعلىٰ، ويزيدها هدىٰ، ويزيدها صفاء، ويزيدها إشراقًا وهي حياة نامية في ظلال الله.

إنه لا جهاد، ولا شهادة، ولا جنة، إلا حين يكون الجهاد في سبيل الله وحده، والموت في سبيله وحده، والنصرة له وحده، في ذات النفس وفي منهج الحياة.

لا جهاد ولا شهادة ولا جنة إلا حين يكون الهدف هو أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن تهيمن شريعته ومنهاجه في ضمائر الناس وأخلاقهم وسلوكهم، وفي أوضاعهم وتشريعهم ونظامهم علىٰ السواء.

وليس هنالك من راية أخرىٰ، أو هدف آخر، يجاهد في سبيله من يجاهد، ويستشهد دونه من يستشهد، فبحق أنه وعد الله بالجنة... إلَّا تلك الراية وإلَّا هٰذا الهدف، من كل ما يروج في الأجيال المحرفة التصور من رايات وأسماء وغايات!

---

(١) مسلم في الإمارة (١٨٨٧)، والترمذي في التفسير (٣٠١١).

فهؤلاء ناس منا، يقتلون وتفارقهم الحياة التي نعرف ظواهرها، ويفارقون الحياة كما تبدو لنا من ظاهرها، ولكن؛ لأنهم قتلوا في سبيل الله، وتجردوا له من كل الأغراض، والأعراض الجزئية الصغيرة، واتصلت أرواحهم بالله، فجادوا بأرواحهم في سبيله، فهم ليسوا أمواتا، وينهانا أن نحسبهم كذلك، ويؤكد لنا أنهم أحياء عنده، وأنهم يرزقون فيتلقون رزقه لهم استقبال الأحياء.

إنه تعديل كامل لمفهوم الموت ـ متىٰ كان في سبيل الله ـ وللمشاعر المصاحبة له في نفوس المجاهدين أنفسهم، وفي النفوس التي يخلفونها من ورائهم وإفساح لمجال الحياة ومشاعرها وصورها، بحيث تتجاوز نطاق هـٰذه العاجلة، كما تتجاوز مظاهر الحياة الزائلة، وحيث تستقر في مجال فسيح عريض، لا تعترضه الحواجز التي تقوم في أذهاننا وتصوراتنا عن هـٰذه النقلة من صورة إلىٰ صورة، ومن حياة إلىٰ حياة!

• سبحان الله!!

قبل أن يجف مداد القلم وأنا أكتب هـٰذه الصفحات عن «كامب ديفيد.. ربع قرن بلا سلام» محاولاً التدليل علىٰ مراوغة الصهاينة وعدم جديتهم في السلام لأنهم أعداؤه، وإذا برسائل الجوال تتوالىٰ عليَّ لتبلغني بخبر استشهاد الشيخ أحمد ياسين ـ نحسبه كذلك ولا نزكي علىٰ الله أحداً ـ بقصف صاروخي، فقلت: يا سبحان الله، اليهود هم اليهود، فرفعت يدي داعيًا: اللهم ارزقني بما رزقت به الشيخ أحمد ياسين من الشهادة والظفر والفوز.

ولقد تأملت تفاصيل الحدث فوجدت الشهادة جاءت للشيخ لتتوج هـٰذا الكفاح المرير الدامي في سبيل مقدسات المسلمين، فقد كنا للتو قد انتهينا من شهر الله المحرم وهـٰذه مفارقة، وكان الشيخ خارجا بعد أن أدىٰ صلاة الفجر، ومن صلىٰ الفجر في جماعة فهو في ذمة الله، وبعد أن أكمل الشيخ ورده الصباحي، ولعله كان صائما حيث كان اليوم هو الاثنين، جاءته الشهادة سريعة مشتاقة علىٰ ثلاثة صواريخ وجهتها مروحيات عسكرية إلىٰ الشيخ المشلول كهدف سهل لا يحتاج إلىٰ عناء.

وما كان من طبيعة الشيخ الهروب والاختفاء، وكأن الصاروخ قد قصد تقطيع

الشيخ إلىٰ ثمانية أشلاء ليدخل كل جزء من جسده إلىٰ الجنة من أحد أبوابها الثمانية، ولا أريد التـألـه علىٰ الله في ذلك، ولكـن النبي ﷺ أخبـر : «**أنتم شهداء الله في أرضه**»[(١)]، وما شهدنا إلا بما علمنا من جهاد الشيخ وصبره وتضحياته، فكان جزاؤه شهادة مستحقة يغبطه عليها العاملون المخلصون، ويتجنبها الجبناء المتخاذلون، فلا نامت أعين الجبناء!!

إن من يطلب الشهادة بصدق يبلغه الله إياها ولو مات علىٰ فراشه، وقد كان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في أيام خلافته يطلب الموت شهيدا وهو في عاصمة الإسلام الأولىٰ المدينة المنورة، فكانت ابنته حفصة رضي الله عنها تقول له: يا أبت! مَنْ طَلَبَ الشهادة سعىٰ لها في الثغور وأنت هنا في المدينة مِنْ أينَ تأتيك؟ فكان يقول: يا ابنتي، إن كتبها الله لي فستأتيني في مدينة رسول الله ﷺ، وقد كان. فمن يصدق الله يصدقه الله.

وقد كان تاريخ الشيخ أحمد ياسين كله دلائل صدق علىٰ طلب الرجل للشهادة، وقد عانىٰ من الاحتلال حتىٰ نال الشهادة أخيرا، وكأن كل معاناته السابقة كانت تخليصاً وتطهيراً للشيخ من أدران الدنيا حتىٰ يلقىٰ ربه طاهراً مطهراً.

لقد عانىٰ الشيخ من شظف الحياة والاحتلال منذ ولادته وحتىٰ لقي ربه، فقد مات والده وهو في الخامسة من عمره، واضطر إلىٰ اللجوء إلىٰ قطاع غزة عقب هزيمة عام ١٩٤٨م، واقتات هو وأهله علىٰ ما كان يتبقىٰ من معسكرات الجيش المصري هناك، ثم اضطر الشيخ ياسين لترك الدراسة لمدة سنة في عام ١٩٤٩م ليعين أسرته، ثم تحول خطيباً مفوهاً في الخطابة، وكان كالشهيد المجاهد عز الدين القسام الذي استخدم منبر الخطابة للدعوة إلىٰ الجهاد والصمود.

وقد اعتقلته السلطات الإسرائيلية عام ١٩٨٢م، ووجهت إليه تهمة تشكيل تنظيم عسكري وحيازة أسلحة، وحكمت عليه بالسجن ١٣ عاماً، لكنها اضطرت

---

(١) البخاري (٢٦٤٢)، ومسلم (٩٤٩)، عن أنس #، واللفظ لمسلم.

إلىٰ إطلاق سراحه في عملية لتبادل الأسرىٰ مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ثم عاد الشيخ أكثر قوةً ونضجًا وخبرة عام ١٩٨٧ في الانتفاضة التي رسخت اسم حماس في أذهان الجماهير العربية والإسلامية، وهي الانتفاضة التي اشتهرت بانتفاضة المساجد.

وفي أغسطس ١٩٨٨ داهمت السلطات الإسرائيلية منزله وهددته بالنفي إلىٰ لبنان، وفي عام ١٩٨٩ اعتقلته السلطات الإسرائيلية، حيث حكمت عليه عام ١٩٩١ بالسجن مدىٰ الحياة، لكنه خرج بعد محاولة الاغتيال الفاشلة التي قامت بها إسرائيل ضد خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحماس في العاصمة الأردنية، مما وضع إسرائيل في حرج وخاصة أنها كانت قد وقعت معاهدة سلام مع الأردن مما اضطرها للإفراج عن الشيخ المجاهد.

وفي عام ١٩٩٨ وفي أعقاب عملية استشهادية جريئة قامت بها حماس قامت السلطة علىٰ الرغم من اعتراض الكثير من أعضاء المجلس التشريعي الفلسطيني، بفرض الإقامة الجبرية علىٰ الشيخ، وقد قام الشيخ أيضًا في تلك الفترة بحملة علاقات عامة واسعة لحماس في جولة شملت العديد من الدول العربية والإسلامية.

وقد بقي الشيخ شوكة في خاصرة الكيان اليهودي، وخصوصا وهو يعلن الثوابت التي لا تنازل عنها في سبيل زوال كل الاحتلال عن فلسطين، فحاولت اغتياله في سبتمبر ٢٠٠٣ لكن المحاولة فشلت، وأخيرا نجحت إسرائيل في مسعاها يوم الاثنين ٢٢/ ٣/ ٢٠٠٤، ومن المضحك المبكي أن هـٰذا التاريخ يشهد ذكرىٰ إنشاء جامعة الدول العربية، وعلىٰ بضعة أيام من ذكرىٰ اتفاقية كامب ديفيد.

كان الشيخ يعاني من أمراض عديدة، فبالإضافة إلىٰ شلله التام الذي ألزمه الكرسي لفترة تجاوزت النصف قرن، فهو يعاني من فقدان البصر في العين اليمنىٰ بعد ما أصيبت بضربة أثناء جولة من التحقيق علىٰ يد المخابرات الإسرائيلية المجرمة أثناء فترة سجنه، وضعف شديد في قدرة إبصار العين اليسرىٰ، والتهاب مزمن بالأذن وحساسية في الرئتين، وبعض الأمراض والالتهابات المعوية الأخرىٰ.

وكان الرجل قد بلغ السادسة والستين من العمر، ولو تركته إسرائيل مع هٰذه الأمراض لربما لم يكن ليعيش طويلاً، ولكنها الشهادة التي صدق الله في طلبها فلم يحرمه منها، قال تعالىٰ: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾[1].

لقد عاش الشيخ بين اليتم والشلل، وعندما أعطىٰ حياته لأمته عاش بين الاعتقال والاغتيال، وكان دائمًا يقول: «إن من مظاهر وعلامات السلامة أن تشعر الأمة بقلق إزاء قضية فلسطين، قضية الأمة، ولكن المقاومة مستمرة، وفي كل يوم هناك عمليات وشهداء وتضحيات».

نقولها بكل ثقة: إن شهادة الشيخ أحمد ياسين ستجعل من كل حماس أحمد ياسين، بل من كل مسلم صادق وغيور أحمد ياسين وكل شباب الحركة الإسلامية في النهج والصدق والثقة بالله ونصره أحمد ياسين، وبالثبات والصمود حتىٰ يصدق الوعد ويحق الوعيد علىٰ بني صهيون، فالاستشهاد بداية الحياة وليس نهايتها، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[2]. لكن مشكلتنا في الذين لا يعلمون إلَّا ﴿ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[3].

إن الشهادة بداية العطاء وليست نهايته، فكلامنا كالدمىٰ تدب فيها الحياة إذا سقيناها بدمائنا، وكل كلمة خرجت من هٰذا الرجل ستكون منهجًا لأبناء الدعوة والصحوة في العالم كله، وقد قال الشيخ ياسين ذات مرة: «أؤكد لكم أن الله غالب علىٰ أمره، وأن ثقتنا في الله أولا، ثم في شعوب أمتنا الإسلامية، الشعوب المؤمنة كبيرة وعالية، وأننا بفضل الله ثم بدعائكم ودعمكم سننتصر، وسيجعل الله لنا ولكم بعد عسر يسراً».

• مسيرة الدماء والتضحيات:

لقد كان دائمًا المخذولون والمتواطئون يحاولون أن يغطوا سوءاتهم وتخاذلهم

(١) آل عمران: ١٤٠.
(٢) العنكبوت: ٦٤.
(٣) الروم: ٧.

عن نصرة الأقصىٰ بالهجوم علىٰ الحركة الإسلامية واتهامها باستغلال الدين لتحقيق مصالحها الدنيوية، فأين هي المصالح الدنيوية التي تحققت للحركة الإسلامية وهي تدفع شلالات الدماء من أرواح أبنائها وشبابها، سواء في ساحات الوغىٰ في فلسطين أو خارجها علىٰ أعواد المشانق حيث وجد اليهود فيهم خطراً علىٰ بقائهم في الأرض المقدسة.

فمنذ قيام ما يسمىٰ بدولة إسرائيل والحركة الإسلامية تحولت إلىٰ قافلة شهداء لا تتوقف، بل من قبل ذلك، ولقد ذكَّرنا استشهاد الشيخ أحمد ياسين باستشهاد الشيخ فرحان السعدي خليفة عز الدين القسام في قيادة التنظيم القسامي.

إذ إنه بعد أن فجر القساميون المرحلة الثانية من الثورة (سبتمبر ١٩٣٧م) وأخذت العمليات الجهادية تتسع وتزداد، سعت القوات البريطانية إلىٰ القبض علىٰ الشيخ فرحان، واستطاعت بالفعل القبض عليه في ٢٢ نوفمبر ١٩٣٧م ولم تجد دليل إدانة (قانونياً) ضده سوىٰ بندقية قديمة في بيته، لكنها ساقته إلىٰ محاكمة عسكرية في ٢٤ نوفمبر وحاكمته محاكمة صورية استمرت ثلاث ساعات وأصدرت حكمها بإعدامه، ولم تأخذ المحكمة بدفاع المحامين من أنه لم يقبض عليه وهو يحمل السلاح، ولا بكبر سنه الذي قارب الثمانين، كما أنها سارعت بتنفيذ الإعدام في ٢٧ نوفمبر ١٩٣٧م (١٤ رمضان ١٣٥٦هـ) ولقد لقي الشيخ المجاهد فرحان السعدي ربه وهو صائم، ورفض المندوب السامي تأجيل الحكم إلىٰ ما بعد رمضان علىٰ الرغم أنَّه لم يحدث في تاريخ البلاد أن أعدم شيخ في مثل عمره وهو صائم.

• ما الفرق بين الجلاد وسوطه:

نحن نعتبر أمريكا وإسرائيل في الجريمة سواء، فأمريكا لم تدعُ إسرائيل إلىٰ ضبط النفس وهي تجتاح المدن الفلسطينية وتقتل المدنيين وتبيد الأطفال والنساء، وتهدم المنازل علىٰ رأس ساكنيها، ولم تدن كل العمليات الوحشية التي قامت بها إسرائيل وتقوم بها، فمن حق أمريكا أن تخرج بأسلحتها وجيشها المدجج بالسلاح المتطور لتجتاح الدول الأخرىٰ وتسقط أنظمتها وتتحكم بمصائر شعوبها وثرواتهم،

لكنها لا تعطي نفس هـٰذا الحق لمن يريد أن يدافع عن عرضه وأرضه، ويحرر أرضه المحتلة.

فما الفرق ـ بالله عليكم ـ بين الجلاد وسوطه، فالجلاد هو راعي البقر، والسوط هو إسرائيل، فلماذا تنهال الشتائم والتهم والإدانات والاستنكارات على السوط الذي هو بلا إحساس وحراك، ويترك الجلاد بلا أدنى عقاب، إلا إذا كان هـٰذا الجلاد هو الشرطي الذي يخيف المنطقة ولا يملك أحد أن يقول للظالم: يا ظالم.. أنت ظالم!!

• ما الفرق بين... والزانية؟

فإذا كان... هو راعي البقر، فإن الزانية هي إسرائيل، فلماذا فقط نريد إقامة الحد على الزانية ونترك... يسرح ويمرح دون حسيب أو رقيب، ولماذا نعطي القواد فرصة تهيئة الجو للزانية لتمارس فواحشها من خلال توفير الحماية لهـٰذه الزانية عبر النظم والقوانين والهيئات الدولية، وإن لزم الأسلحة الفتاكة والتقتيل بعباد الله المؤمنين، فمن المجرم الأول القواد أو الزانية التي استمرأت الفاحشة وولغت فيها حتى النهاية؟

وحتى تبرأ الذمة بين يدي الله نقول للحكام والرؤساء والعلماء الشعبيين والنظاميين: إنه من لم يتبرأ من اليهود وأمريكا فقد تبرأ الله منه، وهـٰذا ليس افتراءً عليهم، بل مصداقا لقوله تعالى: ﴿**لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾[1]، وهـٰؤلاء لم يحادوا الله ورسوله فقط، بل أعلنوها حربًا صريحة مباشرة على الأمة الإسلامية ودينها وهويتها، وآن للغافل والمخدوع أن ينتبه إلى عسل الشعارات البراقة الخداعة المغشوشة بدماء شعوب المنطقة.

فلقد تدخلت أمريكا ـ وللأسف الشديد ـ حتى في أرقام ومقاسات ملابسنا الداخلية، وما يجوز وما لا يجوز منها، وكلما فصّلوا ثوبًا وكلما خاطوا سروالاً

---

(١) المجادلة: ٢٢.

لبسناه رغبة أو رهبة مهما كان شكلنا شاذًا أو مضحكًا في ملابسها، بل أصبح ساسة أمريكا يفتون في الدين الإسلامي ويصنفون المسلمين كما يشتهون، فهـٰذا معتدل وهـٰذا متطرف، وهـٰذا منفتح، وهـٰذا منغلق.

لقد وصف الشيخ الشهيد أحمد ياسين هـٰؤلاء بقوله: «هـٰؤلاء المهرولون الذين انتصروا لمعصية الله». وأكد أنهم «لا يصلحون أن يدافعوا عن قضايا الأمة، وأن يقفوا في وجه الأعداء، وسيلفظهم التاريخ كما لفظ من قبلهم، والأيام دول، وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (١)، وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (٢)، فهـٰؤلاء مفسدون لا بقاء لهم في سجل الخالدين لا أحياء ولا أمواتًا».

• حياة العز:

لقد آن للمسلمين أن يحددوا ماذا يريدون منهجا للحياة، هل يريدون إسلامًا قاديانيًا صنع في مصانع الغرب، أم إسلامًا جهاديًا صنع على هدىً من منهج الرحمن؟ والحركة الإسلامية كذلك بالخيار: هل تريد أن يكون الجهاد الصحيح في مكانه وزمانه أصلاً في منهجها وتربية أبنائها، أو أن يكون الذل والجور والضعف والانبطاح للسلاطين والحكام هو الأصل المسيطر؟ فهم بالخيار أن يكونوا عبيدًا لمنهج الله الشامل الكامل أو عبيدًا لمصالحهم وأهوائهم وضعفهم ونزغهم، وإمَّا أن يأخذوا بالدين الذي نزل على محمد ﷺ وترك أمته عليه كالمحجة البيضاء بكل تشريعاته وفرائضه وتكاليفه، أو يأخذوا بدين صنعته أياد متخاذلة، وصاغته أجهزة الاستخبارات ليخرج جنينًا مشوهًا على يد علماء السوء الذين يغدق عليهم أهل الباطل ليزينوا للناس القعود ويثبطوهم عن تكاليف الدين الصحيح؟

لا بد أن نربي الأمة على أن الحياة الحقيقية هي الحياة الآخرة، وأن الدنيا عرض

---

(١) آل عمران: ١٤٠.

(٢) الأنبياء: ١٠٥.

زائل، نسأل الله السلامة من الفتن فيها، لكننا لا نتهرب من مسؤولياتنا وتكاليف هـٰذا الدين العظيم الذي جاء ليضمن العزَّة لأمة الإسلام، ويسود الدنيا.

لا بد أن نربي الأمة علىٰ معاني العزة والإباء والخوف من الله وحده، فهو الرزاق وهو المعطي وهو المانع، ولا نخاف من غيره أبدًا، ولتستقر هـٰذه الحقيقة في القلوب والوجدان.

ويجب أن نربي أبناءنا علىٰ أن نعيم الدنيا وشرابها وطعامها أمر عارض مؤقت وأن الآخرة هي الحيوان، وليكن لهم في الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ خير قدوة، فعندما يرمىٰ أحدهم بسهم يقول: فزت ورب الكعبة. وليتعلموا من المجاهد الكبير شيخ الإسلام «ابن تيمية» الذي يكل أمره إلىٰ الله بكل شؤونه، ويعلنها لا مواربة فيها: «ماذا يصنع أعدائي بي، إن جنتي في قلبي، فقتلي شهادة، ونفيي سياحة، وسجني خلوة». فإذا لم تكن القلوب هي القلوب والعقول هي العقول، والأرواح هي الأرواح، فلا داعي لا للعمائم ولا للحانا، ولتحلق اللحىٰ وندوس علىٰ العمائم إذا لم تتمكن هـٰذه القيم العزيزة من نفوسنا، حتىٰ لا تتحول إلىٰ سبة وعار علىٰ الإسلام والمسلمين، فكيف نربي أبناءنا علىٰ فروض الولاء والبراء لله، ونحن نطعمهم ليل نهار من وجبات اللحوم التي تربىٰ في إسرائيل وتعجن من راعي البقر عليه من الله ما يستحق.

إن تربية الأبناء علىٰ الانتماء لهـٰذه الأمة تربية شعورية في الضمير أمر لا يحتمل التردد وأنصاف الحلول، فيجب أن يشعر أبناؤنا بما تعيشه الأمة من محن وفتن، وأن يعرفوا أعداءها وكيف يكيدون لها، ونعرفهم أن طريق العزة لا يمر باسترضاء راعي البقر ولا سوطه المسلط علىٰ رقابنا، ولنتذكر كيف كانت الدنيا هينة لا تساوي عند صحابة رسول الله ﷺ شيئًا وهي أساسًا لا تعدل عند الله جناح بعوضة.

ولنعلمهم كيف ترك صهيب الرومي أمواله وتجارته في مكة وهاجر إلىٰ مدينة رسول الله ﷺ، فاستقبله رسول الله ﷺ قائلاً: «**ربح البيع أبا يحيى**»[١]. ولنقص

(١) الحاكم في مستدركه (٣/ ٤٠٠)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجه». وقال الذهبي: صحيح.

عليهم قصة مصعب بن عمير وكيف تنقل من الترف إلىٰ خشونة العيش، طاعة لربه ومرضاة لدينه، ولنقص عليهم شجاعة أنس بن النضر وإقدامه علىٰ الجنة في غزوة أحد.

إن علىٰ الحكَّام إن أرادوا استقرارًا حقيقيًا لأممهم وشعوبهم أن يخلعوا ثوب أمريكا، ثوب الذل والهوان، وليلبسوا ثوب التلاحم مع دين الله وشرعه، والتلاحم مع شعوبهم وأمتهم، وأن تعلن الجامعة العربية والمؤتمر الإسلامي نقضهم لكل مواثيق الذل والاستسلام والعودة إلىٰ أمتهم، وليتها تكون صحوة... ولو متأخرة!!

• ياسين إلى خلود وإسرائيل إلى زوال:

إن كانت غارة فجر عام ١٩٦٧ قد حطمت طائرات الناصرية والقومية وأحيت المارد الإسلامي، فإن استشهاد أحمد ياسين في فجر عام ٢٠٠٤ ستؤكد الخيار الإسلامي لدىٰ شعوب المنطقة، وستحرق كل معاقل اليهود ومراكز قواهم ومن والاهم.. ولو بعد حين، نعم... إن اغتيال أحمد ياسين عمل إجرامي من الدرجة الأولىٰ، وما كانت إسرائيل ستقدم علىٰ هٰذا العمل الوحشي الشنيع لولا أن لها قدرة في الدول العربية التي تعتقل وتعذب وتسجن وتغتال آلافًا من أمثال الشيخ أحمد ياسين في سجونها ومعتقلاتها وعلىٰ أعواد المشانق.

لقد حرك الشيخ ياسين الانتفاضة وهو ميت مثلما حركها وهو حي، وربما سيقتل من اليهود بموته أكثر مما لقوا حتفهم أثناء حياته، فسيبكي اليهود طويلاً مقتله، وإن كان قد ذهب الشيخ إلىٰ الجنة والرضوان، فإنَّ اليهودَ لن يرزقوا طعم الراحة بعد الآن إلا مع زوال دولتهم ونزوحهم عن فلسطين المباركة المقدسة، لقد تابعت شبكة الإنترنت بعد مضي ١٢ ساعة علىٰ اغتيال الشيخ فوجدتها مشحونة بآلاف التعليقات والرسائل، فمنهم القائل: «اللهم أمتني شهيداً» ومنهم القائل: «موتوا علىٰ ما مات عليه» ومنهم من كتب: «نقبل التهاني لا التعازي في الشهيد ياسين».

لقد باتت إسرائيل الآن في خوف وهلع لا من إدانات أصحاب الياقات البيضاء وطاولات المفاوضات والاستنكارات والإدانات، بل من رد المقاومة العنيف والمزلزل الذي ينتظرها، فباتت شوارعها خالية والقلوب هلعة والنفوس ضيقة وسيطرت حالة من الرعب الشديد على المواطن الإسرائيلي الغاصب والمحتل.

لقد حاولت إسرائيل أن تخلخل بنية حركة حماس قبل انسحابها من غزة من خلال اغتيال الشهيد أحمد ياسين، وربط هذه العملية القذرة بموجة محاربة الإرهاب، وأنى لهم ذلك، فسيرتد كيدهم إلى نحورهم.

وإن كان الشيخ أحمد ياسين يرقد في سلام فهم لن ينعموا بالراحة أبداً، ولعل استشهاد الشيخ استجابة لدعائه في وقت السحر، توجه به بقلبه لربه، فلم يحرمه الله الشهادة.



(٤)
المقاومة الفلسطينية: التضحية.. أو التصفية!

كان حجراً كبيراً ذلك الذي ألقاه رحيل عرفات في بحر المفاوضات الهامد في المشهد العربي ـ الصهيوني، ويبدو أن موت عرفات كان أشبه ما يكون بالحياة لدعاة السلام من جديد، بعد أن تحولت آمالهم في مشاريع السلام إلىٰ جثث هامدة تتساقط مع تساقط القذائف الإسرائيلية علىٰ بيوت الفلسطينيين في غزة وجنين وبقية المدن الفلسطينية المنكوبة بالمحتل الغاصب وببعض القيادات المتاجرة بآمال وأحلام التحرر والاستقلال.

المشهد الجديد للسلام في المنطقة أشبه بالقطار المتوقف في محطة تتعثر فيها المفاوضات، حيث غادره المسافرون والركاب عدة سنوات فأغلقت المحطة، وانطفأت الأنوار وعلا الغبار علىٰ القطار والقضبان، وما إن مات عرفات حتىٰ نادىٰ صاحب المحطة بالعمال والموظفين لكي يعودوا إلىٰ أعمالهم ويجهزوا القطار للانطلاق من جديد علىٰ أمل بتعويض خسائر الفترة الماضية.

والمشهد في الشرق الأوسط لا يختلف كثيراً عن محطة القطار، وهناك رغبة واضحة لدىٰ مختلف الفرقاء في تحريك المسار الفلسطيني ـ الصهيوني، علىٰ أن تتبعه مسارات أخرىٰ، للانتهاء من صداع الرأس المزمن الذي تسببه القضية الفلسطينية لليهود والأمريكان والسلطة الفلسطينية والأنظمة العربية، فهو إجماع غير مسبوق علىٰ ضرورة اقتناص اللحظة التاريخية لتصفية القضية والانتهاء من هٰذا الكابوس الذي يهدد عروشًا وكراسي كثيرة بالمنطقة بعضها يهتز أساسا بسبب الرغبة الأمريكية في الإصلاح ـ أو قل في التغيير.

الجهة الوحيدة التي قد تشذ عن هٰذا التوجه المتحمس هي المقاومة الفلسطينية التي لا ترىٰ في مشاريع السلام وسيلة صادقة لتحقيق كامل الحلم الفلسطيني . . .

وبالتالي سوف تبقىٰ جزءًا من المشكلة، وتأبىٰ أن تصبح جزءًا من الحل، باعتبار أن رفض الركوب في قطار السلام خيارٌ أفضل من السفر إلىٰ جهة غير معلومة، وخصوصًا أن الرحلات السابقة لقطار السلام كانت في الغالب تصل إلىٰ سكك مسدودة!!

هٰذا الوضع سيؤدي وبكل وضوح إلىٰ عزلة حركات المقاومة المسلحة علىٰ المستوىٰ السياسي باعتبارها تتمسك بخيار مرفوض، وبعد أن كانت حركات المقاومة ابتداءً تواجه خصمًا واحدًا في بداياتها المسلحة ممثلاً بإسرائيل، انضمت إلىٰ مواجهتها وعلىٰ استحياء وبفترات متفاوتة السلطة الفلسطينية بدعم من الولايات المتحدة الأمريكية التي جرمت حركات المقاومة ووضعتها علىٰ لائحة الإرهاب.

كما انضمت علىٰ استحياء وبسرية مخدوشة بعض الأنظمة العربية التي تريد أن تؤمن نفسها، وقد وضح ذلك من خلال تعاون استخباراتي أثمر عن اغتيال بعض شخصيات المقاومة الفاعلة.

إذن، خيارات المقاومة المسلحة في فلسطين أصبحت في غاية الصعوبة، وليس لها من نصير من بعد الله ـ سبحانه وتعالىٰ، إلا الشعوب المغلوبة علىٰ أمرها وبعض هوامش الحركة السياسية التي يسمح بها الوضع الإقليمي، ومن الواضح وبعد تبلور التحركات السلمية في المنطقة وخاصة في حال توصلها إلىٰ أرضية مشتركة، أن المقاومة ستواجه خيارين لا ثالث لهما:

الأول: خيار التضحية بمنهج الجهاد والكفاح المسلح والتحول إلىٰ العمل السلمي والانضمام إلىٰ قافلة المتسولين علىٰ أبواب البيت الأبيض، في انتظار عطف الراعي الأمريكي وقبوله بركوب هٰذا الوافد الجديد في قطار السلام، وهو خيار لو تم الأخذ به، سينهي مصداقية حركات المقاومة تماما، وستكون النتيجة النهائية المؤكدة الاضمحلال والتلاشي؛ لأن السلطة الفلسطينية تحظىٰ أولاً بإجماع دولي، وقبول رسمي علىٰ المستوىٰ العربي، وموارد مالية ضخمة وعلاقات سياسية معقدة، بينما حركات المقاومة تفتقد كل هٰذه المميزات مما يجعلها في النهاية تتبنىٰ ما نسميه خيار «العدم».

الثاني: وهو المتوقع، فهو الاستمرار في المقاومة وعدم الرضوخ للضغوط الصهيونية والأمريكية والفلسطينية والعربية، وهٰذا يجعلها في المستقبل أمام خيار وحيد وهو خيار «التصفية»، وسيتم التعامل مع المقاومة باعتبارها «عدوة للشعب الفلسطيني» وهو ما يجعل الأمور تصل إلىٰ نقطة اللاعودة، وقد يفجر ذلك حربًا فلسطينية أهلية مصحوبة بعمل جهادي ينحىٰ إلىٰ السرية وقد يمتد إلىٰ المصالح الصهيونية في أي مكان، خارج فلسطين، دون إعلان جهة التنفيذ كجزء من حرب المقاومة السرية.

كما أن هٰذا الخيار يطرح احتمالية تعاون استخباراتي واسع بين الدولة الصهيونية وبعض الأنظمة العربية لملاحقة التيارات الجهادية داخل فلسطين، مدعومًا بإعلام مكثف لتجريم كل من يعمل علىٰ «هدم الحلم الفلسطيني ويحول دون تحقيقه» وهو وضع أشبه بالتعامل الحالي مع المقاومة العراقية التي تحرص وسائل الإعلام علىٰ إبراز التيارات المتطرفة فيها، وممارسة التعتيم الإعلامي علىٰ تيارات المقاومة الأخرىٰ.

• حجج دعاة السلام:

وحتىٰ تكتمل الحلقة علىٰ حركات المقاومة الجهادية في فلسطين فإن دعاة السلام سينشرون وبالتزامن مع مفاوضات السلام «ثقافة السلام» من خلال إطلاق الحجج المؤيدة لمشاريع السلام والتي منها ـ مثلاً ـ:

١ ـ إن الأوضاع العربية لا يمكنها في الوقت الحالي مواجهة إسرائيل ومعارضتها، فهي في ضعف اقتصادي كبير، ومشاكل داخلية متعددة، إضافة إلىٰ الضعف العسكري والعداوات فيما بين الدول العربية نفسها.

٢ ـ يجب استغلال هٰذه الفرصة لتفريغ مجتمعاتنا للتطوير والتنمية التي تحتاجها بدلاً من الدخول في حروب استنزاف تئد برامج التنمية المختلفة.

٣ ـ انتهاج مبدأ «خذ وطالب . . .» ومن خلاله نتدرج في استرداد الحقوق خطوة

خطوة، بدلاً من أن نخسر كل شيء، ولو أننا قبلنا بالتقسيمات السابقة باتباع هٰذا الأسلوب لكنا حافظنا على مكتسبات كبيرة.

٤ ـ أنه تم تجريب الحلول التي يريدها المعارضون عن طريق استرجاع الحقوق بالقوة وعدم التنازل عن أي شيء، فكانت النتيجة أن وصلنا إلى هٰذه الحالة.

٥ ـ التحول الجيد في العقلية العربية في التفاوض والمحاورة الواقعية بعيداً عن الأحلام، والتخلص من قضية رفع الشعارات والسياسات العنترية باسم تحرير المقدسات التي استغلتها قيادات عربية لتبرير أخطائها المتعددة.

٦ ـ كسب بعض الشيء أحسن من أن نخسر كل شيء؛ نتيجة لأوضاعنا الحالية.

٧ ـ وضع هوية ودولة للفلسطينيين يكون من خلالها تكوين الذات لاسترداد الحقوق مستقبلاً، وجعلهم يواجهون تحديات المستقبل بأنفسهم.

٨ ـ تكرار إلقاء سؤال: ما هو الحل البديل؟ وكيف أيها المعارضون؟ ومن خلاله يتم اتهام المعارضين بعدم وجود حل لديهم، وأنهم ما زالوا يعيشون الأوهام السابقة، وبعدهم عن النظرة الواقعية والموضوعية.

• التضحية المرفوضة:

في المقابل فإن حركات المقاومة الفلسطينية، وبشكل أدق الإسلامية منها وخاصة حركة المقاومة الإسلامية حماس، تجد من الاستحالة بمكان لهٰذه الرغبات المتعددة الأطراف التي تريد نزع أسلحتها وإلغاء فريضة الجهاد من برامجها، فحركات المقاومة قدمت الكثير من التضحيات والدماء في سبيل الحفاظ على المنهج الذي ينحصر في خروج المحتل عن طريق المقاومة المستمرة، وما يجعل حركات المقاومة الإسلامية عصية على التطويع والذوبان والانضمام إلى مشاريع السلام والاستسلام أربعة أمور هي:

١ ـ **أن حركة المقاومة الإسلامية امتداد لتيارات إسلامية عريقة** لها جذور فكرية متأصلة في مقاومة المحتل الصهيوني منذ قيام كيانه الهزيل على أرض

فلسطين والتي شهدت أرضها حركة القسام الجهادية وحركة الإخوان في عام ١٩٤٨م قبل أن يزج بهم في السجن.

٢ ـ **تنطلق حركة المقاومة من قاعدة دينية صلبة،** وهذه القاعدة لها فقهها وقواعدها الشرعية ومبادئها، والتفريط في هٰذه الثوابت يعتبر تفريطا ببعض ثوابت الإسلام، والفتاوىٰ التي تناولت حكم الصلح من اليهود والتنازل عن الأرض المسلمة واضحة الحرمة لا لبس فيها، والفتاوىٰ التي شذت عن ذلك صدرت بضغوط سياسية ومردود عليها ولا تصمد حجتها أمام سيل الأدلة والبراهين من القرآن والسُّنة.

٣ ـ **ثمار مشاريع السلام لا زالت هزيلة،** وكمية العنف التي مارستها إسرائيل منذ انطلاق قطار السلام، وعدد المستوطنات التي بنتها وكمية الضحايا والمآسي التي خلفتها إسرائيل في المجتمع الفلسطيني والآلام والجراح البدنية والنفسية التي أصابت الشعب الفلسطيني من هٰذا العدو المتغطرس، لا تشجع أبدًا علىٰ تدعيم هٰذا التوجه، خصوصا مع فقدان الراعي المحايد لعملية السلام، حيث تتبنىٰ الإدارة الأمريكية وجهة النظر الإسرائيلية كاملة غير منقوصة وعلىٰ طول الخط، وخصوصًا أن الإدارة الأمريكية وضعت تنظيم القاعدة وحركة حماس في سلة واحدة علىٰ الرغم من الفروقات الواضحة في المنهج وساحة الصراع والضوابط الأصولية التي يلتزم بها كل طرف.

٤ ـ **حجم التضحيات التي قدمتها الحركة من دماء قادتها وأبنائها وأدبياتها لا تعطي أدنى انطباع بأي توجه حالي أو مستقبلي للحركة للتضحية بالخيار الجهادي،** وأقصىٰ ما قدمته الحركة في ذلك المجال اقتراح هدنة مؤقتة لا تلتزم فيها بأي اعتراف من أي نوع بإسرائيل مقابل بعض الشروط الصعبة التي تعود بالفوائد علىٰ الشعب الفلسطيني، وكل من يراجع أدبيات حماس مثلاً يجد استراتيجية المقاومة ثابتة في برنامج عملها، ففي المادة السابعة من ميثاق حماس نجد أن «حركة المقاومة حلقة من حلقات الجهاد في مواجهة الغزوة الصهيونية

تتصل وترتبط بانطلاقة الشهيد عز الدين القسام، وترتبط بجهاد الفلسطينيين وجهاد الإخوان المسلمين عام ١٩٤٨م، والعمليات الجهادية للإخوان المسلمين عام ١٩٦٨م».

وأما المادة الثالثة عشرة فتقول: «تتعارض المبادرات وما يسمىٰ بالحلول السلمية والمؤثرات الدولية لحل القضية الفلسطينية مع عقيدة حماس، لا حل لقضية فلسطين إلا بالجهاد».

وإذا رجعنا إلىٰ أدبيات قادة الحركة ومناضليها لرأينا تأكيدا أو ثباتا علىٰ هـٰذا الاتجاه، فالمجاهد الشيخ أحمد ياسين أعد رسالة لإرسالها إلىٰ القمة العربية - التي كان مزمعًا انعقادها في تونس بتاريخ ٢٨/ ٣/ ٢٠٠٤م - قبل استشهاده في ٢٢/ ٣/ ٢٠٠٤م يقول فيها - رحمه الله: «وإني أناشدكم أن تأخذ القمة بعين الاعتبار القضايا التالية التي تخدم القضية الفلسطينية: أرض فلسطين أرض عربية إسلامية اغتصبت بقوة السلاح من قبل اليهود الصهاينة، ولن تعود إلا بقوة السلاح، وهي أرض وقف إسلامي لا يجوز التنازل عن شبر منها حتىٰ وإن كنا لا نملك الآن القوة اللازمة لتحريرها».

أما الشهيد الرنتيسي فهو مع «الجهاد إلىٰ التحرير ودحر الاحتلال، إلىٰ تطهير المسجد الأقصىٰ من الغاصبين إلىٰ تحرير الأحبة الأسرىٰ من ذل القيد، إلىٰ حماية أطفالنا ونسائنا وشبابنا وشيوخنا، إلىٰ وقف العدوان المستمر بكل أشكاله والمتمثل بهـٰذا التخريب الذي يقوم به المفسدون في الأرض، نحن علىٰ يقين بأن الجهاد الذي ارتفعت رايته في فلسطين لن يتوقف إلا بتحرير آخر شبر منها، وتطهيرها كاملة من دنس الاحتلال، فمعركتنا طويلة ولكن مضمونة النتائج، وأمضىٰ أسلحتنا الصبر والتقوىٰ».

ومن وصية الشهيد صلاح شحادة قبل استشهاده: «أوصيكم بتقوىٰ الله والجهاد في سبيله، وأن تجعلوا فلسطين أمانة في أعناقكم وأعناق أبنائكم إلىٰ أن يصدح الأذان في شواطئ يافا وحيفا وعسقلان».

ومن وصية الشهيد يحيى عياش يقول فيها: «مستحيل أن أغادر فلسطين، فقد نذرت نفسي لله ثم لهـٰذا الدين: إما نصر وإما شهادة، إن الحرب ضد الكيان الصهيوني يجب أن تستمر إلى أن يخرج اليهود من أرض فلسطين».

• السيناريو المتوقع:

وبناء على الخيار السابق للمقاومة في فلسطين وهو الاستمرار في استراتيجية الجهاد، فإن السيناريو المتوقع لمحاولة تصفية المقاومة يتمحور حول النقاط التالية:

١ ـ إنهاء الانتفاضة ورموزها.

٢ ـ القضاء على النشاط الإسلامي وتجفيف منابعه.

٣ ـ شن حرب شرسة على الأخلاق، وترتبط بها سياسة التجويع والتجهيل.

٤ ـ إنهاء أي صورة من صور المعارضة لمشاريع السلام ومحاولة ضرب الإسلاميين بشتى الوسائل.

لقد نصت الملاحق السرية لاتفاقية أوسلو على محاربة الإسلام والنشاط الإسلامي، وبذلت السلطة في ذلك جهودا كبيرة شملت تصفية رموز الإسلاميين ومطاردتهم خصوصا أصحاب الجناح العسكري، كما شملت تشديد الخناق والاعتقالات والتعذيب، ومن جهة أخرى عملت السلطة على إقفال الجمعيات والمؤسسات الإسلامية على الساحة، وإبعاد الخطباء النشطين، حتى إن الخطيب لا يسمح له بالقيام بخطبتي جمعة متتاليتين، لقد بدأت السلطة باكراً بهـٰذه السياسة، ومن المفارقات أن يكون من أولويات السلطة إنشاء المعتقلات والسجون والتشديد الأمني قبل أن تبدأ بأي شيء من البنى التحتية التي يفتقدها الناس.

ولهـٰذا وبمجرد استلام رجال المنظمة للسلطة تم استيراد بعض فرق الباليه من روسيا، فضلاً عن استقدام الفنانات؛ بينما أهملت البنية التحتية: الكهرباء، والماء.

كما قامت السلطة بعمل ترميم وبناء لدور السينما التي دمرت خلال الانتفاضة، فبدأت سينما النصر في غزة تعمل بعد ترميمها، وفي إطار إنجازاتها قامت السلطة

بتشييد الكازينوهات مثل : كازينو زهرة المدائن ، وكازينو النورس وعددها في ازدياد ، وقد كان لـ «سها الطويل» زوجة عرفات دور أساسي في إنشاء هٰذه الكازينوهات ورعايتها ، كما تقوم قوات الشرطة الفلسطينية بحراسة هٰذه الكازينوهات ؛ ويكفي أن نذكِّر بأحد منجزات السلطة وهو مشروع الكازينو الضخم في أريحا ويحوي صالة من أكبر صالات القمار في العالم ، وعُملت له دعاية ضخمة ، واستُقدمت إحدىٰ الممثلات الأمريكيات لافتتاحه ، وهكذا وكأن الشعب الفلسطيني لا ينقصه إلا مشاهدة الأفلام والكازينوهات ؛ وهٰذا شيء بسيط من إفرازات «أوسلو» أو الاتفاقات اليهودية الفلسطينية .

وكلنا يذكر بعض ملامح هٰذه الحرب علىٰ المقاومة التي كانت من جهودها إحباط ما لا يقل عن ٨٠ هجومًا ضد أهداف إسرائيلية في عام ١٩٩٥م فقط ، وسوف تستمر هٰذه الحرب علىٰ المقاومة للتغطية علىٰ هدف آخر وهو خيبة الأمل في نتائج الاستراتيجية التي يتبناها دعاة السلام ، والعجيب أن دعاة السلام يتحولون إلىٰ حمائم سلام في مواجهة اليهود وصقور حرب في مواجهة بني جلدتهم من المقاومين ، علىٰ الرغم من أن المتفاوض الفلسطيني لم يجن شيئًا حتىٰ الآن ، ويتوقع ألا يجني شيئًا ذا بال ، فما زال العدو يماطل فيما وعد به ، وفي الوقت نفسه يضرب بيد من حديد إخواننا في الأرض المحتلة ، ويسوم الناشطين في مقاومته سوء العذاب ، ولا يمر يوم إلا وقد قام بقتل عدد من رجال المقاومة الإسلامية الرافضين لتطبيع العلاقات معه .

كما تناسىٰ العملية السلمية فلسطينيو المهجر ، أما قوات الأمن الفلسطينية التي أعدت لتقوم بالأمن وضرب كل معارض لتوجه (السلام) فستقوم بالدور الصهيوني نفسه وسيكون ضحيتها أبناء فلسطين فهل هٰذا في مصلحة هٰذا الشعب ، أما أنها ستأتي بالمزيد من المعاناة والمزيد من الشقاق والمزيد من المواقف المؤدية إلىٰ ردود الأفعال الشديدة . . ؟! والمستفيد الأول هو العدوّ نفسه ، ناهيك عن ظهور الميول الخفية للعلاقات مع اليهود بشكل سافر ، حتىٰ أن بعض الدول العربية تستعجل

تطبيع العلاقات الاقتصادية مع العدو والتبادل التجاري معه بأقصىٰ ما يمكن، وصار للعدو الصهيوني أدوار أكثر فاعلية في العمل الاستخباراتي، وصار جواسيسه يصولون ويجولون في بعض الدول العربية، وذلك بدعوىٰ أنهم وفود شعبية أو ثقافية أو حتىٰ ادعاء (أنهم وفود يهودية لا صهيونية)!!

وعلىٰ هـٰذا سيسعىٰ دعاة السلام إلىٰ حصار المقاومة من خلال ثلاثة محاور:

الأول: محور تصفية البنية العسكرية (كتائب القسام).

الثاني: محور التفكيك السياسي.

الثالث: محور إرباك حماس في الخارج.

ويشمل ذلك:

١ - تكثيف الجهد الاستخباراتي نحو اختراق التنظيم السرّي لكتائب القسام باستخدام وسائل جديدة.

٢ - التصفية الجسدية لعدد من قادة (التنظيم) وعلىٰ فترات متباعدة (وبلا تردد) فضلاً عما يجره ذلك من علميات انتقام، فلا بد من هدم المعنويات وتحطيم البنية النفسية التي تخطط وتعمل علىٰ تنفيذ العمليات.

٣ - رصد ومراقبة أساليب العمل والتنقل والتجنيد والاتصال وتبادل المعلومات بشأنها مع أجهزة الأمن في الدول المحيطة.

٤ - الضغط علىٰ وسائل الإعلام الفلسطينية وغيرها من أجل عدم تغطية الأعمال الإرهابية، بحيث لا تمجد منفذيها.

٥ - ضرب العمل المسلح لحماس يكمن في التصفية الشاملة له علىٰ المدىٰ البعيد، ولا شيء غير ذلك، فالتحجيم لهـٰذا العمل مع السماح له بالبقاء ولو في أطر محدودة لا يكفي لقطع الطريق علىٰ المشروع البديل لدىٰ المنتمين لحماس، كما أنه بات لا يقنع الإسرائيليين.

وكلنا يذكر بعض ممارسات السلطة في هـٰذا المجال ومنها:

١ ـ حظر نشاط الأجنحة العسكرية للفصائل الفلسطينية تحت شعار (تأمين الاستقرار والأمن).

٢ ـ شن نوع من الحرب الاجتماعية على الحركات الإسلامية شملت مداهمةً وإغلاقا وتفتيشا للمؤسسات الشعبية والتعليمية والصحية ذات الطابع الإسلامي، خصوصا دور القرآن، والمساجد، ولجان الزكاة والصدقات، والجامعات، وبعض الجمعيات. . . باعتبارها مراكز خيرية تغذي البنية التحتية للحركة. فهناك ما يزيد عن (٧٥٠) مسجداً في الضفة الغربية، إضافة إلى حوالي (٤٠٠) في قطاع غزة.

٣ ـ اتجاه آخر للحرب ضد الحركة الإسلامية يتمثَّل في محاولة السلطة إبراز جو من التناقض داخل هذه الحركة، وجَرَت محاولات لإظهار أشكال من الخلافات بين شخصيات (حماس) وتأكيد حدوث انشقاق داخلها (انسحاب شخصيات بارزة فيها لتشكل أحزابا بديلة) ومحاولة الالتفاف على قيادتها واستمالة مقربين ومحسوبين عليها، والادعاء بأنها مشاركة باطلة وإبراز ما يسمى بالداخل والخارج أو على صعيد القيادتين العسكرية والسياسية داخل حماس.

إننا نجد التبريرات التي سيقت من أجل الاستسلام لعملية السلام متهافتة وتشم منها رائحة التسليم لأعداء الأمة، والواقعية التي يريدون تسويقها إنما هي ثمار طبيعية لممارسات سياسية استمرت لعقود طويلة تتخذ من القضية الفلسطينية مبرراً لقمع الإصلاح الداخلي وتبديد الثروات الوطنية والتبرير لاستمرار التخلف والانفلات والاستبداد، وبالتالي لا يمكن تجاهل المبررات المنطقية التي يسوقها من يعارض عملية السلام خاصة من أصحاب النظرة الإسلامية والتي يمكن أن نذكر منها:

١ ـ خيانة القضية باعتبارها قضية دين أو عقيدة؛ لأن الاعتراف للعدو بحق الوجود على أرض فلسطين لا يمكن أن يقابله أي شيء، فكيف إذا كانت بنود السلام مجحفة وفيها ظلم واضح؟!

٢ ـ أن الطبيعة اليهودية من الوحي ومن التاريخ ومن الواقع تثبت أنها لا يمكن أن تلتزم بالمواثيق والعهود.

٣ ـ من أهم الأفكار التي تقوم عليها عمليات السلام، الوقوف في وجه الأصولية الإسلامية ومحاربتها والتضييق عليها، باسم معارضتهم لأفكار السلام!

٤ ـ خطورة الأمور التي ستحدث مستقبلاً، كعمليات التطبيع التي سينتج عنها اختراق كبير لمجتمعاتنا العربية والإسلامية في النواحي الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها.

٥ ـ أن تجارب الحروب والمواجهات السابقة لم تكن إلا من قيادات القومية العربية، وكان طبيعيا أن تفشل، أما حركات الجهاد الفعلي فإنها قادرة على تحقيق نتائج لولا إعاقات وخيانات البعض.

٦ ـ بقاء القضية معلقة الآن، أفضل من أن تحل بمثل هـٰذه الحلول التي ستدفع ثمنها الأجيال القادمة.

تلك بعض المبررات وليس كلها التي يطرحها المعارضون لفكرة السلام مع اليهود.



(٥)
مقدساتنا المسلوبة.. وأوضاعنا المقلوبة

ثلاثة أحداث أثارت جدلاً واسعًا ولها علاقة بذكرىٰ نكبة فلسطين، تلك الذكرىٰ المريرة التي تحولت لدىٰ بعض «المعتدلين العرب» إلىٰ ذكرىٰ قيام دولة «إسرائيل» المتحضرة!!

الحدث الأول: هو محاولة المتطرفين اليهود اقتحام المسجد الأقصىٰ للعمل علىٰ إقامة الهيكل، بعد أن اطمأنوا إلىٰ التخاذل العربي الرسمي، ولم تعد تقف أمامهم إلَّا الشعوب العربية.

والحدث الثاني: هو الجدل الواسع الذي رافق إطلاق فيلم المخرج الأمريكي «ريدلي سكوت» وهو بعنوان (**Kingdom of Heaven**) حيث امتد الجدل إلىٰ وسائل الإعلام والصحف الأمريكية والعديد من مواقع شبكة الإنترنت، باعتبار أن الفيلم يتحدث عن فترة الحروب الصليبية ويعرض مشاهد عن كيفية تحرير صلاح الدين الأيوبي للقدس من أيدي الصليبيين، وخصوصا أن موعد عرض الفيلم جاء ليس بعيدا من أحداث ١١ سبتمبر وما فيها من مشاحنات بين الشرق والغرب، وكذلك قربه من ذكرىٰ احتلال العراق وقبلها أفغانستان.

من جهتها وصفت صحيفة «تلغراف» البريطانية بأن الفيلم رواية للتاريخ وكاتب الرواية هو أسامة بن لادن في إشارتها إلىٰ إظهار الفيلم همجية الصليبيين وتسامح المسلمين، فيما اعتبر مجلس العلاقات الأمريكية ـ الإسلامية «كير» أن الفيلم متوازن، ومن المتوقع أن يثير الفيلم جدلاً واسعا في الفترات المقبلة، وخصوصا في المنطقة العربية والتي أساسا لا تحتاج إلىٰ مزيد من الاستفزاز في ظل الأوضاع القائمة، والخوف من إعطاء الفيلم المزيد من المبررات لدىٰ المسلمين لزيادة كراهيتهم للولايات المتحدة والغرب بشكل عام.

أما الحدث الثالث: في تفاصيله لعله أخطر من الحدث الثاني وله صلة مباشرة بموضوعنا، فقد كتب الصحفي الأمريكي «بنيامين شفارتس» مقالاً في مجلة «أتلانتك» الأمريكية والتي تصدر في بوسطن عدد شهر مايو ٢٠٠٥م بعنوان غاية في الإثارة: «هل ستبقىٰ إسرائيل بعد مائة عام؟» وأثارت هـٰذه المقالة الأوساط السياسية والصحفية في الدولة العبرية، واعتبرت بمثابة صدمة لهم وتأتي هـٰذه الصدمة لعدة أسباب:

أولاً: أن كاتبها أمريكي وليس عربيًا وهو من كبار محرري مجلة «أتلانتك» بالإضافة إلىٰ عمله كباحث في معهد «راند للأبحاث».

وثانيًا: أن المقالة نشرت في صحيفة أمريكية، ومجرد إثارة مثل هـٰذه التساؤلات يعني التشكيك في قدرة إسرائيل علىٰ البقاء لمدة مائة عام.

من ضمن ردود الأفعال علىٰ المقال ما كتبه الصحفي الإسرائيلي «أريك بند» في مجلة معاريف قائلاً: «إذا تحققت نبوءة الصحفي الأمريكي «بنيامين شفارتس» أحد كبار محرري مجلة «أتلانتك» الأمريكية المعتبرة التي تصدر في بوسطن، فهـٰذا يعني أن حزم الحقائب لن يقتصر علىٰ غوش قطيف وشمالي السامرة.. بإمكاننا جميعا أن نبدأ في حزم أمتعتنا».

وقد علق من الطرف العربي علىٰ المقال الكاتب ماجد الكيالي فقال: «لو تمعنا في الوضع فسرعان ما سنجد أن إسرائيل هـٰذه برغم جبروتها وصلفها، وبرغم اعتداءاتها واحتلالها دولة هشة لا تقوم علىٰ مرتكزات ثابتة، ولذلك فهي سريعة العطب... باختصار ثمة تناقضات مستحكمة في إسرائيل من نوع التناقض بين العلمانيين والمتدينين والشرقيين والغربيين، والعرب واليهود.. وبين اليهودية والإسرائيلية كهوية، وبين أنصار التسوية ومعارضيها، بالإضافة إلىٰ قيامها علىٰ اعتبار أنها دولة استيطانية احتلالية قامت بوسائل القوة والقهر، وعلىٰ أساس ادعاءات دينية أسطورية».

في ظل هـٰذه الأجواء الإعلامية تأتي هـٰذه السنة ذكرىٰ النكبة واحتلال دولة

فلسطين وانتزاعها من الجسد العربي بما فيها من مقدسات إسلامية وتاريخ وحضارة وآثار شاهدة على شعبها الذي لا يزال يعاني التشرد منذ أكثر من نصف قرن من الزمان، قامت في تلك الفترة دول وسقطت دول واحتلت دول، وحررت دول، وبقيت فلسطين هي الجرح النازف الذي لم يجد بعد طبيبه المداوي.

● أوضاعنا المقلوبة:

في تمام الساعة الرابعة من بعد ظهر ١٤/ ٥/ ١٩٤٨م أعلن «ديفيد بن جوريون» قيام دولة إسرائيل وبعد ١١ دقيقة من هٰذا الإعلان، قام الرئيس الأمريكي «ترومان» بإعلان اعتراف أمريكا بقيام دولة إسرائيل، ومنذ هٰذه اللحظة والدول العربية تعزف «سيمفونيات التخبط» في التعامل مع هٰذا الحلف الأمريكي ـ الإسرائيلي، ولم يفهم العرب البعد التاريخي ـ الديني في علاقة هٰذا الحلف الآثم، وخاضوا عدة حروب مخزية كانت نتيجتها ضياع المزيد من الأراضي، وإمداداً حقيقياً «لأكسجين البقاء» للدولة العبرية التي وجدت في التخلف والفوضى العربية وسيلة مناسبة لتثبيت نفسها في المنطقة، وهكذا وطوال نصف قرن تحولت فلسطين إلى حقل تجارب للأنظمة العربية المتعاقبة على ظهور الدبابات والتي كلما جاءت أمة لعنت أختها، وخاصة في ربع القرن الأول الذي تلا الاحتلال.

أما ربع القرن الثاني وبعد حرب ١٩٧٣م لم يشهد أي حرب لا حقيقية ولا حرب تحريك أو رفع عتب أمام الشعوب العربية، وبدأت سياسة تدجين وتهجين الشعوب العربية على القبول بالأمر الواقع.. ونستطيع بكل وضوح أن نميز ثلاث مراحل فكرية في تاريخ الصراع مع اليهود، تتالت خلف بعضها البعض، وكانت نتيجة كل مرحلة تسلم للمرحلة التي تليها:

المرحلة الأولى: امتدت تلك المرحلة منذ عام ١٩٤٨م حيث سقطت فلسطين في يد اليهود وحتى يوم ١٩/ ١١/ ١٩٧٧م حيث قام السادات بزيارته الصدمة لإسرائيل، وهٰذه المرحلة لها ذيولها لما قبل عام ١٩٤٨م حيث مقاومة الاستعمار البريطاني واليهودي في فلسطين، وشهدت عدة ثورات كثورة المجاهد عز الدين

القسام، وعبد القادر الحسيني وغيرهما، كما تمتد هـٰذه المرحلة إلىٰ عام ١٩٧٣ حيث كانت نهاية الحروب الرسمية بين الكيان اليهودي والدول العربية.

هـٰذه المرحلة الأولىٰ تمحورت أدبياتها حول ضرورة «رمي إسرائيل في البحر» وكان المد القومي الناصري هو المسيطر والطاغي، بعد أن تم استبعاد القوىٰ الإسلامية من خلال التصفية أو التهميش، وقادت فيها الدول العربية عدة حروب مع اليهود، وكانت الحرب هي الاستراتيجية المتبناة لتحقيق هدف التحرير، سواء من خلال الأنظمة الرسمية العربية حتىٰ عام ١٩٦٧ أو فتح المجال أمام المقاومة الشعبية والمنظمات الفدائية بعد النكسة التي اعتبرت طبعة منقحة ثانية من النكبة خصوصا مع ما رافقها من ضياع القدس وسيناء والجولان، وتأكيد الاستيطان اليهودي علىٰ أرض فلسطين.

ولسنا هنا بصدد استعراض الأحداث التاريخية في تلك الفترة، ولكننا من جهة أخرىٰ نستطيع بوضوح أن نتلمس أسباب الفشل في تحرير فلسطين والعجز عن القضاء علىٰ دولة الاستيطان، ومنها التخلف العربي الناشئ عن فترات طويلة من الاحتلال، والخلافات العربية الحاضرة والدائمة بين الدول الأعضاء، والتلاعب بالقضية الفلسطينية واتخاذها غرضا للاستبداد والقمع الداخلي، وجمود التنمية وتراجع الأداء الاقتصادي بشعار «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة»، مع ضرب القوىٰ الإسلامية التي أثبتت خطورتها علىٰ العدو الصهيوني في حرب ١٩٤٨، والتي عادت في العقد الأخير من القرن الماضي لتشاغل اليهود فوق أرض فلسطين، بالإضافة إلىٰ أسباب موضوعية أخرىٰ كانت سائدة في تلك الفترة، مثل التحالف اليهودي الأمريكي القوي، وتلقي الدعم الدولي من خلال اعتراف الدول الكبرىٰ بدولة الاغتصاب والاحتلال، وارتكاب مجرمي اليهود لعدد من الجرائم والمجازر بحق الشعب الفلسطيني بهدف تهجيره وتفريقه من أرضه، لتحقيق أكذوبة «شعب بلا أرض لأرض بلا شعب».

ونود أن نؤكد هنا علىٰ أن العيب لم يكن في منهج المقاومة كأسلوب للتحرير؛

لأنه المنهج المعتمد على مسار التاريخ، وكل شعوب الأرض قاومت محتليها حتى طردتهم، ولكن العيب كان في إدارة المعركة والنوايا التي تقف خلفها وإيثار المصالح الشخصية وضمان الاستبداد المطلق على مصالح الأمة وحقوقها.

المرحلة الثانية: مثلت نهاية حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣م وحتى زيارة السادات لإسرائيل عام ١٩٧٧م مرحلة تحول نحو المرحلة الفكرية الثانية والتي تم تأكيدها بخروج «عرفات» ومنظمة التحرير الفلسطينية من بيروت، حيث امتدت تلك المرحلة حتى عام ١٩٩٠م عندما غزا صدام حسين الكويت، وتم تتويج تلك المرحلة باتفاقات أوسلو في ١٣/ ٩/ ١٩٩٣م.

في تلك المرحلة بدأت معزوفات السلام تنطلق من قاعة اجتماعات القمم العربية والتي بدأت في فاس بالمغرب عام ١٩٨٣م، حيث تضمنت القمة لأول مرة مشروعًا للتسوية السلمية فيه اعتراف ضمني بحق إسرائيل في الأراضي التي احتلتها في ١٩٤٨م وحق جميع دول المنطقة في العيش بسلام، وهو نفس العام الذي شهد مجزرة «صبرا وشاتيلا» المروعة والتي كان شعار شارون فيها «بدون عواطف»!!

تلك المرحلة اتصفت بالدعوات الخجولة إلى الواقعية، والاكتفاء بالأراضي التي ضاعت من العرب عام ١٩٦٧م وعدم المطالبة بالأراضي التي احتلت عام ١٩٤٨م، وهذه المرحلة كانت إفرازًا طبيعيًا للمرحلة السابقة، حيث فشل العرب في تحرير فلسطين، وأضاعوا مقدرات شعوبهم في مغامرات حربية بليدة، لم يكونوا مهيئين لها، وتعاملوا معها بأسلوب «العنتريات» والشعارات الفارغة الجوفاء، وربما لرفع العتب واللوم أمام شعوبهم التي تغلي بالأمس واليوم والغد.

ومن ملامح هذه المرحلة جنوح منظمة التحرير لفكرة التسوية والمطالبة بدولتين، وظهرت فكرة «غزة ـ أريحا» أولاً وتم إعلان الدولة الفلسطينية الخيالية في ١٤/ ١١/ ١٩٨٨م بالمجلس الوطني الفلسطيني على أساس قرارات الأمم المتحدة ٢٤٢ و١٨١ وكانت تلك المرحلة الفكرية مستفزة للشعوب العربية والمسلمة التي ردت على هذا التراجع المخزي من خلال انطلاق الانتفاضة الأولى في

٨/ ١٢/ ١٩٨٧م وبروز فكرة المقاطعة والتخوين لكل المنادين بالتسوية مع اليهود، وقد انتهت تلك المرحلة الفكرية بتهور صدام حسين وغزوه لجارته الكويت التي كانت تحتضن ما يقارب نصف مليون فلسطيني يمدون أهلهم في الداخل بأسباب الصمود والبقاء، ناهيك عن انطلاقات المنظمات الفلسطينية القومية والإسلامية من أرض الكويت مثل فتح، وحماس.

المرحلة الفكرية الثالثة: تلك المرحلة موجودة منذ زمن طويل في العقل العربي الباطن، وإن كان التعبير عنها يتم على استحياء، حتى إذا ما غزا «صدام حسين» الكويت حدثت تحولات فكرية خطيرة على المستوى العربي، وضاعت بوصلة التوجيه والتفكير، وأصبح الصراع عربيًا ـ عربيًا، وتفجرت فتن ومذاهب فكرية لا زالت آثارها باقية حتى الآن، وتظهر في ثنايا المقالات وعلى شاشات الفضائيات.

وقد تأخر تبلور هـٰذه المرحلة الثالثة، حيث غطت إثارة حرب الخليج الثانية وتحرير الكويت والحصار على العراق والتجاذبات العربية، وانفراد الأردن بمعاهدة وادي عربة، ودخول عرفات إلى غزة في ٥/ ٧/ ١٩٩٤م ثم اتفاقية «واي بلانتيشن» على تبلور المرحلة الفكرية الثالثة، ولم تتضح ملامحها إلا في السنوات الخمس الأخيرة، وبدأت تتسارع بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وأصبحت أكثر وضوحا وصراحة بعد سقوط أفغانستان والعراق بيد الأمريكان.

وإذا كانت المرحلة الفكرية الأولى قد شهدت مدا ثوريا مدعوما بأدبيات النضال والكفاح والتحرير، والمرحلة الفكرية الثانية كانت تحاول أن تتأقلم مع التجارب المريرة للاستراتيجيات الخاطئة للمرحلة الأولى، فإن المرحلة الثالثة جاءت أكثر خزيًا واستسلامًا؛ حيث لم تعبر هـٰذه المرحلة التي نعيشها عن حالات التراجع والعجز العربي فقط، بل جاءت لتجعل هـٰذا العجز هو الأصل في الموضوع، والاستسلام للعدو هو الواقعية التي يجب أن يتحلى بها الجميع، وأصبحت أوضاعنا مع دخولنا هـٰذه المرحلة الفكرية الساقطة مقلوبة تمامًا، ونلاحظ استفزازا ما بعده استفزاز من

سدنة ومنظري هـٰذه المرحلة الفكرية والذين تحسبهم أحيانًا أنهم جاؤوا مع جيوش المحتل وليسوا من أبناء جلدتنا .

فبعد أن كان النضال والبطولة والكفاح أعمالاً فدائية ينال صاحبها الاحترام والتقدير، أصبح الآن مرفوضا ومطاردا ومحاصرا لكي لا يعطل مسيرة السلام التي ستأتي بالحقوق العربية التي تأخرت أكثر من نصف قرن .

وبعد أن كانت العمليات الاستشهادية رمزا للبطولة والتضحية وتعويضا عن الفشل الرسمي العربي في مواجهة العدو في ميادين النزال والوغىٰ، أصبحت هـٰذه العمليات إرهابية مرفوضة ومطلوبًا القبض علىٰ منفذيها مع تهديم بيوتهم وتشريد عوائلهم، ووضع الجماعات والحركات التي تدفع بهم علىٰ لوائح الإرهاب .

وبعد أن كانت اللغة السائدة في الصحافة هي الهجوم المستمر علىٰ أمريكا بسبب انحيازها الواضح لإسرائيل ودعمها بأسباب البقاء والتجبر، أصبحت الآن اللغة السائدة هي لغة التسبيح بمباهج الحضارة الأمريكية، والهجوم علىٰ مناهج البلاد الإسلامية والتقرب إلىٰ هـٰذه القوىٰ العظمىٰ ـ والله أقوىٰ وأعظم ـ من خلال التنازل عن الخصوصيات العربية والإسلامية في سبيل النجاة من بطش القوىٰ العسكرية الأمريكية المرعبة، ولذا فلم يعد مستغربًا أن تبعث دولة عربية حجاجها لإسرائيل، ولا أن تستعين دولة أخرىٰ بالكوماندوز الإسرائيلي لقمع ثورة داخلية .

أصبح أمرًا طبيعيًا أن يتم تقبيل أرملة الهالك رابين عزاءً لها علىٰ فقده، وأصبح أمرا طبيعيا أن تدعىٰ إسرائيل إلىٰ مؤتمرات المياه والبيئة التي تعقد في المنطقة .

إن عرب هـٰذه المرحلة الفكرية لا يقلون خطورة وعداءً للأمة عن أعدائها، بل إن خطر هـٰؤلاء المنافقين الجدد أخطر علىٰ الأمة من أعدائها، وإن التاريخ ليحدثنا عما فعل المنافقون بدولة الإسلام أكثر مما فعل الأعداء، وإنا سنظل علىٰ عهدنا ووفائنا لكامل تراب فلسطين ومقدساتها، وسنبقىٰ ننتصر للأقصىٰ، ولن نستسلم لهـٰذه المرحلة الفكرية الدنسة حتىٰ تتغير الأوضاع، وتأتي مستجدات جديدة وظروف أخرىٰ، نستطيع من خلالها أن نحقق ما عجزت عنه القيادات المتاجرة بآلام الشعب

الفلسطيني وتاريخه ومقدساته، وإن المبشرات قادمة لا محالة، وساعتها ستختفي خفافيش الظلام وتجف أحبار أقلام الفتنة ويعود الأذان إلىٰ ربوع فلسطين وروابيها.

• مبشرات:

هـٰذا الكلام الذي قلناه عن مبشرات الخلاص من الاحتلال الصهيوني ليس بأضغاث أحلام، بل هو الحقيقة التي يدركها عقلاء إسرائيل، فهـٰذا «إبراهام بورغ» الرئيس السابق للكنيست الإسرائيلي وأحد زعماء حزب العمل كتب في جريدة «يديعوت أحرونوت» مقالاً في ٩/ ٤/ ٢٠٠٤م يقول فيه: «الدولة الإسرائيلية تقوم الآن علىٰ الفساد والقمع والظلم. وبناء عليه، نهاية المشروع الصهيوني وشيكة جدا، وهناك احتمال كبير بأن يكون جيلنا آخر أجيال الصهاينة.. قد تبقىٰ الدولة اليهودية قائمة لكنها ستكون من نوع مختلف، غريبة وقبيحة.. الدولة التي تفتقر إلىٰ العدالة لا تدوم. لا يمكن أن ينجح هـٰذا.. لا يمكن الاحتفاظ بكل شيء بدون دفع ثمن. لا يمكن أن نترك غالبية فلسطينية تحت الجزمة الإسرائيلية ونعتبر أنفسنا في الوقت عينه الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط. لا ديمقراطية بدون حقوق متساوية لكل من يعيشون هنا، العرب واليهود علىٰ حد سواء».

أما رئيس حركة «إسرائيل بيتنا» «أفيغدور ليبرمان» فيقول: «لقد حذرت قبل ثلاث سنوات من أن دولة إسرائيل تسير نحو الخراب، وأنه ليس مضمونًا بالمرة أن تبقىٰ قائمة بعد عشرين عامًا».

وقد سمع «شفارتس» الكاتب الأمريكي نفسه صاحب مقال: «هل ستبقىٰ إسرائيل مائة عام» من اليهود مقولة يكررونها دائمًا ويقولون: «لماذا لم نأخذ أوغندا؟»

وأدباء اليهود اليوم ومؤرخوهم يتمعنون في الحروب الصليبية وفي نهاية الاحتلال الصليبي للقدس ويتخوفون من نهاية مشابهة، وقد كتب الأديب اليهودي «ينسحاق شاليف» في روايته «جبارئيل تيروش» حيث عبر علىٰ لسان إحدىٰ شخصيات روايته عن مخاوف اليهود من كابوس نهاية الصليبيين قائلاً: «هل

سنصمد في هٰذا الشريط شرقي البحر المتوسط أم أننا سنكون بمثابة ظاهرة عابرة، مثلنا في ذلك مثل الصليبيين؟» .

بل إن كاتب مقال جريدة معاريف «أريك برومر» الذي علق على مقال «الكاتب الأمريكي شفارتس» يقول: آخر من سأل هٰذا السؤال كان معارض النظام السوفييتي أندريه أرميلاك الذي كتب في عام ١٩٦٩ كتابه: «هل سيبقى الاتحاد السوفييتي قائما حتى عام ١٩٨٤؟» التاريخ يشير إلى أن خطأه كان بفارق عدة سنوات فقط، بينما شفارتس «الكاتب الأمريكي يستند إلى محادثات مع جهات مختلفة في إسرائيل وبالأساس على التوقعات الديموغرافية» .

ويتوقع في عام ٢٠١٠م أن يتساوى عدد اليهود مع الفلسطينيين، أما بعد ١٥ سنة من الآن فمن المتوقع أن يصبح اليهود ٤٢ ٪ فقط من سكان فلسطين، وهٰذا ما دعا شارون إلى التعجيل ببناء الجدار العازل .

ونختم بعرض بعض الإحصائيات الخاصة بالكيان الصهيوني :

• يستدل من معطيات حول تعاطي المخدرات في الدولة العبرية والاتجار بها، أنه تم خلال العام المنصرم (٢٠٠٤) فتح أكثر من خمسة آلاف ملف تحقيق ضد شبان يهود لتعاطيهم المخدرات .

• قام الصهاينة خلال العام المنصرم ٢٠٠٤ بتحويل أكثر من ٨,٥ مليار دولار إلى الخارج في إشارة لانعدام الثقة في اقتصاد الكيان الصهيوني الذي شهد أزمات خانقة لم يشهد لها مثيلا منذ الإعلان عن إنشاء الكيان عام ١٩٤٨، أي بزيادة قرابة مليار دولار عن التحويلات في العام ٢٠٠٣ .

يشار في هٰذا الصدد إلى أن الاقتصاد الصهيوني يعاني من انتكاسة أدت إلى إفلاس المئات من المصانع والشركات، وطرد عشرات الآلاف من الموظفين، إضافة إلى تقليص عدد جنود قوات الاحتلال ووقف العديد من التطورات العسكرية بسبب الأزمة الاقتصادية الخانقة .

• أكدّ استطلاعٌ للرأي العام أنّ غالبية البريطانيين يعتبرون (إسرائيل) آخر دول العالم التي يرغبون في زيارتها أو قضاء إجازاتهم فيها، كما يعتبرونها أدنى الدول التي تستحق التقدير والاحترام.

• يُستدل من تقرير رسمي نشر في تل أبيب أن أكثر من ١٥٠ شركة تعمل في الدولة العبرية أعلنت إفلاسها خلال العامين الماضيين (٢٠٠٣، ٢٠٠٤م)، وذلك جراء الانكماش الاقتصادي وانعكاساته السلبية، والناجم أساسًا عن استمرار «انتفاضة الأقصى» الفلسطينية (أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٠م).

وعلل رجال الأعمال الصهاينة طلبات إعلان الإفلاس بالخسائر الجمة التي تكبدوها جراء التباطؤ والانكماش الاقتصادي، ومنهم من عزا ذلك إلى تكدس البضائع التي كانت معدة للتصدير وإلغاء الطلبات عليها من قبل تجار من خارج الدولة من جراء إضراب الموانئ قبل ثلاثة شهور.

• وبحسب ما نشر فإن نسبة الاستثمارات الخارجية في الكيان الصهيوني انخفضت بنسبة ٥٠ ٪ في شهر كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٠٤م، وبلغ حجم الاستثمار الأجنبي ٥٧٠ مليون دولار، علمًا أن الحجم الكلي للاستثمار الأجنبي في الكيان بلغ في العام ٢٠٠٤م قرابة ٦ مليارات و٨٠ مليون دولار.

يذكر في هـٰذا الصدد أن الاستثمارات الخارجية في الكيان شهدت انخفاضات مستمرة منذ اندلاع انتفاضة الأقصى أيلول ٢٠٠٠م، بسبب المواجهات المستمرة إلى الآن بين المقاومة الفلسطينية وجيش الاحتلال الصهيوني.

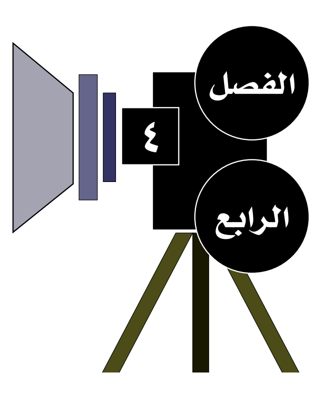


لا بد من فهم آليات الإصلاح

(١) الاضطراب في عالمنا العربي

(٢) دعوة لعولمة القيم الإسلامية

(٣) إصلاح الفساد قبل فساد الإصلاح



(١)

الاضطراب في عالمنا العربي

لم نجد أفضل من كلمة «الاضطراب» للتعبير عما يحدث في العالم العربي من توهان وضياع وتشرذم وتشتت، حتىٰ إن مخارج نطق الكلمة من اللسان تشعرك بهٰذا الارتباك والاهتزاز، الذي نشاهده جليا منذ مطلع القرن الحالي وحتىٰ هٰذه الأيام، وكأن جماهير عالمنا العربي تقف في محطة قطار تائهة، حائرة، لا تعرف لا الوجهة الَّتِي تريد أن تسلكها ولا القطار الذي يرحل بها إلىٰ تلك الجهة، فأصبحت ملطشة للمسافرين جميعهم ومحل سخريتهم، وكأنهم تائهون عن خارطة طريق الخروج من الأزمة.

ونحن إن تحدثنا عن مظاهر الاضطراب، فلن ينتهي بنا الحديث لتشعبه وكثرة دلائله، ولكننا اكتفينا بالإشارة إلىٰ مظاهر هٰذا الاضطراب من وحي الأحداث الأخيرة، وهي أكثر من كافية لإثبات هٰذا الاضطراب الذي أصاب أمة العرب بالشلل، حيث تنتظر من يرشدها إلىٰ سبيلها، وهي لا تزال واقفة في محطة القطارات.

● الاضطراب السياسي:

ليس أدل علىٰ هٰذا الاضطراب من الفشل في عقد مؤتمر القمة العربية في موعدها الذي كان مقرراً في تونس عام ٢٠٠٥م، والحقيقة: أنَّ محاسن عدم انعقاد القمة وضوح تناقض المصالح العربية بعد أن كانت تغطيها المجاملات والدبلوماسية المرنة لفترات طويلة، وبعد أن كانت جامعة الدول العربية تجتمع لتصدر قرارات غاية في الشدة والوضوح والمفاصلة تجاه عدد من القضايا العربية المصيرية، تحولت فيما بعد إلىٰ سياسة الحلول الوسط للتوفيق بين الآراء المطروحة وخاصة في المرحلة الأولىٰ من الحل السلمي والتخلي عن الخيار العسكري لحل القضية الفلسطينية.

ثم تحولت قرارات الجامعة في مرحلة جديدة من حياتها إلىٰ سياسة الترقيع،

وذلك ابتداءً من القمة الَّتِي تلت غزو العراق للكويت، ولو كانت الدول العربية قد اتخذت في ذلك الوقت موقفا حاسما وواضحا تجاه المعتدي، وأيدت المظلوم في الدفاع عن نفسه، لجنَّبت نفسها حالة الاحتضار الَّتِي تعيشها هـٰذه الأيام والتي جاءت نتيجة طبيعية لتشرذم الرأي العربي تجاه قضية واضحة المعالم مثل غزو عضو عربي لعضو آخر في الجامعة، فكل القمم الَّتِي عقدت بعد ذلك كانت قمماً توفيقية وقراراتها تخرج لإبراء الذمة واستكمال ديكور ما يسمىٰ بالعمل العربي المشترك الذي دخل في نفق مظلم، بسبب تضارب مصالح الدول الاعضاء بشكل حاد مع صعوبة إيجاد حلول وسط يتفق عليها الجميع.

ناهيك عن وجود قضايا ملتهبة تهدد أصلاً بقاء أو سقوط بعض أعضاء الجامعة العربية تحت الاحتلال الأمريكي الذي يضغط بملفات محاربة الإرهاب، وفرض الديمقراطية، وأخيراً مشروع الشرق الأوسط الكبير الذي تباينت مواقف الدول العربية تجاهه بشكل شديد، ناهيك عن وجود دول عربية مثل ليبيا الَّتِي انقلبت علىٰ ذاتها، وتحولت من جولة تناصر الهنود الحمر والجيش الايرلندي، إلىٰ دولة يستقبل رئيسها ملكة جمال بريطانيا ويتناقش معها في الشؤون الدولية!!

• ظاهرة عشق الذات:

ولا نستطيع أن ندلل علىٰ الاضطراب السياسي في المشهد العربي بأوضح من مبدأ «عشق الذات» والذي تمارسه معظم القيادات العربية في لعبة الصعود والهبوط علىٰ الكراسي، وكان آخرها ثنائية البشير والترابي، الَّتِي حولها البشير بتصريحه حول الترابي إلىٰ ما يشبه التراجيديا السينمائية المثيرة، عندما وصف صديقه وحليفه القديم بأنه «مخادع ومنافق وداعية لتحليل الخمر وفتح البارات. وكلنا قرأ تلك التصريحات في جريدة الحياة (عدد ١٤٩٨٢ ـ الصادر في ٤/ ٤/ ٢٠٠٤م) حيث اعتبر البشير أن الترابي «ظل عمره كله يغش ويخدع الناس ويدعو إلىٰ تطبيق الشريعة الإسلامية، لكنه لا يريد الشريعة؛ لأنه أحل الخمر وفتح البارات في الخرطوم، بعدما أغلقها الرئيس السابق جعفر نميري عام ١٩٨٣م». وأضاف البشير قائلاً:

«الترابي كان شيخنا وزعيمنا، لكنه خدعنا فتخلينا عنه . . . إنه رجل منافق وكذاب . . . ضد الدين، ويسعىٰ إلىٰ الفتنة ويحرض المسلمين علىٰ قتل بعضهم في دارفور».

ونحن هنا لسنا بصدد الدفاع عن الترابي، فهو صاحب عقلية حوارية وأطروحات فكرية بعضها لا يفهمها بعض المثقفين، وهٰذه القدرة لدىٰ الترابي هي الَّتِي مكنته من البروز كوجه إسلامي وقيادي في فترة اعتقال أبناء الحركة الإسلامية في مصر في سنين حكم الرئيس المصري جمال عبد الناصر، حيث كانت محاوراته وقدراته العقلية قادرة علىٰ إقناع الكثير من قيادات التنظيم الإسلامية علىٰ المستوىٰ العالمي؛ ولأن الترابي يحب أن يبقىٰ في الصورة وداخل البرواز فقد ساءه التحجيم الذي أصابه بعد خروج القيادات الإسلامية من السجون، مما جعله يقوم بتأسيس الجبهة الإسلامية في السودان ويبقىٰ في «القيادة».

وقاد بعد ذلك سلسلة من المواقف السياسية في السودان والتي انتهت بالانقلاب العسكري الذي جاء بثنائية البشير ـ الترابي إلىٰ الحكم، ودارت في تلك الفترة ـ حكم الصادق المهدي ـ همسات أن البشير ما هو إلىٰ واجهة تخفي خلفها حسن الترابي، والذي رغم اعتقاله في تلك الفترة مع باقي القيادات السياسية السودانية، إلَّا أنه كان يختفي من زنزانته ليالي طويلة، وبالطبع كان يحضر اجتماعات الثورة الجديدة، وفي تلك الفترة الَّتِي جاءت بالبشير علىٰ الحكم لم يكن الترابي مخادعا ولا منافقا ولا هو داعية لتحليل الخمر، بل كان الحليف المكين والسيد الأمين.

ولأن الترابي كما ذكرنا يحب أن يبقىٰ في الصورة بشكل يليق بصورة المنظِّر والمفكر، فإن أي أعمال لا تليق بالمنظِّر للحركة الإسلامية العالمية تلصق بالبشير مثل تسليم الإرهابي كارلوس وطرد أسامة بن لادن، والخضوع للضغوط الأمريكية، في حين أن البشير قد ذاق طعم وحلاوة الكرسي الأول، كان لا بد أن ينهي هٰذه الثنائية، تماما مثل ما انتهت في وقت مبكر ثنائية محمد نجيب ـ جمال عبد الناصر، وأحمد حسن البكر وصدام حسين، وغيرها من الثورات الَّتِي أكلت أبناءها، وهٰذا

يشهد على الاضطراب السياسي في المشهد العربي خصوصًا في حالة خصومة شركاء الحكم وحالات المصالحة المؤقتة والتحالفات المتغيرة بشكل مذهل، فحكومة البشير اعتبرت مثلاً توقيع حزب الترابي على مذكرة التفاهم مع «الحركة الشعبية لتحرير السودان» دعوة إلى إسقاط السلطة بالقوة وجريمة يجب ألا تمر، بينما توقيع حكومة السودان لنفس المعاهدة يعتبر في عرف البشير مكاسب سياسية للسودان والسودانيين، وبعد ما كان الترابي هو «شيخنا وزعيمنا» أصبح الترابي ـ ولأنه حاول أن يلعب نفس اللعبة الَّتِي جاءت بالبشير إلى الحكم ولكن هـٰذه المرة ضد البشير ـ أصبح «منافقًا ومخادعًا وكاذبًا وضد الدين».

ونحن لا نتحدث عن ثنائية البشير ـ الترابي كحالة شاذة في السياسة العربية، بل كآخر طبعة عربية في مجال الاضطراب السياسي الذي يعيشه العالم العربي، كما أننا سنكون غير صادقين على إظهار القيادات الإسلامية جميعها كحالة ملائكية مثالية غير قابلة للزلل والفشل وسوء الاختيار وخطأ الاجتهاد، وما يصيب الحركة الإسلامية أحيانا من محن وتراجعات لا يرجع بالضرورة فقط إلى العامل الخارجي ووجود المؤامرات ضد الحركة الإسلامية «ذات الجماهيرية العريضة والبرنامج الجذاب والمطلوب على المستوى الشعبي» بل إن وجود قيادات «ترابية» في الحركة الإسلامية في أكثر من موقع وبلد، أصاب الحركة الإسلامية إصابات بعضها كان مباشراً.

ناهيك عن مرض القطرية والإقليمية الذي أصاب الحركة الإسلامية وجعلها في كثير من الأحيان تنحاز إلى خيارات وطنية محلية لا تتفق بالضرورة مع الرؤية الإسلامية ومبادئ وقيم الحركة على المستوى العالمي، ولعلنا نستثني بشكل كبير الحركة الإسلامية في مصر كحركة تعب مؤسسوها في تأصيل القيم الأصيلة في نفوس أتباعها، فتجنبت كثيرا من المزالق، كما أنها صمدت أمام العديد من العواصف الَّتِي لو أصابت قيادات وحركات إسلامية أخرى لأصابتها بالشلل والفناء والتحلل، وكلنا يرى العديد من التيارات الَّتِي عابت ونقدت التيار الإسلامي

الوسطي، فبعضها مارس الجمود الفكري والانغلاق الفقهي وبعضها الآخر مارس العنف ولغة الدم، ثم انتهوا إلىٰ ما بدأت به الحركة الإسلامية الناضجة في مصر العزيزة.

وهٰذا يجرنا للحديث عما يعرف في أدبيات الإسلاميين بمصطلح «السياسة الشرعية» فنجد أن الكتابة في هٰذا الموضوع في الوقت المعاصر تكاد تكون معدومة، فمن أيام الماوردي لم يكتب شيء يمكن اعتباره إضافة حقيقية إلىٰ ذلك الموضوع الحيوي والمهم، بل إن معظم الكتابات حتىٰ في الدِّرَاسَات العليا كالماجستير والدكتوراه تكرار لما سبق وإعادة شرح لنصوص قديمة، ولم نجد اختراقا جديدا في الموضوع يعيد ترتيب الأفكار لزمننا المعاصر ويراعي ما يحدث فيه من تغيرات رهيبة، ونجد أن معظم هٰذه الرسائل تتحدث عن مذهب الصبر ومذهب السيف ودار الحرب ودار الإسلام، والإمامة عند أهل السنة والشيعة وغيرها من المواضيع المكررة ومما هو موجود في كتب وتصانيف السابقين، ونحن حيثما نُسقط هٰذه النصوص علىٰ واقعنا السياسي اليوم نجد الاضطراب في الحس السياسي الإسلامي، حتىٰ عند المفكرين منهم، ولذلك فنحن في حاجة ماسة إلىٰ كتابات مؤصلة في السياسة الشرعية لا تعتمد علىٰ كتب الفروع، بمقدار ما تعتمد علىٰ العودة إلىٰ كتب أصول الفقه والقواعد الفقهية والفهم الواعي المستنير للمستجدات السياسية المحلية والعالمية.

إننا نعيش اضطراباً سياسياً لا مجال لإنكاره، وأسلوب التعامل مع المشروع الأمريكي الأخيروهو مشروع الشرق الأوسط الكبير، الذي لم تنجح الولايات المتحدة في تسويقه، وخاصة أن واقعها في أفغانستان والعراق لا يشجع كثيرا، ولم تنجح أيضًا الدول العربية في استيعابه والتعامل معه ومع استحقاقاته، حيث إن بعض الدول قامت - أساسا - علىٰ مبدأ القمع واحتكار السلطة واعتقال المواطنين، وتضخيم المؤسسات الأمنية، وتقديم مبدأ الضمان الأمني وأمن السلطة علىٰ مبدأ التنمية والإنتاج والازدهار الاقتصادي، فهٰذه الدول بطبيعة تكوينها عاجزة عن

التحول إلىٰ الوجه الديمقراطي الذي يطيح بأوجه عديدة في السلطة خاصة ما يعرف بالحرس القديم الذي استمد مصالحه ومكاسبه من بقاء الوضع المتردي علىٰ ما هو عليه .

نقطة أخيرة نختم بها مظاهر الاضطراب السياسي ، وهي الانفصال الحادث بين الرؤية العربية الرسمية لأسلوب التعامل مع القضية الفلسطينية ، وبين الرؤية الشعبية للقواعد العربية ؛ فبينما الرؤية الرسمية تدعو للتعقل واستقراء الواقع الدولي والمتغيرات السياسية وموازين القوىٰ في المنطقة بروح مسؤولة ، وبحنكة سياسية تتجنب غوغائية الشعارات السياسية الَّتِي كان يرفعها الرئيس العراقي صدام حسين وما جلبته سياساته الرعناء من احتلال لبلده ، ومثل الزعيم الليبي الذي تحول في الفترة الأخيرة من النقيض إلىٰ النقيض ، وبين الرؤية الجماهيرية الشعبية للمواطن العربي الذي يعتقد أن الأنظمة العربية قد أصبحت خارج معادلة الصراع مع العدو وأن الشعوب العربية هي المعنية بهـٰذا الموضوع الآن ، وأن هـٰذه الأنظمة أصيبت بالعجز والعقم وهي خارج الحسابات الشعبية .

ولذا نجد السخرية واللامبالاة هي السائدة لدىٰ المواطن العربي تجاه إلغاء مؤتمر القمة العربية الأخير ، كما أن المواطن العربي أصبح شديد الثقة بأن هـٰذه الأنظمة أصبح لها مهنة وحيدة وهي الانبطاح ومواصلة الانبطاح للضغوط الأمريكية والتسليم بكل شيء في مقابل النجاة من مواجهة مصير كمصير الرئيس العراقي المخلوع والبقاء علىٰ السلطة ، لدرجة أن بعض الأنظمة لم تكتف بكشف برامجها النووية ، بل تعدت ذلك إلىٰ تهديد الأمن القومي لدول عربية أخرىٰ بكشف ما لديها من وثائق ومعلومات نووية لتلك الدول ! !

• الاضطراب الاقتصادي:

وفي هـٰذا المجال لن نتحدث عن سياسة التنمية الكسيحة في عالمنا العربي ، ولا عن حلم السوق العربية المشتركة الذي تحول إلىٰ كابوس ، بسبب طغيان النفس السياسي علىٰ كل تجمع عربي حتىٰ لو كان خاصا بهواية الطائرات الورقية ، ولن

نتحدث عن ميزانية التسليح الَّتِي تبلع كل شيء دون أن نرىٰ أية انتصارات عسكرية، ولا عن استئثار الأقلية بأموال الجماهير المحرومة، ولا عن تردي الصناعة ولا عن تخلفنا الزراعي ولا غيرها من أنواع الاضطرابات الاقتصادية الَّتِي تعيشها أمتنا «الكادحة» وحتىٰ لا نطيل يكفي أن نلقي نظرة علىٰ قائمة أغنياء العالم الَّتِي تصدرها مجلة فوربس بشكل سنوي، ونذكر أن مجموع ثروة أول عشرة مليارديرات عرب في القائمة تبلغ ١ , ٥٣ مليار دولار، وبحسبة بسيطة نجد أن مقدار الزكاة لهـٰؤلاء العشرة دون غيرهم، ودون آخرين خارج حسابات مجلة فوربس يبلغ أكثر من ألف وثلاثمائة مليون دولار، وهو مبلغ لو تم تحصيله من أموال الزكاة وتوزيعه علىٰ الفقراء والمستحقين فلربما أغلقت الجمعيات الخيرية وانتفت الحاجة إليها، ولتحولنا إلىٰ عهد عمر بن عبد العزيز حيث فاض مال الزكاة، واستغنىٰ الناس ولم يجدوا أحدا يستلم مال الزكاة.

• الاضطراب بين فقه سد الذرائع وفقه الضروريات:

من خصائص الشريعة الإسلامية المرونة والسعة من أجل أن يعيش الناس في إطار التيسير الرباني، قال تعالىٰ: ﴿**مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ**﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾[2]، ومن الآيات جاءت القاعدة الأصولية «لا تكليف إلا بمقدور» ومن المعروف أن الشريعة الإسلامية قائمة علىٰ أحكام مستقرة هي الأصل في التعامل اليومي للمسلمين وممارساتهم لحياتهم الخاصة والعامة، والسياسية منها والاجتماعية والاقتصادية، ومع وجود هـٰذه الأحكام العامة للمسلمين في يومياتهم كان هناك ما يسمىٰ «بفقه الضرورات» وهي أحكام قد يلجأ إليها الفقيه لرفع حرج عارض يقع في وقت محدد لشخص أو مجموعة معينة. وفي المقابل هناك طرف آخر لفقه الضروريات وهو «فقه سد الذرائع»، فقد تأتي مسألة لا يكون هناك حكمٌ نصيٌّ شرعيٌّ يمنع التعامل معها، سلبًا أو إيجابًا، ولكن لظروف

---

(١) المائدة: ٦.

(٢) التغابن: ١٦.

تقتضيها مصلحة معينة فيلجأ الفقيه إلىٰ المنع تبعاً لقاعدة «سد الذرائع».

فعلىٰ سبيل المثال من غير إطالة «حكم المشاركة السياسية للمرأة»، عند النظر نجد أن النصوص الشرعية لا تمنع هـٰذه المشاركة في كثير من صورها علىٰ الأقل، وهنا قد يأتي الفقيه ويمنع المشاركة لاعتبارات زمانية ومكانية وبيئية، فيكون من المناسب أن يستخدم فقه سد الذرائع في منع المرأة من المشاركة السياسية هـٰذا من طرف، أما الجانب المقابل فهو التوسع في الأحكام والترخص الذي قد يدخل الإنسان في الحرام ويمنع حصول التقوىٰ الَّتِي هي أصل في الأحكام الشرعية، فما من حكم في الشريعة إلا وتجد في نهايته ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ أو غيرها من الآيات في المعنىٰ نفسه.

ولكن من الاضطراب في التعامل مع الأحكام الشرعية نرىٰ أنه بدلاً من أن يكون فقه الضرورة عارضاً يصبح هو الأصل، فعلىٰ سبيل المثال في موضوع البيوع نقول: إنه مع كثرة المؤسسات الاقتصادية الَّتِي تسعىٰ إلىٰ الكسب الحلال من خلال الاستفادة من الصحوة العامة للمجتمع نجد هناك من يبحث عن الفتاوىٰ القائمة علىٰ المخارج الشرعية من أجل إضفاء صبغة البيع علىٰ الإقراض والاقتراض الربوي، ناهيك عن الأمور المتعلقة بالجشع والاستغلال لاحتياجات الناس وإدخالهم في دوامة الديون، وإرضائهم بفقه الحيل الشرعية، الذي سمي بعد ذلك في هـٰذه المسألة بفقه المخارج الشرعية، ولزيادة التوضيح سنتعرض لما يسمىٰ «بالتورق» الذي لم يسلم منه إلا القليل من الناس، فتحت ضغط الحياة الذي ألزمنا أنفسنا به، ضاعت تقسيمات الفقهاء؛ حيث كانوا يقسمون معاش الناس إلىٰ «حاجيات وتحسينات وضروريات»، ولكن مع التوسع في المباح وحب الدنيا وبهرجها، نقل الناس «الحاجيات والتحسينات إلىٰ الضروريات» فكانت كل حياتهم داخلة تحت الضرورة.

وأصبح المفتي الذي يفتي عن الرمزية الاجتماعية، يسهل للناس الأحكام تحت مسمىٰ «فقه الضرورة» ولخطورة مسألة الربا واضطراب الناس فيها، نذكر حديث البخاري، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ليأتين على الناس زمان**

لا يبالي المرء بما أخذ المال، من حلال أم من حرام»[١]، وفي رواية في مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**يأتي على الناس زمان يأكلون فيه الربا، فمن لم يأكله ناله منه غباره**»[٢]، وقد وجدنا أن بعض المؤسسات الاقتصادية الإسلامية استخدمت صيغة «التورق» مخرجاً للإقراض والاقتراض من الربا، وهنا يحسن أن نذكر القول الوسط في موضوع الحيل؛ لأن التورق داخل فيما يسمىٰ بفقه الحيل الذي فيه حلال وفيه حرام.

قال الإمام الشاطبي في الموافقات: «. . . الحيل الَّتِي تقدم إبطالها وذمها والنهي عنها، مما هدم أصلاً شرعياً، وناقض مصلحة شرعية، فإن فُرض أن الحيلة لا تهدم أصلاً شرعياً ولا تناقض مصلحة شهد الشرع باعتبارها فغير داخلة في النهي»[٣] انتهىٰ.

نعم فالتحايل علىٰ الأحكام الشرعية بقصد إرضاء النفس والتحايل لأكل الحرام وفعله، من الأمور الَّتِي حرمها الله تعالىٰ، فلا يجوز استخدامها بقصد إخراج الناس من الضيق وتوفير المال، ولهـٰذا قال ابن القيم: «من نوىٰ بالبيع عقد الربا حصل له ولا يعصمه من ذلك صورة البيع»، وقال ابن قدامة رحمه الله في المغني: «والحيل كلها محرمة غير جائزة في شيء من الدين، وهو أن يظهر عقداً مباحاً يريد به محرماً، مخادعة وتوسلاً إلىٰ فعل ما حرم الله واستباحة محظوراته أو إسقاط واجب»[٤].

تعريف التورّق وحكمه: هو شراء سلعة في حوزة البائع وملكه بثمن مؤجل، ثم يبيعها المشتري بنقد «كاش» لغير البائع للحصول علىٰ النقد.

وهـٰذا عند الفقهاء من بيوع المضطر، قال ابن القيم: عامة العينة إما تقع من رجل مضطر إلىٰ نفقة، يضن بها عليه الموسر بالقرض حتىٰ يربح عليه في المائة

(١) البخاري (٢٠٨٣).
(٢) أحمد (٢/ ٤٩٤).
(٣) الموافقات (٣/ ٢٨٥).
(٤) المغني (٤/ ٦٢).

ما أحب، وهـٰذا المضطر إن أعاد السلعة إلىٰ بائعها فهي العينة، وإن باعها لغيره فهو تورق، وإن رجعت إلىٰ ثالث يدخل بينهما فهو محلل الربا، والأقسام الثلاثة يعتمدها المرابون وأخفها التورق، وقد كرهه عمر بن عبد العزيز وقال: «هو آخية الربا»، ثم أكمل ابن القيم كلامه فقال: «وكان شيخنا ـ رحمه الله ـ «ابن تيمية» يمنع من مسألة التورق، ورُوجع فيها وأنا حاضر فلم يُرخص فيها، وقال: المعنىٰ الذي لأجله حرمت الربا موجود فيها بعينه، مع زيادة الكلفة بشراء السلعة وبيعها والخسارة فيها، فالشريعة لا تحرم الضرر الأدنىٰ وتبيح ما هو أعلىٰ منه» انتهىٰ[1].

ومن احتج بقول الإمام أحمد بأن في التورق «كراهة» فهو لم يكمل المسألة؛ فعن الإمام أحمد كما قال ابن القيم: «روايتا الحرمة والكراهة، والجواز مع الكراهة يكون للمضطر وليس لكل من رغب في المال لشراء ما تشتهيه نفسه أو يتوسع في تجارته، فهـٰذا ليس اضطرارا». كما أن ما تمت إجازته من قبل أعضاء مجلس الفقه الإسلامي لا ينطبق علىٰ الممارس اليوم عند البعض، فقد اشترط المجتمعون علىٰ اشتراط التملك والحيازة لبائع السلعة لمشتريها من البنك، ولكن عند النظر في التورق نرىٰ أن السلعة الَّتِي يتعامل بها البنك هي النقد الذي هو مفترض أن يكون مقياساً لتقويم السلع فيما بينها، كما يلاحظ أن الممارس في عملية التورق في المؤسسات الاقتصادية يقوم علىٰ تداول السلع شراءً وبيعاً وفق ما يعرف بسوق المعادن والبضائع الدولية «البورصة»؛ أي الاتجار في أوراق ومستندات الاستلام والتسليم للسلع المباعة، أي لا يوجد حيازة تملك ولا قبض للسلع المشتراة والمباعة، وإنما يتم التداول حسب وثائق يتم تبادلها ضمن آلية معينة تتولاها بيوت السمسرة، وهـٰذا يتم علىٰ أساس بيع العقود في أسواق عقود السلع، ولتوضيح الصورة نقول: محمد «يريد الحصول علىٰ المال من البنك، فيقوم البنك وفق اتفاق مسبق مع محمد بشراء نفط أو ألمنيوم من السوق العالمية «البورصة» بـ ١٠٠ د. ك نقداً «كاش» ثم يبيعها لمحمد بـ ١٢٠د. ك بالأجل، ثم يقوم ببيعها لصالح محمد نقداً «كاش» في

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ١٨٢).

الأسواق العالمية بـ ١٠٠ د.ك.

ومن النظر، نتبين أن التورّق مثال واضح للاضطراب في نوع من أنواع البيوع المتداولة في الأوساط الملتزمة!!

• الاضطراب الإعلامي:

يعكس الإعلام واقع المجتمع وكل أنواع الاضطرابات السياسية والاقتصادية الَّتِي يعاني منها، وقبل ذلك الاجتماعية بالدرجة الأولىٰ، ففي المجال السياسي نجد كيف تستغل الدول بعض القنوات ذات الطابع الإخباري في تصفية حساباتها مع الدول الشقيقة والصديقة من خلال التحريض عليها والتركيز الإعلامي علىٰ مثالبها وسيئاتها وسلبياتها وكشف عوراتها، واستخدام المال السياسي وأجهزة الأمن والاستخبارات في تحقيق الاختراقات للمؤسسات الإعلامية، وما فضيحة «كوبونات النفط» إلا حلقة في سلسلة تطول يعلمها الراسخون في علم القبض والدفع، ناهيك عن الاضطراب الواضح في ترتيب أولويات الإعلام العربي.

ففي الوقت الذي تدك فيه البلدان العربية والإسلامية بالصواريخ والمدافع نجد الإعلام العربي يصنع أكثر من عشر قنوات فضائية متخصصة في الغناء، وكأننا اكتسحنا العالم ولم يبق إلا أن نحتفل بهـٰذه القنوات وبهـٰذا الأسلوب الماجن، ناهيك عن سيطرة المعادلة التجارية السوقية، وتمجيد النماذج التافهة، بل وتعدىٰ الأمر إلىٰ الهجوم علىٰ عقيدة المسلمين وعدم التواني في طرح مواضيع لو طرحت علىٰ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لجمع جميع الصحابة لمناقشته، وخاصة فيما يتعلق بالعقيدة وهي مواضيع حساسة، اللبس فيها قد يؤدي إلىٰ تشويش الناس في عقائدهم.

ولعلنا هنا نأخذ أحدث مثال علىٰ الاضطراب الإعلامي، وما يسمىٰ بتلفزيون الواقع المرير، وما حدث حول برنامج «ستار أكاديمي» ففي حين يمكن رصد المتغيرات الاجتماعية في حياة الشعوب بالدول المتقدمة من خلال الاستبيانات العلمية الدقيقة وغير المنحازة وصناديق الانتخابات النظيفة، فإننا نجد أن رصد التغيرات الاجتماعية

من دول العالم الثالث من خلال التجمعات الَّتِي تحدث في الشوارع والمطارات، وكم أشعر بالحزن الشديد أنَّه في يوم وصول ما أسموه نجم ستار أكاديمي إلىٰ البلد وتم تجيير الصحافة حتىٰ بصفحاتها الأولىٰ لإبراز هـٰذا الإنجاز الكبير، أقول في اليوم الذي وجه الإعلام أنظار الجميع إلىٰ هـٰذا النوع من البطولات الزائفة، نجد خبراً ينشر علىٰ استحياء عن مخترع كويتي يدعىٰ أمير ياسين العلي فاز بميدالية ذهبية في مسابقة معرض جنيف الدولي الثاني والثلاثين للاختراعات؛ حيث استطاع اختراع جهاز شفط للحريق وتحويله إلىٰ طاقة تولد التدفئة والتبريد، وقد استلهم فكرة الاختراع من الكارثة النفطية الَّتِي حلت ببلده الكويت بعدما أشعل النظام العراقي السابق آبار النفط الكويتي عام ١٩٩١، فكانت مفارقة مؤلمة بين الاعتزاز بالبطولة المزيفة، وإهمال البطولة الحقيقية... فيا حسرة علىٰ العباد.

وأود أن أنوه في هـٰذا الموضوع بالطرح الرصين والمتزن والعقلاني للأقلام الإسلامية في الصحافة الكويتية، وهي تتناول موضوع «ستار أكاديمي» بكل اقتدار. وأنوه هنا بما كتبه النائب الفاضل وليد الطبطبائي في جريدة الوطن والأخ فيصل الزامل بمقاله في جريدة الأنباء تحت عنوان: «بعد أن مرت عاصفة ستار أكاديمي»، والأخ عصام الفليج في مقاله بجريدة الوطن تحت عنوان: «خدعوك فقالوا: ادعم ستار أكاديمي» فكانت مقالات تفيض بالحجج المنطقية والاستدلالات العقلية علىٰ خطورة ما يجري، وآثاره المدمرة علىٰ المدىٰ القريب والبعيد، خاصة في اختراق العقل العربي وتمرير الفاحشة وتزيين السقوط الأخلاقي تحت مسميات براقة وخادعة، فعلىٰ كل منا تحمل مسؤولياته تجاه أسرته وأبنائه خاصة المراهقين والمراهقات منهم.

وكم كنا نتمنىٰ أن تنقل لنا هـٰذه الفضائيات ثورة الغرب الجديدة في العودة إلىٰ العفة، حيث ظهرت في باريس حركة اجتماعية جديدة تضم آلاف الأعضاء تحت اسم «الحب الحقيقي يستطيع الانتظار» وهي حركة تلحق في أهدافها حركة موجودة أصلاً في الولايات المتحدة ويصل عدد أعضائها إلىٰ ربع مليون شاب وفتاة جميعهم

هدفهم واحد وهو الحفاظ على العفة.

كما كنا نتمنى أن تتبنى جهة إعلامية مهمة القيام بإنتاج فني مقارب لفكرة فيلم «آلام المسيح» تتحدث عن شخصيات تكاد تكون أسطورية في التاريخ الإسلامي كابن تيمية في الفقه، وابن خلدون في علم الاجتماع، وأسد بن الفرات في الجهاد، وغيرهم الكثير من الشخصيات الَّتِي تعتبر من الدرر الَّتِي يُنتظر من يكتشفها، ولكن أين هو الفارس في هذا الميدان والذي أعتقد أنه لن يخسر في المعادلة التجارية إذا أتقن صنعته، ونحن بالانتظار.



(٢)
دعوة لعولمة القيم الإسلامية

هٰذا الاضطراب الذي يشهده العالم، وهٰذا العنف المتوالد والمستمر، أحداث يجب أن تدفعنا للابتعاد عن دائرة التفاصيل اليومية للحدث، لنعود إلىٰ النظر في استراتيجية الصراع، وليس من الصواب الانغماس في الآليات والوسائل حتىٰ لا نعود نبصر الأهداف والغايات ومدىٰ تحققها أو تراجعها في دنيا البشر.

لقد كان العقد الأخير الذي عشناه فاصلاً بين المساحة المكانية والزمانية، والانشغال بِهَمِّ الدعوة المحلي والإقليمي وبين الأبواب المشرعة المفتوحة علىٰ الكوكب الأرضي، ومساحات الدعوة العالمية ومجالاتها الرحبة الَّتِي تنادي علىٰ أصحاب الدعوة ليقوموا بواجبهم الدعوي، وبعد أن كان الداعية قادراً علىٰ مخاطبة مجموعة في محاضرة أو جماعة في مسجد أو حتىٰ من خلال إذاعة محلية، أصبح المجال متاحاً للحديث إلىٰ جماهير يمكن أن تحمل صفة «العالمية»؛ حيث يستدعي هٰذا التحول تحولاً مقابلاً في أسلوب الخطاب ومضامينه وآلية تقديمه والتحول من لغة «التلقين» إلىٰ لغة «الحوار» ومن أسلوب «التكليف الشرعي» إلىٰ أسلوب «الإقناع الفكري» ممزوجاً بمهارات العرض والتقديم ومدعوما بمخزون معرفي وقيمي صالح للإبهار والإقناع لتقديم قيم الدين الإسلامي «الرأسية» العميقة إلىٰ مجتمعات لم تستطع إلا تحقيق النجاحات «الأفقية» السطحية.

إن توسيع نطاق الدعوة لا يشمل فقط التبشير بالإسلام بين أمم أخرىٰ جديدة كانت قبل سنوات قليلة خارج نطاق التغطية الدعوية، بل يشمل أيضًا الخروج من تقليدية الدعوة والحرص علىٰ نشر القيم الإسلامية العامة، كقيم يمكن أن تلقىٰ قبولاً لدىٰ الآخرين، لو أنها جردت من نفس الإرث الصدامي ما بين الحضارات السائدة والبائدة.

إن الإسلام كان واضح المعالم منذ أيام الدعوة الأولىٰ بأنه دين عالمي، وكانت لغة القرآن المكية ـ حيث فترة الاستضعاف ـ تؤكد علىٰ عالمية الإسلام وإنسانية الدين قال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(١)، وقال سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾(٢)، وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾(٣).

وقد أكد الرسول ﷺ علىٰ عالمية الدعوة ونظرته الاستراتيجية لامتداد الإسلام في حواره مع كفار قريش وهو يطلب منهم كلمة واحدة هي لا إلـه إلَّا الله، فقال لهم: «كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم»، وفي مطلع السنة السابعة للهجرة وهي فترة إقامة الدولة الإسلامية أرسل الرسول ﷺ كتبه إلىٰ ملوك وأمراء عصره يدعوهم إلىٰ الإسلام، وكان منهم «قيصر» ملك الروم «وكسرىٰ» ملك الفرس.

• ركيزة العولمة الإسلامية:

والركيزة الأساسية للدولة الإسلامية تكمن في إقامة مجتمع العدل والحق، فبالعدل قامت السموات والأرض، وهي غاية إرسال الرسل وإنزال الكتب قال الله ـ سبحانه وتعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(٤)، فهو دين عادل ينظم جميع جوانب الحياة، وله موازين غاية في الدقة والقسط، فهو عدل في الحكم، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾(٥)، وعدل في الشهادة: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾(٦)، وعدل في القول: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾(٧)، وحذر من الجور والمحاباة بسبب علاقة القرابة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

(١) الأنبياء: ١٠٧.
(٢) التكوير: ٢٧.
(٣) سبأ: ٢٨.
(٤) الحديد: ٢٥.
(٥) النساء: ٥٨.
(٦) الطلاق: ٢.
(٧) الأنعام: ١٥٢.

آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ﴾[(١)] ، بل وتعدىٰ إلىٰ تحريم الظلم بسبب العداوة ، قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ **وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى** ﴾[(٢)] .

وقد رأينا كيف عم العدل وانتشر في المدن الَّتِي دخلها الإِسلام . ويروىٰ في ذلك أن «كسرىٰ خسرو» الثاني اعتلىٰ كرسي الملك وفي خزانته (٦٨ , ٢) مليون مثقال ذهبي ارتفعت بعد ثلاثة عشر عاما من الحكم إلىٰ (٨٠٠) مليون مثقال ذهبي مما دفع الفلاحين إلىٰ هجر الأرض نتيجة الإرهاق الضريبي ، واللجوء إلىٰ المعابد طمعاً في الترهب وفرارا من الظلم ، فلما جاء الإِسلام أزاح كل المظالم لتحقيق العدل .

فالإِسلام جاء لتحقيق مصالح العباد في العاجل والآجل ودرء المفاسد والأضرار عنه في العاجل والآجل ، ومن أجل ذلك تبنىٰ همومهم وتصدىٰ لها بالعلاج الناجع والفطري المناسب لتعقيدات الحياة وتكوينات شؤونها ، وانظر كيف تبنىٰ سيدنا يوسف هموم الناس أمام محنة القحط والمجاعة المتوقعة فقال لعزيز مصر : ﴿ **اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾[(٣)] .

وفي الحديث العظيم المعنىٰ عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : «**لأن أمشي مع أخ في حاجة، أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد** (مسجد المدينة) **شهراً**»[(٤)] ، والحديث الآخر : «**الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، وكالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر**»[(٥)] .

---

(١) النساء : ١٣٥ .

(٢) المائدة : ٨ .

(٣) يوسف : ٥٥ .

(٤) أورده الطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ٤٥٣) برقم (١٣٦٤٦) ، وانظر : السلسلة الصحيحة للألباني (٦٠٩) .

(٥) البخاري (٦٠٠٧) ، ومسلم (٢٩٨٢) .

• مميزات المنهج الإسلامي:

والمنهج الإسلامي الذي ندعو لعولمة قيمه هو الذي تسعد به البشرية الَّتِي تعاني اليوم من خواء روحي يكاد ينزل بها إلىٰ الدركات السفلىٰ من الممارسات البهيمية وهي تحاول الانغماس في الملذات المادية هروبًا من القلق النفسي والجحيم الفكري، فقد حمل المنهج الإسلامي ميزانا دقيقاً للحقوق والواجبات، ويحرص علىٰ بناء مجتمع العدل والحق وينطلق في تصوراته من مبدأ المساواة بين البشر دون اعتبار للون أو عرق أو جاه أو جنس، كما يتخذ الشورىٰ أساسًا لنظام سياسي عادل، ويتم تربية الإنسان فيه علىٰ قيم الإبداع والإتقان من أجل مصلحة البشرية كافة.

وهٰذه الموازين هي الَّتِي جعلت الزعيم الديني البيزنطي في القسطنطينية «لوكاس ناتوراس» يقول: «إنه خير لنا أن نرىٰ العمامة في مدينتنا القسطنطينية من أن نرىٰ فيها تاج البابوية».

فأين هي عولمة الإسلام بقيمه الرفيعة من عولمة الاستبعاد الاستعماري والاضطهاد الجسدي والاستتباع الاقتصادي والإلغاء الحضاري.

إن الإسلام يقدم للناس قيمه الرفيعة معتمداً علىٰ أسس ثابتة وراسخة، تضمن للبشرية السعادة في اتباعها؛ لأنه منهج يتميز بخماسية عالمية قادرة علىٰ تحقيق مصالح العباد دون أن ينالها الاضطراب كالمناهج الأخرىٰ:

١ - ربانية التشريع:

وكون التشريع الذي جاء به المنهج الإسلامي من عند الله، فهو يضمن عصمته، وكمال خلوه من النقص والجهل والهوىٰ والظلم، وصيغت نصوصه التشريعية بأسلوب يخاطب العقل والقلب اختلط فيه التقنين عبر الترغيب والترهيب.

٢ - الشمولية:

مما يعطي البشرية دليلا متكاملا في مختلف مناحي الحياة، فهو يقدم تصوراً شاملا للحياة في كل مناحيها، فلا يمكن أن تتناقض مبادئ الاقتصاد في إسقاطاتها

الاجتماعية على البناء الاجتماعي المأمول، فالمنهج الإسلامي يسع حياة الإنسان من جميع أطرافها وحياة المجتمع الإسلامي بكل أبعاده، قال تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾[1]، فهو منهج واسع واف بمصالح العباد وهو مع هذه السعة في التشريع لا يتناقض في أحكامه وتوجيهاته، فالشريعة الإسلامية تحقق وحدة تامة وانسجامًا رائعًا بين كافة تفريعات الحياة مع توافق مدهش في الوجهتين الروحية والمادية في الحياة الإسلامية.

٣ـ العالمية:

فالخصائص الإنسانية لدى البشر واحدة على الرغم من اختلاف الألوان والأشكال والأجناس، ويمكن للناس أن يحققوا وحدة إنسانية ما دامت القيم العليا الَّتِي تحكمهم قادرة على الاستجابة لظروف الحياة في مختلف الأزمنة والأماكن.

٤ـ التوازن:

فالتوازن في المنهج الإسلامي واضح بين متطلبات المثالية وضغوط الواقعية، وبين ثبات المنهج الإسلامي ومرونة الأحكام التفصيلية، وبين حاجات الفرد المباشر ومصلحة الجماعة وبين مطالب الدنيا العاجلة وتكاليف الآخرة الآجلة.

٥ـ اليسر ورفع الحرج:

وهو مبدأ مهم وميزة أساسية في المنهج الإسلامي قال تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿**طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**﴾[3]، وقد بلغ من يسر الشريعة إلى درجة تخفيف الواجبات عند الحرج والسماح بتناول القدر الضروري من المحرمات عند الحاجة كونه دين رحمة ويسر.

---

(١) المائدة: ٣.

(٢) البقرة: ١٨٥.

(٣) طه: ١، ٢.

• المجتمع الإسلامي:

وبناء على هٰذه الخصائص يمكن أن نتصور الملامح الأساسية في المجتمع الإسلامي، وقد تختفي أو تتشوه بعض هٰذه الملامح لوجود اختراق علماني على مستوى الحكومات والشعوب، وأنفاس هٰذه الملامح نعيشها ونحسها في المجتمعات الإسلامية اليوم على الرغم من استبعاد الشريعة من مواقع كثيرة في الحياة.

أولاً: التوازن الذي يرفض الانحراف أو السكون، بحيث يتحقق في المجتمع الإسلامي متطلبات الغريزة والفكر والوجدان والروح، ولكن بقدر محسوب من التوازن.

ثانياً: مجتمع متحرر، فلا يخضع لطاغوتية سياسية، ولا يستعبد لأي جهة كانت، فهو عبد لخالق هٰذا الكون فقط، وهو بذلك سيتحرر من أي نوع من أنواع العبودية الأخرى، ولا يتعامل معها بمبدأ الذل والخنوع، بل يمارس حرية التعبير والتفكير وفق الأطر الشرعية دون تجريح أو افتراء، مع قدرة عالية على الإبداع في مناطق الإبداع وأيضاً دون الدخول في متاهات حسمتها الشريعة سلفاً والسعي من ورائها لا يأتي بمردود إيجابي على حركة المجتمع.

ثالثاً: التكافل حيث يتعاون المجتمع من أجل تحقيق المصالح العامة، فهو كالجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، فلا يضيع فيه حق يتيم، فيتحول هٰذا اليتيم إلى مجرم حاقد على المجتمع، ولا حق أرملة أو امرأة ضعيفة، فتضطر إلى سلوك سبيل منحرف لتأمين مورد مالي، فالمجتمع الإسلامي مجتمع مسافرين ركبوا سفينة الدنيا للوصول إلى بر الأمان في الآخرة، ويتوجب عليهم أن يتكاتفوا لمواجهة الأخطار والتحديات، ومنع الثغرات في السفينة، أو أي خرق يعرضها للغرق المحتوم، وبهٰذا يتحرك فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى تعبر سفينة المجتمع سالمة إلى بر الأمان.

رابعاً: مجتمع أخلاقي منضبط نظيف ينعكس إيجابيًا على العلاقات الاجتماعية

الَّتِي تقوم علىٰ مجموعة من القيم والمبادئ الرفيعة الَّتِي تزيد البنية التحتية الاجتماعية تماسكاً وقوة، وبالتالي يتمكن المجتمع من حماية نفسه من التفتت والانهيار والاضمحلال.

خامساً: العالمية، فقد جاء الإسلام ليخرج الناس ـ كل الناس ـ من ضيق الدنيا إلىٰ سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان والأفكار والمبادئ الهدامة إلىٰ عدل الإسلام، لا تصده عن هٰذا الهدف حواجز عرضية أو مذهبية أو طبقية أو جنسية أو جغرافية، وهو في نفس الوقت يترك المجال مفتوحا، لكافة المقيمين علىٰ أرضه أن يبقوا علىٰ أديانهم وعقائدهم، وأن يمارسوها بحرية.

• بوابة الإعلام:

هٰذا المنهج الإسلامي الذي بينا خصائصه ينبغي أن يسود حتىٰ يحقق سعادة البشرية، لكن هٰذه السيادة لا تتم بتصدير العنف ورفع السيف في غير موضعه، فأصوات التداعي للحروب لا تبرز إلا عندما يغيب الرشد وتهزم الأفكار، وتنتصر الشهوة، ويرتكس الإنسان إلىٰ حياة الغابة، فهي من المفترض أن تكون أوقاتاً استثنائية، أما الأصل فهو الحوار الحر، ساحته ومعركته المهمة هو الإعلام، وعالمية الرسالة تستدعي اليوم عالمية الخطاب وعالمية التبليغ، وهٰذا يستدعي فهم الآخرين بعقائدهم وثقافتهم وتاريخهم، وفهم الآليات الَّتِي يتم بها تشكيل الرأي العام، وسبل التأثير فيه، وهٰذا يستدعي التنبه إلىٰ لغة الخطاب المطلوبة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾(١). فلغة الخطاب ووسيلة الإعلام الَّتِي تنقل هٰذا الخطاب، ومضمون الخطاب، كلها من أساسيات نجاح التواصل الإعلامي ومن أدواته الضرورية.

• الدعوة الإسلامية ودورها المنشود:

إن المكر الذي يحاق بالأمة من قبل أعدائها يستدعي أن تكون هناك راية ترفع من

---

(١) إبراهيم: ٤.

رجال يصدقون عهدهم مع الله، وقد تبرع نفر من الأمة لحمل راية الإسلام، فعملوا وجدوا واجتهدوا وبذلوا، وهم في كل أمرهم مأجورون ولإحدىٰ المرتبتين نائلون إذا اجتهد المسلم فأصاب فله أجران وإذا أخطأ فله أجر واحد، ولهـٰذا الأمر سنذكر أمرين من الأمور الَّتِي تعين علىٰ تصحيح المسار الدعوي:

١ ـ **أن تنتقل الدعوة من مفهوم المشروع الحركي إلى المشروع الإسلامي العام** وإشراك كل الطاقات والإمكانات الموجودة في الساحة الإسلامية لخدمة تحقيق هـٰذا الدين في أرض الواقع، فإن من الظلم أن تبدأ الحركة المعادية للإسلام بالتعامل معه كدين لمليار ونصف ونحن لا زلنا نتعامل معه كمجاميع تنظيمية، الكل يود أن ينجح ويخرج النصر من عباءته!! فالمتأمل لألفاظ اليوم يجد أن الصحوة الإسلامية أصبحت اليوم أمة وليست حركة.

٢ ـ **أن تكون أدبيات التربية لأبناء الحركة الإسلامية قائمة على روح تفاؤلية** ترىٰ نصب عينيها رايات لا إلـٰه إلَّا الله خفاقة علىٰ أرض الإسلام علىٰ وجه الخصوص وعلىٰ العالم علىٰ وجه العموم، فالشاب الذي نريد أن يكون أداة في بناء الدولة، وعضوا عاملا في المجتمع الإسلامي في العالم لا بد أن يسمع نداءات الحركة التفاؤلية الَّتِي كان النبي ﷺ يحبها، حتىٰ بيان البلاء يكون بروح تفاؤلية كما عرضه ﷺ عندما اشتدت الشكوىٰ من المسلمين في مكة فقال ﷺ: «**والله ليتمن الله هـٰذا الأمر حتى يسير الرجل من حضر موت إلى صنعاء لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون**»[1].

وعندما استقرت هـٰذه الحقيقة التفاؤلية في نفس السائل بين الرسول ﷺ حقيقة البلاء الذي يقع علىٰ أهل الدعوة، ونحن اليوم في العصر الحديث الذي نعول فيه علىٰ موقف إسلامي عام ومستقبل حضاري يقوم علىٰ لا إلـٰه إلَّا الله، لسنا ملزمين أن نضع أمام شباب الدعوة صورة رجل سقط من حبل المشنقة، صحيح أن البلاء من طبيعة الصراع في كل صور التدافع البشري ولكن ليس بالضرورة أن يأخذ البلاء

---

(١) البخاري في المناقب (٣٦١٢)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٤٩).

صورة واحدة متكررة في كل جيل وزمان ومرحلة.

وبداية الطريق أن يحمل الدعاة همَّ الأمة، فعند انشغال رجل الدعوة بالأمة يكون قد بدأ رحلة الكبار الَّتِي تبدأ من عيش الداعية للآخرين وإن كان الأمر متعباً، فمن عاش لغيره عاش متعبا ولكنه عاش كبيرا ومات كبيرا، فبداية الهم تعني الانطلاقة.

يتحدث الأستاذ عباس السيسي عن حوار تم بينه وبين الإمام البنا فيقول: رآني الإمام البنا مهموما فقال: أراك مهموما اليوم، فقلت: كيف لا أكون مهموماً وقد سقطت اليوم «ألبانيا» بأيدي الشيوعيين، فقال الإمام البنا ـ رحمه الله: أوهمك هٰذا؟ فقال الأستاذ عباس: نعم، فقال الإمام البنا: لقد بدأت الطريق إذًا!!

الكبار هم الذين يختارون لأنفسهم المكان العالي حتىٰ في طريقة موتهم قال عنترة العبسي:

واختر لنفسك منزلاً تعلو به ... أو مت كَريمًا تحت ظل القسطل[1]



(١) **القسطل:** هو الغبار في الموقعة. المعجم الوسيط (قسط).

(٣)
إصلاح الفساد قبل فساد الإصلاح

يبدو أن المثقفين والنخبة وأصحاب الفكر لهم «موضات فكرية وثقافية» مثل صرعات الملابس والأزياء، فتجد وسائل الإعلام من صحف ومجلات وقنوات فضائية تهب هبة واحدة وباتجاه واحد تجاه موضوع محدد، وتجد حتى المجلات والدوريات المتخصصة تخصص ملفات خاصة بكل صرعة تسيطر على الساحة وتهيمن على الفكر البشري.

فكم واحد تحدث وكتب في صرعة «العولمة» في النصف الأول من العقد الأول الماضي، وصرعة الإرهاب في النصف الثاني وهي صرعة مستمرة حتى الآن، ثم صرعة «الإصلاح» منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر وحتى الآن، وكأن الأوضاع في العالم كانت فقط تنتظر كارثة الحادي عشر من سبتمبر لتبدأ مسيرة الإصلاح في العالم الثالث وفي عالمنا العربي بشكل خاص.

والحقيقة المعلومة أن الإصلاح ليس «كورسا علاجيا» يتم أخذه في فترات المرض ثم ينتهي الأمر، بل هو منهج مستمر ما دامت الحياة نفسها مستمرة وبأسلوب متغير ومتجدد، ولا يمكن أن تظل المجتمعات فترة طويلة على وتيرة واحدة، ما دامت هناك مستجدات ومتغيرات تلقي بمتطلباتها واستحقاقاتها المختلفة ـ سياسياً واقتصادياً واجتماعيا.

والإصلاح كما نعلم مهمة الأنبياء الرئيسية، فقد بعث الله أنبياءه لإصلاح البشرية في طريقها إلى القيام بأعباء الخلافة في الأرض، فالإصلاح ضمانة أساسية لمنع الانحراف في مسيرة البشرية نحو الهاوية والهلاك والفناء، قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾[١].

---

(١) هود: ١١٧.

فالإصلاح مبدأ أساسي في إدارة الشعوب والمجتمعات، ولذا نرىٰ سيدنا موسىٰ يوصي أخاه هارون بالإصلاح فقال له: ﴿ **اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾[١]. وهٰذا سيدنا شعيب يحصر مهمته في قومه بالإصلاح وهو مقصد شرعي أساسي لكل الرسالات السماوية، قال تعالىٰ علىٰ لسان شعيب: ﴿ **إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾[٢]؛ أي «ما أريد إلّا الإصلاح، أي أن تصلحوا دنياكم بالعدل وآخرتكم بالعبادة». وقد بينت الآية الكريمة الوسائل المعينة علىٰ الإصلاح وهي طلب التوفيق من الله والتوكل عليه والإنابة إليه.

فالإصلاح مطلب طبيعي لكل الدول والمجتمعات، فالدول مثل البشر تمر بمراحل طفولة وشباب وشيخوخة، ومطلب الإصلاح في كل مرحلة من مراحلها له أولوياته وظروفه، يقول ابن خلدون في مقدمته: «وإذا كان الهرم طبيعياً في الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الأمور الطبيعية، كما يحدث الهرم في المزاج الحيواني.

والهرم من الأمراض المزمنة الَّتي لا يمكن علاجها ولا ارتفاعها؛ لأنه طبيعي، والأمور الطبيعية لا تتبدل، وقد يتنبه كثير من أهل الدول ممن له يقظة في السياسة، فيرىٰ ما نزل بدولتهم من عوارض الهرم، ويظن أنه ممكن الارتفاع، فيأخذ نفسه بتلافي الدولة وإصلاح مزاجها عن ذلك الهرم، ويحسبه أنه لحقها بتقصير من قبله من أهل الدولة وغفلتهم، وليس كذلك فإنها أمور طبيعية للدولة، والعوائد هي المانعة له من تلافيها، والعوائد منزلة طبيعية أخرىٰ، فإن من أدرك مثلاً أباه وأكثر أهل بيته يلبسون الحرير والديباج ويتحلون بالذهب في السلاح والمراكب، ويحتجبون عن الناس في المجالس والصلوات، فلا يمكنه مخالفة سلفه في ذلك إلىٰ الخشونة في اللباس والزي والاختلاط بالناس، إذ العوائد حينئذ تمنعه وتقبح عليه مرتكبه»[٣].

---

(١) الأعراف: ١٤٢.

(٢) هود: ٨٨.

(٣) مقدمة ابن خلدون، ص ٣٢٧.

إذن، الإصلاح مطلوب للدول والمجتمعات والشعوب لأحد سببين:

الأول: لإزالة المفاسد والشرور الَّتِي تنتج بسبب النوايا السيئة، وتصحيح الأوضاع الخاطئة الناتجة عن رغبات شخصية ومصالح خاصة تعمل كمعول هدم في المصالح العامة، وتستهلك طاقات البناء وثرواته في تحقيق إثراء شخصي لا علاقة له بخطط التنمية والعمران ورعاية مصالح المجتمع.

الثاني: لتطوير مناحي الحياة وإيجاد أفكار ووسائل جديدة تناسب مستجدات الحياة، وتيسر حياة المجتمعات نحو ترسيخ السلامة والأمن النفسي والاجتماعي، وتعزيز البنية السياسية عبر تحقيق مشاركة واسعة لشرائح المجتمع، وتوزيع الثروة بطريقة عادلة، والحفاظ على الثروات الوطنية، وتحقيق مبدأ تكافؤ الفرص، ورفع سقف الحريات العامة وضمان الحقوق الأساسية للمواطن.

وهناك بنود كثيرة على لائحة الانتظار تنتظر قطار الإصلاح أن يمر بها، فهناك الإصلاح الاقتصادي الذي يتضمن ترشيد الإنفاق وتشجيع الاستثمار، والتواؤم مع الاقتصاد العالمي، والإصلاحي التعليمي الذي نريد له - وبدون ضغوط خارجية - أن يتحول مصنعاً لإعداد الأجيال القادمة، حتى يستطيع التعامل مع المستقبل بثقة واعتدال، مع التأكيد على ضرورة التوسع في إنشاء مؤسسات المجتمع وتفعيل دورها فيه، ومحاربة الفساد الإداري والسياسي.

● إرادة الإصلاح:

فلا يمكن أن يتم الإصلاح ويغادر منطقة الشعارات والتنظير إذا لم تقف خلفه إرادة مخلصة وحازمة وصلبة، فطريق الإصلاح، كما قال الشاعر:

وطريق الإصلاح في كل شعب ... عسر المرتقى على مجتابه

فالمعاناة عنوان أساسي في حياة كل مصلح:

ولقد يعاني المصلحون مشقة ... حتى يتم لأمة إصلاح

فالإصلاح يتطلب إرادة صلبة صادقة قد تتصادم مع الواقع الفاسد للأخذ على

يده ومواجهته والقضاء عليه، وهٰذا يتطلب بلا شك الانتقال من مرحلة الحوار والتنظير إلىٰ اتخاذ الإجراءات العملية، وأن توضع الرغبة في الإصلاح موضع التنفيذ، ولا يتحول شعار الإصلاح إلىٰ مجرد ديكور للاستهلاك وكسب عواطف الناس، بينما يبقىٰ الإصلاح حبيس الإرادات والأدراج.

• الإصلاح في الكويت «نموذج»:

ولدينا في الكويت دعوات للإصلاح من كل الجهات، ولا توجد معارضة لهٰذا التوجه، ويكاد يكون هناك إجماع علىٰ هٰذا الموضوع، نعم قد تختلف الرؤىٰ والأولويات الإصلاحية، لكنها كلها في النِّهَايَة اجتهادات لدعم الموضوع وخدمته.

فالحكومة تستقرئ بشكل صحيح الوضع الدولي والإقليمي وتسعىٰ للإصلاح وتدعو له، ومجلس الأمة بنوابه يرفعون شعار الإصلاح ويحثون الحكومة عليه، ويخصصون جزءا من أوقاتهم لمراقبة الأداء الحكومي وتقييمه في مجال تطبيق الإجراءات والخطوات الإصلاحية، والشعب الكويتي يدعو للإصلاح، وينادي به ويطالب بنهضة عمرانية وإصلاح إداري وسياسي لمواكبة العالم المتطور، وأحداث المنطقة خاصة بعد سقوط حكم الديكتاتور العراقي الذي بغزوه للبلد وبقائه طول هٰذه الفترة علىٰ سدة الحكم بعد تحرير الكويت كان من الأسباب الرئيسية لتأخير النهضة الحضارية المطلوبة.

والمطلوب الآن استدراك ما فات وتعويض الزمن الماضي عن طريق تسريع الخطوات الإصلاحية، وممارسة الجدية في التوجه والأخذ علىٰ يد المفسدين، وفتح المجال للشباب للانطلاق في البلد إلىٰ مستويات عمرانية وحضارية راقية يتطلع لها الكل في ظل ظروف المنطقة الجديدة والتنشيط الاقتصادي المتوقع.

حتىٰ جمعيات النفع العام ومؤسسات العمل المدني والحركة النسائية والتيارات السياسية المختلفة من ليبرالية ووطنية وإسلامية ومستقلة كلها تنادي بالإصلاح، وتدعو له وتحث عليه، وتطرح تصوراتها وبرامجها حوله، وتحذر من خطورة

التسويف في اتخاذ خطوات عملية وبناءة، لكن كل هٰذا الإجماع الوطني على الإصلاح يطرح سؤالاً محوريا وملحا: هل هناك مصطلح واضح لمفهوم الإصلاح يجمع عليه الجميع؟ وما هي أولويات ذلك الإصلاح؟ وما هي البرامج والخطط التنموية الَّتِي تخدم تحقيق تلك الأولويات؟ وإذا لم يوجد هٰذا المفهوم الموحد للإصلاح وأولوياته وبرامجه، ألا يمكن اتفاق الجميع حكومة ومجلس أمة وقوىٰ سياسية وشعبية علىٰ نقاط يلتقي لديها الجميع، مثل حرمة المال العام وتنشيط الاقتصاد وحل مشاكل البطالة والسكن وغيرها من الأمور العالقة وينادي الجميع بإيجاد الحلول فيها.

إننا علىٰ يقين أن الوضع في الكويت في مناح عديدة لا بأس به وأفضل بكثير من أوضاع كثيرة تسود عالمنا العربي، سواء في هامش الحريات السياسية واحترام كرامة المواطن والعدالة في توزيع الثروة وغيرها من الأمور الَّتِي تجد أوضاعا مشابهة لها في العالم العربي، ولكن بشكل مزرٍ ومخزٍ.

ولكننا - وهٰذا منطق التفكير - لا نود أن نقارن الوضع في الكويت بالوضع الأسوأ في العالم العربي وإن كنا جزءا من العالم العربي والمنطقة، لكننا نود أن نجعل الكويت منارة للإصلاح في سبيل العودة إلىٰ الريادة الحضارية والعمرانية في المنطقة، وهٰذا لن يتحقق إذا استمر كل طرف من الأطراف المعنية بالإصلاح بالانشغال بالنفس وبالداخل، مع التهييج السياسي المستمر، وهٰذه القضايا الآنية والقصيرة النفس تمنع التفكير في القضايا الإصلاحية ذات الرؤىٰ المستقبلية، وخصوصا إذا صاحب الممارسات السياسية اليومية اتهام مسبق للنوايا وإثارة سياسية مفتعلة، وتأزيم مستمر في الشارع السياسي.

• الإصلاح في الحركة الإسلامية:

والحركة الإسلامية في الكويت باعتبارها قوة اجتماعية سياسية موجودة ومؤسسة من مؤسسات المجتمع المدني، لها رؤاها الخاصة وآلياتها وأطرها وكوادرها ومناهجها وممارساتها، فهي أيضًا لا تخرج عن إطار القابلية للإصلاح، وقدسية

المنهج الذي تتبناه لا يتعارض مع نقد وإصلاح فهم الحركة لهـٰذا المنهج وآلياته في التعامل معه، ومرحلية الدعوة والتعبير عنه، وأولويات تبنِّي قضاياه، ورموزها وقياداتها والعلاقة مع القواعد لديها وشرائح المجتمع والدولة.

والحركة الإسلامية في الكويت اليوم وخصوصا الحركة الدستورية مطالبة بتوسيع وتأكيد منهج الشورىٰ في القرار والممارسة، وألا تضيق صدرا بالأفكار الجديدة الَّتِي تطرحها قواعدها، فهـٰذا دليل حيوية وتجدد وحرص وحرقة من أجل الدعوة ومسارها، كما هو مطلوب أيضًا البعد عن خطيئة الانعزال والانحصار داخل مؤسسات الدعوة والاكتفاء بالعمل من خلالها، وأهمية العودة إلىٰ الاندماج مع المجتمع الكويتي والانفتاح عليه والانغماس في فعالياته المدنية المختلفة، مع التميز الحضاري في الطرح الذي يعتمد علىٰ رؤية مستنيرة لمقاصد الشرع وقدرة علىٰ قراءة الواقع، وتنشيط الفكر في منطقة فقه الواقع، وقراءة لمستجدات المنطقة ومعطياتها، ومراعاة المعطيات السياسية مع التأكيد علىٰ الأصالة والثوابت الإسلامية والحركية، وأهمية التجديد في الوسائل والأشخاص والبرامج من أجل ملاحقة ومواكبة التغيرات المستجدة وقراءة الأحداث الحالية بما يحفظ الكيان ويقوي البنيان ويخدم الإنسان، علىٰ أن يسبق ذلك كله سلامة الصدر وصدق التوجه والإنابة إلىٰ الله، والاستعانة به واللجوء إليه، والحفاظ علىٰ الشخصية المسلمة وتميزها وتقديم القدوة الحسنة للمجتمع مع حسن سمت وعلو أخلاق وطيب معشر.

وهـٰذا يتم بلا شك من رفع كمية الزاد الإيماني من اللجوء عند استنفاد الجهاد والطاقة إلىٰ المحراب، والتأمل في الكتاب، ومداومة الالتصاق بالأصحاب والأحباب، والاستعانة علىٰ كسل النفس وخمول الفكر بالصيام والقيام وعدم المغالاة بتغليب شيء علىٰ شيء، وعدم تقديم المهم علىٰ الأهم، مع الاستفادة من الأوقات فيما يزيد الدرجات، والصبر علىٰ الطاعات، هـٰذا من أجل المصابرة وتحمل الناس وخدمتهم والقيام بواجب الدعوة، وتقديم وجهها الحسن، وتقديم حظ الآخرة علىٰ حظ الدنيا، وتجديد النوايا وتفقد الإخلاص في كل عمل، وتفقّد

القلوب والنوايا عن كل عمل للجوارح، حتىٰ يعود الصفاء للنفس والسكينة للقلب، وهي معان كلها لا شك ستعود بالخير العميم علىٰ الدعوة والحركة في مساراتها الحالية والمستقبلية.

• خطورة الإصلاح الفاسد:

إن ما هو أخطر من التواني عن الإصلاح هو تزييف عملية الإصلاح، فالإصلاح شعار واسع عريض، وقد لا يجتمع الفرقاء والتيارات السياسية والتجمعات البشرية في المجتمع الواسع لا علىٰ مفهوم الإصلاح ولا علىٰ أولوياته، وهٰذا وضع طبيعي، وقد تكون هناك قضايا أساسية مشتركة يجتمع عليها الجميع ويتعاونون علىٰ تحقيقها، ويتركون ما اختلفوا فيه لقدرة كل تيار علىٰ تحقيق مطالبه الإصلاحية، ولكن هناك حدود دنيا للمطالب الإصلاحية، ينبغي ألا يتم تجاوزها، حتىٰ لا يتحول الإصلاح إلىٰ هدم للمجتمعات وتحطيم لكل القيم والمقومات الَّتِي قام عليها المجتمع، فيصبح حال هٰؤلاء المطالبين بهٰذا النوع من الإصلاح المزيف مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾[(١)].

فهٰذا هو الإفساد؛ فتراهم يدعون إلىٰ عدم التمييز بين طبقات المجتمع، وعدم التحيز لفئة ضد فئة أخرىٰ ويقولون: هٰذه دعوة للإصلاح، فإذا فتشت عن حقيقة ذلك وجدته دعوة إلىٰ المساواة التامة بين الذكر والأنثىٰ، حتىٰ فيما فرقت فيه النصوص القطعية، وهٰذا هو الإفساد.

وتراهم يدعون إلىٰ المحافظة علىٰ حقوق الإنسان وإعطائه الحرية، ويقولون: هٰذه دعوة للإصلاح؛ فإذا فتشت عن حقيقة ذلك وجدته دعوة إلىٰ إباحية مطلقة من كل قيد، حتىٰ يأتي الرجل الرجل والمرأة المرأة، وهٰذا هو الإفساد.

وتراهم يدعون إلىٰ التسامح وإشاعة ثقافة الحوار والانفتاح علىٰ الآخر المختلف

---

(١) البقرة: ١١، ١٢.

ثقافيا ويقولون: هٰذه دعوة للإصلاح، فإذا بحثت وفتشت عن حقيقة ذلك وجدته دعوة إلىٰ إذابة الفوارق بين المسلمين والكفار، وإضعاف معاني الولاء والبراء إلىٰ حد الإلغاء، وهٰذا هو الإفساد.

وتراهم يدعون إلىٰ الاستفادة من الصور المعاصرة في كيفية تنمية رأس المال مع الأمان من تقلبات الأحوال والمعاملات الاقتصادية، ويقولون: هٰذه دعوة للإصلاح؛ فإذا بحثت وفتشت عن حقيقة ذلك وجدته دعوة إلىٰ التعاملات الربوية عن طريق البنوك الَّتِي يقوم أمرها علىٰ الربا، وهٰذا هو الإفساد.

وتراهم يدعون إلىٰ عدم المتاجرة بالدين وعدم إقحامه في المسائل الدنيوية ويقولون: هٰذه دعوة للإصلاح، فإذا فتشت من حقيقة ذلك وجدته دعوة لتهميش الدين بكل ما تحمله هٰذه الدعوة من معنىٰ، وهٰذا هو الإفساد. ولو ظللنا نتتبع كثيرا من ألفاظهم الَّتِي يتلاعبون بها وجدناها لم تخرج عن حد الكلام الذي تكون حقيقته مخالفة لظاهره.

• خطورة تأخير الإصلاح:

إن تزييف الإصلاح ومساراته وجه واحد من المخاطر الَّتِي تواجه الحركة الإصلاحية، أما الوجه الآخر فهو بقاء الإصلاح في مرحلة البداية بلا نهاية، فلا ينتقل من مرحلة التخطيط والنوايا الحسنة إلىٰ مرحلة الممارسة والتطبيق، وقد يرجع ذلك إلىٰ ما قاله ابن خلدون عن صعوبة التخلي عن العوائد الَّتِي صاغت الأوضاع القائمة، وتبني منهج منغلق يتوقف عند الماضي المجيد للأمة ولا يريد أن يغادره، بينما نستطيع الاستفادة من ظروف التغير السياسي في العالم في دعم برامج الإصلاح دون أن نتخلىٰ عن قيمنا ومبادئنا وهويتنا.

إن من الخطورة جدا بمكان الاستهانة بالنتائج الَّتِي تنبني علىٰ تأخير عملية التغيير والإصلاح، وبعضها قد ندفع ثمنها غالياً في المستقبل، وحتىٰ لا يبقىٰ الكلام علىٰ عواهنه بإمكاننا رصد بعض المخاطر من تأخير برامج الإصلاح:

أولاً: الإحباط الذي يصيب جموع الأغلبية بسبب تباطؤ العملية الإصلاحية،

وهٰذا بحد ذاته يفقد البرامج الإصلاحية زخمها الشعبي، وقد يدفع هٰذا التباطؤ البعض إلىٰ الانضمام إلىٰ قافلة الفساد، باعتبار أن العملية الإصلاحية ما هي إلىٰ وهم وشعار من أجل المحافظة علىٰ مكاسب المفسدين والمنتفعين، ناهيك عن ما يفعله الإحباط بالنفوس من الشعور باليأس وفقدان الأمل بالمستقبل، وتدني مستوىٰ الإنتاجية واللجوء إلىٰ الطرق الملتوية للحصول علىٰ بعض المكاسب وتحقيق المصالح المعطلة بسبب بيروقراطية الفساد المتمكنة من الوضع القائم.

ثانياً: تأخير الإصلاح يعطي فرصة للتكتلات الفاسدة للتحصن أكثر خلف الأوضاع القائمة وبيروقراطيتها، واتخاذ إجراءات إضافية تصعب من العملية الإصلاحية وتضع في طريقها العقبات، ويصبح الفساد مثل فيروس المرض الذي لا يعطي جرعات كافية من المضادات الحيوية المناسبة لمقاومته فيبدأ بالتعود علىٰ هٰذه المضادات، ومن ثم التغلب عليها فتفقد مفعولها في مواجهته، وقد يُرسل تأخير الإصلاح إلىٰ تكتلات الفساد رسالة خاطئة بأن الوضع القائم سيستمر لفترة طويلة يمكن من خلالها تحقيق أكبر قدر من المنافع الشخصية عبر شبكات الفساد الَّتِي تخدم بعضها بعضا، مما يؤدي إلىٰ زيادة معدلات الفساد، ويصبح ما أردناه دواء هو المسبب للداء، بل ويمده بأسباب النمو والبقاء وهٰذه مثل قول الشاعر الرصافي:

يقولون نحن المصلحون ولم أجد — لهم من مجال القول غير المفاسد

وهكذا تضاف إلىٰ كتائب الفساد كتيبة فساد جديدة ولكن وسيلتها في الوصول إلىٰ الفساد هي شعارات الإصلاح نفسها، فيتحول الإصلاح علىٰ أياديهم إلىٰ مهرجان للفساد واستغلال اندفاع المخلصين والشرفاء للإصلاح لتحقيق المكاسب الشخصية:

الله أكبر إنها لمصيبة — في الدين لا في المال والأولاد
يا من اشتروا الضلالة بالهدى — واستبدلوا الإصلاح بالإفساد

ثالثاً: تأخير الإصلاح قد يستدعي خطورة التدخلات الناتجة عن الضغوط الخارجية وفرض صور من الإصلاح قد لا تتناسب مع طبيعة المجتمعات العربية،

فالعملية الإصلاحية قد لا يسمح لها لا بالجمود ولا بالسير كالسلحفاة حينما تصل الأمور إلىٰ تعطيل لـلمصالح الدولية والإقليمية، وخصوصا أن مسألة عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول قد فقدت احترامها عند الكثير من القوىٰ الدولية.

فإذا ما تفاعلت هـٰذه المعطيات مع ركود داخلي واضح، فإن أحد الخيارات المطروحة هو رفع الحرج عن تأييد أي مشروع إصلاحي يأتي من الخارج، وعندما تصبح المجتمعات العربية بين مطرقة سلبيات الحرية المفروضة من الخارج وسندان الجمود الداخلي، فإنها قد تميل إلىٰ تأييد الخيار الأول، باعتبار أن أسوأ الحلول هو بقاء الوضع الحالي غير المحتمل علىٰ ما هو عليه، وحتىٰ لو أدىٰ ذلك إلىٰ دفع ثمن باهظ كما حصل في العراق مثلاً.

• آليات الإصلاح:

تبقىٰ قضية لا بد من أن نشير لها ولو في عجالة، وحتىٰ نزيل الالتباس عند بعض الناس الذين يستعجلون الإصلاح، ولا يدركون سننه وشروطه وضوابطه لكي يأتي ثماره المرجوة، فمن آليات الإصلاح المهمة سنة التدرج الَّتِي يفهمها الحكماء والعقلاء، فعندما جاء عبد الملك إلىٰ والده الخليفة عمر بن عبد العزيز يستعجل والده ليبدأ الإصلاح في الخلافة الأموية، نبهه والده عمر إلىٰ أهمية سنة التدرج في الإصلاح حتىٰ لا يتحول الأمر إلىٰ فتنة تراق فيها الدماء.

فالسعي الجاد للإصلاح أمر أساسي، ولكن الحكمة والتدرج والقدرة علىٰ إدارة هـٰذه المسألة أمر يحتاج إلىٰ بصيرة وروية، فلا يمكن تغيير أوضاع قائمة وعادات مألوفة ومكتسبات شخصية مضمونة كلها إلىٰ الوضع الصحيح المطلوب بمجرد إصدار قرار أو ضغط زر علىٰ الحاسوب الآلي، بل تحتاج إلىٰ بنية إصلاحية ونشر ما يعرف «بثقافة الإصلاح» حتىٰ يصبح الإصلاح مطلباً شعبياً مقبولاً ومدعومًا.

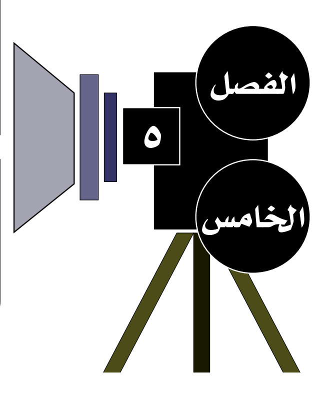
فالإصلاح عملية معقدة ودقيقة وحساسة، ومعالجتها تتطلب حرصًا شديدًا ووقتاً كاملاً، حتىٰ تنضج بهدوء ووعي، ومثلما حذرنا من بطء الإصلاح يجب أن

نحذر من الاستعجال فيه، فالأمر وسطي بين الطرفين، فالطفرات في هـٰذه المسألة خسارة وأشبه ما تكون بالانقلابات العسكرية سيئة الذكر الَّتِي لم تجن منها أمتنا إلا المزيد من الدماء والتخلف خصوصا إذا صاحبها ارتجالية.

ومن سنن الإصلاح الَّتِي يجب مراعاتها سلمية الحركة الإصلاحية، فلا يمكن أن يحقق العنف في الغالب أية أهداف إصلاحية، وقد يترتب علىٰ ممارسة العنف فساد أكثر من الفساد القائم، ومن مصلحة النخب الحاكمة في عالمنا العربي استشعار أهمية التغيير، وأن من مصلحتها التعجيل به والمشاركة في صنعه وقيادته أيضًا؛ لأن المنظور العام للدولة والمجتمع بيدها وتعرف الثغرات القائمة ومواقع الخلل، فهي الأقدر ربما علىٰ وضع الحلول الإصلاحية والتعامل معها بسنة التدرج والعقلانية.

ومن سنن الإصلاح المشاركة الجماعية فيه، وهـٰذا يستدعي التعاون بين الحكومات وقوىٰ المجتمع المدني لتحمل كل طرف منها مسؤولياته للوصول بالمجتمع إلىٰ أهدافه الإصلاحية وتحمل التضحيات والنتائج المترتبة علىٰ ذلك حتىٰ يصل الإصلاح إلىٰ بر الأمان.





لا بد من الحفاظ على أصالتنا الحركية

(١) مفاهيم وأبجديات منسية في العمل الإسلامي التربوي

(٢) الحركة الإسلامية بين أصالة البناء وديمومة العطاء

(٣) من أسرار الدعوة.. في صفات القائد القدوة

(٤) حتى لا تنقرض الذاتية الدعوية

(١)
مفاهيم وأبجديات منسية في العمل الإسلامي التربوي

تحدثنا فيما سبق عن ضرورة الموازنة في الحفاظ على أصالة البناء مع استمرار العطاء للدعوة وخدمة الدين، وذلك بإجراء المراجعات الدعوية اللازمة في جو من التوافق بعيدا عن التنازع، وهو ما سميناه «فقه المراجعات». وقد بيّنا كيف أن فقه المراجعات من سمت الدعاة، كما استعرضنا قواعد مهمة في النقد الذاتي من حيث صفاتها ومجالاتها وصفات من يقوم بعملية النقد وأسباب نجاحها، مع مراعاة معطيات الداخل والخارج، كما ختمنا مقالنا بما هو مطلوب من الدعاة في المرحلة المقبلة، ونتناول اليوم ـ استكمالاً لموضوعنا ـ بعض المفاهيم والأبجديات المنسية في العمل الإسلامي التربوي والتي نعتقد أنها محفورة بأذهان الدعاة، وتكون مفاهيم الدعوة الأساسية في العقل الباطن، ويمارسونها في تحركاتهم الدعوية ومواقعهم التربوية، إلا أن كثرة التكاليف الدعوية والواجبات وقلة الأوقات قد تجعلهم يغفلون أو ينسون هٰذه المفاهيم الَّتِي نعيد التذكير ببعضها؛ عسىٰ أن يكون ذلك حافزا لنتذكر مفاهيم أخرىٰ لا تقل أهمية في العمل الدعوي والعمل الإسلامي التربوي.

• مفهوم الصبر والمثابرة:

وفي ذلك قال الإمام البنا في المؤتمر الخامس:

«أيها الإخوة ـ وخاصة المتحمسين المتعجلين منكم ـ اسمعوها مني كلمة عالية داوية، من فوق هٰذا المنبر، في مؤتمركم هٰذا الجامع.. إن طريقكم هٰذا مرسومة خطواته، موضوعة حدوده، ولست مخالفاً هٰذه الحدود الَّتِي اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول.

أجل قد تكون طريقاً طويلة، ولكن ليس هناك غيرها.. إنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة، والجد والعمل الدائب، فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل

نضـجهـا، أو يقطف زهرة قبل أوانهـا، فلست مـعه في ذلك بحال، وخيـر له أن ينصرف عن هـٰذه الدعـوة إلىٰ غيرها من الدعوات، ومن صبر معي حتىٰ تنمو البذرة وتنبت الشجرة، وتصلح الثمرة ويحين القطاف، فأجره علىٰ الله، ولن يفوتنا وإياه أجر المحسنين: إما النصر والسيادة، وإما الشهادة والسعادة».

ومخافة زحف الوهن القاتل كان النداء في رسالة «الإخوان تحت راية القرآن» حيث قال: «هـٰذه منزلتكم فلا تصغروا في أنفسكم، فتقيسوا أنفسكم بغيركم، أو تسلكوا في دعـوتكم سبيلاً غير سبيل المؤمنين، أو توازنوا بين دعوتكم الَّتِي تستمد نورها من نور الله، ومنهجها من سنة رسول الله ﷺ بغيرها من الدعوات الَّتِي تخلقها الضرورات، وتذهب بها الحوادث والأيام، فمن تبعنا الآن فاز بالسبق، ومن تقاعد عنا من المخلصين اليوم فسيلحق بنا غدا، ومن رغب عن دعوتنا ـ زهداً أو سخرية بها أو استصغارا لها أو يأسا من انتصارها ـ فستثبت له الأيام عظيم خطئه، وسيقذف الله بحقنا علىٰ باطله فيدمغه فإذا هو زاهق».

«**ونستطيع أن نقول ولا حرج:** إنَّ دعوتنا:

١ ـ **دعوة سلفية:** لأنها تدعو إلىٰ العودة بالإسلام إلىٰ معينه الصافي من كتاب الله وسنة رسوله.

٢ ـ **وطريقة سنية:** لأنها تحمل أصحابها علىٰ العمل بالسنة المطهرة في كل شيء، وبخاصة في العقائد والعبادات، ما وجدوا إلىٰ ذلك سبيلاً.

٣ ـ **وحقيقة صوفية:** لأن أصحابها يعلمون أن أساس الخير طهارة النفس، ونقاء القلب، والمواظبة علىٰ العمل، والإعراض عن الخلق، والحب في الله، والارتباط علىٰ الخير.

٤ ـ **وهيئة سياسية:** لأن أصحابها يطالبون بإصلاح الحكم في الداخل، وتعديل النظر في صلة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم في الخارج، وتربية الشعب علىٰ العزة والكرامة.

٥ ـ **وجماعة رياضية:** لأن أصحابها يعنون بأجسامهم ويعلمون أن المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف وأن النبي ﷺ يقول: «**إن لبدنك عليك حقًا**»[١]، وأن تكاليف الإسلام كلها لا يمكن أن تؤدىٰ كاملة صحيحة إلا بالجسم القوي.

٦ ـ **ورابطة علمية ثقافية:** لأن الإسلام يجعل طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم ومسلمة، ولأن أندية الجماعة هي في الواقع مدارس للتعليم والتثقيف، ومعاهد لتربية الجسم والعقل والروح.

٧ ـ **وشركة اقتصادية:** لأن الإسلام يعنىٰ بتدبير المال وكسبه من وجهه، وهو الذي يقول نبيه ﷺ: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**»[٢]، ويقول: «**من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفوراً له**»[٣]، ويقول: «**إن اللَّهَ يحب المؤمن المحترف**»[٤].

٨ ـ **وفكرة اجتماعية:** لأن أصحابها يعنون بأدواء المجتمع الإسلامي، ويحاولون الوصول إلىٰ طرق علاجها وشفاء الأمة منها.

وهكذا نرىٰ شمول معنىٰ الإسلام قد أكسب فكرتنا شمولاً لكل مناحي الإصلاح، ووجه نشاطنا إلىٰ كل هٰذه النواحي، ونحن في الوقت الذي يتجه فيه غيرنا إلىٰ ناحية واحدة دون غيرها، نتجه نحن إليها جميعاً، ونعلم أن الإسلام يطالبنا بها جميعًا...».

• مفهوم الربانية:

فالقائد المسلم يجب أن يكون ربانيا، بمعنىٰ أن يكون في المعية الربانية والحفظ الرباني والرعاية الربانية في شؤونه الخاصة والعامة، في المظهر والمخبر... في

(١) البخاري (٦١٣٤)، ومسلم (١١٥٩).

(٢) أحمد (٤/ ١٩٧)، وقال الأرناؤوط: «إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم».

(٣) الهيثمي في المجمع (٤/ ١٠٨)، وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، وفيه جماعة لم أعرفهم».

(٤) الطبراني في الكبير (١٣٢٠٠)، وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ١٠٦): «وفيه عاصم بن عبيد الله وهو ضعيف».

جوف الليل وهو يصلي ويتضرع، وفي زحمة النهار وهو ينشط ويتدافع، وفي قلب المعركة وهو يجالد ويقارع.

- إن ربانيته تجعل عمله خالصا لوجه الله لا يشوبه شرك ولا رياء.
- وإن ربانيته تجعله دائم الطلب لمدد الله ونصره وهداه.
- وإن ربانيته تدفعه إلىٰ تتبع سقطاته قبل تتبعه لسقطات الآخرين، وإلىٰ محاسبته نفسه قبل محاسبة الآخرين وإلىٰ تحاشي الغفلة، ودوام الحضور، وإلىٰ أن يستعظم أخطاءه حتىٰ يراها كالجبال، وإلىٰ أن يستصغر أعماله فيندفع للتعويض للمزيد، ممتثلاً قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾[1].
- والربانية جوهر نجاح القائد وسر فلاحه في جميع أعماله وتصرفاته؛ فهو رباني الأخلاق، ورباني العلاقة، ورباني المعاملة، ورباني التفكير، ورباني التقرير، ورباني التخطيط، ورباني الخطاب، وصدق الله تعالىٰ حيث يقول: ﴿وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[2].

• الحزم الفعال:

ومن المواصفات المطلوبة للقائد المسلم أن يكون حازما من غير ظلم، فالحزم مطلوب والظلم مرفوض.. وإن أي خلل في هٰذه المعادلة يمكن أن يحدث خللاً، بل «خلخلة» في الصف؛ سيئة العواقب والنتائج!

- إن عدم قيام القائد بحسم الأمور من شأنه أن يعقدها ويبلغ بها مرحلة اللاعلاج واللاحل.
- وتهاونه في حل المشاكل مدعاة لتكاثرها وتشعبها.
- وتلكؤه عن أخذ المبادرات يفوت الفرص السوانح الَّتِي قد لا تتكرر.
- ثم إن ضعفه ولينه في أمر يستدعي الحزم يهز الثقة في كفاءته وأهليته القيادية، ويشجع المسيء علىٰ الإساءة، وعلىٰ الاسترسال في الخطأ، ورحم الله من

---

(١) المدثر: ٦، ٧.

(٢) آل عمران: ٧٩.

قال : «ليكن كلامكم : «نعم نعم لا لا» .

إن من بدع هٰذا العصر أن أدخل على القاموس العربي مفردات لا تعبر عن ثقافة وسلوكية وشخصية هٰذه الأمة في شيء ، من ذلك شيوع التعبير الهابط (لعم) الذي يجمع بين نقيضين : لا ونعم ! !

إن هٰذا التعبير يمثل خلاصة الضياع ومنتهى الضعف ، بل هو يتناقض بالكلية مع فصائل «الوضوح والصراحة والحسم والحزم» ، وهٰذا من أسوأ ما يمكن أن يتصف به الإنسان العادي ، فكيف بالشخص القيادي ! !

• مسألة تحتاج إلى قناعة:

هل العمل التنظيمي فيه نفع ؟ هل هو عائق دون نجاح المنتمين للتنظيم ؟ أم هو عائق دون تحقيق الأهداف الإسلامية الكبرىٰ ؟

• الإجابة على شقين:

الأمر الأول: أن التنظيم ليس بدعا ، بل أصول العمل فيه قائمة على العقل الذي هو مناط التكليف ، فمن المعروف أن القياس والمصالح كلها قائمة على إشهاد العقل واستعماله ، فالواقع يبين أن ما من فرقة ضالة إلا وجعلت التنظيم سبيلاً لوصولها مع أنه على باطل ـ فهٰذا ابن سبأ والقرامطة من قبل وهٰذه الشيوعية والعلمانية في زمننا الحاضر ، فلم لا يكون المسلمون تنظيميين في أعمالهم وأفكارهم والفساد صار عاما ، والأصل في الأشياء الإباحة .

وأفعال كثيرة لسلفنا تبيّن مثل هٰذا . وفي قصة أحمد بن نصر الخزاعي دليل ، والفقهاء يقولون : «كل بلد لا سلطان فيه ، أو فيه سلطان يضيع الحدود ، أو سلطان غير عدل ، فعدول الموضوع وأهل العلم يقومون في جميع ذلك مقام السلطان» ومن قبل نرىٰ أن نبينا ﷺ في تحقق الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لسبي هوازن قال : «**إنما لا أدري من أذن منكم ممن لم يأذن، فراجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم**» ، قال ابن حجر في الفتح : «في الحديث مشروعية إقامة العرف»[1] .

---

(١) البخاري (٢٣٠٧ ، ٢٣٠٨) ، وأبو داود (٢٦٩٣) ، وأحمد (٤/ ٣٢٦) .

الأمر الثاني: أنه ليس هنا تعارض بين العمل الجماهيري والعمل التنظيمي: وعلينا أن نحدد فيمن يكون في واجهة الجماهير؟ كما علينا أن نعمل وفق قاعدة: كل ميسر لما خلق له!!

• التواضع سبيل الرفعة:

إن التواضع للناس أجمعين أمر حث عليه الدين وأوحاه الله إلىٰ نبيه محمد ﷺ: «**إن اللَّه أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد**»[1]، وكان الرسول ﷺ إمام المتواضعين، حتىٰ إن الجارية كانت تأخذ بيديه إلىٰ أي طريق من طرق المدينة لتسر له بحاجتها، وكان يلاطف الصغير، ويحترم الكبير، ويقدر الآخرين، ولا ينتقص جهد أحد، ويقبل من كل أحد بحسب ما يستطيع، وقد بين لنا أن المتواضعين يرفعهم ربهم، ويعلي من شأنهم، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله.

وقد كان موقفه في مواطن الترفع الَّتِي يقع فيها الناس مثالاً للتواضع، ألم يأتك نبأ فتح مكة؟ كم يساوي هـٰذا الحدث في دنيا الناس آنذاك حين يجد الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله أنفسهم وقد نصرهم الله فعادوا إلىٰ موطنهم ظافرين، وعلىٰ أعداء الأمس منتصرين، استسلمت لهم الجباه، وخضعت لهم الهامات، ودانت لهم الدور والجبال في موقعة حربية سبقها إعداد واستعداد؟

ومع عظمة هـٰذا الحدث فإنك تنظر إلىٰ القائد العظيم محمد ﷺ ورأسه تكاد تمس عنق راحلته تواضعًا لله، وشكراً له علىٰ ما رزقه إياه، وساقه إليه من النصر، ﴿**وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ**﴾[2] .

وانتقل هـٰذا الخلق الكريم من الرسول ﷺ إلىٰ أصحابه حتىٰ إن أبا بكر كان

---

(١) مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٦٥)، وأبو داود في الأدب (٤٨٩٥)، وابن ماجه في الفتن (٤١٧٩)، والبيهقي في الكبرىٰ (١٠/ ٢٣٤).

(٢) آل عمران: ١٢٦.

يحلب للحي أغنامهم قبل الخلافة ـ كما اخرج ابن سعد ـ فلما بويع بالخلافة قالت جارية من الحي: الآن لا تحلب لنا منائح دارنا، فسمعها أبو بكر، فقال: بلىٰ، لعمري لأحلبنها لكم، وإني لأرجو ألا يغيرني ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه، فكان يحلب لهم.

• الغضب للحق:

• هل نحن ـ دعاة المشروع الإسلامي ـ نغضب للحق أم نغضب لذواتنا؟

• وهل المعارك الَّتِي تقوم بين أصحاب الفصيل الواحد، وتنشرها الصحف وتذكي أوارها، وتنفخ في لهبها مقصود بها وجه الله أو يقصد بها وجه فلان ورأي فلان؟

إن الغضب غريزة في الإنسان، والحيوان لا يمكن منعه، ولكن يمكن التخفيف من أوضاره، والتخلي عن أثقاله، وتجنب أسبابه أو بعضها علىٰ الأقل، وتوجيهه الوجهة النافعة حين يكون الغضب من أجل إحقاق الحق وإن خالف رأينا، وإزهاق الباطل وإن وافق هوانا.

وهكذا كان غضب رسول الله ﷺ، فما انتقم رسول ﷺ لنفسه قط، وما كان ينتقم إلا أن تنتهك محارم الله.

• وهل كانت مناصبة المشركين العداء وجهاد المسلمين الأولين، وبذلهم للأموال والدماء إلا غضبة للحق ونزولاً علىٰ مقتضياته... فما بالنا نجانب هـٰذا المنهج، أو يجانب بعضنا غير المنهج في بعض الأحيان والمواقف، فلا يرىٰ غير نفسه ولا يقبل غير رأيه، فإما رأيه وشخصه وإما غضبه الذي لا يبقي ولا يذر، فأين الحلم؟ وأين الرفق؟ ثم أين الإيثار؟ ثم أين موضعك من الأتقياء الأخفياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا وإذا غابوا لم يفتقدوا؟

إن فلانا إذا أراد ألا يرىٰ الناس إلا شخصه ولا يسمعون إلَّا رأيه، ولا يقدمون في المهمات غيره، ولا يقضون أمرا إلا بمشورته، قد يشتط إذا تجاوز الناس شيئا من ذلك لسبب من الأسباب، فإن هم فعلوا نالهم غضبه، وأحاط بهم سخطه، وعبس

وبسر وأدبر واستكبر، وقال: ما لكم من داعٍ غيري، ومنظِّر مثلي، وإلَّا فهاتوا برهانكم وأجمعوا جموعكم فإني لكم بالمرصاد أكشف أوهامكم، وأظهر أسراركم وأهتك أستاركم.. ثم يتمادىٰ في غضبه، مستظهرا بالشيطان علىٰ نفسه، فينطق لسانه في أشخاصهم، وربما أطلق قلمه في كشف أخطائهم مدعيا أن غضبه للحق، والحق أن غضبه لنفسه، لكنه لم يعد يرىٰ أين الحق من الباطل أم أين الهدىٰ من العمىٰ؟ وكثيراً ما تكون طامة هـٰؤلاء أن يأتي ضلالهم الحاضر علىٰ إثارة من علم سابق، فيحدثوا فتنة، قد تشتد حتىٰ تضر بآخرين.

• حب النفع للآخرين:

هل نحب للآخرين ما نحبه لأنفسنا، ونكره لهم ما نكرهه لها؟ هل نعتبر صالح المسلمين صالحنا؟ هل نبذل ما نستطيع من نصح أو جهد أو مال في سبيل الآخرين؟ نُعلّم جاهلهم، ونعالج مريضهم، ونحاول إغناء فقيرهم بإعطائه حقه ومنع الظلم عنه ما استطعنا إلىٰ ذلك سبيلا؟ هل نصرناه كما أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ: «**انصر أخاك ظالما أو مظلوماً**»[1]؟ وهل حققنا في المسلمين قول الله: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾[2]، هل أقمنا بيننا حقوق الأخوة الَّتِي قررها الله - سبحانه - بين المؤمنين ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[3]، وقول الرسول ﷺ الذي ربط فيه تحقق الإسلام بحب النفع للآخرين «**أحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً**»[4].

• الحاجة إلى النظرة المستقبلية:

المتغيرات الكثيرة المتلاحقة إحدىٰ سمات العصر الحاضر، فما كان يعد بالأمس القريب جديدا أضحىٰ اليوم قديمًا، وقد يكون في الغد غير مقبول؛ لأن الزمن تجاوزه والعهد به صار بعيداً، وتلك المتغيرات إحدىٰ الحقائق العلمية في عصرنا، الَّتِي تؤثر

---

(١) البخاري في المظالم (٢٤٤٣)، وأحمد (٣/ ٩٩)، والترمذي (٢٢٥٥).
(٢) الأنفال: ٧٢.
(٣) الحجرات: ١٠.
(٤) الترمذي (٢٣٠٥) وقال: «غريب»، وأحمد (٢/ ٣١٠)، وحسَّنه الألباني.

على كثير من أنشطة الحياة حتى في المجالات الفكرية والنفسية، فما عاد شيء يتصل بدنيا البشر إلا ولحقه بعض التغيير أو إن شئت أن تقول بعض التطوير، فلا حرج عليك في تلك التسمية، وليس الأمر في حاجة إلى دليل مكتوب؛ لأن كل المشاهد الَّتِي حولك في بيتك أو في مكتبك أو في السوق أو في غير ذلك ما هي إلا برهان مشاهد ودليل بيِّن على ما تقول.

والثوابت الحياتية، تبقى لها هـٰذه الصفة وإن تَزَيَّت بأزياء مختلفة، وتلونت بألوان شتى والدعوة إلى الله أحد أنشطة الحياة، بل هي من أهم الأنشطة عند المؤمنين، يبادرون إليها ويسعون إلى إظهارها بوسائل متعددة متغيرة، ورغم ثبات الدعوة على ما في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلَّا أن وسائل الدعوة تتعدد بحسب ظروف الزمان والمكان وثقافة الداعية، وأحوال المدعوين، فما يصلح للناس في مكان ما على وجه الأرض لا يصلح لآخرين في مكان آخر رغم اتفاق الزمن، وما كان يصلح للناس منذ عقد أو عقدين لا يصلح لهم الآن، من هنا وجب على الدعاة أمران:

١ ـ **أن ينظروا إلى المستقبل على أنه الأمل المرتقب**، الذي تحقق فيه الدعوة ظهورها، وتسلك فيه إلى كثير من الناس في الشرق والغرب سبيلها، متسلحة بأسلحة الحاضر الَّتِي يراها الناس ويسمعونها، في مجال الثقافة والتربية والحركة الإيجابية والسلوك الملتزم؛ بحيث لا يظهر الداعية كراكب الدابة في الوقت الذي يركب فيه الناس ـ كل الناس ـ الطائرات الأسرع من الصوت أحيانًا.

وإن من العجب أن يأخذ الإسلام بنيه إلى المستقبل في الدار الآخرة، فيتحدث القرآن مستفيضا عن الجنة ونعيمها وما أعده الله للمؤمنين فيها مما يجعل الوجوه تتهلل، والقلوب تستبشر، والنفوس تبتهج وتسر، ويتحدث كذلك عن النار وعذابها حديثا مستفيضا تعبس له الوجوه، وتبتئس له النفوس، وتضيق به الصدور، ويتحدث رسول الله ﷺ عن المستقبل، ويشد أذهان المسلمين إليه حتى في أشد حالات الضيق والكرب: «**والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من**

صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه» [(١)]، قال ذلك، وقد جاء إليه خباب بن الأرت يشكو الأذىٰ ويطلب من الرسول ﷺ الدعاء للمسلمين والاستنصار لهم.

وفي كثير من مواقف الضيق والكرب كان ﷺ يعطي للمسلمين الأمل في المستقبل القريب في الدنيا، والبعيد في الآخرة.

فما بال المسلمين اليوم لا يكادون يفقهون من الحديث إلا ما كان عن الماضي، ماضي الإسلام والمسلمين، ماضي فلان الذي فعل كذا، وفلان الذي أصّل، وفلان الذي نظر، وفلان الذي عاش ومات وهو يحمل في قلبه هموم دعوته، ولا بأس بذلك كله، وإنما البأس أن نقف عند هـٰذا الحد، دون أن نتجاوزه إلىٰ المستقبل المنظور.

٢ ـ الأخذ بالتخطيط لهـٰذا المستقبل بحيث لا يكون أصحاب المشروع الإسلامي فيه نبتة تأتيها الرياح من أي اتجاه فتكفؤها، بل يكونون دوحة باسقة يستظل الناس بظلها ويعرفون لها قدرها، هـٰذا يقتضي وضع برامج معينة، وإعداد قيادات مدربة، وغربلة للتراث.

• المشروع الإسلامي... مسؤولية الجميع:

لقد نما الفهم الإسلامي الصحيح في الأمة، وانتشر بين أبنائها انتشارا كبيرا، بحيث لم تعد بعض تعاليمه خفية علىٰ أحد، وبحيث استقر في أذهان كثير من الناس أن الدين الذي جاء للناس أجمعين، لم يترك شيئا مما يحتاج إليه الإنسان في دنياه أو آخرته إلا بينه ووضحه تفصيلاً أو إجمالاً، فلم يعد فهم الدين مقصوراً علىٰ الأركان المعروفة ولا علىٰ الفرائض الكفائية وحدها، وإنما صار الناس ـ إلا من عاند واستكبر ـ يعرفون أن الإسلام ينظم حياة الإنسان منذ تكوينه في الرحم إلىٰ أن يوارىٰ الثرىٰ، ينظم فيها كل شيء، ويضع الأحكام لكل أمر، ويوضح العلاقات بين البشر

---

(١) سبق تخريجه.

جماعية كانت أو فردية ويضع الأسس العامة لها، بحيث تقوم علىٰ الحق والعدل.

ومردّ هٰذا الفهم عند الناس ومرجعه إنما هو للجهود الحثيثة الَّتِي قامت بها الحركات الإسلامية الصحيحة المعاصرة، بحيث صار أمر الدين والانشغال به تياراً عاماً في المجتمع، ويسري بين أفراده كما يسري النسيم، ولا يستثني أحدا من البشر، فلم يعد الإسلام قضية حركة معينة، لحزب بعينه أو جماعة بعينها، مما يدفع بالكثير من المتعاملين مع الجديد من الحركات الإسلامية في المجتمع، فليس في مقدور دولة ما أن تهيمن أو تمنع انتشار الأفكار الإسلامية الصحيحة بين الجماهير، وكل ما يمكن أن يفعله نظام هنا أو هناك أن يقبض علىٰ مجموعة من الناس يسجنها سنوات قد تقل أو تكثر وربما أنهىٰ حياة بعض الدعاة أحيانا بتهمة مزورة أو بأخرىٰ جائرة ظالمة، أما أن يقضي علىٰ الأفكار السارية والتوجهات الجارية فهٰذا غير مستطاع؛ لأن التيار الإسلامي أضحىٰ تيارا عاما بأبناء الأمة الإسلامية، ويحيط به أبناء الأمة كذلك.

التيار الإسلامي القوي، لم ينشأ من فراغ، وإنما نشأ من حب الناس للإسلام وتعظيمهم للقرآن وتوقيرهم للرسول ﷺ، وجاء دور الصحوة الإسلامية لافتا الأنظار إلىٰ شمول تعاليم الدين لكل قيم الحياة، والاجتماع والعمران إلىٰ جانب هداية الإنسان في دنياه وأخراه، فتشربت القلوب حب الدين، ونبت عليه الصغير وتمسك به الكبير، فسرىٰ هٰذا النهر المتدفق بين جموع الأمة.

ليس المشروع الإسلامي إذن مشروع فئة دون أخرىٰ، ولا مبدأ لحزب دون الآخر، حتىٰ تؤمن به طائفة وتخالفه أخرىٰ، كلا ليس المشروع الإسلامي كذلك، إنه فطرة في الناس أجمعين، قد تطغىٰ عليه أحياناً في نفس بعض الأفراد شهوة من الشهوات أو ترغيب أو ترهيب ولكن الناس إلىٰ تيار الدين الساري في قلب أمتنا الإسلامية ينتمون، وبنهجه الْوَسَطِيّ مستمسكون.



(٢)

الحركا لامية بين أصالة البناء وديمومة العطاء

• مراجعة لا تراجع.. وتوافق لا تنازع:

الحاجة إلىٰ مراجعة مسار الحركة الإسلامية أصبحت في العقد الأخير أكثر من ضرورية من أجل تصحيح أخطاء الممارسة، ولتلافي أوجه القصور في العمل، وتلافي أسباب فشل بعض المشاريع الدعوية، والعمل مجدداً من أجل وحدة الصف والبناء الداخلي ودراسة الأوضاع المستجدة وطبيعة المهمات القادمة، وما يناسبها من برامج ووسائل مع ترتيب جديد بين الإمكانات والأهداف.

والنقد وما يعرف «بفقه المراجعات» مسؤولية الدعاة أمام الله في تحمل أمانة الدعوة وضرورة توجيه الصحوة وحمايتها، من سوء التخطيط والغفلة عن النقد والتقويم، وخصوصا أن كثيرا من أنماط العمل الإسلامي وأساليبه قد استنفدت غايتها، وثبت أنها تحتاج إلىٰ مراجعة سواء في الميدان السياسي أو الدعوي أو التربوي أو الاجتماعي.

كما أن الحركة الإسلامية ـ شأنها شأن حركات المجتمع المدني ـ معرضة لعوامل الضعف والقوة، والمد والجزر والانتشار والانحسار، كما أن أمامها مخاطر يجب أن تعرف كيف تخطط لاجتيازها، وفرصاً عليها أن تعلم الاستثمار الأمثل لها لخدمة الدعوة ودين الله، وهٰذا لا يتم إلا بتصحيح المسار أولاً بأول؛ لأن نسبة الانحراف والخطأ تكون قليلة، وترك هٰذه النسبة تكبر بلا مراجعة ولا تقويم يصعب من مهمة إصلاح البناء الدعوي الأصيل في المراحل التالية، وحتىٰ يمكن أن تصبح الحركة الإسلامية علىٰ مستوىٰ التحدي الحضاري المطلوب قيادة ومنهاجًا وأفرادًا، وهٰذا لا يتم إلَّا بالوقوف علىٰ مواقع الخلل وقيادة حركة إصلاح علمي داخلية، تضبط

السلوك وتقوم البرامج، وتطور المناهج، وتجدد الخطط، حتىٰ تتم النقلة المباركة ويستمر العطاء دون التفريط بأصالة البناء.

• المراجعة سمت الدعاة:

والمراجعة المطلوبة هنا ليست دعوة للتشهير أو التجريح، أو حتىٰ مجلس غيبة في الأشخاص والرايات، فهٰذا ينافي تناصح الأخوة، ويصبح هٰذا النوع من النقد الهدام معولاً لهدم البناء، وتخلخل الصفوف، وفضح العورات، وكشف الثغرات أمام الملأ بلا فائدة تعود علىٰ الدعوة.

وهنا يجب التفريق بين أمرين: **الأول معالجة التراجعات والمحن والفتن الَّتِي تمر بها الدعوة** بسبب الأخطاء البشرية وسوء التقدير للموقف، وبين الابتلاء الذي في أحيان كثيرة من سنن الدعوة.

وقد عرض لنا القرآن الكريم العديد من الأخطاء والتقصير اللَّذَيْنِ وَقَعَا من الجيل القرآني الفريد في السيرة النبوية، عندما استعرض لنا الغزوات النبوية علىٰ صاحبها أتم الصلاة والتسليم، ولم يكن ذلك انتقاصا من تضحيات الجيل الأول، ولا طعناً بسلامة مقاصدهم وإخلاص نواياهم، وصدق جهادهم، بل كان هٰذا الاستعراض لتلك الأخطاء إِنَّمَا بقصد المراجعة والاعتبار وإثراء التجربة البشرية وتقوية الصف المسلم، والتخطيط السليم للمستقبل.

ففي غزوة أحد أشار القرآن بكل صراحة إلىٰ سبب التراجع الذي أصاب المسلمين في هٰذه الغزوة: ﴿**مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا**﴾(١)، وقد عفا الله عنهم، وفي غزوة تبوك يشير القرآن إلىٰ خطورة الوقوع في خطأ الركون إلىٰ الدنيا، قال تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ**﴾(٢)، كما يعطي القرآن دروساً أخرىٰ في

---

(١) آل عمران: ١٥٢.

(٢) التوبة: ٣٨.

خطورة الركون إلىٰ كثرة العدد والاغترار به من دون نصر الله وتوفيقه، فقال سبحانه يوجه المجاهدين في غزوة حنين: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[1].

فالمراجعة إذًا مطلوبة في كل زمان ومكان، وبسبب تلك المراجعات في المنهج الإسلامي أخرج لنا العلماء والفقهاء علماً جليلاً هو «علم الجرح والتعديل»، كما أخرجوا لنا نظام «الحسبة» الَّتِي تهدف إلىٰ حفظ الشريعة والأخلاق في المجتمع المسلم، فالمراجعة تضمن عدم خروج قطار الحركة الإسلامية عن مساره الصحيح، وحتىٰ لا تبقىٰ الساحة الإسلامية تعج بمقالات الشكوىٰ من تكرار الفشل والتجارب، وليس من المنهج الإسلامي الأسلم والأصوب التستر علىٰ الأخطاء، وليس من الحكمة تقديس الوسائل المعمول بها دون أدنىٰ تفكير بنقدها وتصويبها وتجديدها، وليس في ذلك أي عيب أو انتقاص.

• قواعد النقد الذاتي:

فإذا ما نزعنا من النفوس حساسية ممارسة النقد الذاتي وفهمنا ضرورته، وجب علينا الإيمان العميق بضرورة منهج النقد الذاتي لمسار الحركة الإسلامية في مختلف مراحلها ومواقعها، فالمراجعة مهمة وضرورية في التغير للأفضل والبناء للأمثل سواء علىٰ مستوىٰ الفرد أو الجماعة، ووجود منهج مؤصل للنقد الذاتي لا شك يمنع حالات الفوضىٰ والترهل الَّتِي قد تصيب مسار الحركة الإسلامية ما بين فترة وأخرىٰ. وحتىٰ تكون عملية النقد نفسها ناجحة فلا بد من أن **تتصف بثلاث خصائص أساسية**:

١ ـ الشمولية: وهـٰذا يعني: أن النقد الذاتي يجب أن يكون شاملاً بحيث يتعرض لكل عناصر الصحوة وقياداتها دون استثناء، ولتاريخها بأكمله، وواقعها وحاضرها، ومنهجها وأهدافها، وأساليبها ووسائلها، واستراتيجياتها وتكتيكاتها،

(١) التوبة: ٢٥.

ورؤيتها المستقبلية، كل ذلك وغيره يجب أن يخضع لعملية النقد الَّتِي يجب أن لا يُعفىٰ منها أحد أو شيء فيصبح فوق النقد أو خارج الدائرة.

٢ ـ الاستمرارية: إن النقد الذاتي عملية دائمة ومستمرة ومتواصلة ويجب أن تكون كذلك، ويجب الحفاظ علىٰ ذلك بأيّ ثمن، أي يجب عدم إيقافها في أيّ زمان ومكان ولأي سبب كان، سواء علىٰ صعيد الفرد أو الجماعة؛ وذلك لضرورتها وأهميتها وحيويتها، فهي كالماء والهواء والغذاء للإنسان والجماعة، وإذا تمّ الاستغناء عنها أو تعطيلها فإن الجسد يصاب بالمرض والموت والتعفن والتحلل.

إن عملية النقد الذاتي يجب ألا تكون خاضعة في توقيتها للأهواء والأمزجة، بحيث يتم الاستنفار لها في المناسبات المختلفة وللمناسبات المختلفة، بل يجب أن تلازمنا حتىٰ نشعر بأنها جزء منّا لا نستطيع التخلي عنه في أي وقت من الأوقات.

٣ ـ الموضوعية: وهي تعني التزام جانب العدل في الحكم، والنزاهة في الموقف، وعدم التحيز أو التعصب بدون حق.

والموضوعية أهم صفات النقد الذاتي؛ لأن النقد إذا خرج عن الموضوعية كان نقدا ظالما وسلبيا وغير بنّاء.

أما صفات من يقوم بعملية النقد فهي:

١ ـ الوعي: والمقصود بالوعي هنا أن على الناقد أن يكون عالماً بطبيعة الظاهرة الَّتِي يريد نقدها، ويفضّل أن يكون خبيرا بها: ﴿**فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيراً**﴾[1].

٢ ـ الإخلاص: إن الدافع لذكر الإخلاص هنا هو أن الوعي أو العلم أو الخبرة قد لا يجدي نفعاً إذا صاحبته الأهواء والمطامع والشهوات؛ فالأهواء والمصالح الخاصة تدفع بالأفراد أحياناً إلىٰ نقد غير نزيه وغير عادل.

٣ ـ الالتزام: فعلىٰ الناقد أن لا يمارس عملاً وينقده لفظا، وإلا ذهب نقده أدراج الرياح، لذا يجب عليه أن يعمل بما يقول فقد: ﴿**كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا**

(١) الفرقان: ٥٩.

تَفْعَلُونَ﴾[1]، فمن انتقد عملاً ما، وجب عليه اعتزاله.

أما المجالات الَّتِي ينبغي أن تخضع للنقد والمراجعة فهي:

١ ـ المنهج.

٢ ـ القيادة.

٣ ـ الأفراد.

فأيّ مرضٍ أو خلل أو انحراف ينشأ في مجموعة ما، فإنما يكون ناتجا عن خللٍ في أحد العناصر الثلاثة المذكورة: (المنهج، القيادة، الأفراد).

والنقد يجب أن يوجه أولاً إلىٰ منهج المجموعة؛ لأنَّه هو الذي يصنع القيادات والأفراد، فإذا كان المنهج سليما وخاليا من النقائص والثغرات والتناقضات، فإن النقد يجب أن يتجه إلىٰ القيادة نفسها من حيث كفاءتها وقدراتها والتزامها وإخلاصها، فإذا كانت القيادة خالية من العيوب، بعيدة عن الانحراف فإن النقد سيوجّه إلىٰ أفراد الجماعة علىٰ اعتبار أن الخلل كامنٌ فيهم أو كائنٌ بينهم.

من هنا أقول: إن النقد الذاتي يجب أن يطال منهج الصحوة الإسلامية ودعاتها وأبناءها؛ بحيث لا يبقىٰ أحدٌ فوق النقد، أما أن يبقىٰ المنهج والقيادة خارج دائرة النقد خوفا من خدش قدسيتهما، فإن ذلك يحوّل هٰذه العملية الرائعة البنّاءة إلىٰ عملية ترقيعية تؤدي مع مرور الوقت إلىٰ تفاقم المرض وانفجار الموقف.

ونؤكد هنا أن لا قدسية لمنهج غير منهج الله، ولا عصمة لأحدٍ بعد رسول الله ﷺ.

ومن أسباب نجاح المراجعة:

١ ـ الإخلاص والكفاءة: حتىٰ لا تكون المراجعة والنقد جهودا عرجاء لا تمشي علىٰ رجلين لا بد من شرطين أساسيين، هما: (الإخلاص) و(الكفاءة).

- **فأما الإخلاص:** فهو إيثار الحق علىٰ كل الخلق في نقد الأعمال وتقويم

---

(١) الصف: ٣.

المواقف، بحيث يكون شعار النقد ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾(١).

• **وأما الكفاءة:** فهي امتلاك المعايير الدقيقة للنقد والمراجعة من الكتاب والسنة، والإحاطة بالواقع مع استحضار تجارب الماضي وخبرات السابقين.

ولا يغني شرط من الشرطين عن الآخر؛ إذ لو توفرت (الكفاءة) وافتقد (الإخلاص) تحول النقد إلىٰ لون من ألوان الدجل الفكري الذي يضر أكثر مما يفيد.

وأمّا إذا توفر شرط (الإخلاص) دون توفر شرط (الكفاءة) والقدرة علىٰ المراجعة والنقد: تحول النقد إلىٰ لون من ألوان الألعاب الصبيانية الَّتِي لا تقوِّم اعوجاجا ولا تُصلح فساداً، وإذن: فلا بد من توفر شرطي الإخلاص والكفاءة ليؤدي النقد دوره في ترشيد العمل ودفعه إلىٰ النمو السليم.

٢ ـ نقد الذات لا نقد الآخر: الناقد الحق ليس من يرىٰ القشة في عيون الآخرين، ويغفل عن العود في عينيه، وليس من يسكت عن الجرائم الكبيرة في فصيله الإسلامي، ويطارد الهفوات في الفصائل الأخرىٰ، وإنما الناقد الحق هو من يعكف علىٰ الذات فيربيها علىٰ أمر الله ويأخذها بشرعته (سبحانه)، تربية ميدانية من خلال (ممارسة) العمل الإسلامي (ومعايشة) معاناته اليومية، (واستشعار) التحديات المحيطة به.

٣ ـ تحقيق الإصلاح لا ترسيخ الفوضى: من السهل أن ينقد إنسان عملاً ما أو يعدد المآخذ الكثيرة علىٰ موقف من المواقف، ولكن الاختبار الحقيقي هو: هل يملك هـٰذا الإنسان القدرة علىٰ تطوير العمل الذي ينقده بحيث يرتقي به إلىٰ الأفضل، ويفتح أمامه المجالات الأرحب والآفاق الأوسع؟ وهل يقدر هـٰذا الذي ينقد موقفًا ما أن يوجهه إلىٰ كيفية القيام بدور أكبر ووظيفة أشمل؟ هـٰذا هو الاختبار الحقيقي.

إن النقد الصحيح (بِنَاء) و(مشاركة) تحيط بالعمل وتوجهه إلىٰ الأفضل، وليس مجرد المعارضة الَّتِي لا تبتغي إصلاحاً، وإنما فقط تُرسخ الفوضىٰ.

---

(١) الأنعام: ١٥٢.

٤ ـ **تبادل النصائح لا تبادل التهم:** النقد والمراجعة لابد أن يكونا في إطار من الحكمة والصبر، وفي أسلوب يضبطه قول الله عز وجل: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2]؛ ذلك أن النقد موقف (نصح) لتبادل الآراء والأفكار، وليس موقف (عداء) لتبادل الشتم والضرب!

كما أن النقد والمراجعة ليسا وصاية على الآخرين ولا إرهاباً لعقولهم، وإنما هما محاولة للتعرف على ما في ممارساتنا من خلل وخطأ للرجوع عنه، واكتشاف ما فيها من صواب للاحتفاظ به وتنميته.

بين الداخل والخارج في الصحوة الإسلامية المعاصرة ـ مثل أي حركة اجتماعية أخرى تتأثر وتؤثر محركان أساسيان، هما: العوامل الداخلية الَّتِي تعمل داخل الحركة، والعوامل الخارجية الَّتِي تتعامل معها الحركة وتؤثر فيها.

لو تأملنا في واقع الصحوة خلال العقدين الماضيين ـ أي: في السبعينيات والثمانينيات الميلادية ـ لوجدنا أن الصحوة قد اكتسبت انتشارا واسعا في جميع بلاد العالم، وأصبحت شيئا فشيئا تستفيد من الإخفاقات المتسارعة للأيديولوجيات القومية والعبثية والماركسية، الَّتِي كانت تجتذب قطاعا واسعا من الشباب المسلم.

وقد اتسمت تلك المرحلة بتأسيس كثير من المشروعات الدعوية والخيرية في كثير من بلاد العالم؛ مما مكن الصحوة من اكتساب خبرات كثيرة، إضافة إلى تكوين جذور عميقة في العمل الاجتماعي والإغاثي وبناء المساجد والمدارس، مما أكسبها التفاف الجماهير حولها، وجعل خطابها الدعوي مهيمنا في الأوساط الشعبية في البلاد الإسلامية، كما انتشرت وسائل جديدة للدعوة لم تكن مستغلة من قبل، مثل: الشريط، والمجلات، والمؤتمرات الخارجية، وقوافل ومخيمات الدعوة. . . وغيرها، وظهرت أيضًا فكرة البنوك الإسلامية وبعض مجالات الاستثمار

---

(١) البقرة: ٨٣.

(٢) النحل: ١٢٥.

الإسلامي . . . إلىٰ غير ذلك من مظاهر الصحوة أو العودة إلىٰ الدين، وكل هـٰذه الأنشطة كانت تسير في كثير من بلاد العالم دون وجود عوائق سياسية أو قانونية كبيرة.

من جهة أخرىٰ، ومع تسارع العمل الإسلامي وتشعبه، وبعد النجاحات السريعة: بدأ يلوح في الأفق التنافس بين تيارات الصحوة في اجتذاب العائدين إلىٰ الدين، وبرز كثير من الخلافات حول الأساليب المتبعة في الدعوة، وتعدىٰ ذلك إلىٰ ظهور اتجاهات الغلو من جهة والتفريط من الجهة المقابلة، بعد أن اصطدم العمل الإسلامي بالواقع المختلف للمجتمعات الإسلامية، ونظراً لكون الصحوة لم تجابه في ذلك الوقت تحدياً خارجياً حقيقياً، فقد أدىٰ ذلك إلىٰ انشغال الصحوة بنفسها حتىٰ ظن الكثيرون أن الصحوة بدأت تأكل نفسها.

• المتغيرات الداخلية:

لقد أدىٰ الانتشار الكبير الذي حققته الصحوة إلىٰ تعدد الاتجاهات الفكرية والسياسية داخل إطار الصحوة الإسلامية، واختلفت المدارس الَّتِي تسعىٰ إلىٰ جذب أكبر عدد من المناصرين لفكرته، مما خلق نوعا من التشرذم والاختلاف والتنافس غير المنضبط بالضوابط الشرعية.

وإذا أضفنا إلىٰ ذلك ضعف آليات الحوار بين تيارات الصحوة وغياب أجواء الثقة، فإن صورة تماسك العمل الإسلامي ودعم بعضه البعض تكون أكثر قتامة؛ فقد أصبح العمل الفردي المنغلق علىٰ التيار أو الإطار الفكري أو الحزب السياسي أحد السمات البارزة في العمل الإسلامي، ولعل هـٰذه السمة كانت موجودة في المراحل السابقة، أي: أنها سمة ليست جديدة علىٰ العمل الإسلامي، ولكنها أصبحت أكثر تجذراً في المرحلة الحالية، كما أن استمرارها مع وجود التحديات الخارجية المتعاظمة يجعلها تمثل أحد أهم العوائق الَّتِي ستؤثر علىٰ مستقبل العمل الإسلامي.

من المتغيرات الأخرىٰ الَّتِي أصبحت تميز المرحلة الجديدة: النفسية القلقة،

وتراجع الحماس المندفع، وازدياد الخوف علىٰ مستقبل الصحوة الإسلامية عند كثير من قادة العمل الإسلامي وشباب الصحوة.

• المتغيرات الخارجية:

لقد شهد العالم خلال الأعوام الخمسة الماضية أحداثًا متسارعة وعظيمة الأهمية؛ فقد سقطت الشيوعية رسميًا خلال هٰذه الفترة، وبرزت إعادة تشكيل مناطق الالتماس الحضاري والأيديولوجي، وانتهت بذلك الحرب الباردة، وصاحب ذلك: نشوء العديد من الحروب الإقليمية في أوروبا وآسيا الوسطىٰ وغيرها، وحدث في العالم العربي أهم حدث في تاريخ المنطقة المعاصر، وهو حرب الخليج الثانية والثالثة، الذي بدا فيه النظام العربي الذي قادته القومية العربية متصدعًا وغير قادر علىٰ الاستمرار، وبدأت في المنطقة، ما يسمىٰ بعملية (السلام) بين عدو المسلمين الأول والحكومات العربية، وبدأ العالم الغربي يرىٰ في القوة القادمة من منطقة العالم الإسلامي خطراً يهدد مصالحه في المنطقة خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر؛ مما جعله يدعو إلىٰ تحالف علماني ضد (الأصولية الإسلامية).

• الزمن جزء من العلاج:

ولقد كان من نتائج غياب البعد الزمني في تفكير الدعاة:

١ - **الابتعاد عن الأعمال المنتجة عميقة الأثر الَّتِي تحتاج إلى وقت وجهد للقيام بها**، ولا تظهر آثارها في الزمن القريب، والعنايةُ أكثر بالأعمال سريعة الأثر وقريبة النتائج، وهي مهما علا شأنها لايسوِّغ أن تكون بحال هي الميدان الوحيد الذي يفكر فيه الدعاة.

٢ - **غياب الرؤية البعيدة والنظر الاستراتيجي العميق للواقع**، وعدم دراسة المتغيرات الَّتِي تحكمه واتجاهاتها، مما يوقع المجتمعات الإسلامية أمام المفاجآت، ويحرمها من التوقع المسبق للمشكلات، ومن ثم الإعداد لها ومواجهتها، وذلك واجب ينبغي أن يقوم بأعبائه الدعاة إلىٰ الله عز وجل.

٣ ـ **التسرع في التقويم، والحكم على كثير من الجهود الدعوية الَّتِي ربما لا تظهر آثارها في الزمن القريب المنظور**، وترتب على ذلك اعتبار الابتلاءات الَّتِي تصيب الدعوة دلائل فشل وإخفاق، وافتراض ثبات الأوضاع القائمة بكل متغيراتها وظروفها.

إننا اليوم بحاجة ماسة إلىٰ إعادة النظر في طريقة تفكيرنا، وإعطاء الأمور ما تستحقه من الوقت، مما يؤمل معه أن تنتقل الدعوة إلىٰ مواقع ومساحات كانت قد حرمت منها، وأن تتسع النظرة ويبعد الأفق.

• المطلوب في المرحلة القادمة:

أولاً: إحياء الإيمان في نفوس الناس وترسيخه في قلوبهم:

فالإيمان الراسخ يعطي الإنسان قوة عظيمة تثبته علىٰ الحق، وتعصمه من نزغات الأهواء، وشبهات الأعداء، ومكائد المنافقين، قال الله ـ تعالىٰ: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ**﴾[(١)].

ولن ترتفع هـٰذه الأمة ويعلو شأنها إلا بترسيخ التوحيد والإيمان الخالص بالله تعالىٰ، إيمانًا يشرق نوره في القلوب، ويظهر أثره في الجوارح، ويصبح عقيدة راسخة في النفس رسوخ الجبال الرواسي، ويحزن المرء حزناً شديداً حينما يرىٰ أن التربية الهشة الهزيلة هي الَّتِي يكثر انتشارها في كثير من المحاضن الدعوية المعاصرة، وأن طاقات الأمة تُستهلك في أمور تُذهب حلاوة الإيمان وتُضعف جذوره. وكيف نتطلع إلىٰ النصر وتغيير واقع الأمة بنفوس كليلة لم تذق طعم الإيمان علىٰ حقيقته، ولم تتفيَّأ ظلاله الكريمة اليانعة؟!

ثانياً: إحياء الوعي في الأمة:

كشفت الأحداث أزمة عريضة في الفهم، وتجلَّت آيات هـٰذه الأزمة في قراءة الأحداث بقواعد مضطربة غير متزنة، وبأبجديات سطحية لا تتجاوز النظر إلىٰ

---

(١) إبراهيم: ٢٧.

التطبيل الإعلامي الذي يدير آلته المضللة أعداء الأمة . ورأينا وقوع كثير من الصالحين في طرفي الإفراط والتفريط :

فالفريق الأول: غلب عليه التشنج والانفعال، واستسلم لدواعي الغضب، ولم يلجمه بلجام الشرع والعقل، ولم يقدر المصالح والمفاسد بميزان الشريعة وقواعدها المحكمة، وربَّما غلَّب النظر إلىٰ بعض المصالح والمفاسد القريبة العاجلة، وقصَّر في دراسة المصالح والمفاسد البعيدة الآجلة .

والفريق الثاني: غلبت عليه الانهزامية والضعف، واستسلم لأهواء الأقوياء، وللضغوط الإعلامية والفكرية الَّتِي علا صوتها، وراح يُفسّر النصوص الشرعية بعقلية المنكسر الضعيف، حتىٰ أتىٰ علىٰ بعض الثوابت الشرعية المجمع عليها .

إنَّ إحياء الوعي الشرعي والفكري والسياسي يتطلب رؤية شاملة محددة الأهداف، واستقراء دقيقا للمعطيات المتاحة والعقبات المحتملة، ومن ثم يجب رسم خطط بعيدة المدىٰ، تخاطب شتىٰ شرائح المجتمع الفكرية والاجتماعية . ولا بد أن ندرك أن الصحوة الإسلامية مقبلة علىٰ مرحلة حرجة شديدة التعقيد، فيجب علينا أن نتجاوز العشوائية والاجتهادات المرتجلة؛ لنتخذ المنهج العلمي أساساً في هـٰذا السبيل .

ثالثاً: رصُّ الصفوف:

أكدت الأحداث الأخيرة أن جسم الصحوة الإسلامية يعاني من تمزقات محزنة، وخلافات حزبية مفرقة، أنهكت الأمة وأدخلتها في مفازة مقفرة من التنابذ والتهارش، وأشغلتها بالتدافع وبالقيل والقال، وبالصراعات الجدلية العقيمة الَّتِي تستنزف الجهود وتقتل الطاقات .

ولعلنا لا نجافي الحقيقة إذا قلنا: إن من أشد أدواء الصحوة الإسلامية تأثيراً داء التفرق والتنازع، ولن يجد أعداء الأمة داءً يخترقون به صفوف الأمة، ويحطمون به قوتها، أفضل عندهم من هـٰذا الداء، وصدق المولىٰ الحق : ﴿ **وَأَطِيعُوا**

اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1] .

رابعاً: توظيف الطاقات:

تملك الصحوة الإسلامية بحمد الله ـ تعالىٰ ـ طاقات متعددة هائلة في شتىٰ المجالات الفكرية والشرائح الاجتماعية، لكنها مع الأسف الشديد لم تحسن استثمار تلك الطاقات، ولا توظيفها توظيفاً مناسباً، وصدقت في حقها القاعدة الإدارية (٢٠/ ٨٠) الَّتِي تقول: إنَّ ٢٠ ٪ من الطاقات الموجودة تعد طاقات معطلة غلبت عليها البطالة، ولم تستوعبها الصحوة الإسلامية.

ونستطيع من حيث الجملة أن نقسم هذه الطاقات المعطلة أربعة أقسام:

الأول: طاقات عاملة دون طاقاتها الإبداعية، فلم تنجز إلا القليل الذي لا يتناسب مع قدراتها وملكاتها.

الثاني: طاقات عاملة، لكنها لم تدرّب ولم تصقل قدراتها الفكرية والعملية؛ فتوقفت عند حدّ معين لا تقوىٰ علىٰ تجاوزه.

الثالث: طاقات مستهلكة في الأعمال المفضولة دون الفاضلة، فحجبها ذلك عن الترقي في درجات العطاء والنفع للأمة.

الرابع: طاقات مهملة، أهملها المربون، وتركت بدون رعاية أو استثمار، فأصابها الوهن وتردَّت مع مرور الوقت، فاستسلمت لدواعي العجز والكسل، وتآكلت شيئاً فشيئاً حتىٰ أصبحت أثراً بعد عين. . !



---

(١) الأنفال: ٤٦.

(٣)

من أسرار الدعوة.. في صفات القائد القدوة

لا يمكن لأي منهج أن يشيع وينتشر بين الناس إذا لم يتجسد في حالة عملية تفصيلية تترجم أسس المنهج وتفاصيله في واقع الناس، والله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ عندما أرسل للبشرية المنهج الرباني علىٰ مر العصور لم يترك المنهج حالة فكرية مجردة، تعتمد علىٰ قدرات البشر ومدىٰ استيعابهم لتطبيق المنهج الرباني، بل بعث الرسل ليجسدوا هـٰذا المنهج في حياة الناس.

وما أروع عبارة أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «**كان خلقه القرآن**»[1]. بعبارة أخرىٰ، كان هو التعبير العملي عليه الصلاة والسلام والترجمة الصادقة لتعاليم القرآن والمنهج الرباني الذي اختاره الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ كرسالة سماوية خاتمة للرسالات إلىٰ يوم القيامة.

ولذا فمن العجب عند تصفح كتب السيرة مثل السيرة النبوية لابن هشام وزاد المعاد لابن القيم والشمائل المحمدية وغيرها من الكتب الَّتِي اعتنت بشخصية الرسول، أن نجد تفاصيل غاية في الدقة عن الرسول ﷺ وحياته وجهاده وكفاحه وسلاحه وملابسه، وطريقة مشيه ونومه وتسريح شعره وتبسمه وغضبه وأخلاقه وسلوكه وسفره وإقامته، ومعاهداته وحروبه وعلاقته بأهله وأزواجه وأبنائه وبناته وأصحابه وعشيرته والمحبين والمخالفين، حتىٰ علق بعض المستشرقين أن محمدا ﷺ علّم أمته حتىٰ قضاء الحاجة، مما يعكس سلوكًا مفصلاً واضحًا للقدوة الَّتِي بعثها الله سبحانه وتعالىٰ؛ ليكون للناس بشيراً ونذيراً وسراجًا منيرًا عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

والدعوة تحتاج اليوم إلىٰ القائد القدوة، خصوصا بعد هـٰذه الهالات السوداء

(١) أحمد (٦/ ٩١)، وقال الأرناؤوط: «صحيح».

الَّتِي أحاطت بمسار الدعوة بفعل المفرطين أو المغالين، كما تحتاج الدعوة إلىٰ رسم صفات القائد القدوة وإعادة توصيفها لمن كان ينبغي أن يأخذ بالعزيمة، ولكنه استسهل الرخص، ولمن كان يجب أن يتحلىٰ بالصبر ولكنه ركن إلىٰ الراحة، ولمن كان يجب أن يتمسك بالمنهج فلجأ إلىٰ أنصاف الحلول، والدعوة بمثل هـٰؤلاء سيؤول مصيرها إلىٰ الاضمحلال ومن ثم التلاشي، ما لم يحافظوا علىٰ رباعية الصفات الَّتِي تلزم القائد لكي يتحول من مجرد موجه إلىٰ قدوة يحتذىٰ به:

أولاً: توثيق الصلة بالله:

فهي صفة بارزة وسمة ثابتة لأولياء الله، فالله هو المعين، وهو القوة، وهو المصدر، وهو الغاية، فأي رباط لا يمد له فذلك رباط مقطوع، وأي يد لا تمد كف الضراعة والابتهال تجاهه فتلك اليد خائبة، وأي قلب يؤمن بذلك الإله ولا يناجيه في كل لحظة وفي كل حال، فإنه قلب ميت، فأولياء الله قلوبهم مع الله وأيديهم تجاه الله وعقولهم تسير في الله ولله، فعبادات القلوب لله سبحانه صفة بارزة لأولياء الله ﴿**إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**﴾(١).

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله، الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «**لا يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف اللَّه عز وجل**»(٢).

«والعبادة العملية تجاه الله ـ سبحانه ـ هي صفة وسمة لازمة لأولياء الله أيضا: ﴿**الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾(٣)، فمن صفتهم إقامة الصلاة وإقامة الصلاة تعني أداءها أداءً كاملاً، ومن صفتهم إيتاء الزكاة (وهم راكعون) ذلك شأنهم

(١) المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١.
(٢) الترمذي في التفسير (٣١٧٥)، وابن ماجه في الزهد (٤١٩٨)، وأحمد (٦/ ٢٠٥).
(٣) المائدة: ٥٥.

كأنها الحالة الأصلية لهم؛ إذ ترسمهم للخاطر كأن هٰذا شأنهم الدائم، فأبرز سمة لهم هي هٰذه السمة وبها يعرفون»[١].

ومن ثم الإنابة إلىٰ الله في كل شيء وعند كل طارئ وعلىٰ كل حالة: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٢].

قال أبو عثمان النهدي: تضيفت أبا هريرة سبعاً فكان هو وامرأته وخادمه يعتقبون الليل أثلاثا، يصلي هٰذا ثم يوقظ الآخر فيصلي ثم يوقظ الثالث[٣].

فالمراد بعلاقة الإنسان بالله أن تكون حياته ومماته وصلاته ونسكه لله تعالىٰ وحده ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٤]، وأن يعبده مخلصاً له الدين حنيفًا. وقد شرح النبي ﷺ هٰذه العلاقة بقوله: «**خشية الله في السر والعلانية**»[٥]، «**وأن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يديك**»[٦]، «**وأن تلتمس رضا الله بسخط الناس**»[٧]... حتىٰ يكون حب الإنسان وعداوته ومنعه وعطاؤه كله لله وحده دون أن تشوبه شائبة حتىٰ رغبته أو عزته النفسانية «**من أحب لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان**»[٨].

وأما تقوية هٰذه العلاقة فتنحصر في طريقين: طريق العزم والهمة والتفكير بدراسة القرآن الكريم والأحاديث النبوية بتدبر لتستعينوا بهما في معرفة ما يقوي الصلة بينكم وبين الله تعالىٰ، والطريق العملي وهو الطاعة المخلصة للأحكام الإلٰهية وبذل النفوس والنفائس في كل طريق يوصل إلىٰ مرضاة الله سبحانه وتعالىٰ. ومنها:

---

(١) الظلال (٢/ ٩٢٠).
(٢) الروم: ٣١.
(٣) تذكرة الحفاظ (١/ ٣٦).
(٤) الأنعام: ١٦٢.
(٥) البيهقي في الشعب (٢/ ٣٠٨)، ومسند الشهاب (٢/ ٤٦) برقم (٣١٥).
(٦) المستدرك (٤/ ٣٠١)، والبيهقي في الشعب (١٢/ ٣٨٥) برقم (٩٥٩٧).
(٧، ٨) سبق تخريجهما.

١ ـ تطهير الباطن للنفسية الإسلامية .

٢ ـ تكوين العبادات القلبية .

٣ ـ التحصن من مداخل الشيطان .

٤ ـ الانتصار على النفس وتأصيل ظاهرة التغيير .

٥ ـ إبعاد المؤثرات الدنيوية عن القلب .

٦ ـ الانشغال بهمّ العيش للآخرة .

٧ ـ تبديد الفتن من القلب بأنوار الفطنة .

ثانياً: الشعور بالمسؤولية الشرعية والشخصية:

فالداعية مسؤول مسؤولية شرعية عن القيام بواجباته وأعباء الدعوة، وفي الحديث الشريف: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»[1]، فهٰذا الشعور بالمسؤولية يرهق النفس، ويجعلها متحفزة ومستعدة للبذل والعطاء وراضية بالتضحية والإيثار عن طيب نفس، فالقائد هو الذي وضع على عاتقه آمال الأمة ومتطلبات شعوبها، وشغل فكره بقضاياها وهمومها، فعاش بين أمنيات الفقراء والمحرومين وآهات المستضعفين والمظلومين، فدفعه ذلك إلى استشعار المسؤولية وانتقل إلى خانة البذل والعمل لدين الله .

فينبغي على الداعية، أن يعد نفسه إعداداً يكون على مستوى المعركة الَّتِي تواجه الإسلام، في الداخل والخارج، وأن يكون في إيمانه أثبت من الرواسي، وأن يكون في صبره أقوى من الشدائد، وأجلد من المصاعب والأهوال .

كذلك ينبغي أن يتولد عنده شعور ذاتي بالمسؤولية الملقاة على عاتقه ـ مسؤولية العمل للإسلام ـ وأن يكون عنده استعداد كامل لتلبية ما تتطلبه هٰذه المسؤولية من حاجات ومهام، فإذا لم يكن ذا نفس طويل، وتحمل جلد، ومناعة قوية، فإنه لا يستطيع أن يقوم بتحمل هٰذه المسؤولية .

---

(١) سبق تخريجه .

فلا بد للداعية أن يتواجد فيه شعور ذاتي يحركه للعمل، ولا ينتظر التكليف الحركي لينهض بأعباء المسؤولية، بل لا بد أن يتولد في أعماقه هٰذا الشعور ويجري في عروقه كجريان الدم؛ فيحس بإحساس رباني بعظمة التكليف وأعباء المسؤولية فيقوم بادائها خير أداء، طالما يجري في دمه هٰذا الإحساس وهٰذا الشعور، فحريّ بالداعية أن يشعر أنه مسؤول عن هٰذا الإسلام، حتىٰ ولو لم يكن عضوا في جماعة، فحسبه أن يكون مسلما غيورا علىٰ دينه وعقيدته ومبادئه الإسلامية الَّتِي ينتسب إليها.

والحركة الإسلامية في هٰذه الأيام في أمسّ الحاجة إلىٰ العناصر الَّتِي تتحرك ذاتيا نحو مسؤوليتها، بحاجة إلىٰ عناصر تتقد نفوسها شعورا وإحساسا بواجباتها الإسلامية، بحاجة إلىٰ عناصر يغلي فيها الشعور بالمسؤولية غليانًا، وهي تريد عناصر لا يهدأ تفكيرها للعمل لهٰذا الدين ساعة من ليل أو نهار، ومرجعنا وقدوتنا في الشعور بالمسؤولية، هو رسولنا الكريم، فهو خير من مثل هٰذا الشعور بمسؤولية العمل للإسلام.

فقد قام خير قيام للعمل للإسلام، ضحىٰ كثيرا من أجل هٰذا الدين، بل قدم التضحيات تلو التضحيات، فقد خرج من بلده - مكة - وهي أحب بلاد الله إليه، وعانىٰ مشقة الطريق، وصبر علىٰ أذىٰ قريش، واتهامهم له بالجنون، وقد كان يلقب عندهم بالصادق الأمين، واتهموه بالكذب والشعوذة، وسلطوا عليه الغلمان والصبيان، فضربوه بالحجارة حتىٰ أُدميت قدماه، وهو صابر؛ لأنه يشعر بالتبعة وعظم المسؤولية، ولو انحرف قليلاً لهلك، ولقد حماه الله من أن ينحرف أو يركن شيئاً قليلاً إلىٰ الكفار قال تعالىٰ: ﴿ **وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً * إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً** ﴾[1].

ولما وصل إلىٰ المدينة، لم يهدأ تفكيره لحظة واحدة عن العمل للإسلام، بل هجرته للمدينة من صميم العمل للإسلام، فقد أخذ يبني الدولة الإسلامية بمعونة

---

(١) الإسراء: ٧٤، ٧٥.

أصحابه من الأنصار والمهاجرين، وهو في هـٰذه الأثناء يعلمهم أمور دينهم، ويشرع لهم ما ينزل عليه من السماء، ويجاهد معهم ويقود الغزوات بنفسه، ومرة يبعث السرايا، وكان بوده ﷺ ألَّا تفوته أي سرية في سبيل الله، ولقد أوضح ذلك بقوله: **«والذي نفسي بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغدو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا، ثم أقتل»**[(١)] .

نعم لقد قام ﷺ بواجب المسؤولية تجاه الإسلام خير قيام، فبلغ الرسالة، وأدىٰ الأمانة، وجاهد في الله حق جهاده، وانتقل إلىٰ الرفيق الأعلىٰ والإسلام قد كملت شرائعه وأحكامه قال تعالىٰ: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً** ﴾[(٢)] .

وأخذ الصحابة من بعده ﷺ هـٰذه المسؤولية والشعور بالتبعة العظيمة، وأحسنوا أداءها، والقيام بها علىٰ أحسن وجه.

كان شعورهم بالمسؤولية، شغلهم الشاغل في جميع الظروف وجميع الأحوال، كان محور حياتهم وتفكيرهم ساعة العسر واليسر، قال زيد بن ثابت: «بعثني رسول الله ﷺ ـ يوم أحد ـ أطلب سعد بن الربيع، فقال لي: إن رأيته فأقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله: كيف تجدك؟ قال: فجعلت أطوف بين القتلىٰ فأتيته وهو بآخر رمق وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة رمح وضربة سيف، ورمية سهم، فقلت: يا سعد إن رسول الله يقرأ عليك السلام ويقول لك: أخبرني كيف تجدك؟ فقال سعد: علىٰ رسول الله السلام، قل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلىٰ رسول الله وفيكم عين تطرف، وفاضت نفسه من وقته»[(٣)] .

---

(١) البخاري (٢٧٩٧)، ومسلم في الإمارة (١٨٧٦).

(٢) المائدة: ٣.

(٣) الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٢١) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقال الذهبي: «صحيح».

ثالثاً: احتساب الأجر:

فطريق الدعاة شائك وصعب وطويل، وهو طريق الأنبياء والمجاهدين والصالحين، ومن الصعب الثبات علىٰ هٰذا الطريق إذا ارتبط العمل بالمنافع الدنيوية، فهذا طريق تلفت فيه النفوس، وبذلت فيه الدماء، واستفنيت فيه الأوقات والأعمار والأقوال والجهود، كل ذلك نصرة لدين الله وشريعته. ولا يمكن أن يستمر الداعية في العطاء والبذل والتضحية بنفس واحد وفي كل الأحوال والظروف دون أن يجد في نفسه لذة ترحيل الكسب والأجر والثمرة إلىٰ الدار الآخرة، فإذا كان الناس يعملون في الدنيا وللدنيا ويقبضون رواتبهم وأجورهم من بشر مثلهم قد ينصفونهم وقد يظلمونهم، فإن الداعية أجير يعمل عند الله ويحتسب الأجر عنده في الدار الآخرة.

فالبشائر تلوح والكرم الإلٰهي تبدو مقدماته في حياة الداعية أنساً وطمأنينة. ولعل هٰذا الشعور الفياض بالطمأنينة والأنس رغم قطرات العرق والجسد المنهوك هو الذي يعطي للدعاة اللذة الَّتِي لا يجدها أحد في الدنيا مثلهم، حتىٰ قال قائلهم: «لو يعلم الملوك ما نحن فيه لقاتلونا عليه بالسيوف» فاحتساب الأجر هو الوقود الذي يزود الداعية بطاقة الاندفاع لزراعة بذرة الخير. وهٰذا الدافع لا تتضح معالمه، ولا يقوىٰ في النفس إلَّا إذا عاد إلىٰ الركن الأول وهو توثيق الصلة بالله ـ سبحانه وتعالىٰ.

رابعاً: الإنفاق في سبيل الله:

فالقائد القدوة لا يمكن أن يكون شحيحا علىٰ فكرته، يعمل من أجلها بالليل والنهار ثم يراها تثمر أمام عينيه، ولا يمكن أن يرتقي لأستاذية القدوة دون الوسائل الصحيحة علىٰ صدق دعواه، فالصدق تصديق لما يعتقده الداعية تجاه دينه ودعوته، وفي الحديث الشريف: «**والصدقة برهان**»[1]، فمنزلة الريادة تقتضي الكرم الكثير والبذل للناس.

---

(١) مسلم (٢٢٣)، والدارمي (٦٧٨)، وأحمد (٥/ ٣٤٢)، عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

ورسولنا الكريم ﷺ لم يكن يقول: لا، إلَّا في تشهده وكان أجود بالخير من الريح المرسلة، وانظر إلىٰ رفيقه وصاحبه الصديق رضي الله عنه الذي كانت له دار تطل علىٰ المسجد النبوي وملاصقة له، ولم تزل عنده بعد وفاة رسول الله ﷺ حتىٰ احتاج إلىٰ بذل مال ليعطيه لبعض الوفود، فباعها فاشترتها منه حفصة أم المؤمنين بأربعة آلاف درهم.

فمن كان ضعيف الإيمان، لا يدرك معنىٰ الكرم، والعطاء، والبذل، وإنما يدرك جمع المال، والتكالب علىٰ الدنيا، مما يورث لديه شراهة وطمعاً، كما يورثه حرصاً وشحا.

فالإيمان بالله واليوم الآخر، له دور كبير في تغيير موازين الإنسان؛ حيث يجعل منه إنسانا كريمًا، جواداً معطاء.

ولقد كان الرسول ﷺ أجود الناس، يعطي عطاء من لا يخشىٰ الفقر، وسيرته العطرة حافلة بالكرم النبويّ، ولقد استطاع الرسول ﷺ أن يربي صحابته علىٰ هٰذه الصفة الفاضلة، وكان أكرمهم بعد رسول الله ﷺ صاحبه وخليفته، أبو بكر الصديق رضي الله عنه، حتىٰ نزلت فيه آيات تتلىٰ إلىٰ يوم القيامة وهي قوله تعالىٰ: ﴿ **وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ❊ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ❊ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ❊ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ ❊ وَلَسَوْفَ يَرْضَى** ﴾[1].

قال ابن كثير في تفسير هٰذه الآية: (وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هٰذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ حتىٰ إن بعضهم حكىٰ الإجماع من المفسرين علىٰ ذلك).

ويأتي بعد أبي بكر الصديق دور الصحابة الكرام، في كرمهم وجودهم وبذلهم، أمثال عثمان بن عفان وعبد الرحمٰن بن عوف وغيرهم من الصحابة الذين بذلوا أرواحهم وأموالهم وأهلهم ابتغاء مرضات الله تعالىٰ، وطلباً لما عنده،

---

(١) الليل: ١٧ ـ ٢١.

وتاريخهم الزكي يسطر ذلك بفخر واعتزاز .

وعلىٰ دعاة الإسلام ، والعاملين في الصف الذين يريدون أن يتصدوا للباطل أن يكون كل فرد منهم جوادًا كريمًا ، باذلاً نفسه وماله في سبيل الله .

ولقد حث القرآن الكريم المؤمنين علىٰ هـٰذه الصفة الَّتي هي إحدىٰ أمارات الإيمان ، قال تعالىٰ : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾[1] .

وآيات كثيرة تحث الهمم علىٰ الاتصاف بصفة الكرم والإنفاق في سبيل الله ، والنفس البشرية ضعيفة ، شحيحة ، إلا من عصم الله ، ولا تطهر من هـٰذا الشح ، إلا أن تغمر بالإيمان ، وترتفع علىٰ ضرورات الأرض ، وتؤمل من الله رضواناً أكبر وعوضاً أعظم ، قال تعالىٰ : ﴿ **وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ** ﴾[2] .

وما يبذله الإنسان في سبيل الله ، فسوف يجد ذلك أمامه يوم القيامة ، قال تعالىٰ : ﴿ **وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾[3] .

فمن يبخل بالبذل والعطاء والجود ، فإنما يبخل عن نفسه ، ويقلل من رصيده يوم القيامة ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .



---

(١) الأنفال : ٢ ـ ٤ .

(٢) محمد : ٣٨ .

(٣) البقرة : ١١٠ .

(٤)

حتى لا تَنْقَرِض الذاتية الدعوية

إشكالية تقديس الأفراد في العمل الإسلامي إشكالية ليست بجديدة، والحديث عنها مكرر ومعاد، ونتائج هٰذا التقديس غير الحميد وخيمة علىٰ الدعوة وعلىٰ القواعد الدعوية، فالتقديس الذي يحول الرموز الدعوية إلىٰ ما يشبه الأصنام الَّتِي يجب ألا تمس ذواتها خطير حتىٰ علىٰ منهج الدعوة ومستقبلها، فهو يمنع من الرؤية الحيادية المنصفة لهٰذا الرمز باعتباره بشراً يصيب ويخطئ، كما أنه يحول القواعد الدعوية إلىٰ ريموت كونترول لا تتحرك وتندفع للعمل والدعوة لدين الله إلَّا بناء علىٰ توجيهات من مستويات دعوية عليا، كما أن هٰذا التقديس يمنع تنمية الذاتية الدعوية ويحول دون تطورها، بل وقد يؤدي هٰذا التقديس بربط مصير القواعد الدعوية بمصير الرموز، فإن سقط رمز من الرموز لسبب أو لآخر، تبعه العشرات أو المئات بل والآلاف من القواعد الدعوية، وكان الأولىٰ بالقواعد الدعوية أن تفرق بين الاحترام لتلك الرموز وسابق بذلها للدعوة، وبين الخروج من شرنقة التَّبَعِيَّة القاتلة الَّتِي تمنع التجديد في الوسائل والآليات لخدمة الدعوة في عصور مقبلة، وتختلف عن معطيات العصور السابقة الَّتِي برزت فيها تلك الرموز.

إن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ لا يحاسب الناس يوم القيامة بالجملة، فهٰذه الجماعة كلها ناجية وهٰذه الجماعة كلها هالكة، والانتماء للدعوة من خلال العمل الجماعي لا يعطي صك غفران للدعاة المنتمين لتلك الجماعات، إنما هي أعمال العباد يحصيها الله لهم أو عليهم، كل بشكل فردي، ثم يحاسبهم عليها يوم القيامة، وإذا كان الإنسان يسعىٰ لتدعيم سيرته الذاتية بالعديد من الخبرات والشهادات والدورات ليحصل وظيفة في الدنيا، فإن الداعية مطالب بالإبداع الذي يخرجه من الأسر الفكري لما يطرحه الرموز في كتاباتهم وخاصة الحديثة منها في القرن الأخير، ويكون لنفسه البناء الدعوي الذي يضع فيه بصمته، وندعو في هٰذا المجال إلىٰ موقف

وسطي، فلا ندعو إلىٰ رفض كتابات هـٰذه الرموز بالمطلق فهي كتابات ناتجة عن معاناة دعوية وتراكم خبرات جيل التأسيس الذي كان في أغلبه من القياديين الرواحل، وحازت كتاباتهم ومؤلفاتهم وأفكارهم علىٰ قبول واسع في العالم الإسلامي، ولا زالت طبعات كتبهم تتكرر وتتجدد بسبب الإقبال علىٰ اقتنائها. وهـٰذا من توفيق الله وفضله عليهم، ومسحة الإخلاص الَّتِي لولاها لما استمر هـٰذا الخير بالتدفق.

كما أننا لا نريد من جيل الدعاة الجديد أن يبقىٰ أسيراً لتلك الأفكار الكبيرة والعظيمة في الدعوة والعمل الجماعي، بل عليه أن يحافظ علىٰ الأصول والقواعد وينطلق مبدعا ومجددا في الوسائل والآليات، بل وحتىٰ الغايات المرحلية، فآلية العمل في عقود المحن والفتن الَّتِي مرت بالدعوة ليس بالضرورة أصبحت مناسبة في وقت يضج فيه العالم بالمتغيرات ويقل بالثوابت.

إن غاية ما نطلبه من جيل الدعوة الجديد أن يحرص علىٰ ذاتية الاندفاع الدعوي في مجال الفكرة وفي مجال التطبيق، فالدعوة ليست تحت وصاية أحد من الرموز الدعوية وإن كان لها احترامها وإجلالها، والدعوة ليست ملكا شخصيا لجماعة أو تيار أو هيئة أو مؤسسة، وإنما هو سبيل مفتوح يجمع فيه الداعية إلىٰ الله مجموعًا حسنًا يؤهله للقبول في جنة الله حيث النعيم المقيم.

إن للذاتية الدعوية أسبابا يجب أن يحرص عليها الدعاة، حتىٰ لا تنقرض هـٰذه الذاتية، ويقل المبادرون في ميزان الدعوة، فيصاب العمل الإسلامي بالجمود ومن ثم الترهل ومن ثم الاضمحلال، فمن الضروري أن تكون كتيبة المبادرة في الدعوة هي الَّتِي تقود الركب إلىٰ مشاريع الدعوة الجديدة، وبأفكار تلهم الآخرين سبل التجديد والإبداع، وهي عناوين أثبتت الدعوة غير مرة أنها أهلاً لها، وقادرة عليها، بل هي سمة من سماتها الملاصقة لها بشكل حيوي ومتجدد.

• وسائل اكتساب الطبيعة التنفيذية:

■ الوسيلة الأولى: الفهم الشامل الموزون للإسلام:

علينا ـ حين نفهم الإسلام ـ أن نفهمه بشموله ونقف على حقائقه وأحكامه ونعنى بقواعده وأصوله وأن نتدارسه من مصدريه الأساسيين: الكتاب والسُّنَّة، وأن نلتمس تطبيقه في سيرة رسوله ﷺ، وألا نصطدم في إدراك حقائقه بفهم سلف الأمة الصالح.

ولا بد لنا إذ نتدارس الإسلام من أن نحذر تأثير الأوضاع والظروف الَّتِي نحياها في فهمنا له.. فالإسلام يجب أن يفهم بعيدا عن أوضاع نفسية خاصة أو بيئات تاريخية محددة، بل يجب أن يفهم خالصا نقيا كاملاً من مصدريه الأساسيين وتتحدد ظروفنا وأوضاعنا تبعا له وقياسا عليه.

على أن تطاول الزمان واختلاف البيئات وتتابع الأحداث طمست في نفوس الناس حقائق وأدخلت فيها أهواء، فتعددت أفهام الناس للدين الواحد، والحق لا يتعدد، فكان لا بد من التنبيه والإشارة إلى حقائق هي من بديهيات هـٰذا الدين.

الحقيقة الأولى: وهي أن الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل على إقامة الحق وزهق الباطل واجبة على كل مسلم بما يقدر عليه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله: «وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره، فما قام به غيره سقط عنه، وما عجز عنه لم يطالب به، وأما ما لم يقم به غيره وهو قادر عليه، فعليه أن يقوم به.

ولهـٰذا يجب على هـٰذا أن يقوم بما لا يجب على ذاك، وقد تقسطت الدعوة على الأمة بحسب ذلك تارة وبحسب غيره أخرى، فقد يدعو هـٰذا إلى اعتقاد الواجب وهـٰذا إلى عمل ظاهر واجب، وهـٰذا إلى عمل باطن واجب، فتنوع الدعوة يكون في الوجوب تارة وفي الوقوع أخرى» انتهى [(١)].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٦٦).

ولقد حث القرآن الكريم في كثير من آياته على فرضية الدعوة إلى الله ووجوبها على كل مكلف، فكل بالغ عاقل من الأمة الإسلامية مكلف بهـٰذا الواجب، ذكراً كان أو أنثى، فلا يختص العلماء أو كما يسميهم البعض رجال الدين، بأصل هـٰذا الواجب؛ لأنه واجب على الجميع، وإنما يختصون بتبليغ تفاصيله وأحكامه ومعانيه نظراً لسعة علمهم به ومعرفتهم بجزئياته، ومما يدل على ذلك قوله وتعالى: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[1].

فأتباع الرسول ﷺ المؤمنون به، يدعون إلى الله على بصيرة، أي على علم ويقين، كما كان رسولهم ﷺ يدعو، ومعنى ذلك أن من اللوازم الضرورية لإيمان المسلم أن يدعو إلى الله، فإذا تخلف عن الدعوة دل تخلفه هـٰذا على وجود نقص في إيمانه يجب تداركه بالقيام بهـٰذا الواجب.

واستشعار الداعية لفرضية الدعوة يبعث في نفسه الهمة للعمل والحث على التنفيذ، ذلك أنه لا تراخ في الفريضة ولا نكوص عن الواجب، تراه «أسيراً في يد الشريعة، ديدنه السنة، فإذا هو بمنأى عن البدعة، وما لم يكن أمر رسول الله ﷺ، مشربه كوثر الحديث النبوي وحوض الخير المصطفوي، فهو يكرع من سلسبيل الإسلام الخالص، ويشرب من عين الإيمان الصرف، فحق له أن يكون من أهل السنة الخالصة والجماعة الناجية، إن سئل عن طريقه قال: الاتباع، وعن خرقته قال: لباس التقوى، وعن مقصوده ومطلوبه قال: يريدون وجه الله، وعن قضائه لوقته بالغدو والآصال قال: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ**﴾[2] وفي ميادين الدعوة ورد الناس إلى طريق الحق.

الحقيقة الثانية: هي أن الدين لا يقوم ولا ينتشر إلَّا بالجهد البشري وبالطاقة الَّتِي يبذلها أصحابه والمؤمنون به وبالإمكانات الَّتِي يملكونها ويسخرونها في سبيله، وبغير هـٰذا لا تقوم لهـٰذا الدين قائمة ولا يرجى لها أن تقوم.

---

(١) يوسف: ١٠٨.

(٢) النور: ٣٦.

وهـٰذه حقيقة عريضة في هـٰذا الدين، وبديهية من بديهياته الأولىٰ عرضها القرآن الكريم في ثنايا نصوصه في مواضع متفرقة، وفي أحوال مختلفة، وفي تعقيباته علىٰ أحداث واقعية وقعت للفئة المسلمة وقت نزول القرآن، كوقعة أحد ويوم حنين، مؤكداً عليها ومدللاً علىٰ صدقها من واقع حياتهم.

إن هـٰذا الدين منهج إلهي للحياة البشرية ويتم تحقيقه في حياة البشر بجهد البشر أنفسهم في حدود طاقتهم البشرية، وفي حدود الواقع المادي للحياة الإنسانية في كل بيئة، ويبدأ العمل من النقطة الَّتِي يكون البشر عندها حينما يتسلم مقاليدهم، ويسير بهم إلىٰ نهاية الطريق في حدود طاقتهم البشرية، وبقدر ما يبذلونه من هـٰذه الطاقة.

واستقرار هـٰذه الحقيقة في النفوس يجعلها أكثر جدية في تحمل أعباء هـٰذا الدين وأقدر علىٰ النهوض بواجباته؛ لأنها تشعر بأن قعودها عن قافلة الدعوة تفريط في الأمانة الكبرىٰ ودفع للباطل أن يحيا، وهو ما لا يستقيم مع أوليات الإيمان فكيف بمرتبة الدعوة والجهاد؟

فتذكر أخي الداعية أنك علىٰ ثغر عظيم ودعوة كريمة، وأنك قد استؤمنت علىٰ أمانة كبرىٰ قد ناءت عن حملها السماوات والأرض والجبال فعهدت إليك، فكن حريصا تجد حبل الله منك قريبا، كن عليها أمينا تنزل عليك رحمة الله وتحوطك عنايته وتغشاك رعايته، وإياك أن تلهو عنه أو تغفل فإنها فرصة الشيطان يترقبها فيك، وينتظر سهوك عنها ساعة، فكن أفطن منه وأذكىٰ، وعض علىٰ أمانتك بالنواجذ وتعهدها بروحك ونفسك فإنها غالية غالية.

الحقيقة الثالثة: تتعلق بغاية وجود الإنسان في الحياة ودوره فيها، فرسالة الإنسان في الحياة هي عبادة الله تعالىٰ بمعنىٰ العبادة الواسع الكبير الذي يتجاوز علاقة الإنسان الفردية بربه إلىٰ علاقته بالحياة: عمارة الأرض واستخلافه فيها وتفجير طاقاتها ومكنوناتها، واستغلال خبراتها، والاستفادة من قواها بشرط توجيه القصد وموافقة الشرع في كل ذلك، ويتجاوز ذلك إلىٰ علاقته بالناس، ودعوتهم إلىٰ هـٰذا

الحق الذي معه لإخراجهم مما هم فيه من ظلمات الجاهلية والشرك إلىٰ نور الإسلام والحق، ومجاهدتهم في إعراضهم، والصبر علىٰ أذاهم فذلك ما عليه، ولا عليه إن هم آمنوا به أو لم يؤمنوا، قبلوا دعوته أو رفضوها؛ لأنه لا سلطان له علىٰ قلوبهم، وحسبه أن يبلغ دعوة الله، وأن يقيم شرعه في الأرض، ولا عليه بعد ذلك إلىٰ أي طريق تتجه أو تسير.

ولا بد لهـٰذه الحقيقة من أن تستقر في النفوس كي لا يتسرب إليها اليأس ولا ينتابها الملل، فوظيفتها التبليغ والبيان، وليس علينا أن نشق عن القلوب لندخل فيها الإيمان.

- **الوسيلة الثانية: الإيمان العميق، والحماسة الفياضة، والتقوى والورع، والإخلاص والتجرد:**

وكلها آثار لتغلغل العقيدة في القلب واتصال الروح بالله وامتلاء النفس بمقامه، «وأصحابها رجال لأفئدتهم لوعة، ولقلوبهم لذعة، فإذا نومهم قليل، وكلامهم عند الضرورة فحسب، تجد عليهم روح السلوك إلىٰ الله، وبهجة المحب للرب، قد أيقنوا أن نفوسهم إن تركت بلا محاسبة ومراقبة كانت رأس البلاء، ومعدن الفضيحة».

لذلك كان تعميق الإيمان وزيادة اليقين هدفه الأول في ميدان الإصلاح والتوجيه فعكفوا علىٰ نفوسهم بالتزكية والتطهير وبالإرشاد والتوجيه حتىٰ سلس لهم قيادها، وسهل عليهم علاجها، ولا شك أن لتزكية النفوس والتقوىٰ، والإخلاص والتجرد أسبابًا كثيرة وأبوابا من أهمها:

أولاً: الذكر وقراءة القرآن:

وهـٰذا باب من أوسع الأبواب ومن أيسرها وأكثرها أجراً وأجداها نفعاً، فبالذكر يطمئن قلب الإنسان ويخشع، وبه يستشعر الذاكر عظمة الله تعالىٰ، ويتذكر أن كل شيء في هـٰذا الوجود يسبح معه ويحمد الله تعالىٰ علىٰ النعم العظيمة الَّتِي أسبغها عليه من سمع وبصر ومأكل ومشرب وملبس... إلخ، ويكبر الله مستشعراً

أنه مع الله الحق الذي لا يكبر بجانبه كبير، ويحس أنه لا يخشىٰ أحدا إلَّا الله وحده، ناظرا إلىٰ الدنيا وطغاتها باستهزاء واستعلاء، لاتصاله بالله الكبير المتعال.

ولا بد للذَّاكر أن يراعي أمورا مهمة حتىٰ يكون ذكره لله مؤثراً في نفسه وأهم هـٰذه الأمور:

أ- **ذكر الصيغ الواردة:** ولا شك أن الذاكر له أن يذكر الله بما يشاء وما يطمئن له قلبه وينطق به لسانه، غير أن رسول الله ﷺ علمنا أذكارا معينة في كل حال من أحوال المسلم هو من خير الذكر وأحسنه؛ لأنه أوتي ﷺ جوامع الكلم، وأفضل الذكر ما ورد في القرآن ثم في السنة المطهرة.

ب- **التفكر فيما يذكر:** فالذكر الذي تعبدنا الله تعالىٰ به إنما جعله شفاء للنفوس: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، فحين نسبح الله تعالىٰ علينا أن نستشعر عظمته وجلاله ونحس بأن الوجود كله يسبح معنا، وحين نحمده سبحانه، نتذكر نعم الله الظاهرة والباطنة، وحين نقول: الله أكبر... نحس بعزة الإيمان وقوته؛ لأن الله هو القوي العزيز، وهكذا مع سائر الأذكار.

جـ- **الخشوع:** فلا بد من الخشوع في الذكر؛ لأننا نذكر العظيم الجليل الواحد الأحد... ولا بد أن يتناسب ذكرنا له مع مقامه وجلاله - سبحانه.

ولقد قلنا: إن أفضل الذكر قراءة القرآن، فالقرآن هو أقوىٰ سلاح في يد المؤمن في هـٰذه الدنيا، فإن كل شيء يطرأ عليه التبديل والتغيير إلَّا هـٰذا الكتاب الكريم ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾[2]، لذلك وجب علىٰ الداعية كثرة النظر في كتاب الله وأن يخصص لنفسه ورداً يومياً لا يتركه بحال من الأحوال.

ولا بد لنا ونحن نقرأ القرآن أن نقرأه علىٰ أنه روح من الله تعالىٰ، إنه تعالىٰ يأمرنا وينهانا، فلا بد لنا حين نقرأ القرآن من أن نستحضر عبوديتنا لله تعالىٰ، وأن

---

(١) الإسراء: ٨٢.
(٢) فصلت: ٤٢.

نتأمل فيه ونتدبر معانيه ونقف علىٰ عبره وعظاته.

ثانياً: ذكر الموت والإحساس بالغربة في الحياة:

ويكون شعاره ذلك الشعار الذي رفعه النبي ﷺ حين قال: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»[1]، فيعيش المسلم في هـٰذه الحياة كالغريب الذي لا يأوي إلىٰ شيء، ولكنه يظل دائما في شوق إلىٰ دياره يترقب لقاء الله، كما يترقب الغريب لقاء الأهل والولد، ويترقب رحمته ومغفرته، ويكون الموت منه علىٰ مرأىٰ ومسمع، ينتظره في كل لحظة ويستعد له في كل حال، ينظر إلىٰ القبور فيرىٰ سكونها وهدوءها ليشعر أن تحت التراب أناسا مثله قد أفضوا إلىٰ ما قدموا، فمنهم الذين اسودت وجوههم وازرقت عيونهم، وكأني به يرىٰ الملائكة الَّتِي تعذبهم ولا تأبه بصراخهم وعويلهم، ويحس بضمة القبر وقد أطبقت علىٰ أضلاعهم، ثم ينظر إلىٰ التراب نظرة أخرىٰ فينظر إلىٰ أهل النعيم والجنات، مبيضة وجوههم، هادئة أرواحهم مطمئنة نفوسهم، ينظرون إلىٰ رحمة الله تعالىٰ ويحمدونه علىٰ النعيم، فيأخذ من هـٰذا الموقف زادا له في دربه وصدق رسول الله ﷺ إذا يقول: «**أكثروا ذكر هادم اللذات**»[2]؛ يعني الموت.

اذكر الموت هادم اللذات ... وتجهز لمصرع سوف يأتي

وما نعيم الدنيا إلَّا «كخيال طيف أو سحابة صيف، فهو ظل زائل، ونجم قد تدلىٰ للغروب، فهو عن قريب آفل، قال النبي ﷺ: «**ما لي وللدنيا؟ إنما أنا كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها**»[3]، وقال: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع**»[4].

---

(١) البخاري في الرقاق (٦٤١٦)، والترمذي (٢٣٣٣)، وابن ماجه (٤١١٤)، وأحمد (٢/ ٢٤).

(٢) الترمذي (٢٤٦٠)، وابن أبي شيبة (٨/ ١٢٨)، والمعجم الأوسط للطبراني (١/ ٢١٣) برقم (٦٩١)، والبيهقي في الشعب (١٠٥٥٩).

(٣) البيهقي في الشعب (٩٩٣٠)، وأحمد (٢٧٤٤)، وأورده الألباني في «الصحيحة» برقم (٤٣٩).

(٤) مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٥٨)، والترمذي في الزهد (٢٣٢٣)، وابن ماجه في الزهد (٤١٠٨)، وأحمد (٤/ ٢٢٩).

■ **الوسيلة الثالثة: الإكثار من التفكر في خلق الله:**

وهٰذه عبادة تركها كثير من الناس وزهدوا فيها. فحري بالدعاة أن يعيدوها ويحيوها، كيف لا؟! وقد ألزمهم بذلك ربهم ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا**﴾(١)، وهي عبادة جليلة، وقربة إلىٰ الله تعالىٰ عظيمة تترك في النفوس أثراً لا يمحىٰ وتسكب في القلوب رغبة ورهبة، وتنزع منها شرورا في النفس خافية.

ولذلك فقد مدح الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ المتفكرين في خلقه فقال: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾(٢).

وحين نزلت الآية السابقة قال رسول الله ﷺ: «**ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها**»(٣). ولأمر ما كان رسول الله ﷺ يختلي في غار حراء قبيل بعثته الليالي الطوال يتفكر في خلق الأكوان وفي أمر الحياة.

• الأساليب المعينة على تنمية الذاتية الدعوية:

بعد أن استعرضنا خطورة الجمود عند عطاء الرموز وخلق هالة من التقديس تحول وتمنع التمدد الدعوي الذاتي، بحيث تفتقر الدعوة بسبب ذلك إلىٰ المشاريع الإبداعية والتجديدية الَّتِي تقود التوجهات وترسم ملامح المستقبل للدعوة، وقد رأينا العديد من الحركات الإسلامية والجماعات الدعوية بسبب فقدان تنمية الذات الدعوية قد آل مصيرها في المرحلة الأولىٰ إلىٰ الجمود لالتزامها وتيرة التقليدية والتكرار، فلم تعد تملك الجاذبية الجماهيرية، وهٰذا أدخلها في دوامة التراجع،

---

(١) سبأ: ٤٦.

(٢) آل عمران: ١٩٠، ١٩١.

(٣) ابن حبان (٦٢٠)، وقال الأرناؤوط: «صحيح علىٰ شرط مسلم»، والطحاوي في مشكل الآثار (١٠/ ٢٣٦) برقم (٤٠٠٩).

يدعمه الافتقار إلىٰ التجديدات الدعوية والحيوية الحركية ؛ مما آل بها في النِّهَايَة إلىٰ التراجع والنكوص بما يشبه الانقراض ، وهـٰـذه الحالة لا تنطبق علىٰ التجمعات الإسلامية فقط ؛ فهناك العديد من الأحزاب الأخرىٰ وحركات الاجتماع الإنساني قد تحولت إلىٰ ما يشبه الذكريات أو هي إلىٰ عمل المتاحف أقرب ، وبعض هـٰذه الأحزاب ترىٰ بشكل واضح كهولة الصف القيادي وافتقاد الدماء الجديدة ، وتحول الحزب إلىٰ ما يشبه ساعة التنبيه الَّتِي تصدر البيانات السياسية في ذكرىٰ بعض الأحداث وكأنه أرشيف روتيني درج عليه الحزب منذ سنوات ، والذي يختلف في حال العمل الإسلامي أن الدعوة :

أولاً : ليست ملكاً شخصياً لطرف أو رمز.

ثانياً : منطلقها مصالح الآخرة: فاللقاء ليس علىٰ مصالح الدنيا ، وبقدر ما تقترب الحركة من هـٰذه المعادلة تتقدم ، وبقدر ما تخل بها تتأخر وتجد العقبات والصعوبات منتصبة أمامها .

ونستكمل بقية الوسائل المعينة علىٰ تنمية الذاتية الدعوية ، ولا بأس أن يكتب المهتمون بهـٰذا الموضوع العناصر السابقة وكذلك العناصر الآتية علىٰ ورقة صغيرة يتذكرونها ما بين وقت وآخر ، حتىٰ تستمر الدوافع الخيرية في تنمية الذاتية عند كل فتور وتراجع .

■ **الوسيلة الرابعة: حب الدعوة والغيرة عليها:**

والحب عاطفة وفطرة ربانية فطر الله الناس عليها «والحب يورث شدة الولاء ويبعث علىٰ العمل والاجتهاد قربىٰ إلىٰ المحبوب وابتغاء مرضاته ـ عملاً من تلقاء النفس وطوعها لا يراقب منفعة مرجوة ولا تحده مراعاة أجر مرغوب» .

«والإنسان بالغريزة المركوزة فيه يحب نفسه ، ويشمل بعاطفته كل شيء يتمثل نفسه فيه أو يرىٰ وجوده ممتدا إليه ـ وذلك هو سبب حب الإنسان لما ينتسب إليه من أهل وملك وموطن ـ وما يشاكله ويلائمه بأي وجه من الوجوه ، وبهـٰذا المعنىٰ أيضًا

يحب الإنسان ربه متىٰ اهتدىٰ إليه فوجوده كله لله وقيامه ودوامه به، ورجوعه إليه تربطه بربه وشائج أوثق من كل قرابة، لأنه أثر منه تعالىٰ، صنعه بيديه، ونفخ فيه من روحه ولقنه من علمه، وحاطه برحمته وقدرته».

ويكاد يكون مركز هٰذه العاطفة ـ عاطفة الحب ـ هو ذات الإنسان نفسه، فكلما اتصل الشيء بذاته كان أقرب إليه وأحب إلىٰ نفسه، وهكذا حين ينغرس في قلب الإنسان أنه مخلوق لله تعالىٰ قائم به وراجع إليه وبأنه أثر منه سبحانه وأن وجوده متصل بوجوده، تمتلئ نفسه بمشاعر الحب له ولما يصدر منه، وهكذا يحب الإنسان ربه ويحب منهجه وشريعته ودعوته ويحب العمل لها والجهاد في سبيلها.

وحين يبلغ الحب مرتبة عليا في نفس الإنسان تقوم الغيرة تحرس حماه وتصون محارمه، أن تستباح، ومن علامات الغيرة «الغضب إذا انتهكت محارم الله والثورة لإبطال ما يرىٰ من منكر، قالت عائشة رضي الله عنها: قدم رسول الله ﷺ من سفر، وقد سترت سهوة (وهو ما يشبه النافذة) لي بقرام (وهو الستار) فيه تماثيل. فلما رآه رسول الله ﷺ هتكه وتلون وجهه وقال: «**يا عائشة، أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله**»(١).

ومن علامات الغيرة كذلك ألا يطيق أن يرىٰ رسالته معطلة أو خاضعة لسلطان رسالة أخرىٰ، ومن هنا نرىٰ المؤمن الحق والداعية المفطور يلح في أن يجمع لرسالته كل سلطان روحي ومادي يكفل لها الهيمنة علىٰ ما سواها».

إن حب الدعوة وحب العمل دليل علىٰ حب الله ورسوله وثمرة من ثمراته، وإن لم يؤد حب الله إلىٰ هٰذه الثمرة فهو ادعاء كاذب وعاطفة غامضة، ليس لها علىٰ النفس توجيه ولا سلطان، فإن الحب الصادق دليله أن يكون الله ورسوله والعمل لدينه أحب إلىٰ النفس من كل ما تحبه وتعتز به ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم**

(١) البخاري (٥٩٥٤)، ومسلم (٢١٠٧).

مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1] .

ومن علامات محبة الداعي المسلم لربه كذلك:

أ ـ **الولع بذكره** ـ تعالىٰ ـ في كل حين ؛ فلا يفتر عنه لسانه ، ولا يخلو من قلبه ، فمن أحب شيئاً أكثر بالضرورة من ذكره وما يتعلق به ، ومن هنا كان من علامات المحبين الإكثار من تلاوة كتاب الله تعالىٰ .

ب ـ **يأنس بمناجاة الله:** فهو لا يستوحش منها ولا يضيق بها ، بل ينتهزها فرصة بهٰذه المناجاة .

جـ ـ **يتنعم بطاعته ولا يستثقلها** ، فإن المحب يتلذذ بخدمة محبوبه وينشط له ، ولهٰذا كانت الصلاة قرة عين لرسول الله ﷺ وراحة لنفسه الكريمة من نصب الدنيا ، قال الجنيد ـ رحمه الله : علامة المحب دوام النشاط في طاعة الله يقول الشاعر :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه	**هذا لعمري في القياس شنيع**
لو كان حبك صادقاً لأطعته	**إن المحب لمن يحب مطيع**

د ـ **لا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله عز وجل:** ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله وعن القيام بخدمته وطاعته .

هـ ـ **يؤثر ما يحبه الله على ما يحبه هو في ظاهره وباطنه** ، فإن المحب الصادق يؤثر دائما ما يحبه محبوبه ، ولا يبالي بالمشاق والمتاعب في هٰذا الإيثار .

و ـ **يحب لقاء الله لأن المحب يحب لقاء الحبيب** ، وبالتالي فهو لا يكره الموت إذا جاءه ؛ لأنه مفتاح اللقاء وطريق الوصول إلىٰ الله .

■ **الوسيلة الخامسة: دوام التذكير بالغاية:**

وإنما قصدنا التذكير بالغاية لا التعريف بها ، لأن أمر التعريف بالغاية من مقتضيات فهم مبادئ الإسلام الأولىٰ ، وهو ما لا بد منه لكل منتسب إلىٰ هٰذا الدين فضلاً عن الدعاة إليه ، أما التذكير بالغاية فهو شيء آخر ، وهو ما لا بد منه لكل

---

(١) التوبة : ٢٤ .

مسلم، كبيراً كان أم صغيراً، عالما كان أم متعلمًا، داعيًا له أو من عامة المسلمين، ذلك أن الإنسان قد ركب في فطرته الغفلة والهوىٰ، والسهو والنسيان، وإن لشهوات الدنيا ومغرياتها لثقلاً علىٰ نفسه، وضغطا علىٰ عقيدته وفكره، وهو ما يحتم عليه تذكيراً دائماً بالميزان، ومراجعة متواصلة ومحاسبة، وإعادة للأمور إلىٰ نصاب الحق علىٰ الدوام، فإذا تأكد للداعية غايته - وهي مرضاة ربه سبحانه - فقد وجب عليه أن يحيي قلبه بالسير إليه وأن يجتهد في ذلك ما استطاع، وأن ينتزع الناس - ممن حوله - من الدنيا ليسيروا معه في الرحلة الطويلة البعيدة.

نحن علىٰ رأس رحلة إلىٰ الله - سبحانه وتعالىٰ، فإذا اجتزنا مراحلها علىٰ ما يرضيه فعند الصباح يحمد القوم السرىٰ، ويحطون رحالهم في دار المقامة من فضله: ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾(١)، وهي بعد رحلة لا تقطع بقطار أو سيارة، وإنما تقطع بالقلب، والقلب فيها هو كل شيء فيه يبصر الإنسان غايته أو يبصر الله تبارك وتعالىٰ.

كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «وغايتنا لا تدرك بالأبصار ولكن تدرك بالقلوب الَّتِي في الصدور، وما لم يبصر الإنسان غايته لم يعرف إليها سبيلاً ولم يدرك لها جمالاً».

وبه يستبين الطريق إليها فلا تلتبس المعالم علىٰ ذوي القلوب الحية ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾(٢)، وما المعالم هنا إلَّا الطيب والخبيث، والحسن والقبيح، والنافع والضار، والحلال والحرام، وهو الذي يضاعف أشواق المرء إلىٰ غايته ويستحث همته إليها، فتهون عليه المراحل والعقبات، وكلما أدركه كلل أو ملل، لاحت له بوارق من دار السلام فيتجدد عزمه ويحيا رجاؤه علىٰ حد قول الشاعر:

---

(١) العنكبوت: ٦٤.
(٢) الأنعام: ١٢٢.

لهـا أحـاديث من ذكـراك تشـغلهـا عن الطعـام وتلهـيـهـا عن الـزاد
إذا اشـتكت من كـلال السـير أوعدهـا روح القـدوم فـتـحـيـا عند مـيـعـاد

فالقلب يا أخي هو كل شيء في هـٰذه الرحلة الأزلية، هو كل شيء في حياتك، وما الجسم إلا مطية له أو ظرف يصونه.

وإذا تقرر أن القلب هو كل شيء في عوامل الرحلة، وهو أهم شيء فيها - فهو الذي يبصر الغاية، وينير الطريق، ويجدد العزائم، ويستحث الأشواق - وجب أن نتيح له من الهدوء وفراغ البال ما يجعله يستمر علىٰ ذكره وفكره، وإقباله علىٰ الله سبحانه في طمأنينته وسكينته، وفي رأيي أن القلب إذا أحيط بما يقيه ويحفظه من المؤثرات العارضة فقد مضىٰ إلىٰ غايته علىٰ هدىٰ وصراط مستقيم، ويمكن للداعية أن يجمل هـٰذه المؤثرات فيما يلي:

أ- مؤثرات اقتصادية:

نعم، فمطالب العيش وكل ما يتصل بالحياة الاقتصادية له تأثيره المباشر القوي علىٰ القلب، كالفقر والتعطل عن العمل والمرض... إلخ، وعلىٰ الداعية أن يدرك هـٰذا وأن يبذل غاية جهده لصيانة القلب منه، والمحافظة علىٰ بقائه في روض سلامته، ونعيم ذكره وفكره، ولأمر ما كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن... وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال**»[1]، ويقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر**»[2]، وليس في البشر كافة من هو أسمىٰ همة من رسول الله ﷺ، فهل تراه فزع إلىٰ الله واستعاذ به إلَّا لأن الحزن والهم وغلبة الدين والفقر من مهلكات القلب كالذنوب والشهوات سواء بسواء؟.

فإذا نحن عنينا بتقرير هـٰذه العوامل الاقتصادية، وأثرها علىٰ حالة المرء النفسية،

---

(١) أبو داود في الصلاة (١٥٥٥)، وضعفه الألباني.

(٢) أبو داود (٥٠٩٠)، والنسائي (١٣٤٧)، وقال الألباني: «صحيح الإسناد»، انظر: صحيح الجامع (١٢٩٦).

فلسنا نقف بمرادنا عند حدود اللقمة الَّتِي تسد جوعه وتستر عورته، بل نرمي إلىٰ ما وراء هـٰذه الحدود من انقشاع الظلمة عن القلب، وصفاء الأفق من حوله، وعودة الطمأنينة إليه، ليواصل سيره إلىٰ غايته فإذا أمكن أن نصل إلىٰ هـٰذه الغاية، مع بقاء أسباب الجوع، ويخلو بيته من القوت فلا يتضعضع لأحد لينال من فضله شيئاً، ولا يهمه أو يغمه، بل يربط الحجر علىٰ بطنه.

ب. مؤثرات نفسية:

وهي عوامل ترجع إلىٰ غرائز الإنسان الحيوانية، وأهمها هنا غريزتا: الجنس وحب المال، وكل منهما إذا ثارت بصاحبها عصفت بعقله ومزقت همة قلبه فتعبث به كالريشة في مهب الريح، ولابد لانتظام سير الإنسان أو لانتظام سير قلبه إلىٰ الله من معالجة جموح هـٰذه الغرائز وتلطيف حدتها وثورتها.

ولذلك فقد حث الرسول ﷺ الشباب علىٰ الزواج ودل من لم يستطع ذلك إلىٰ سبيل ميسور: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجَاء**»[١].

جـ. مؤثرات اجتماعية:

وهي عوامل ترجع إلىٰ العادة والعرف في تقدير قيمة العرض والعفة والفضيلة، وأبرز ما في هـٰذا الباب، تبرج النساء واستعلان الناس بما يأتون من منكر، فإن ذلك مما يقطع علىٰ القلب طريقه، ويفسد عليه هدوءه وطمأنينته، والنظرة سهم من سهام الشيطان كما أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ: «**النظرة سهم من سهام الشيطان من تركها مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه**»[٢]، وما ترك رسول الله ﷺ بعده فتنة أضر علىٰ الرجال من النساء. ومطلوب من الداعية أن يعمل بكل ما يستطيع من الوسائل علىٰ تطهير البيئة من كل فساد يضر بحياة القلب.

---

(١) البخاري في النكاح (٥٠٦٦)، ومسلم في النكاح (١٤٠٠).

(٢) الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٤٩) برقم (٧٨٧٥)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

■ **الوسيلة السادسة: التركيز على أصول التكوين الذاتي:**

وذلك من خلال:

١ - **بيان الكيفية:** نحو كيف تقرأ؟ كيف تتثقف؟ كيف تحلل؟ كيف تنظم؟ كيف تستغل الوقت؟ وهكذا في كل أمر تعليمي. فعلىٰ سبيل المثال: لا يكفي أن نوجه الأفراد للقراءة ونحثهم عليها مبينين أهمية الاطلاع، بل لا بد من تنمية وصقل الكيفية الَّتِي تكون بها المعرفة.

٢ - **دراسة أساليب التطبيقات العملية لتحركات القادة والمصلحين** في بنائهم لأنفسهم ولغيرهم، وسيرهم - رحمهم الله - كثيرة ومبثوثة في كتب السير والتراجم.

٣ - **تنشيط الإبداع والابتكار والتفكير بالجديد**، وذلك باتباع نظام التشجيع علىٰ الإبداعات الَّتِي فيها دفع للعمل الإسلامي إلىٰ الإمام، مع عدم إخلالها بالثوابت الَّتِي تقوم عليها الدعوة الإسلامية، ومن صور التشجيع بيان أهمية المشروع المبدع فيه للمسيرة الإسلامية مع ربطه بأمثلة كانت في السابق ظهرت نتيجتها الإيجابية للدعوة الإسلامية، وتحميله مسؤولية تنفيذ هٰذا الإبداع مع إعانته عليه.

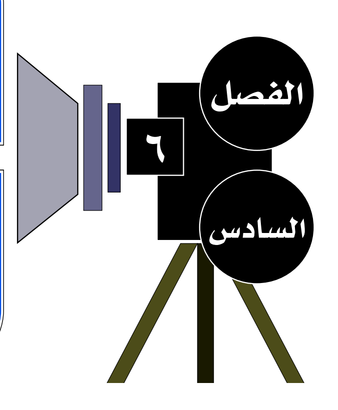


لا بـد من فهـم
أبعـاد المخططـات الغربيـة

(١) الدولة المثالية في عيون الإدارة الأمريكية

(٢) هدم الهويات قبل بناء الديمقراطيات

(٣) الحركة الإسلامية... New Look



(١)
الدولة المثالية في عيون الإدارة الأمريكية

بعد انهيار الحضارة اليونانية، قامت الحضارة الرومانية علىٰ أنقاضها مجسِّدة مبدأ «القطب الواحد» ومندفعة في تكوين إمبراطورية استعمارية وثنية تسعىٰ لتخصيص الحرية والسلطة والثروة لطبقة الأسياد من الرومان دون غيرهم، بينما يدخل بقية الشعوب في طبقة العبيد، حيث كان الحكم الروماني ممثلاً لدىٰ أكثر الشعوب المستعمرة بالقلاع والمدن العسكرية، وحتىٰ الترفيه كان عبارة عن مدرجات رومانية يتلذذ فيها الأسياد بمشاهد الصراع بين الإنسان والإنسان أو الإنسان والحيوان المفترس حيث الدماء والموت، وفي النِّهَايَة سقطت الدولة الرومانية؛ لأنها فشلت في الحفاظ علىٰ جوهر الحضارة الإنسانية وتحولت إلىٰ قوة عسكرية باطشة، فكان مصيرها الفناء. يقول المؤرخ البريطاني الشهير «توينبي» عن خطر النزعة العسكرية عندما تسيطر علىٰ الدول وكيف تحدث أثرها في انهيار هـٰذه الدول: «كان للنزعة العسكرية النصيب الأوفر في انهيار الحضارات، إن النزعة العسكرية تصرع الحضارة؛ إذ تثير الصدام والنزاعات القاتلة بين الدول».

ونحن نعتقد أن النزعة العسكرية باتت مسيطرة علىٰ الولايات المتحدة خاصة في العقدين الأخيرين، وتحولت أمريكا إلىٰ شرطي للعالم، وقائمة تدخلاتها العسكرية، تشمل الكثير من الدول منها كوريا الشمالية وفيتنام ولبنان والصومال وأفغانستان وأخيراً العراق، كما نجد أن السياسة الأمريكية أصبحت في أحيان كثيرة تفضل النفس العسكري القصير في إنهاء الصراع بدلاً من النفس الدبلوماسي الطويل، ولأن الإدارة الأمريكية تدرك أن احتلال الأراضي أسهل من احتلال العقول، وأن مرحلة ما بعد الانتصار في المعركة أهم من مرحلة كسب الحرب، فإنها لا بد لها من السعي لإيجاد مناطق آمنة لقواتها في الدول الَّتِي وقعت تحت احتلالها، وهـٰذا لا يتم إلَّا بإيجاد بيئة آمنة في دول الجوار وما حولها في الدولة الَّتِي تقع تحت

احتلالها، فإذا ما أضفنا إلىٰ ما سبق ضرورة حفظ ماء الوجه والكرامة الوطنية بعد أحداث ١١ سبتمبر المشئومة، فإن الإدارة الأمريكية وجدت في العالم العربي والإسلامي هدفاً مثالياً لتحقيق تلك الأهداف، تارة تحت مسمىٰ محاربة الإرهاب، وأخرىٰ بدوافع نشر الحرية والديمقراطية والدفاع عن حقوق الإنسان، وغيرها من الادعاءات الَّتِي تسقط مع الممارسات اليومية للإدارة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط.

وعلىٰ ما يبدو فإن الإدارة الأمريكية في ظل هـٰذه الأهداف الكبيرة لم تكتف بإيجاد أفراد يتعاونون معها لتحقيق هـٰذه الأهداف، بل أرادت صناعة دولة مثالية تتحقق فيها الصفات المرغوبة لدىٰ الإدارة الأمريكية، وتعتقد أنها دولة تصلح للبقاء في المسرح الدولي وتنسجم مع هويته وهويتها، ليتم بعد ذلك تعميم ذلك النموذج علىٰ دول المنطقة، ونحن نعتقد أن هناك دولاً بدأت تقترب كثيراً من تحقيق المطالب الأمريكية في المشرق العربي علىٰ الرغم من صغر مساحتها، بل وأصبحت هـٰذه الدول تتوسط لدول عربية أخرىٰ لرفع سيف الحصار المسلط علىٰ رقبتها، ونجحت بذلك أيما نجاح.

وقبل أن نتطرق إلىٰ مواصفات تلك الدولة المثالية التي تسعىٰ الولايات المتحدة لتطبيقها علىٰ مجموعة الدول العربية لا بد أولاً معرفة أسباب اختيار منطقة الشرق الأوسط كحقل تجارب لهـٰذه الدولة النموذج، وما هي من جهة ثانية استراتيجية الولايات المتحدة في هـٰذا المجال.

• أوضاع المنطقة العربية:

رغم أننا نتحفظ علىٰ بعض فقرات تقريري التنمية العربية الأول والثاني، مع وجود مبالغات في بعض الادعاءات غير قابلة أساساً للقياس، فإننا يجب أن نقر بأنَّ التقرير قد ساهم في إبراز الصورة الموجعة للوضع العربي في كافة المجالات، فنحن نعلم أن عدد الأميين في العالم العربي حوالي ٦٨ مليون نسمة (٢٥٪)، ونسبة البطالة ١٥ ـ ٣٠ ٪، وهناك ٢٢ ٪ من السكان متوسط دخلهم اليومي دولار واحد،

وحوالي ٥٢ ٪ من السكان متوسط دخلهم بين دولارين وخمسة دولارات.

ويساهم العالم العربي بنسبة لا تتعدىٰ ٢ , ٣ ٪ من إجمالي الصادرات الدولية، بينما يحصل علىٰ ما يزيد عن ٢ , ٨ ٪ من أجمالي الواردات العالمية، وهو ما يعكس ضعف البنية الصناعية وهشاشتها، كما بلغت الديون الخارجية من ٤٩ مليار دولار عام ١٩٨٠ إلىٰ ٣٢٥ مليار دولار (٧ أضعاف) عام ٢٠٠٠، كما أن التجارة البينية تتعدىٰ ٨ ٪ بين الدول العربية، وبالعموم فالدول العربية «غنية بالموارد فقيرة بالتنمية» وهٰذا يعني وجود سخط جماهيري وشعبي علىٰ الأداء الحكومي، وهٰذا السخط من وجهة نظر الإدارة الأمريكية حاضن جيد لنمو الإرهاب وازدهاره.

• سور الإسلام العظيم:

سبب آخر يدفع الإدارة الأمريكية لاختيار المنطقة العربية كحقل تجارب لتخليق الدولة المثالية، وهي أنها أعلنت أن معظم من قاموا بعملية الحادي عشر من سبتمبر هم من المسلمين العرب، ونسيت أن المتهم الرئيسي أسامة بن لادن مطرود من موطنه الأصلي السعودية، وقد انتزعت منه جنسيته السعودية في الوقت الذي كانت فيه الولايات المتحدة تدعم جهاد تنظيم القاعدة ضد الوجود السوفييتي في أفغانستان.

وقد كشفت أحداث ١١ سبتمبر فيما كشفت أن الرأي الأمريكي، ومعه الغالبية الساحقة من كبار المسؤولين في الإدارة الأمريكية لا يعرفون الحد الأدنىٰ من الثقافات العربية والإسلامية، ولا يستطيعون التمييز بين مبادئ الدين الإسلامي كدين سماوي راقي المبادئ والقيم، وبين قوىٰ سياسية توظف الدين الإسلامي توظيفاً خاطئاً ولأغراض مدانة أساساً من التيارات الإسلامية المعتدلة قبل أن تكون مدانة من الأمريكيين والعالم الغربي بشكل عام.

فالإدارة الأمريكية ترتكب خطأً شنيعًا واستراتيجياً في عدم قدرتها أو عدم رغبتها في التفريق بين الأمرين؛ لأن أسلوب المعالجة سيختلف في الحالتين، وفي حال إصرارها اعتبار الإسلام منبعًا لتغذية الإرهاب فإنها ستتصدىٰ لكل مؤسسة دينية وإسلامية في العالم العربي والإسلامي، وبالتالي فإنها لن تجابه فقط بالعناصر

الَّتِي وظفت الإسلام توظيفاً خاطئاً، وليس فقط بالتيارات الإسلامية الحركية المعتدلة بل حتىٰ عموم المسلمين سيحقدون عليها ويرفضون وصايتها، وسيستهجنون هـٰذا التدخل السافر في دينهم من جهة أطراف يرون فيه عدواً لا يتوانىٰ ليل نهار عن دعم الديكتاتوريات العربية، وإمداد إسرائيل بأسباب البقاء والصمود، بل وسيكونون مستفزين تجاه أي محاولة للمساس بأي مؤسسة دينية حتىٰ لو كانت أسباب هـٰذا المساس داخلية بحتة لا علاقة لها بأي وضع دولي أو في تجفيف منابع الإرهاب.

وانظروا مثلاً كيف استقبلت الشعوب العربية تصريح بوش عندما زل به لسانه وأطلق عبارات الحروب الصليبية، هـٰذا إن حملنا الموضوع علىٰ محمل حسن، وكذلك كيف استقبلت تصريح بيل كلينتون حول قيادة المرأة للسيارة وكيف يمكن أن يرىٰ رسول الإسلام هـٰذا الأمر إلىٰ الحد الذي أطلق البعض استهجاناً ساخراً فقال: لم يبق إلَّا الحاج كلينتون مفتي الديار الأمريكية ليؤنسنا باجتهاداته في الفقه الإسلامي!!

إن الأمريكان بدلاً من دراسة رفض المشرق الإسلامي والعربي للهوية الجديدة التي يريدون إلباسها له وذلك من خلال دراسة موضوعية تقوم بها مراكز البحث العلمي الموجودة لديهم بالآلاف، فإنهم بدلاً من ذلك يذهبون إلىٰ أن الإسلام في ذاته يمد هـٰؤلاء الناس بمخزون التحدي والمواجهة الَّتِي تصل إلىٰ حد الاستشهاد، مع إغفال ضوابط وفقه هـٰذا الباب ووجود أطر أخرىٰ أعم وأشمل في الإسلام في أبواب السلام والتسامح والإنسانية كوضع طبيعي للعلاقات الإنسانية والبشرية ما دام الطرف الآخر لا يسعىٰ لنشر حروب صليبية بطبعة معاصرة.

نعم نعترف أن الإسلام دين عصي علىٰ الاختراق، والعالم الإسلامي صمد لهجمات أعمق وأخطر من هـٰذه الهجمة، والعالم الإسلامي لديه عمق حضاري وهوية خاصة من الصعب اختراقها، وإن كان بالإمكان عمل ثغور وفجوات مرحلية سرعان ما تندمل وتختفي، ولا يمكن مقارنة النجاح الأمريكي بإدخال الثقافة الأمريكية وفرضها علىٰ مناطق مثل دول جنوب آسيا وأمريكا اللاتينية بما يحدث

بالمنطقة العربية والتي في عرف التاريخ أعرق بكثير من الفكر المادي المتهافت الذي تريد الحضارة الأمريكية نشره.

فكيف يمكن إقناع الشعوب العربية بعسل الحضارة الأمريكية وأمريكا تعاني اليوم من اضطراب القيم وازدواجية التعامل بشكل مفضوح، وكيف تقدم أمريكا الجنة الموعودة إلىٰ الشعوب وهي تفتقدها، فهناك في أمريكا اليوم ما لا يقل عن ٧٠ مليون فرد لديهم أسلحة، والذين يموتون سنوياً بسبب هـٰذه الأسلحة يفوقون ٣٠ ألف قتيل، بمعدل ٨٤ قتيلاً في اليوم، كما تعاني هي الأخرىٰ من مشاكل عرقية وإثنية وفضائح الشركات الكبرىٰ، وتفكك الأسرة، وسريان الانحلال الأخلاقي بشكل لم يسبق له مثيل.

- [illegible]

فكل هـٰذه المبادرات الَّتِي طرحتها الإدارة الأمريكية مثل وثيقة «كونداليزا رايس» الَّتِي تضمنت ضرورة نشر الديمقراطية، واشتراط تقديم المساعدات والمنح للدول العربية الَّتِي تتبنىٰ التعددية الحزبية، وأهمية وجود معايير لحماية حقوق الإنسان، ثم وثيقة كولن باول الَّتِي قدمها في ١٢/ ١٢/ ٢٠٠٢م باسم «مبادرة الشراكة» والتي ركزت علىٰ التعليم والتدريب والمجالس التشريعية، وطبعاً وضع المرأة العربية، ثم ها هو المشروع الإصلاحي الأخير، والذي كان سبباً رئيسيا في فشل انعقاد القمة العربية لاختلاف الرؤىٰ بشكل متباين حوله، نقول كل هـٰذه المبادرات تسعىٰ لصنع دولة نموذجية تحقق الأهداف الأمريكية التالية:

١ - **فرض القيم الأمريكية على المنطقة العربية و«أمركة» أسلوب الحياة العربي**، ولذلك فإن «المعتقدات الدينية والعادات الاجتماعية والتقاليد الثابتة» هي جوهر الحرب الأمريكية في صراع القيم والمبادئ.

٢ - **تسويق الحداثة الغربية والديمقراطية السياسية والليبرالية الاقتصادية.**

٣ ـ **تصفية الأصوليين وهم من تعتبرهم أمريكا الذين يعتبرون «الإسلام مرجعية وشريعة»** وبهٰذا تدخل كل ألوان الطيف الإسلامي الحركي المعتدل والمتشدد لا فرق، وكل مسلم يعتقد جدارة الإسلام في أن يحكم، هو مسلم أصولي مرفوض بقاؤه خارج نطاق دائرة الاتهام بالإرهاب، وبالتالي منع الأصولية من الانتشار في العالم الإسلامي وإيقاف امتدادها اليوم ومحاصرتها هدف رئيسي للدولة المثالية كما تريدها الإدارة الأمريكية، ويدخل في هٰذا الهدف كل أنواع الإلهاء الاجتماعي والاختراق الفكري وتفكيك مفهوم الأسرة، وإطلاق الحرية المزعومة للمرأة، ومحاربة أي تجاه يعاكس ذلك التوجيه في التعليم والتربية والإعلام.

وبالتالي فإن جملة الاستحقاقات المطلوب إنجازها لكل دولة ونظام عربي، يريد أن ينال رتبة الدولة المثالية في عيون الإدارة الأمريكية تتمثل في التالي:

١ ـ **إيجاد نظام ديمقراطي وتعددية حزبية تسمح بالممارسة السياسية** وتفتح المجال أمام مختلف التيارات السياسية للتعبير عن رأيها.

٢ ـ **تبني نظام اقتصادي منفتح متوائم مع المؤسسات المالية العالمية ويخضع لشروط صندوق النقد الدولي في ضوابط الإصلاحات السياسية**، ويتبنى الخصخصة وفتح المجال للشركات العابرة للقارات «بلاعة البيزة».

٣ ـ **إعادة النظر في المناهج التعليمية وحذف كل ما من شأنه تغذية الهوية الوطنية والدينية واستفزاز المشاعر الوطنية ومشاعر التحدي ضد الأجنبي الدخيل**، وإدخال قيم التسامح والحوار وتقبل الثقافات الأخرىٰ والبعد عن مفاهيم الجهاد والولاء والبراء والنصرة، وترتيب العلاقات الإنسانية حسب المصالح لا حسب المبادئ، وتقديم النفعية المادية علىٰ ما سواها.

٤ ـ **فتح المجال واسعاً ولو بالتدريج للمرأة العربية حتى تمارس دورها المباشر في الحياة السياسية والاقتصادية والحضور الفعال في البرلمانات العربية**، ومحاربة الصورة الكريهة الَّتِي تحرم المرأة من تلك الممارسة.

٥ ـ **الترحيب بالقواعد العسكرية الأمريكية باعتبارها صمام أمان لمنع الإرهابيين من تحقيق أهدافهم**، وحرمان الأصوليين من الوصول للسلطة لو أفضت اللعبة الانتخابية بهم إلىٰ السلطة، والقدرة علىٰ التحرك السريع لقمع أي تحرك لا يأتي بالنتيجة المقبولة أمريكياً.

٦ ـ **تفهم الحرب الاستباقية الَّتِي تقوم بها الإدارة الأمريكية في أي منطقة من العالم** والتعاطي الإيجابي معها باعتبارها حرباً مفهومة ومبررة ضد الإرهاب.

٧ ـ **المساعدة والتعاون في تدفق موارد الطاقة وفي مقدمتها النفط بأسعار معقولة للولايات المتحدة وضمان السيطرة على الموارد النفطية؛** حتىٰ يمكن استغلال ذلك في إضعاف الدول الَّتِي تمثل تهديداً للزعامة الأمريكية علىٰ العالم مثل الدول الأوروبية والصين.

٨ ـ **الدخول النهائي والتام في مشروع السلام مع «إسرائيل» وتجريم وإدانة كل عمليات المقاومة**، وتجفيف المنابع المالية عنها، ودعم اغتيال كل رموزها وقادتها، والقبول بدمج دولة الكيان الصهيوني في المنطقة وتزويدها بما تحتاج له من نفط وغاز وإقامة علاقات شراكة تجارية واقتصادية معها.

٩ ـ **إيجاد مناخ احتفالي كرنفالي منفتح مدعوم من القطاع السياحي على المستوى الوطني والقطاع الإعلامي على المستوى الدولي، والتشجيع على استنساخ كل التجارب الإعلامية الَّتِي تكسر المحرمات والمفاهيم الاجتماعية السائدة**، وتنقل روح الحضارة والهوية الغربية للمجتمعات العربية، ومثل هـٰذا الهدف يجعلنا نتفهم سر الثناء الإسرائيلي علىٰ برامج تغريبية مخدومة إعلانياً مثل «ستار أكاديمي» و«سوبر ستار» وغيرها.

هـٰذه النقاط التسع وغيرها جعلتنا أحيانا نفتح عيوننا بذهول تجاه أنظمة عربية عنوانها الكبير هو «القمع والمزيد من القمع»، وهي ترتدي ثوب الديمقراطية بشكل فج وقبيح ومضحك ومخزٍ، في سباقها المحموم مع أنظمة أخرىٰ للدخول في نادي «الدولة المثالية» ورأينا من كان بالأمس عدواً للإمبريالية العالمية كيف تحول اليوم إلىٰ

دولة تهتم بمحاربة الأسلحة النووية ويستقبل قادتها ملكات الجمال، ورأينا دولاً تتحدث عن الممارسات الديمقراطية بعد أن كان المعتقل مصير من يضبط وهو يحاول الدخول إلىٰ الإنترنت أو يركب صحن استقبال فوق سطح داره.

نحن نعتقد أن الحل لا يكمن في دخول تلك الأنظمة إلىٰ نادي «الدولة المثالية»؛ لأنها ستتحول وبشكل فج أيضًا إلىٰ مندوب سامٍ منبوذ من شعوبها لأنها ببساطة بعد أن كانت دولة ديكتاتورية تكبت الحريات، ستتحول إلىٰ دولة تريد فرض هوية جديدة لا تمت بصلة للمجتمع الذي تمثله، وبالتالي ستكون وهي تحاول تطبيق ضوابط وشروط الدولة المثالية أسوأ بكثير من ممارساتها في عهد الديكتاتورية، فمنع التعبير عن الناس في ممارسة حقوقهم أمر سيئ، لكن الأسوأ منه هو فرض ممارسات جديدة علىٰ الناس، وخاصة أن هٰذه الممارسات لم تثبت نجاحها في جلب السعادة للشعوب الَّتِي تعمل بها.

فهل تعتبر الأنظمة العربية، وتتبصر في الأمور قبل أن تملأ قسيمة الاشتراك في نادي الدولة المثالية؟



(٢)
هدم الهويات قبل بناء الديمقراطيات

من أسباب القوة الكامنة في الولايات المتحدة الأمريكية اعتمادها على التفكير الاستراتيجي الذي يدعمه المئات إن لم يكن الآلاف من مراكز الأبحاث والدِّرَاسَات الاستراتيجية المتخصصة تقريباً في كل فرع من فروع المعرفة الإنسانية وفي مقدمتها الدِّرَاسَات السياسية والاقتصادية.

وقد تعودنا على الصرعات الأمريكية في مجال الفكر الاستراتيجي، وفي السياسات الأمريكية رجال تركوا بصمات في الفكر السياسي الأمريكي مثل هنري كيسنجر مثلاً الذي يعد الآن واحداً من أهم الرموز الاستشارية بعد أن صاغ فكر الخارجية الأمريكية في مراحل مهمة، كما لدينا نظريات أخرى نالت شهرة وكانت مثار جدل ودراسات ومؤتمرات مثل نظرية صراع الحضارات، ونظرية نهاية التاريخ وغيرها من النظريات والأفكار الَّتِي تمد القيادة الأمريكية بخطوط استراتيجية ونظريات تبحث عن مجالات للتطبيق والإسقاط على أرض الواقع.

وإذا كانت بعض هٰذه النظريات لم تجد من يتبناها أو حتى يدافع عنها ويؤمن بها لدرجة اتخاذ القرارات الجريئة كغزو الدول وتغيير الهويات والتدخل في شؤون العالم، فإن هٰذه النظريات وجدت في المحافظين الجدد في الإدارة الأمريكية خير نصير، وخاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر الكارثية، وتغلغل الدين المسيحي في القرار الأمريكي، وحتى أن الصحافي البريطاني «إد فوليامي» كتب في مجلة «ذا أوبزرفر» البريطانية عن الرئيس الأمريكي بوش قائلاً: «إن تقوى الرئيس الدينية، أدت على الصعيد العالمي إلى نتيجتين الأولى هي أنها حثت على تحالف مستهجن، بين اليمين المسيحي والحركة الصهيونية، جاعلة بذلك إسرائيل «أرييل شارون» الحليف الأقرب للولايات المتحدة. أما النتيجة الثانية فهي أنها تبرر السعي

وراء موقع قوة لا منازع له، وضع الرئيس بوش في واجهة الساحة السياسية الأمريكية أكثر المؤيدين حماسة لإسرائيل، كنائب وزير الدفاع بول ولفوفيتز، أو إليوت أبرامز الذي جعله مستشاره الخاص لشؤون الشرق الأوسط» انتهىٰ.

• بايبس بعد فوكوياما:

وسط هـٰذه البيئة المتطرفة الَّتِي أوجدها المحافظون الجدد، من الطبيعي أن يبرز المفكرون المتطرفون مثل فوكوياما صاحب نظرية نهاية التاريخ والتسليم بالتفوق النهائي والأبدي للحضارة الغربية، وها نحن اليوم نصطدم بنظرية جديدة لواحد من أعمدة تيار المحافظين الجدد في أمريكا والذي ينتمي إلىٰ تيار «المحافظين الصهاينة» وهو «دانييل بايبس» أحد أهم المفكرين الداعين إلىٰ محاربة الإسلام والمسلمين، ولمن لا يعرف بايبس هـٰذا يكفي أن من مواقفه أنه يعتبر شارون بكل جرائمه وعدوانه علىٰ الشعب الفلسطيني مجرد زعيم ضعيف في تعامله مع الفلسطينيين.

دانييل بايبس في العقد السادس من عمره وهو من مواليد عام ١٩٤٩م، ودرس في بوسطن وحصل علىٰ شهادة الماجستير والدكتوراه في تاريخ الشرق الأوسط من جامعة هارفرد، ثم قام بالتدريس فيها مثل والده الذي كان يحاضر في التاريخ الروسي، لكن دانييل هـٰذا لتطرفه الواضح لم ينل الترقية الَّتِي يطمح إليها، فتركها عام ١٩٨٦م وانتقل إلىٰ فيلادلفيا ليدير «معهد أبحاث السياسة الخارجية» ثم أنشأ في عام ١٩٩٤م منبر الشرق الأوسط، وهو محاضر في الأكاديميات والمعاهد العسكرية الأمريكية، وأحد المقربين من الإدارة الأمريكية الحالية ومن المستشارين الرئيسيين للبيت الأبيض.

وقد يخدع اسمه «دانييل ريتشارد بايبس» باعتباره أنجلوساكسونياً، ولكنه في الحقيقة يهودي في غاية التطرف، ومن المعروف أن العديد من اليهود غيروا أسماءهم بعد الحرب العالمية الأولىٰ كمحاولة للاندماج في المجتمعات الأوروبية والأمريكية، ومن المهم أن نعرف أنه درس الإسلام واللغة العربية والحضارة الإسلامية، وقضىٰ

سنوات في القاهرة وعاش مع أسرة مصرية ليزيد من معارفه عن المجتمع المصري كمنوذج أصيل للمجتمعات الإسلامية المعاصرة بكل ما فيه من حيوية وتنوع .

• أفكار متطرفة:

دانييل بايبس يطرح أفكاره المتطرفة بشكل واضح لا لبس فيه، وينادي بها علانية، وله تصريحات ومقالات ومقابلات في غاية السوء والعنصرية، ومنها مقال نشره في «وول ستريت جورنال» بتاريخ ١٥ سبتمبر ٢٠٠١م يعيب فيه علىٰ الإدارة الأمريكية أخطاءها الأربعة في التعامل مع تفجيرات ١١ سبتمبر .

وقد لخص هذه الأخطاء في أربع نقاط:

١ ـ اعتبرت الإدارة الأمريكية الهجمات الإرهابية جرائم، وكان يجب أن تعتبرها أعمال حرب إسلامية ضد أمريكا وحضارتها .

٢ ـ اعتمدت الولايات المتحدة علىٰ التنصت الإلكتروني، وكان يجب أن تدعم ذلك بالاستخبارات البشرية المباشرة وتتغلغل داخل الأوساط الإسلامية .

٣ ـ عجزت الحكومة الأمريكية عن فهم مدىٰ كراهية المسلمين وعدائهم لأمريكا وتحكم عقلية الكراهية فيهم تجاه الحضارة الغربية .

٤ ـ إهمال الإدارة الأمريكية البنىٰ الأساسية للإرهاب في داخل أمريكا، ويقصد بالطبع المنظمات والمؤسسات الإسلامية الموجودة في أمريكا حيث يعتبرها كلها إرهابية .

لقد كانت أحداث ١١ سبتمبر فرصة كبيرة لبايبس ليعبر عن مكنون نفسه من كراهية للمسلمين والإسلام، فتجده يصرح في مقابلة مع محطة فوكس الأمريكية المتطرفة أن هناك تشابهاً ومقارنة متوازنة بين العالم الإسلامي وألمانيا النازية من ناحية بروز ووضوح مفاهيم معاداة السامية في مسيرة الحضارتين، ويؤكد «أن جميع الإسلاميين ما هم إلَّا قتلة محترفون» وأن «الاختلاف بين الإسلامي المعتدل والإسلامي المتطرف هو الاختلاف بين النازي المعتدل والنازي المتطرف» .

• النظرية الجديدة:

لعل الأفكار السابقة تبرز كيف يفكر الرجل وما هي درجة تطرفه وانحيازه ضد الإسلام والمسلمين، وإن كانت تلك التصريحات ليست بجديدة ونشرتها معظم الصحف العالمية في وقتها، لكنها مقدمة جيدة لفهم دوافع الرجل وهو يسطر نظريته الجديدة والتي هي في غاية الخبث والمكر، وخصوصاً أن موقعه الإلكتروني مقصد لآلاف الزوَّار، وتترجم مقالاته إلىٰ سبع لغات علىٰ الأقل.

وقد نشر دانييل بايبس نظريته الجديدة في جريدة «نيويورك صن» بتاريخ ٨ مارس ٢٠٠٥م حيث دعا في مقاله الإدارة الأمريكية إلىٰ عدم الاغترار ببعض التطورات الَّتِي حدثت في الشرق الأوسط، وحذرهم من النشوة الكاذبة تجاه تلك الأحداث، مثل انتخاب عباس أبو مازن رئيساً للسلطة الفلسطينية وهو الذي أعلن عن نيته القضاء علىٰ الصراع المسلح ضد إسرائيل، أو إجراء انتخابات في العراق بالرغم من موجة العنف والتفجيرات، أو بخصوص الانتخابات البلدية الَّتِي حدثت في السعودية، أو تصريح الرئيس المصري حسني مبارك حول حق تعدد المشاركين في الانتخابات الرئاسية المصرية، أو لجهة خروج عشرات الآلاف من اللبنانيين في مظاهرات ضد الوجود السوري في لبنان بعد اغتيال رفيق الحريري.

وسبب تحذير دانييل من هـٰذه النشوة الكاذبة أو الانتصار الذي تحقق للديمقراطية لأن «التحرك نحو الديمقراطية وإزاحة النظم الاستبدادية بسرعة وعجلة في الشرق الأوسط سيطلق الإسلاميين من قيودهم ويفتح الطريق أمامهم نحو السلطة».

وينبه «دانييل» الإدارة الأمريكية إلىٰ أن قدرة الإسلاميين للتحرك غير محدودة ويقول: إنه «من المحزن أن الإسلاميين ينفردون دون غيرهم، بما يضمن نجاحهم في الانتخابات، من خلال الإبداع في تطوير الأيديولوجية، والقدرة علىٰ تأسيس الأحزاب والإخلاص في كسب المؤيدين، وامتلاك المال للصرف علىٰ الحملات الانتخابية، والأمانة في نظر الناخبين، وتحقيق الرعب في نفوس الخصوم».

ولذلك يدعو «بايبس» الإدارة الأمريكية إلىٰ إعادة النظر في تطورات الأمور في

الشرق الأوسط من زاوية جديدة، فعباس أبو مازن الذي نجح في الانتخابات لم يحقق نسبة عالية حيث مقاطعة الانتخابات كانت من أطراف عديدة، بينما الإسلاميون اكتسحوا انتخابات البلديات وخاصة حركة حماس مما يعكس شعبيتها الطاغية، وفي مصر جرت العادة أن يكتسح التيار الإسلامي انتخابات النقابات المهنية، وقريب من ذلك الانتخابات في الأردن ودول الخليج، كما أن الانتخابات العراقية قد أفرزت فوزاً للإسلاميين الشيعة القريبين من الخط الإيراني، وبالتالي فإن أي تجربة ديمقراطية حقيقية ستصب في النِّهَايَة في جيب الإسلاميين، وهنا الخطورة في الأمر كما يقول دانييل بايبس.

• حل معضلة الإسلاميين:

هنا نتوقف عند أخطر ما طرحه المفكر الأمريكي اليهودي المتطرف «دانييل بايبس» حيث ينبه إلىٰ أن «تغيير النظم الاستبدادية أسهل من إقناع الشعوب في الشرق الأوسط بعدم استبدالها بالإسلاميين» ولذلك فهو يدعو الإدارة الأمريكية والمحافظين الجدد في البيت الأبيض إلىٰ إعادة النظر في ممارسة الإدارة الأمريكية الضغوط لإجراء إصلاحات ديمقراطية في العالم العربي والإسلامي، حتىٰ لا تصب تلك الإصلاحات في مصلحة التيارات الإسلامية مع ضرورة «التحرك ببطء وبحذر شديدين في دفع المنطقة نحو الحرية والديمقراطية؛ لأن الجذور التاريخية والهوية في المنطقة تحتاج أولاً إلىٰ المواجهة والتكييف، وإن تجاوز هٰذه الخطوة سينتج عنه حالة أسوأ مما كانت عليه في عهد الاستبداديين غير المنتجين».

وبالتالي فإن «بايبس» يرىٰ أن بقاء الاستبداد والديكتاتورية أفضل بكثير من استلام التيارات الإسلامية للسلطة في العالمين العربي والإسلامي، فهو يدعو صراحة إلىٰ هدم الهوية الإسلامية للشعوب المسلمة قبل بناء الديمقراطيات وذلك بسلخ الشعوب المسلمة عن دينها، وهو ما يحتاج إلىٰ جهود جبارة وطويلة الأمد تتكاتف فيها الجهود الإعلامية والاقتصادية والفكرية فترة طويلة حتىٰ تصل بالشعوب المسلمة إلىٰ فكر جديد حول إسلام عصري لا يصطدم مع الحضارة

الغربية ويتبنى قيمها، ويتم انتزاع الخصوصية منه لصالح تغلغل القيم الغربية ومبادئ الحياة الغربية القائمة على المادية والنفعية.

• مسطرة القبول الأمريكي:

بناء على هٰذه النظرية يضع دانييل بايبس معايير محددة تعمل كالمسطرة لقبول أي حركة أو تيار موجود في الساحة العربية، حيث تحدد هٰذه المسطرة ما إذا كانت هٰذه الحركة إسلامية متطرفة، أو معتدلة حسب المواصفات الأمريكية، وتعمل هٰذه المسطرة من خلال توجيه بعض الأسئلة المحددة، والإجابة عليها تحدد إما القبول والرضا الأمريكي أو أن تحجبه عن طالب القرب والرضا، مثل نموذج طلب الفيزا لدخول الولايات المتحدة، حيث يتم فيه توجيه أسئلة محددة يجب أن تكون الإجابات مثلاً جميعها بـ (لا) وأي إجابة (نعم) يتم رفض قبول الفيزا. وهٰذه المسطرة الَّتِي يقترحها دانييل قريبة من فكرة نموذج الفيزا، فيتم سؤال هٰذه التيارات أسئلة واضحة من نوع:

١ ـ هل تؤمن بإعطاء المرأة حقوقاً سياسية أو لا؟

٢ ـ هل توافق على تساوي الميراث بين الذكر والأنثى؟

٣ ـ هل تعتبر ما يحدث في الشيشان جهاداً يستحق الإشادة أم إرهاباً يستحق الإدانة؟

٤ ـ هل تؤيد العمليات الانتحارية في فلسطين وهل تعتبر حماس رمزاً للبطولة والتضحية؟

وأسئلة من هٰذه النوعية في المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية حتى يتبين خيط التيارات المتطرفة الأسود من خيط التيارات المعتدلة الأبيض حسب التصنيف الأمريكي.

• هدم الهويات:

إذن السيد «بايبس» يطالب أولاً بهدم هويات الشعوب المسلمة، ثم بإعادة بنائها

كما يريد هو، ثم من بعد ذلك يصبح هـٰؤلاء المسلمون محترمين ويستحقون أن تنعم عليهم أمريكا بممارسة الديمقراطية. أما قبل ذلك فهـٰؤلاء المسلمون الأجلاف لا يستحقون إلا ما فعلوه بهم في غوانتناموا، وأبو غريب، وما فعله شارون في اجتياحاته للمدن الفلسطينية وهو قليل عليهم.

هـٰذه النظرية الجديدة من رجل قريب من الإدارة الأمريكية يعبر بحق عن نظرة دونية لشعوب الحضارات الأخرىٰ، وعن أهداف أنانية لا علاقة لها بنشر الديمقراطية وحرية الرأي، وحقوق الإنسان والحريات المدنية، بل كلها أدوات تصب في تأمين التفوق الأمريكي، واستمرار اللعب بمصائر الشعوب، وهي أهداف تنسجم تماماً مع غض الطرف الأمريكي لعقود طويلة عن الديكتاتوريات الَّتِي عشعشت في المنطقة ساعة ما كانت المصلحة الأمريكية تكمن في دعم تلك الديكتاتوريات. وما مثال «صدام حسين» إلَّا أحد هـٰذه الأمثلة علىٰ حرص أمريكا علىٰ مصالحها القومية والتي دائماً ما تغلفها بمجموعة من القيم والمبادئ الَّتِي تكون أول من يخترقها إذا ما دعت الحاجة.

• للتاريخ أكتبُ:

ولعلي هنا أعرج علىٰ الموضوع اللبناني ـ السوري بعد اغتيال الراحل رفيق الحريري، ولأن الشيء بالشيء يذكر، وبعد أن ذكرنا صدام حسين وفعلته الغادرة بغزو الكويت نود أن نبين أن ما حدث بين السفيرة الأمريكية والرئيس العراقي من استدراج لغزو الكويت حدث شيء مقارب له في الموضوع السوري ـ اللبناني.

فربما استطاعت جهات مؤثرة في الإدارة الأمريكية إعطاء ضوء أخضر لبعض الجهات الاستخباراتية لتصفية رئيس الوزراء اللبناني السابق رفيق الحريري من أجل الحفاظ علىٰ مصالح ومكتسبات تلك الجهات الأمنية والاستخباراتية، خاصة بعد تزلزل الوضع من تحت أقدامها في لبنان، وقد استفادت أمريكا ليس فقط بضرب عصفورين بحجر واحد بل لقد كان فريقاً من العصافير بضربة واحدة.

فمن المعروف أن سياسة الاستخبارات هي الَّتِي تتحكم في السياسة الخارجية

الأمريكية، لذلك لا يمكن أن نفهم ما يحدث إلا في ظل هـٰذه العلاقة المتشابكة بين الطرفين، فالمسألة لا علاقة لها بعقلية نظرية المؤامرة، بل أسلوب التفكير الأمريكي والعقلية الاستراتيجية الَّتِي يتعامل معها.

فمن المعروف أن للرئيس الحريري صداقات مع فرنسا، يحاول من خلالها ترتيب شؤون لبنان، وهـٰذا بالطبع يضعف النفوذ الأمريكي في المنطقة، وبالتالي لا تكمل الولايات المتحدة إحكام الطوق علىٰ المنطقة الذي بدأ بإقامة القواعد العسكرية في الخليج، ثم امتد للعراق، وها هو يكمل اليوم بمنطقة بلاد الشام.

أما فوائد المصيبة اللبنانية للولايات المتحدة فهي لا تعد ولا تحصىٰ، أولها بالطبع إخراج سوريا من لبنان وإضعاف موقفها التفاوضي من جهة حول الجولان، ومن جهة ثانية تشكل عامل ضغط لكي ترفع سوريا دعمها عما تتهمه بها «واشنطن» لأعمال المقاومة في العراق، كما أن الولايات المتحدة وبهذا الإجراء تضغط علىٰ سوريا لكي تغلق مكاتب المنظمات الفلسطينية وخاصة تلك الَّتِي لا زالت منخرطة بعلميات الجهاد والمقاومة داخل فلسطين وفي مقدمتها حركتا «حماس والجهاد».

كما يضاف إلىٰ ما سبق: تأمين حدود الدولة اليهودية في فلسطين لاستكمال تصفية القضية الفلسطينية وجمع سلاح المقاومة وتحويل كل المنظمات الجهادية إلىٰ أحزاب سياسية تحت سلطة واحدة يقودها «أبو مازن»، خاصة بعد أن صفت إسرائيل أغلب رموز المقاومة الفلسطينية كصلاح شحادة والرنتيسي وأحمد ياسين وحتىٰ «ياسر عرفات» الذي تناصف في يوم من الأيام جائزة نوبل للسلام، وهـٰذا يعني أن أي رمز فلسطيني بما فيه أبو مازن غير عصيّ علىٰ التصفية حتىٰ لو تمسك بالحد الأدنىٰ من الثوابت.

إضافة إلىٰ ما سبق، فإن ما يحدث بلبنان فرصة أيضًا لإضعاف النفوذ الإيراني هناك، وسحب سلاح حزب الله تلك الشوكة الَّتِي وصل بها الأمر في النِّهَايَة إلىٰ إطلاق طيارة تجسس علىٰ إسرائيل، وهو ما يعني مرحلة خطرة يجب التصدي لها بحزم وسرعة، ناهيك عن تشجيع المعارضة السورية، والضغط علىٰ دمشق أكثر

وبالتَّبَعِيَّة بقية الدول العربية لمزيد من التنازل والتجاوب مع الضغوط الأمريكية في المنطقة مما يحقق معه منظومة فوائد رئيسية للإدارة الأمريكية .

نحن نقول بهٰذا الرأي ونعلم أنه قد لا يعجب الكثيرين ، ولسنا نقوله هنا ليكون محل قبول أو رفض ، إنما نذكره فقط للتاريخ ، وموقف بعض رموز المعارضة اللبنانية الَّتِي كانت تعارض التدخل الأمريكي في المنطقة ثم انقلابها ضد هٰذا الموقف بعد اغتيال الحريري دليل آخر علىٰ مدىٰ النجاحات الأمريكية في تحقيق أهدافها في المنطقة .

• خطوات أولى:

المشكلة الأساسية الموجودة لدىٰ معظم المفكرين الأمريكان الذين يديرون معاهد الدِّرَاسَات والأبحاث الاستراتيجية أنهم دائماً ينظرون إلىٰ ما هو ظاهر علىٰ السطح في العالم الإسلامي من تخلف وضعف وتفكك دون الغوص إلىٰ المخزون الكامن في النفوس ، ومدىٰ استعداد تلك الشعوب المستضعفة والمغلوبة علىٰ أمرها ، والمسروقة في قوتها إلىٰ التضحية والبذل إذا ما وصل الأذىٰ إلىٰ دينها وعقيدتها .

ولو كان الأمريكان يحسنون قراءة تاريخ المنطقة مثلما يحسنون امتصاص ثرواتها ، لأدركوا مبكراً فشل تلك النظريات الخاطئة في تحقيق أحلام القضاء علىٰ الإسلام الهوية الأساسية للمكون الثقافي والنفسي لشعوب المنطقة العربية والإسلامية .

إن الإدارة الأمريكية تسعىٰ بجدية للتأثير علىٰ هوية الشعوب المسلمة ، وانظر إلىٰ «إلينا رومانسكي» مسؤولة برامج مبادرة الشراكة الأمريكية ـ شرق أوسطية عندما ألقت محاضرة في إحدىٰ دول الخليج وصرحت بأنه «لا توجد فسحة من الآن فصاعداً للكراهية وعدم التسامح والتحريض ونحن نحاول أن نعيش معًا ، وأي منهج دراسي لا يسير في هٰذا الاتجاه يجب تغييره» .

فالمناهج التعليمية أولىٰ ضحايا التحرك الأمريكي للتأثير علىٰ الهوية العربية مدعومًا بضغوطات مختلفة من التعليم المختلط وفرض حقوق المرأة مع ضخ أكثر من

مليـون دولار لإطلاق قناة الحرة التي وافق على إطلاقهـا (٣٨٢) نائبًـا أمريكيًـا مقـابل رفض (٤٢) نائبًا، وقبلها قناة سوا الإذاعية التي بدأت بثها في مارس ٢٠٠٤م على موجات **F.M** ومن بعدها مجلة «هاي» . . . طبعًا غير سيل القنوات الفضائية التي بثت من قبل بني جلدتنا للترويج للثقافة الغربية من خلال توالد سريع ومفاجئ لمجموعة قنوات عربية متخصصة في بث البرامج والمسلسلات والأفلام الأجنبية لخلق جيل من الشباب يتقن الرقص على موسيقى البوب تمامًا مثلما يمسك السيف ويقوم بـ «رقصة العرضة».

إذا كان من نصيحة يمكن أن نقدمها للأمريكان، فهي أنهم يجب أن يدركوا أن معركتهم مع هوية الأمة خاسرة مقدمًا، مهما كان ذكاء الوسائل والأساليب التي تسعى لتحقيق هـٰذا الهدف؛ ولأن السنن الربانية تشير إلى عكس ما يريدون، والأولى لهم أن يتابعوا ملف الإصلاح ونشر الديمقراطية، ثم يتركوا الشعوب تقرر من تريد وماذا تريد بدلاً من هـٰذا التجبر الذي يعتقد أنه قادر على تغيير الكون.

إن معركة الهوية معركة فاصلة ومهمة بين الطرفين ومن ينتصر في هـٰذه المعركة سينتصر في الحرب، وهـٰذا يحتاج من الحركة الإسلامية ـ باعتبارها رأس الحربة في هـٰذا الموضوع، والمستهدف الأول ـ بعض الخطوات التي تجعلها بعيدة عن مواصفات مسطرة السيد دانييل بايبس الأمريكية . . . وهـٰذا هو موضوع مقالنا المقبل.



(٣)
الحركة الإسلامية .. NEW LOOK

ذكرنا فيما سبق نظرية المفكر الأمريكي الجديدة دانييل بايبس حول الهويات والديمقراطيات في العالمين العربي والإسلامي، ودعوته لتغيير هوية المجتمعات العربية والإسلامية قبل الضغط على الدول العربية لتحقيق الديمقراطيات في تلك الدول، على الرغم من خلل نشر الديمقراطيات بهٰذا الأسلوب، وقدرة الدول الاستبدادية لما لها من خبرات عريقة في التلوّن والتفلّت على إقامة ديكورات ديمقراطية وواجهات هشة للحريات، تختفي وراءها لتمارس المزيد من الاستبداد والديكتاتورية وكبت الحريات.

كما أن سنن التاريخ قد علمتنا: أن قيمة الحرية لا تصبح غالية، والممارسة الديمقراطية لا تصبح أصيلة إذا لم تدفع الشعوب ثمنًا لها، وتعرف قيمتها، ولقد ألمحنا إلى أن من أسباب تفوّق الغرب الجوهرية؛ اعتماده على التفكير الاستراتيجي، وقدرته على التخطيط للمدى البعيد من واقع مساندة مراكز الأبحاث والدراسات المكتظة بالمعلومات والاستبيانات عن كل معلومة تقريبًا عن العالم العربي والإسلامي، بينما ننشغل - نحن المسلمين - بالأمور الفرعية والتفصيلية، ونضيع كثيراً من أوقاتنا بها حتى نغرق فيقل إنتاجنا، ونضيع وسط أكوام التفاصيل، فلا نعود نبصر الغايات ولا الأولويات، ولم تعد لنا القدرة على التمييز بين الأمور، وربط الأحداث والدوافع مع الأسباب، وتصبح كل همتنا هي الحلول الترقيعية التي تسعفنا بها نظراتنا الفرعية الغارقة في القصور والضعف.

ولو لاحظنا الأمة في السابق لوجدنا أنها في لحظات انطلاقاتها الحضارية كانت تشتغل بالأصول فقهًا وعقيدة وإمامة وتأصيلاً، فخرج لنا الرواد العظام مثل الإمام الشافعي وتلميذه الإمام النووي، فحصلت الأمة على الرسالة، والمجموع، وشرح

صحيح مسلم وهي كتب أصولية قلما يستغني عنها طالب علم اليوم، وكذلك الإمام أحمد بن حنبل الذي أخرج لنا المسند، والإمام ابن قدامة المقدسي الذي قدم لنا المغني، فهٰذه كلها نوع من أنواع التفكير الأصيل في علوم الفقه وأصول الفقه.

ثم مرت الأمة بعد ذلك بعصور الفروع فغرقت وتاهت، وتخلىٰ الفقهاء عن دورهم في التفكير الاستراتيجي، فبقيت الأصول الأولىٰ من كتب الفقه هي السقف الذي لم يستطيعوا تجاوزه، ووجدنا في تلك الفترة ما يعرف بالمختصرات، حيث انشغل العلماء باختصار المطولات بعد أن قصرت همة الأمة، واضمحل التفكير الاستراتيجي، ثم جاءت المعتصرات من بعد المختصرات، حولت فيه كتب الفقه إلىٰ ما يشبه الطلاسم لشدة اختصارها، ثم تحول الفقهاء من المختصرات إلىٰ شرح المختصرات، ومن المعتصرات إلىٰ فك طلاسم المعتصرات، ثم جاءت الحواشي لتشرح للناس ما لم يفهموه من المختصرات والمعتصرات، ثم جاءت حواشي الحواشي وهكذا امتدت الحواشي حتىٰ أصبحت علوم الدين أشبه بالطلاسم.

وحتىٰ في العقيدة، فبعد أن كان التفاعل يتم مباشرة مع القرآن والسنة، فنشعر بجمال العقيدة كما نشعر بعظمة الله وصفاته سبحانه وتعالىٰ، تحولت العقيدة بفعل العقلية التفريعية ودوافع التعليم أو الرد علىٰ الملاحدة والمناطقة والفلاسفة إلىٰ ما يشبه الفلسفة المادية الخالية من الروح والمعاني السهلة الواضحة التي تدخل القلب قبل العقل، وهكذا احتاج الدين إلىٰ فلاسفة ومناطقة ليفكوا طلاسمه وعباراته حتىٰ يفهمها طلبة العلم.

وطالب العلم يحتاج إلىٰ أن يفهم دينه ليبلغه للناس، فكان في سبيل ذلك يجلس إلىٰ سحرة المناطقة والفلاسفة وعلم الكلام ليعرف كيف يعبد ربه علىٰ نور وبصيرة، فهل هٰذا هو الدين الذي أنزله الله للناس وجعله سهلاً علىٰ الفطرة وهل هٰذا هو نفس الدين الذي قال تعالىٰ في تيسيره: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾[1]، وهل هٰذا هو الدين الذي قال رسول الله ﷺ فيه: «**بعثت بالحنيفية**

(١) القمر: ٣٢.

السَّمحة»[١]، وقوله ﷺ: «**إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه**»[٢]، وقوله ﷺ: «**يسِّروا ولا تعسروا، بشِّروا ولا تنفروا**»[٣]، وغيرها من الأحاديث والآيات التي أكدت على سهولة ويسر الإسلام، فهو لا يحتاج إلى رجال دين ليكونوا واسطة بين المعبود وخلقه، ولكنها العقلية التفريعية التي جادلت فيما لا يحتاج إليه الناس، ولو اكتفى الناس بمنهج النبي ﷺ وصحابته لما انجرفوا خلف تلك التفريعات التي لم تفد الدين ولا أهله.

• منهج التَّلقِّي:

لقد كان منهج التلقي عند النبي ﷺ وصحابته واضحا لا ينافي الحنيفية السمحة، فكان يتلقى - عليه الصلاة والسلام - هو وأصحابه المنهج الرباني بروح عملية بعيدة عن الجدل وترف الفكر التنظيري، يتفاعل مع الخطاب أمرًا أو نهيًا استجابة وتمثلاً.. سواء كان ذلك الأمر في الجوانب الفقهية العملية أو في الجوانب العقدية.

وانظر زمن النبي ﷺ عندما نزل قوله تعالى: ﴿**قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا**﴾[٤] عندما نزلت آيات سورة البقرة في تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى الكعبة في البيت الحرام، هل عقد المسلمون مؤتمرًا حزبيًا أو فكريًا لتناول سبل تنفيذ هذا التعميم الرباني، وهل داروا في طرقات المدينة ومجالسها للاطلاع على أفضل السبل ومتى وأين يطبق قرار تحويل القبلة، كان يمكن أن يحدث هذا في زماننا المليء بالمتشدقين والمتفيهقين.

ولكن في زمن النبي ﷺ المسألة والتلقي للتنفيذ، فما إن وصل الخبر في أطراف المدينة عن تحويل القبلة إلى مكة المكرمة، حتى استدار المسلمون وهم في صلاتهم إلى جهة مكة، فصلوا أول ركعتين من الصلاة تجاه الأقصى، وثاني ركعتين تجاه

---

(١) انظر: البخاري (٣٩)، وأحمد (١/ ٢٣٦) بلفظ: «**أحب الدين إلى اللهِ الحنيفية السَّمحة**».

(٢) البخاري في الإيمان (٣٩)، والنسائي (٥٠٣٤).

(٣) البخاري (٦٩)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٢).

(٤) البقرة: ١٤٤.

مكة، فكان هـٰذا هو سبب تسمية المسجد هناك بمسجد القبلتين.

ولا نريد الاستطراد في قصص تحريم الخمر ونزول آيات الحجاب فذلك معلوم للعامة، فعندما أمر رسول الله ﷺ مناديا ينادي: «**ألا إن الخمر حرمت**»[١] حتىٰ أهرقها المسلمون وجرت في سكك المدينة، وكيف ابتدرت أمهات ونساء المسلمين إلىٰ القماش وجعلن منه حجابًا مباشرة عندما نزلت آية الحجاب، ولم ينتظرن حتىٰ يخيط لهن الخياط الحجاب بموديلات معينة أو بألوان تتناسب مع ملابسهن، أو انتظرن حتىٰ يصبح الجو لطيفًا للبس الحجاب، فهـٰذا منهج التلقي واضح لا لبس فيه، أساسه التسليم والقبول والامتثال.

وفي جوانب العقيدة عندما يقول النبي ﷺ: «**لقد ضحك الله البارحة من صنيع فلان**»[٢]، فيتفاعل الصحابة تفاعلاً سلوكيا عمليا مع التصريح النبوي بعيداً عن جدلية اللفظ النبوي الكريم، وقالوا: لن نعدم خيراً من رب يضحك، فعندما كان الصحابة مع نبيهم ﷺ بهـٰذه الصورة من التفاعل السهل المباشر الواضح مع الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، سادوا الدنيا وأخضعوا العالم لمنطقهم العملي المباشر، وسقطت جاهلية قريش وهيمنتها، وعلىٰ نفس هـٰذا المنهج سار من بعدهم التابعون والعلماء الكبار كأمثال «مالك، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل».

وما أورد الأمة موارد الهلاك إلا هـٰذه السفسطة في الكلام والتقعر في الفهم والتعبير، ومحاولة التميز والتجديد التي لا تبنىٰ علىٰ فهم سليم، فحصلت حادثة الردة التي بنيت علىٰ فهم سقيم لأحقية الزكاة، وحادثة المحنة بخلق القرآن بسبب تلاعب أهل الكلام والفلسفة بالمفاهيم والمصطلحات والبحث فيما لا طائل وراءه.

وقد فهم علماؤنا الكبار هـٰذه المعادلة، وتعاملوا معها بحزم، فعندما جاء رجل

(١) البخاري (٥٥٨٤)، ومسلم (١٩٨٠).
(٢) البخاري (٣٧٩٨)، وأبو يعلىٰ (٦٠٦٥)، والبيهقي في الكبرىٰ (٤/ ١٨٥).

إلىٰ الإمام مالك بن أنس في المدينة المنورة وسأله قائلاً: الله سبحانه وتعالىٰ يقول: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾(١)، فكيف استوىٰ، فما كان من الإمام مالك إلا أن انتفض من مكانه، وتغير لون وجهه، وظهر الغضب عليه وأظهر درر كلامه قاطعًا منهج الجدل السقيم وراجعًا إلىٰ الأصول فقال: «الاستواء معلوم (معلوم عند أهل اللغة من العرب بالسليقة) والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»، ثم قال للرجل: «اذهب فإنك امرؤ سوء»، وفي رواية: «أمر بضربه بالجريد»؛ لأنه يريد أن يغير المنهج الأصيل في التعامل مع الكتاب والسنة.

• عودة إلى الأصول:

وبعد أن غرق المسلمون في التفكير التفريعي ما بين المختصرات والمعتصرات والشروح، شهد العالم الإسلامي وفي ظروف مشابهة لعصرنا اليوم من حيث تكالب القوىٰ الخارجية ممثلة بالتتار والقوىٰ الداخلية ممثلة بالمبتدعة والزنادقة والملاحدة، شهد العالم الإسلامي ظهور رموز فكرية أعادت الأصالة إلىٰ التفكير في الأصول، فوجدنا شيخ الإسلام ابن تيمية يرفع الراية من جديد في مجموع فتاويه التي تعبر عن تفكير أصيل وعودة إلىٰ إزالة تراكمات الأسلوب الفلسفي والجدلي الذي ران علىٰ علوم الإسلام.

وقد دخل ابن تيمية في سبيل ذلك معارك فكرية لا تُعَدّ ولا تُحصىٰ قضىٰ بسببها قدراً محترماً من عمره في السجون بسب آرائه التي لم يستطيعوا أن ينالوا من أصالتها شيئا في كل مناظرة يعقدونها له؛ ولأن فكر ابن تيمية تعلق بالأصول والنظرات الكلية مع التزام بمنهج الكتاب والسنة، فقد بقي فكره منارة في الطريق لكل سالك دربه من بعده، بينما اختفىٰ خصومه ولم يتبقَ من علومهم وفكرهم ما يعتد به أو يعتمد عليه.

وقد جاء من بعده تلميذه النابغة ابن قيم الجوزية، ولمن يريد أن يعرف قيمة هٰذا العالم عليه أن يراجع كتابه الفريد «إعلام الموقعين» وينظر إلىٰ المنهج الأصولي في

(١) طه: ٥.

التفكير، وانظروا إلىٰ روعة الشاطبي في الموافقات والمقاصد، فقد أكدوا علىٰ الأصول في التفكير ولم يغرقوا في التفكير التفريعي.

ثم بدأت الأمور من بعد هـٰذه الرموز تضمحل مرة أخرىٰ نحو التفريع والطلاسم، وظل الضعف يتوالىٰ حتىٰ أصبح منصب الإفتاء منصبًا وظيفيًا بحتًا في أواخر الدولة العثمانية إذا استثنينا بعض الرموز العلمية في ذلك الوقت. وهكذا ظل التراجع مستمرًا حتىٰ أفاق المسلمون علىٰ كارثة سقوط الخلافة الإسلامية، حيث أصبحوا للمرة الأولىٰ بعد أكثر من ألف سنة ومنذ العهد النبوي بلا خليفة يجمع أمر المسلمين، مما استدعىٰ الانتباه إلىٰ ضرورة العودة إلىٰ التفكير الأصولي الكلي.

فخرج أئمة كبار يتعاملون مع كليات هـٰذا الدين مثل: الإمام محمد عبده، والإمام محمد رشيد رضا، وحركة السنوسيين ومن بعدهم، ثم الإمام حسن البنا، والمفكر الأديب سيد قطب، والمودودي ومن أتىٰ من بعدهم من رموز رحمهم الله جميعًا، لكن هـٰذا النفس في التكفير الأصولي الكلي مهدد اليوم بالتراجع والاضمحلال في الحركة الإسلامية من خلال العودة إلىٰ فكر المختصرات والمعتصرات وإعادة إنتاج نفس العلوم بأساليب الاختصار والاستطالة مع تعامل نصي حرفي شديد التفريع لا تنجو معه أي محاولة للعمل بالمقاصد من اتهام جاهز بالتبديع والتحريف والخروج عن منهج أهل السنة والجماعة الذي يفهمه البعض علىٰ أنه قوالب جامدة ويل لمن خرج عنها حتىٰ لو أيده الدليل والحجة والمنطق.

وهـٰذا التفكير التفريعي هو الذي ألقىٰ اليوم بظلاله علىٰ حركة التأليف الإسلامي، حيث تراجع بشكل واضح إنتاج الفكر الإسلامي الذي يملأ العقول ويدعوها للتأمل والتفكير، واقتصرت المسألة علىٰ إعادة إنتاج كتب التراث شرحا واختصارا.

انظروا إلىٰ لفظ كلفظ «الجاهلية» حيث ألفت فيه كتب وهدمت فيه مبادئ وطعن بأصول هـٰذا الدين من خلال كتب ألفت هنا وهناك، وحدث فيه اتهام للنوايا وتبديع وتفسيق وتحميل للألفاظ ما لا تحتمل، بينما لو نظرنا كيف تعامل سلفنا مع هـٰذا

اللفظ لأدركنا التعامل السلوكي المباشر السهل الواضح، فعندما كان الصحابة في غزوة مع النبي ﷺ فاحتك رجل من المهاجرين مع رجل من الأنصار فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال رسول الله ﷺ: «**ما بال دعوى الجاهلية**»، ثم قال: «**دعوها فإنها منتنة**»(١).

فكان التعامل السلوكي المباشر لا في مصطلح الجاهلية ولا المراد به وغير ذلك من الشطحات التي لا تفيد الدعوة شيئًا، وكان التعامل مع الصحابة بعد كلمة النبي مباشراً وراقيًا، فقد ألقوا السلاح وتعانقوا وتغافروا ورجعوا أخوة في دين الله.

• نيو لوك للحركة الإسلامية:

نقول هٰذا الكلام حتىٰ تعود الحركة الإسلامية إلىٰ منهج التفكير الاستراتيجي، والبعد عن الصغائر والاختلافات علىٰ توافه الأمور، بينما الأعداء يسنون أسنانهم ويستهدفون الأمة، يعينهم في ذلك اضمحلال الفكر الاستراتيجي في الحركة الإسلامية حتىٰ أغرىٰ ذلك التفكير الغربي بإيجاد حركة إسلامية بمواصفات خاصة و«**نيو لوك**» يتطابق مع مفهوم الإسلام الذي يريدونه والذي يقترب من مسطرة المفكر الأمريكي دانييل بايبس.

ولو عدنا بالذاكرة قليلاً إلىٰ الوراء لرأينا كيف كانت الهجمة شرسة علىٰ نجم الدين أربكان وخاصة بعد اتخاذه إجراءات اعتبرها الغرب خطرة علىٰ مصالحه، مثل التفكير في سوق إسلامية مشتركة جمع لها الدول الكبار في العالم الإسلامي كإندونيسيا ومصر وتركيا ونيجيريا، وخاضوا ضده حربًا سياسية وضغوطات دبلوماسية انتهت بتدخل العسكر وإزاحته عن السلطة، بينما التجربة اختلفت مع أردوجان؛ لأنه قدم مفهومًا جديداً للإسلام يقترب من المفهوم الغربي ويبتعد عن المفهوم الراديكالي، فوصلت رسالة غربية واضحة وقوية للعسكر في تركيا بترك أردوجان؛ ليثبت تجربته ويطورها، وهم في انتظار أن يصل بمواصفات المفاهيم

(١) البخاري في التفسير (٤٩٠٥)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٤).

الإسلامية إلىٰ مسطرة المواصفات التي يريدونها في فهم المسلمين للإسلام.

تجربة أخرىٰ لا تقل إثارة عن تجربة أردوجان، هي تجربة حزب الوسط الإسلامي بمصر، ففي يوم من الأيام كان الأخ أبو العلا ماضي من المجموعة القيادية الشبابية في تيار الإخوان المسلمين، ومن خلال معرفتي به فهو يملك مؤهلات ومهارات قيادية كثيرة لا شك فيها، وربما له قراءة مغايرة عن قيادة الإخوان حاول تحويلها إلىٰ تجربة مغايرة يبتعد فيها عن نظرية الإسلام الراديكالي ويقدم إسلامًا وسطيًا ربما لا يثير السلطة، ولا يقلق الغرب، وأخذ ينتقد بمرارة شديدة حركة الإخوان وسياستهم في مختلف وسائل الإعلام، وما حزب الوسط إلا محاولة للخروج من العلاقة التاريخية المتأزمة بين الإخوان والسلطة في مصر، ونحن هنا لا نصوب أو نخطئ أي تجربة أو فكرة، بل فقط نقدم وصفًا لما يحدث ضمن إطاره العام وتفكيره الاستراتيجي ارتباطًا مع المعطيات الإقليمية والدولية الحالية.

إذن، الولايات المتحدة الأمريكية تبحث الآن في كل الدول العربية والإسلامية عن حركة إسلامية «**نيو لوك**» تلبي المفهوم الأمريكي لإسلام روحي خالٍ من أبعاد الولاء والبراء والامتداد النفسي والفكري وفكرة الكيان الواحد بين المسلمين، إنهم يبحثون عن إسلام يلبي مسطرة المواصفات الأمريكية ومن ثم مسطرة مواصفات دانييل بايبس، حتىٰ تتحول الحركة الإسلامية في النهاية إلىٰ نشاط اجتماعي مقبول ضمن مجتمع مدني علماني يقتصر دورها علىٰ الرعاية الروحية للمسلمين وحل قضاياهم الاجتماعية مع بعض الأنشطة اللطيفة لأطفال المسلمين في معاني التسامح والاعتدال بين أمم الأرض.

ولا نحتاج إلىٰ عناء كبير لنقرر أن الولايات المتحدة لن تتعب كثيراً في الحصول علىٰ مبتغاها، وسيكون المتقدمون لشغل منصب الحركة الإسلامية بالمواصفات المهذبة الجديدة كثيرين، بل وكثيرون جداً، الأمر الذي سيدفع الولايات المتحدة إلىٰ الاختيار والتفاضل علىٰ من سيقع عليه الاختيار لتولّي الوكالة الأمريكية لتمثيل الحركة الإسلامية.

وهـٰذا الذي نقوله ليس من ضرب الخيال؛ لأن الضعف المنهجي لدىٰ بعض التيارات والرموز الإسلامية أصبح في غاية الوضوح، والرغبة في السيادة جامحة، ولدينا في الخليج عينات كثيرة من هـٰذه النوعية، لا داعي لذكر الأسماء رفعًا للحرج.

هناك أحلام لدىٰ بعض الرموز لتجديد عقود الخمسينيات والستينيات الثورية ولكن بلباس إسلامي يناسب جماهيرية المرحلة، ويلقىٰ قبولاً دوليًا. وستكون مواصفات هـٰذه الحركة بين الحركات الإسلامية أشبه بمواصفات الطائفة القاديانية بين طوائف المسلمين.

نحن الآن لعلنا في مرحلة تصفيات بين المتنافسين علىٰ لقب القبول الأمريكي لحركة إسلامية تتبنىٰ المفهوم الأمريكي للإسلام وتقدمه لجماهير الأمة علىٰ أنه الإسلام المستنير، الذي يمكن أن تؤم المسلمين فيه امرأة لخطبة وصلاة الجمعة، فتغفر لهم خطاياهم، وتتلو عليهم القرآن، بينما المصلون مبتهجون بتأنيث خطبة الجمعة، حيث يحصلون علىٰ بعض النعومة والطراوة في كل أسبوع بدلاً من الأئمة الملتحين الغاضبين الذين يملؤون المساجد صراخًا وعويلاً ويدعون علىٰ الظلمة والكفار وأعداء الأمة.

• متىٰ نقول: لا؟

لقد نقل لي أحد الأصدقاء رواية حدثت مع شخصية تعاملت مع تجار الصين، فسألهم: حتىٰ متىٰ تقولون: نعم لأمريكا؟ فأجاب التجار الصينيون: سنظل نقول: نعم لأمريكا العشرين سنة القادمة حتىٰ بعدها نستطيع أن نقول لهم: لا.

هـٰذه هي إجابة تجار الدولة التي تتجاوز عدد سكانها المليار نسمة، وتمتلك إمكانات صناعية ضخمة تغطي بها العالم وتغرقه في صناعات وسلع لها بداية وليس لها نهاية، فإذا كانت هـٰذه هي إجابة الصين، فمتىٰ نستطيع أن نقول: لا، بعد مائة سنة، وفي الخليج بعد مائتي عام مثلاً، طبعًا ذلك حسب مقاييس القوىٰ البشرية،

لكن متىٰ نستطيع أن نقول: لا في الحال؟

هـٰذا سؤال إذا خلت الإجابة عليه من كلمة تضحية تصبح الإجابة مستحيلة، لكنها ليست مستحيلة علىٰ صادقي العزم والإيمان، فعندما كانت المناذرة والغساسنة علىٰ أطراف الجزيرة يقولون: نعم مذلة للقوىٰ العالمية في تلك الفترة الروم والفرس، ظن أهل الجزيرة أنه من الصعوبة أن يقول أحد: لا لتلك القوىٰ، حتىٰ جاء الإسلام بما أذهل المؤرخين، فوجدنا ثلاثة آلاف مسلم يقاتلون مائتي ألف من الروم. وانظر إلىٰ انتصارات الأمة في حروب الردة وفي فتوحات العراق وفارس والشام.

فالتاريخ لا يكذب، ولكنه يحتاج إلىٰ رجال يفهمون العقل والمنطق والواقع، ولكنهم قبل ذلك يفهمون حجم القوة التي يمكن أن يمتلكوها إذا أحسنوا الاتصال بالله الواحد القهار القوي المانع... ولكن أين الرجال الذين يستوعبون هـٰذه المعادلة؟



ثبت المراجع

* **القرآن الكريم.**

** **الكتب المعتمدة في تخريج الأحاديث.**

١ - **الموافقات**، للشاطبي.

٢ - **المغني**، لابن قدامة.

٣ - **مجموعة الرسائل**، لحسن البنا.

٤ - **مجموع الفتاوى**، لابن تيمية.

٥ - **مقدمة ابن خلدون.**

٦ - **المعجم الوسيط.**

٧ - **إعلام الموقعين**، لابن القيم.

٨ - **الطاغية - دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي**، د. إمام عبد الفتاح.

٩ - **الغزو - الأسباب الموضوعية والمبررات والأيديولوجية**، د. تركي الحمد.

١٠ - **البيان والتبيين**، للجاحظ.

١١ - **التعريفات**، للجرجاني.

١٢ - **أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي**، للراشد.

المحتويات

الموضوع — الصف

الموضوع الصف



يحق للقارئ الكريم أن يسأل عن
معنى ومرمى عنوان الكتاب (حتى لا نُغْبَنَ).

ولكن إذا أمعنا النظر في أحوال أمتنا سنجد أن
الروابض تتحين الفرص للوثوب على ما بقي من
عُرى الإسلام التي ورد أنها ستنقض عروة عروة .
وعليه جاء هذا السفر الذي يجمع بين دفتيه مقالات
متعددة في محاولة لرأب الصدع القائم في مسيرة
فكر أمتنا وسلوكها الذي يدنو بها طورا نحو
الاستقامة وأطواراً أخرى نحو الغبن .

المؤلف



مؤسسة السماحة للطباعة والنشر والتوزيع
الكويت - المنطقة التجارية رقم ٩ بلوك ١ مكتب ١٢.
E-mail: alsamaha_laib@gmail.com